

الفرق بين  
حبي

تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصادق

انتشارات فرهنگ اسلام



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الفرقان  
في  
تفسير القرآن  
بالحق والسنة

محمد الصادق

منشورات  
مؤسسة الأمل للطبوعات  
بيروت - لبنان  
ص.ب. ٧١٢٠





حقوق الطبع محفوظة للمؤلف  
مركز تحقيقات كتابخانه و اسناد  
۱۳۹۸ هـ - ۱۹۷۸ م

﴿ سورة الاحقاف - مكية - وآياتها خمس وثلاثون ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم - ١ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ  
مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ - ٢ . مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ  
وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا  
مُعْرِضُونَ - ٣ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي  
مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَتُنْثَوِي  
بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - ٤ .  
وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى  
يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ - ٥ . وَإِذَا نُحِشِرَ  
النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ - ٦ .  
وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا  
جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ - ٧ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ  
افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا

تَفِضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَيْدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ  
الرَّحِيمُ — ٨ . قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي  
مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا  
أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ — ٩ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ  
وَكُفْرُتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ  
وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ — ١٠ . وَقَالَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ  
وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ — ١١ . وَمِنْ  
قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا  
عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ — ١٢ .  
إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ  
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ — ١٣ . أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ  
فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ — ١٤ .

## « حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم »

« حم » . . هذه وسائر مفاتيح السور التي افتتحت بأمثالها من حروف مقطعة ، إنها رموز غيبية بين الله ورسوله ، وهي مفاتيح كنوز القرآن ، لا نعلم منها شيئاً إلا ما قد يلوح من القرآن ، أو ما أبداه لنا الذين بأيديهم هذه المفاتيح من الراسخين في علوم القرآن ، الموجهة إليهم خطابات الرسالية : أصلياً كالرسول وفرعياً كالآئمة من آل الرسول (١) .

و « حم » هذه ، تتقدمها حواميم ست ، إلا الشورى الزائدة على الحرفين « عسق » وما هو رمز تتابع هذه الحواميم السبع وكلها مككية (٢) ؟ الله أعلم ! فهذا رمز فوق هذه الرموز لا سبيل لنا إلى الاطلاع عليها إلا أن يطلعنا الله بالقرآن نفسه ، أو بأصحابها ، وقد يروى عن الرسول ( ص ) قوله : « الحواميم تاج القرآن » (٣) .

وكما يوحى تتابع ذكر الكتاب أيضاً بعد « حم » في هذه السبع ، إن رمزه يناسب القرآن كله ، إنزالاً وتنزيلًا ، بيننا وبيننا (٤) ، وكما يعقبها ذكر من كتاب التكوين ، إحياء بتجاوب الكتابين وتلاثها ، كما هما مع الحواميم .

(١) تبعد البحث المفصل عن هذه الرموز وما قيل أو يحق أن يقال فيها ، في مواضيع أخرى في هذا التفسير لا سيما سورة البقرة .

(٢) المؤمن - السجدة - الشورى - الزخرف - الدخان - الجاثية - الاحقاف .

(٣) الجمع عن انس بن مالك عن النبي (ص) .

(٤) ففي الاحقاف هنا وفي الزمر بعد السبع « تنزيل من الله العزيز الحكيم » وفي السجدة ( تنزيل من الرحمان الرحيم ) وفي المؤمن ( تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ) وهذه ناضرة الى النزول التدريجي وكما في الشورى ( كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ) والزخرف ( والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ) ثم الدخان ينظر الى النزول الدفعي ( والكتاب المبين انا انزلناه في ليلة مباركة ) ثم الزخرف ( قرآنا عربيا ) ناظرة الى انه بيان ، والدخان ( والكتاب المبين ) الى انه مبين ، فهذه السور هي على دعائم كون الكتاب بيانا ومبيناً ومنزلاً ومنزلاً .

وقد تعني « حم » في كلِّ غير ما تعنيه في سواها مع اشتراكها في مغزى شامل أم ماذا ؟ اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العزيز الحكيم :

هنا نلمس العلاقة الحكيمة بين الكتاب المنزل تشريعاً ، والكتاب المبدع تكويناً ، والكتابان معروضان على البصائر والأبصار ، يتجاوبان في تفسير بعضهما البعض ، ولأنهما معاً من عند الله العزيز الحكيم ؛ كما نرى أن كتاب التدوين يأمر بالنظر إلى كتاب التكوين ، ومن ثم التكوين يصدق التدوين التشريع دون تفاوت واختلاف .

ثم « حم » قد تكون مبتدأً خبره تنزيل الكتاب أو إنزاله ، فهي إذاً رمز شامل للكتاب جملة وتفصيلاً ، أو أن المبتدأ تنزيل الكتاب وخبره من الله العزيز الحكيم ، و « حم » غير داخلة في نطاق التركيب الجلي كما هي خارجة عن العموم الدلالي . وكما الله تعالى بحكمته وعزته أحكم الكتاب إنزالاً له في ليلة مباركة ، كذلك بعزته وحكمته نزله طوال ثلاث وعشرين سنة ، فهو كتاب يحمل عزته تعالى وحكمته : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ( ٤١ : ٤٢ ) « ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم » ( ٣ : ٥٨ ) « تلك آيات الكتاب الحكيم » ( ١٠ : ١ ) وكذلك الله في خلق الأرض والسموات :

« ما خلقنا السماوات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون » .

ما خلقنا . . إلا « ملابساً بالحق » واقعاً ، ومستقبلاً هو « وأجل مسمى » وخال ان : « الذين كفروا عما أنذروا » من تخلفات في الحياة الدنيا ، ومن خلفياتها المقدمات للأخرى « معرضون » : إعراضاً عقيدياً للنشأتين وأيضاً عملياً في الأولى .

فلو لم تكن للسموات والأرض نهاية وقيامه لكان خلقها عبثاً وباطلاً : « وما

خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» (٣٨ : ٢٧) كان باطلاً بما فيه من تسوية بين المتقين والفجار : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ( ٢٨ ) . . وهذه لعبة جاهلة وهوة باطلة ان يخلق هذا الكون الشاسع دونما حساب : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهم آياتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون » ( ٢١ : ١٨ ) « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناها إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » ( ٤٤ : ٤٠ ) .

إن السماوات والأرض هنا وهناك تعني الكون كله ، فله أجل مسمى عند الله وساعة معلومة لا يجليها لوقتها إلا هو .

« قل أرايتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات إئتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » .

« قل » للذين كفروا ، المعرضين عما أُنذروا « أرايتم » : أبصرتهم وعرفتكم « ما تدعون من دون الله » كأنهم آلهة إلا الله ، فلو أنهم آلهة في رأيكم فليكونوا خالقين كما الله فـ « أروني ماذا خلقوا من الأرض » فقط غمضاً عن السماوات . فإذا لخلق لهم في الأرض فكيف بالسماوات ؟ « أم لهم شرك » مع الله « في السماوات » ؟ وليس في الأرض وهو أهون ، فإذا لا تجدون لهم خلقاً في الأرض أو شركاً في السماوات ، ولعلته خفي عنكم فـ « إئتوني بكتاب من قبل هذا » : الكتاب الأخير المهيمن على ما قبله من كتاب ، يدل على هذا الشرك بلسان الوحي « أو » - ولا أقل - « أثارة من علم » : بقية منه تروى وتؤثر ، أو علامة منه عليها أثر من علم ، علم مسنود إلى حس أو نقل أو عقل أو



أي كان، ما كان من علم، أو أثرة منه آثركم الله به فانتوني.. إن كنتم صادقين :  
أن لما تدعون شرك في الأرض أو السماوات ولئن سألتهم من خلق السماوات  
والأرض « من خلقهم » ليقولن الله : « ليقولن خلقهن العزيز العليم »  
« فأنى يؤفكون »<sup>(١)</sup>

وهذه الأدلة المطلوبة لإثبات ما يزعمون ، بدءاً من الحسية وختاماً لأثارة من  
علم ، يتوسطها كتاب من الله الشامل لكل دليل ، إنها فقط هي التي يمكن  
الحجاج بها لإثبات ما يبرام ، واذ لا يجدون منها أثراً أو أثارة فأنسى يؤفكون !.

« كتاب أو اثارة من علم » ؟ :

هنا الثقلان : الكتاب - والسنة : العبرة - يحصران الأدلة في أنفسهما :  
كتاب وحي ، أو اثارة من علم منه ، والأثارة كما سبق هي البقية من علم ،  
التي عليها اثر العلم ، بقية ذات علامة قروى وتؤثر عن مصدر العلم : الكتاب ،  
فانما هو الكتاب ، المحور الأول والاخير لإثبات الحق المرام ، اذ يجمع أدلة  
الحس والعقل والعلم بوحى خالص يخطئ أخطاءها : ويزيد في أضواءها ،  
ويزودها بعلم الله الذي لا نقص فيه ولا خطأ .

لذلك ان الأدلة الحسية المسبقة قبل الكتاب لا تتكرر هنا ، لانها مطوية  
في الكتاب . وما أحسنه وأجمله تفسيراً لأثارة من علم ما يروى عن الرسول  
(ص) انه ، « حسن خط »<sup>(٢)</sup> وما الخط الا تعبيراً عن الواقع ، وما حسنه  
وجماله الا فيما يحمل من معنى قبل زبره وصورته ، وانه فقط حجة علامة العلم  
الكتاب وأثره ، مهما لم يصل الى درجة العلم .

فالعلم المستفاد من كتاب الوحي هو الأساس ، ثم أثارة منه ، تحمل علامة

(١) ( ٣١ : ٢٥ و ٤٣ : ٨٧ : ٤٣ و ٨٧ : ٤٣ و ٨٧ : ٨٧ ) .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٣٨ - اخرج ابن مردويه عن ابي سعيد عن النبي في الاثارة .

العلم ، ويحملها اولوا العلم ، فكما ان متن الأثرية يُطَمَّن بلائمة الكتاب ، كذلك سندها الناقل لها يُطَمَّن ، ومرافقة المتن هي اهم عند اولي العلم ، والحاجة الى السند لغيرهم في الاكثر ، والجمع امتن وأمكن لاثبات العلم .

فاذ يقول الرسول ( ص ) « اني تارك فيكم الثقيلين كتاب الله وسنتي - مرة - وعترتي - اخرى ، فهو ينظر الى أثارة العلم من زاويتين : المتن ( سنتي ) والسند ( عترتي ) فالعتره هم السنة المحمدية القاطعة التي لا ريب فيها ، لانهم يحملونها دون جهل او غفلة او خطأ ، فما تسمعه منهم سليماً دون تقية فهو علم او اثارة قطعية من علم ، وما يؤثر لك من غيرهم عنهم او عن النبي ( ص ) فلا حجة فيه الا اذا كانت أثارة من علم الكتاب ، تحمل اثر الكتاب حيث يتصادقان . وهنا يأتي دور المروي متواتراً عن النبي ( ص ) « ما وافق كتاب الله او سنتي فخذوه وما خالف كتاب الله او سنتي فاتركوه » (١) فان السنة هنا هي القاطعة ، مسموعة عنه ( ص ) او مأثورة عن أهل بيته المعصومين ، فالذي يعرض على الكتاب والسنة هي الأثارة : المأثور غير القاطع ، فلو حملت علامة العلم بما وافقت الكتاب أو السنة القاطعة ، فهي أثارة من علم ، وإلا فهي أثارة لا من علم ، مهما كان ظناً او سواه « ان الظن لا يغني من الحق شيئاً » .

وبما أن الأثارة من الأثارة فقد تعني فيما عنت أثارة من علم : أن أثرهم الله بشيء من علم لم يوح الى نبي في كتاب او سواه ، ولم يلهم الى عقل ! :

« فأتوني بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم » : بقية تحمل اثر من علم الكتاب كدليل حيث لا دليل ، او ما أثركم الله به من علم يفوق كل دليل ، « اتوني ان كنتم صادقين » ! .

(١) ومن أهمها ما رواه الفريقان عن النبي « ص » انه قد كثرت على الكذابين وستكثر فمن كذب علي متعمداً فليتبئ مقعده من النار ، فما جاءكم من حديث يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاءكم من حديث يخالف كتاب الله فلم أقله .

فيا لله عطفاً بهؤلاء المحاقى الجهال ان يطالبهم بدليل على ما يدعون ، وإبت  
كان أثرة كما قد يزعمون ، وأنى لهم ان يأتوا به إلا أهواء وظنوناً عليها  
يمكفون !

ترى وما هو موقف « من » في « من علم » ؟ علماً جنسية تعني كون الأثارة  
من جنس العلم : عالياً كالأثرة ، او نازلاً كما تحمل علامة منه ، او نشوية تعني  
كون الأثارة البقية صادرة عن مصدر العلم ، اثارة كائنة من علم ، صادرة عن علم ،  
وعليهما هنا معنيان وما اجمل جمعهما واكمله ! وما أحسن الأثارة التي هي علم  
وتحمل علامة العلم ، دليلاً ثانياً بعسد الكتاب ؟ ! فالظن غير المسنود الى علم ،  
الذي لا يحمل علامة العلم ، إنه لا يغني من الحق شيئاً<sup>(١)</sup> .

ومن ثم اخيراً وبصيغة اخرى « اثارة من علم » قد تعني فيما تعني شيئاً  
يستخرج من العلم بالكشف والبحث والطلب والفحص فتشور حقيقته ، وتظهر  
خبثيته ، كما تستثار الارض بالمحافر فيخرج نباتها وتظهر نثائنها ، او كما يستثار  
القنص من مجائمه ويستطلع من مكانته .

ثم اذ لا شرك لها في الخلق ، فلا شرك إذاً في التقدير والتدبير ولا العبادة  
- واحرى - ! فأنى تصرفون : !

« ومن أضل ممن يدعو من دون الله من يستجيب له الى يوم القيامة وهم  
عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم اعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .  
اللهم إنه لا أضل منهم ، فالمدعو في مثلث الخيبة لهم منذ الدنيا ليوم الدين ،  
اثنان يوم الدنيا : « من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعاءهم غافلون »  
وواحد يوم الدين يحمل استجابة عليهم واستجاشة لشعورهم بأشد تأنيب : « وإذا  
حشر الناس كانوا لهم اعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

(١) راجع سورة النجم ، تفسير الآية ( وان الظن لا يغني من الحق شيئاً ) .

وترى كيف تنسب الغفلة الى الأصنام يوم الدين وهي من حالات ذوي الشعور ، واكثر منها عداها وكفرها بعبادتهم ؟ يوم الدين ! .

اقول : هذه مما تلمح بشعور غير ذوي الشعور - عندنا - يوم الدين ، كآيات اخرى في مغزاها ، كما وتصرح كأنها تصبح من ذوي العقول يوم الاخرى ، فاذا كانت غافلة في الاولى من عبادتها ، فهي تعاديه بعبادتهم لها وتكفر بها في الاخرى : « ويوم القيامة يكفرون بشرككم » ( ٢٥ : ١٤ ) « تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون » ( ٢٨ : ٦٣ ) وانما اهواءهم كانوا يعبدون . « فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم أن كنا عن عبادتكم لغافلين » ( ١٠ : ٢٩ ) .

وكما ترجع اليهم ضمائر العقلاء : « من لا يستجيب له .. هم عن دعائهم غافلون .. كانوا بعبادتهم كافرين » !

فيوم الدين تحدّ الأبصار أكثر مما كانت يوم الدنيا وكما الناس مع سواهم على سواء : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد » .

وطبعاً هذه الغفلة ليست من المعبودين ذوي العقول ، فان الصالحين منهم كالملائكة والنبيين عارفون ومعارضون ما عاشوا ، والطالحين منهم كالطواغيت هم داعون الى انفسهم : « لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين » ( ٢٩ : ٢٦ ) فما هم إذا عن دعاءهم غافلين ، وانما غير ذوي العقول هي الغافلة عن عبادتها ، ثم هي واياهم يتشاركون في عداوتهم ونكران شركهم وحتى الشيطان : « وقال الشيطان .. اني كفرت بما اشركتمون من قبل » ( ١٤ : ٢٢ ) ! .

وترى ان كفر المعبودين بشركهم يعني انهم ما عبدوهم ؟ وقد عبدوا وعقلاءهم عارفون ! كما الشيطان يكفر بما اشركوه من قبل ؟ او أن ذلك النكران من غير العقلاء : « فزيلنا بينهم وقال شركاءهم ما كنتم ايانا تعبدون »

( ١٠ : ٢٨ ) او ان زوال الغشاوات والغباوات بينهم وبين لهم انهم اخطئوا فيما كانوا يعبدون ، فقد عبدوهم زعم انهم شفعاء وما هم بشفعاء ، او انهم وكلاء وما هم بوكلاء ، او انهم بدلاء ام ماذا من شؤون الالهية وما لهم شأن من هذا وذاك فلما زيل الله بينهم يوم الدين علموا انهم ما كانوا يعبدون الا أسماء لا تحمل معاني كانوا ييغون ، فيصدق للقول « ما كنتم ايانا تعبدون » وكذا القول « اني كفرت بما أشركتمون » نكرانا لأصل العبادة وتنديداً بما كانوا يعبدون . ظلمات بعضها فوق بعض !.

ترى ولماذا « لا يستجيب لهم الى يوم القيامة » وهم فيه أيضاً لا يستجيبون؟ علته لان الاستجابة المقصودة ، ليست إلا للحياة الدنيا وفيها ، إذ ينكرون الأخرى ، ولان يوم القيامة كالاستجابة فيه كذلك ليس سكوتاً بخلاف الاولى ، وانما استجابة ضدهم حين يتحاورون فيه كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين !.

مركز تحقيق کامپویر علوم اسلامی

وما أخذ له وآله المعادة بين العبد والمعبودات هناك ، خلاف ما كانوا يأملون أنهم لهم يستجيبون ، هيات هيات لما يأملون .

إنه يرجع التنديد الى المشرکين انفسهم انهم انما عبدوا اهواءهم ، وان كان طواغيتهم شركاءهم في العذاب بما كانوا يفعلون فسبحانه وتعالى عما يشركون . هكذا يوقفهم الله امام حقيقة دعواهم الباطل يوم الدين بالشهود اليقين ، بعدما اوقفهم امام الكون والادلة الكونية والعقلية والكتابية يوم الدنيا لتأتي عليهم حجة يوم الدين ، وهكذا يكون مثال كل عابد ومعبود من دون الله اصناماً وطواغيت ، مهما تصلبوا متعنتين خلاف الحق ولحد القول إنه سعر مبین .

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا

سحر مبين » .

أفسحر هذه لأنها خلاف ما يهون ، وهي آيات الكتاب المبين؟ آيات بينات دون ريبة ولا خفاء ، فبأي برهان إذا يستندون ، فما هي مقومات السحر؟ وما هي مقومات الآيات ؟ وهل توجد فيها إلا بينات قاطعات تشبع الحس والعقل والفكر والقلب نوراً وجلاء ، اللهم إلا من عميان القلوب ، فإنها لا لبس فيها ولا غموض ولا خداع ، فهي تزول والقرآن لا يزال ولا يزول ، والسحر يبطل بالآيات المعجزة والقرآن لا يبطل وإنما يبطل السحر وكافة الدعاوي الزور .

أم يقولون افتراء قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم »

إن دعوى افتراء القرآن كدعوى سحره فارغة لا تملك ولا شائبة برهان ، فلنفرض - رغم هذا - أنه مفترى ، فلماذا الله لا يحو باطل دعواه وهو بالمرصاد على من افتراه : « قل أن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون » ( ١١ : ٣٥ ) ومن خلفاته محوه والختم على قلبي : « أم يقولون افتري على الله كذباً فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور » ( ٤٢ : ٢٤ ) فهل أنا مختوم على قلبي والقرآن في زوال ؟ فلو ختم أو زال « فلا تملكون لي من الله شيئاً » فلماذا أفتري على الله واضطهد به لصالحكم ؟ ألا أنكم تملكون كشف الضر عني ، أم ماذا ؟ !

« هو أعلم بما تفيضون فيه » : خائضين في آيات الله « كفى به شهيداً بيني وبينكم » وشهادته تعالى على وحيه بارزة فيه ، دون شبهة تعتريه : « لكن الله يشهد بما أنزل عليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً » ( ٤ : ١٦٦ ) .

فالله شهيد بعلمه في كلامه بكلامه ، فهل إنه بعد مفترى ؟ ! « ام يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله » « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » ( ١٠ : ٣٨ - ١١ : ١٣ ) فهل انه بعد عيكم عن الإتيان مثله وشهادة الله لوجيه ، هل هو بعد سحر او مفترى ! .

فان افقتم عن غفوتكم ، ف « هو الغفور الرحيم » وان اصررتم على ضلالتكم - « فان عذابي هو العذاب الاليم » - .

ثم وليس هذا بدعاً تحارون فيه ، لا انا ولا كتابي ولا سنني ولا .. :  
« قل ما كنت بدعاً من الرسل وما ادري ما يفعل بي ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى إلي وما انا الا نذير مبين » .

آية وحيدة في صيغة التعبير ، دفاعاً عن هذا البشير النذير ، تستاصل آخر التهم المزعومة الموجهة اليه : انه بدع من الرسل واختلاق من الرسالة : « اجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشئ عجاب .. ما سمعت بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » ( ٣٨ : ٢ ) وي كأنهم ما قرعت آذانهم . دعوات التوحيد المتواصلة من رسل الله : « وما ارسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون » ( ٢١ : ٢٥ ) . اللهم إلا ان يعنوا من الملة الآخرة ذوي الغلة من الشرك والضلال ، حيث عاشوا جوهها الضال ، كأن لا ملة اخرى غيرهم ، فظلوا يعجبون من دعوة التوحيد بكل ضلال ودلال ! .

« قل ما كنت بدعاً من الرسل » : لا في رسالتي وكتابي ، ولا في سننتي ودعوتي ، ولا في اي من واجبات الرسالة او راجحاتها ، او محرماتها ومحظوراتها ، فأنا بشر رسول كمن قبلي ، لا ملك ولا إله ولا ابن الله ، ولا املك من الله شيئاً لحد :

(وما ادري ما يفعل بي ولا بكم) : وما يفعله بي ربي ولا سواه ، من خير أو

سواء ، اللهم الا وحيًا من الله : ( إن اتبع إلا ما يوحى إلي ) : وفي الكتاب أم سواء ، فكيفاني  
 كرسول وحي ليس إلا إياه ، وهو الغيب الذي يرتضيه الله لمن يرضاه : « عالم  
 الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول .. » ( ١١ ) ( ٧٢ : ٢٦ )  
 فليس هو كل الغيب ، وإنما ما تتطلبه الرسالة تثبيتاً وواقماً ، دون فوضى واشتهاء :  
 « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت  
 من الخير وما مenni السوء » ( ٧ : ١٨٨ ) « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله  
 ولا أعلم الغيب ولا أقول إن ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي » ( ٦ : ٥٠ ) « والله  
 غيب السماوات والأرض واليه يرجع الأمر كله » ( ١١ : ١٢٣ ) .

فالغيب المكشوف بالوحي الرسالي محدود بحدود الرسالة ، كما الغيب المستغرق  
 كافة الغيوب لله لا محدود باللامحدودية الإلهية ، والغيب المكشوف أحيانا للعباد  
 الصالحين أو المرتاضين خارج عن الحدين : الإلهي والرسالي ، فهو للصالحين حسب  
 درجاتهم وللمرتاضين كالمرتاضين حسب محاولاتهم ، ولين يكشفوا عن غيب الله  
 المخصوص به ، ولا غيب الوحي الخاص برسوله .

وليس استكثار الخير ودفع السوء ، اللذان لا يمتنان بصلة للحفاظ على الرسالة  
 وتبليغها ، إنها ليسا من الغيب المكشوف لرسول الله : « ولو كنت أعلم الغيب  
 لاستكثرت من الخير وما مenni السوء » وكما نرى أن الرسول والأئمة من آل  
 الرسول ﷺ كانوا يغلبون كما يغلبون ، وكانوا يُسممون أو يُقتلون كما كانوا يقتلون ،  
 فلو كانوا يعلمون مواقع السوء لم يسممهم ، ولو كانوا يعلمون مواضع الخير لاستكثروا  
 منه ، اللهم الا فيما عرفهم به الله وليس سنة شاملة لهم ، وإنما كفلتات فيها الحفاظ  
 على كراماتهم .

( ١ ) راجع سورة الجن ج/ ٢٩ من هذا التفسير تجد فيه تفصيلا عن علم الانبياء بالغيب نفيا

( الفرقان - ٢ )

وابنا .



وليس التطاول والتغالي في انهم يعلمون الغيب كله الا تهادياً في الضلال ،  
وتفاضياً عما تصرح به هذه الآيات البينات ، وإذ لا يتبع الرسول الا ما يوحى اليه ،  
فأحرى بنا ان نتبع بشأنه ما اوحى اليه ، ولقد اوحى في عشرات من آياته  
البيانات انه - مبدئياً - لا يعلم الغيب : « فلا يظهر على غيبه احداً الا من ارتضى  
من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم ان قد ابلفوا رسالات  
رهبهم واحاط بما لديهم واحصى كل شيء عدداً » : يعني من الغيب المستثنى  
الوحي الرسالي ولزاماته .

وكما انني لست بدعاً من الرسل بينهم ، كذلك لست بدعاً بين المرسل اليهم ،  
فأهل الكتاب الذين يتلونهم حق تلاوته يعرفونني وكتابي ، فلو ان الادلة المسبقة  
لم توصلكم الى العلم اليقين ، فلا اقل من الشك انه من عند الله ثم يكمله شهادة  
شاهد منكم :

« قل أرايتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل  
على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدي القوم الظالمين »

تري من هم المخاطبون في « أرايتم .. وكفرتم .. واستكبرتم » ؟ ومن هو  
الشاهد من بني اسرائيل ؟ وما هو المشهود عليه « على مثله » ؟ .

علّ المخاطبين هم كافة الناكرين للرسالة الاسلامية ، من مشركين وكتابيين ،  
زمن الرسول وبعده الى يوم الدين ، وان كان المنطلق الاول لهذا الخطاب كامثاله  
هم المعاصرين لصاحب الرسالة .

و « وشاهد من بني اسرائيل » علّ جنس الشاهد ، من جنود الشهود  
الاسرائيليين ، من نبيين وسائر المؤمنين الشاهدين ، قبل الرسول وزمنه والى يوم  
الدين : مثلث الشهادة الصادقة الصارمة ، من زاويته الاصلية : النبيين الاسرائيليين ،  
منذ موسى وحتى المسيح ومن بينهما (ع) اذ شهدوا في كتاباتهم « على مثله » :  
مثل القرآن ، كهذه الكتب أنفسها ، او مثل نبي القرآن كما يشهد به النبيون انفسهم ،

او مثل ما يشهد به الله في القرآن : « كفى به شهيداً بيني وبينكم » شهادات على المماثلة بين الشهادتين والكتب والنبين .

ومن زاويته الثانية زمن النبي ( ص ) كالبعض من أهل الكتاب الذين شهدوا على مثله في العهد المكي ، انطلاقاً من الايمان والزاوية الاصيلية . بما كان لها من موقعها القيم ووقعتها الصارمة في الوسط المكي العام ولأن السورة مكية . ومن شهد منهم في العهد المدني كرأس اليهود عبد الله السلام<sup>(١)</sup> ومكية السورة لا تنافي مدنية هذه الآية ، فكلم من مدنية اقحمت بين المكيات ، او مكى دخلت بين المدنيات . بأمر صاحب الرسالة منذ تأليف القرآن ، وكما تظافرت به وبذلك الروايات .

ومن زاويته الثالثة : كافة الشهود الاسرائيليين منذ رحلة النبي ( ص ) الى يوم الدين ، مثلث الشهادة الناصعة « على مثله » .

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٩ - اخرج ابو يعلى وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال انطلق النبي (ص) وانا معه حتى دخلنا على كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرموا دخولنا عليهم فقال لهم رسول الله (ص) : اروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله يحبط الله عن كل يهودي تحت اديم السماء الغضب الذي عليه فسكتوا فما اجابه منهم احد ثم رد عليهم فلم يجبه احد فثلث فلم يجبه احد فقال : ابستم قوا الله لانا الحاشر وانا المعاقب وانا المعقبي آمنتم او كذبتم ثم انصرف وانا معه حتى كدنا ان نخرج فاذا رجل من خلفه فقال : كما انت يا محمد ! فأقبل فقال ذلك الرجل اي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود فقالوا والله ما نعلم فينا رجلاً اعلم بكتاب الله ولا افقه منك ولا من ابيك ولا من جدك قال : فاني اشهد بالله انه النبي الذي تجدونه في التوراة والانجيل - قالوا : كذبت ثم ردوا عليه وقالوا شراً فقال رسول الله (ص) كذبتم لن يقبل منكم قولكم فخرجنا ونحن ثلاث : رسول الله (ص) وانا وابن سلام فأنزل الله : « قل أرايتم ان كان من عند الله ... » .

اقول : قد اخرج نزول الآية بشأن ابن سلام، البخاري ومسلم والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن سعد بن ابي وقاص وجماعة آخرون عن آخرين .

وضمير الغائب في « مثله » هو الغائب في « كان من عند الله » وفي « كفرتم به » فهو القرآن ، وهو نبي القرآن المذكوران مسبقاً : « ام يقولون افترناه .. قل ما كنت بدعاً من الرسل » فلا القرآن بدعٌ من كتب السماء ، وان كان بديعاً بينها ، ولا رسول القرآن بدعٌ من الرسل ، مهما كان بديعاً بينهم ، فـ « شاهد من بني اسرائيل » يشهد « على مثله » في مثلث الزمان بثلاث الشهادة :

« شهد .. على مثله » كما الله شاهد على القرآن بالقرآن ، تشهد هؤلاء الشهود للقرآن على مثله وهو العهدان ، فهما كما نزلا والقرآن يتشابهان في صيغة الوحي وصبغته وكيانه فالمماثلة هنا بين الشهادتين .

او « على مثله » : مثل القرآن او نبي القرآن ، فالقرآن يماثل سائر كتب الوحي ، كما ان نبي القرآن يماثل سائر رجال الوحي : « وان كنت في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله .. » من مثل عبدنا : سائر النبيين - او مثل ما نزلنا كسائر ما انزل على النبيين .

فالشاهد الاسرائيلي المؤمن ، نبياً او سواه ، يشهد على مثل شهادة القرآن ، وعلى مثل القرآن ونبي القرآن لاثبات وحي القرآن ونبيسه ، فـ « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم » (١٤٦: ٢) : معرفة الرسول ، كما يعرفون القرآن عرفانهم بالتوراة والانجيل ، وكما في كتاب اشعيا : « كَيْفَ بِيْلَعَجَجِي شَافَاه وَبِيْلَاشُونُ أَحِيرَتُ يَدْبَرُ إل هَاعَامُ هَذَّة » ( اشعيا ٢٨ : ١٠ ) :

لانه بلهجة لكناء بشفاه عجمية وبلسان غير لسانهم يكلم هذا الشعب <sup>١١</sup> فهذه شهادة على مثل القرآن وهو من العهد العتيق .

ومن « مثله » المشهود عليه له ، موسى بن عمران الذي ينص التوراة بمائلته

( ١ ) في هذه البشارة نجد مواصفات القرآن ومنها انه بلسان آخر غير عبراني .. راجع كتابنا ( رسول الاسلام في الكتب السماوية ) ص ١٠٨ .

هذا الرسول ﷺ وكما يقول : « نأبئ آقيم لأهيم مقرب إحييهم كيموشه .. »  
 اقيم لهم من اقرباء اخيهم كموسى .. » ( سفر التثنية ١٨ : ١٧ ) (١) .

ومن افضل الحنان على مؤمني اهل الكتاب : شهود الرسالة المحمدية ، قرن  
 شهادتهم بشهادة الله كما هنا وكما : « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده  
 علم الكتاب » (٤٣: ١٣) كعبد الله بن سلام (٢) .

« قل أرايتم ان كان القرآن ونبيه من عند الله و » حال انكم « كفرتم  
 به و » حال انه « شهد شاهد من بني اسرائيل على مثله » : شهادة وكتاباً  
 ونبياً « فأمن واستكبرتم » فمن اخسر منكم واطلم « ان الله لا يهدي القوم  
 الظالمين » .

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا اليه واذا لم يهتدوا  
 به فسيقولون هذا افك قديم » .

قوله فارغة لاهية اخرى من الكافرين ، كأنهم سابقون في كل خير ،  
 فاذا سبقهم المؤمنون بالايمان فليكن شرأ وإفكاً قديماً يؤمن به المتأخرون  
 المسبوقون طوال التاريخ الرسالي ، ولأن هؤلاء السابقين ! لم يهتدوا بهذا القرآن ،  
 وهم المهتدون الى كل خير ! فالمؤمنون هم الضالون الأفكون ! : « ولا يحسن  
 الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون » ( ٨ : ٥٩ ) « أم حسب الذين يعملون  
 السيئات ان يسبقونا ساء ما يحكمون » ( ٢٩ : ٤ ) ! .

ان السابقين الى الإيمان - وعلى طول الخط - هم الفقراء العادمون في الأكثر ،  
 المضاعون المظلومون تحت رحمة ووطأة الأقوياء الأغنياء الجبارين ، والرسالات

(١) راجع كتابنا ( رسول الاسلام ) .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٣٩ - اخرج الترمذي وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن  
 سلام قال : نزلت في آيات من كتاب الله ، نزلت في « شهد شاهد من بني اسرائيل على مثله .. »  
 ونزل في « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

الإلهية لهم خير مأمّن ومؤمّن ، يحنحون إليها بغية الفرار عن حكم الظالمين ، والقرار الى حكم الله رب العالمين ، وهذه مغمزة في نظر الكبراء المستكبرين ان «لو كان خيراً ما سبقونا اليه»<sup>(١)</sup> . فـ «لو» لا «إن» تشير الى مدى استبعادهم لكون القرآن خيراً لحد الاستعالة ، ولحد يتحاشون أن يخاطبواهم بهذه القولة الهاوية ، فاعتبروهم غيباً : « ما سبقونا اليه » وهم حضور ! ولأنهم غيب عن المثل العليا وهم حضور ، وقولهم لهم يعني ما يرجع لهم بغير خطاب ان يخاطبوا أضرابهم بهذه القولة المضللة كيلا يفكروا في الإيمان ابدأ .

وإنها الهوى والإدعائات الهباء ، يتعاطم بها أهل الغنى والكبراء ، يعملون من أنفسهم الخواء محوراً للحياة كلها ، كأنهم هم ولا سواهم الأحياء المتقدمون السابقون في خيراتها ، فيعتزون بالثقافات اللاهية الجوفاء ، وبالاجداد والآباء ، وبسائر ما اليها من اعتبارات فارغة غشاء ، فيغمضون ويلتفون عن الحق باختلاق المعاذير ، واقتلاق المحاذير على الحق واهله ، كأن كل ما يهودون فهو الحق ، وما لا يهودون فهو الباطل ، أسماء فارغة يسمونها ، متعافلين عن براهين الحق الناصعة ، وادلتها الناصحة ، فويل لهم مما يافكون « واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم » كأن ليست فيه هدى اذ لم يهتدوا به ، كالأعمى الناكِر لضوء الشمس لأنه لا يهتدي به .

« افك قديم » ! : مصروف عن وجهه الحق ، مختلق سابق : « وقال الذين كفروا ان هذا إلا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً . وقالوا اساطير الاولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ، قل انزل الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض انه كان غفوراً رحيماً » ( ٢٥ : ٦ ) .

(١) الدر المنثور : ٦ / ٤٠ - اخرج ابن المنذر عن عون بن ابي شداد قال : كانت لعمر ابن الخطاب امة اسلمت قبله يقال لها زينة فكان عمر يضربها على اسلامها وكان كفار قریش يقولون : لو كان خيراً ما سبقتنا اليه زينة فأنزل الله هذه الآية .

وليتهم نظروا الى القرآن بعين البصيرة والاعتبار ، ام ولا اقل من قرآن له بسواه باختبار ، ام الى كتب قبله تشهد عليه كما هو شاهد لنفسه :  
« ومن قبله كتاب موسى اماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » .

أهذا إفك قديم ؟ « ومن قبله كتاب موسى » ولماذا كتاب موسى وهو قبل القبل ، لا كتاب عيسى وهو القبل ؟ لأنه الأصل في التشريع <sup>(١)</sup> ، « إماماً ورحمة » : لكتاب عيسى وهو الفرع : إماماً له وللمسيح ، فضلاً عنهم وهم من أتباع موسى والمسيح فليتبعوه ، وهو يحوي اشارات وبشارات بحق القرآن ونبيه ! .

أهذا افك قديم « وهذا كتاب مصدق » : يصدق كيانه كوحي تصديقاً بنفسه دون حاجة الى سواه ، ويصدق ما قبله من كتاب « موسى اماماً ورحمة » وغيره من كتاب أوحى الى من قبله من النبيين ، المصدقة له ، الحاملة لبشاراته إنه بينة من ربه لنبيه ، كما نبيه بينة من ربه حيث التصديق الذاتي والتصادق : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه انه الحق من ربك ولكن اكثر الناس لا يعلمون » ( ١١ : ١٧ ) .

هذا كتاب موسى اماماً لهم امامهم يصدق القرآن في بشارات ، وكما يصدقه في صيغة التعبير وصبغة الوحي لبشير نذير ، فليس القرآن إفكاً قديماً مصروفاً عن وجه الحق ، لا عن كتابات الوحي ولا سواه ، فان له كيانه يستقل عن سائر الكيان ، مهيمناً على ما قبله من كتاب .

(١) وتضاميه مقالة الجن : « انا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى » اي القرآن لا « بعد عيسى » مما يؤكد اصالة التوراة قبل القرآن ، وسوف نوافيكم به في آخر السورة .

فأنى للآفكين القولة الفارغة الهراء ان القرآن إفك عن التوراة ، صرف عن وجهه معنى وتعبيراً ، فهو نسخة عربية عن التوراة فهو إمام القرآن<sup>(١)</sup> : « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة » ؟ « وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً .. » !. إن هيمنة القرآن على ما قبله من كتاب ، تدل على إمامته الشاملة على كل نبي وكل كتاب ، فلا تعني إمامة التوراة في آياتها إلا لأتباع شريعة التوراة ، إذ تحملهم على تصديق الكتاب المهيمن الإمام ، وتحملهم مسؤولية حمل هذه الأمانة الكبرى المسروقة في آيات البشارات : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ومهيئاً عليه .. » (٥ : ٤٨) هيمنة على سائر كتب الله ، كما الله مهيمن على سائر الخلق : « الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن .. » (٥٩ : ٢٣) . « .. لساناً عربياً » هذا كتاب مصدق حال كونه لساناً عربياً : واضحاً بياناً لا غموض فيه رغم ما فيه من رموز « لساناً » لا « لغة » فـ « عربياً » يعني واضحاً لا تعقيد فيه ، وإذا كان بلغة عربية ، فهو عربي بعربية . « لينذر الذين ظلموا » عربياً أم سواهم « وبشرى للمسلمين » كذلك ، فالتبشير والانذار اللذان يحملها القرآن عربيان لكل عربي وسواه ، لا يكلفه إلا ترجمة أو تفسيراً : لغوياً أم سواه .

---

(١) كما يتقوله الاستاذ حداد في مرطقات له سماها القرآن والكتاب ومما تقوله : « هنالك تصاريح من القرآن ان بينه وبين العهدين اتصال ونسب حيث : ١ - التوراة إمامه . ٢ - وهو في زبر الاولين . ٣ - وهو تفصيل وتعريب للكتاب المقدس . ٤ - وهو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم وهم علماء اهل الكتاب . ٥ - ويجب ان يقتدي محمد في قرآنه بالكتاب واهله . ٦ - واذا شك فيه فليسأل اهل الكتاب ليعلموه . ولو كان الحداد يفهم اللغة العربية ما سمح لنفسه ان يفتري هذه الهراآت على القرآن - راجع كتابنا ( المقارنات ص ١٣٤ ) .

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .  
اولئك اصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » .

. . قالوا ربنا الله - لا سواه - ثم تحولت مقاتلهم هذه إلى واقع الإستقامة عليها ، وإنه لجمع جميل بين توحيد الربوبية وهو خلاصة العلم ، والاستقامة فيه وفي خلفاته العقائدية والعملية وهو منتهى العمل : وإنها استقامة في إقامة الوجه للدين حنيفاً : وهو دين الفطرة القيم : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ( ٣٠ : ٣٠ ) ودين الطاعة لله المسنونة في شرعة الله . ومن ثم الإستقامة في كل ما تتطلبه « ربنا الله » في كافة مجالات الحياة .

هؤلاء « فلا خوف عليهم » عما تورطوا في مخاوف لوجه الله إذ لا يخافون إلا الله ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من شيء فإن أجرهم على الله ، يحتسبون عناءهم عند الله ، وهكذا يبشرهم ملائكة الله : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياءكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم » ( ٤١ : ٣٢ ) وما ألدّها بشارة من الله فبشارة من ملائكة الله ! .

فالخوف عما هم فيه وما يستقبلهم ، والحزن على ما فاتهم فيما مضى : هما عنهم منفيان ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة وهي أخرى ، إذ تكشف فيها الغطاء . هؤلاء نفوسهم مطمئنة إلى الله وليست إلى الحياة الدنيا المتزعزعة المزعزعة بأهلها الراكنين إليها ، فلا تضطرب بهم في الهوّة ، اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة كاهل الدنيا ، المضطربين فيها ، المتأرجحين بها .

إن أهل الله لا يحسبون في حياتهم حساباً لأحد سوى الله ، فهو هو الميزان



الوحيد لهم في كافة الموازين والحسابات .

إنه ليست الاستقامة في الله بعد قولهم « ربنا الله » دونما فصل أو شرط ،  
فهنا الإيمان الراسخ في الوسط ، تثبت فيه هذه المقالة المؤمنة وترسخ ، ومن ثم  
الإستقامة في نفس الإيمان ، ثم تتحول إلى الإستقامة في الله بكافة زوايا الحياة ،  
كما وتوحي لهذه الوسائط « ثم » فإنها للتراخي .

« ثم استقاموا » تطالبوا القوام على « ربنا الله » حقو كأنهم أصبحوا بذواتهم  
وصفاتهم وأفعالهم وحالاتهم « ربنا الله » فد « ثم » بعد قولة الحق هذه ، تضرب  
في أعماق الحياة كل الحياة ، غوراً بعيداً وسفراً غريباً يحمل معه فيه « ربنا الله »  
يجعله زاده في وعشاء السفر ، فليست الإستقامة امرأ واحداً تتفرع على قولتها  
كدلالة اللفظ على معناه ، وإنما درجاتها المتتابعة التي تحصل تلو بعض ، وينتج  
بعضها البعض اعداد البعض للبعض ، فاستعداد الآخر لما يتلوه ، اعدادات  
واستعدادات في محاولات دائية قلبياً وقالبياً ، ظاهراً وباطناً ، فرداً ومجتمعاً ،  
وفي كافة معارك الحياة المتنازعة ، فلا يتغير لونه عن « ربنا الله » ولا كونه عن  
« ربنا الله » وإنما يغير غيره إلى « ربنا الله » فليست هي إذاً لفظة تلفظها  
الشفاه ، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة وبيناتها .

ثم الزاد الوحيد في الإستقامة على الطريقة المثلى ليستقوا ماء غدقاً ، إنما هو  
ذكر الله : القرآن الكريم : « إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم »  
( ٢٨ : ٨١ ) استقامة إلى الله : « إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه . . »  
( ٦ : ٤١ ) لاستقامة الحياة مع الله ، وفي الدعوة إليه : « فلذلك فادع واستقم  
كما أمرت » ( ١٥ : ٤٢ ) .

فالقائلون ربنا الله ، المؤمنون بالله ، المستقيمون لله وإلى الله ، هم الصفوة  
المختارة بين عباد الله ، كالجبال الراسخة : لا تحركهم العاصفة ، ولا تزيلهم القاصفة ،

مهما كانوا في ذلك درجات ، كما المتزعزعون دركات ، الذين لو شهدوا بـ « ربنا الله » فلا تتعدى شفاههم إلى عقولهم ، أو منها إلى قلوبهم ، أو منها إلى أعمالهم ، فلا ترى آثار هذه القولة الكريمة في حياتهم ، فشفاههم - إذاً - جوفاء ، وقلوبهم مقلوبة خاوية مباء ، فقولتهم منافقة خواء ، والله تعالى منهم براء .

فالقائل « ربنا الله » دون اعتقاد ، منافق في الله ، ثم قائلها دون استقامة رغم الاعتقاد أخف نفاقاً ، فقد بلغ أدنى درجات الإيمان ، ثم قائلها مع استقامة في أمة مرحلة ومدرجة اكمل إيماناً حسب الدرجات ، حتى يستوفي درجات الاستقامة كل الدرجات ، ويتعالى عن دركات الفشل واللااستقامة كل الدركات ، فهناك العصمة غير الكاملة حتى يعصم الله ، وهنالك العصمة الكاملة لو عصم الله ، وهي أيضاً درجات ، فالطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق .

فالقائلون « ربنا الله » المستقيمون في الله « أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون » لا بما يقولون ، فالقائلون كثيرون والعاملون قليلون ، فإنما القائلون العاملون أعمالاً في قلوبهم ثم أعمالاً لها في قلوبهم ، أعمالاً قلبية وقالبية بمراتبها : « ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » ( ٦ : ١٣٢ ) .. « وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » ( ٤٦ : ١١ ) .

\*\*\*

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا  
وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ  
أَشَدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ  
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا  
تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ

المُسْلِمِينَ - ١٥ . أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدُوقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ - ١٦ . وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ مَا أَتَعِدَايْنِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ - ١٧ . أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ - ١٨ . وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقَفِيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ - ١٩ . وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ - ٢٠ .

\*\*\*

هناك من أحسن الأعمال ، التي يكفر بها عن السيئات ، هو الاحسان  
بالوالدين : « أولئك الذين نتقبل عنهم احسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم .. »  
وهنا من اسوءها التي تحبط شطراً من الحسنات هو الاساءة اليها : « أولئك الذين  
حق عليهم القول في امم » وبينها متوسطات .

« ووصينا الانسان بوالديه احساناً .. » : وصية عظيمة من الله بالوالدين ، فهناك الموصى هو الله ، والموصى اليه هو الانسان ، والموصى له : الوالدان اللذان هما مجرياً الخلق والتربية ، والموصى به : الاحسان بهما ، فيالها من وصية عظيمة من الله العظيم ، لالتقاء آصرة الايمان بأصرة النسب في آصرة الوالدين ، تبنيًا للحياة الجماعية من منطلقها الاول ، وكانها من اصدق مصاديق : « ربنا الله ثم استقاموا » وبعد تكملة الايمان عقائدياً وعملياً بالله ، ولانها اجري مجاري الربوبية أن خلق الانسان بهما ، فأجرى بهما أجرى مراتب الاحسان ، ودونها شرط ايّا كان ، وانما كونهما والدين ، وكما الانسان لا يصحب شرطاً في دين الفطرة وشريعته الا انه انسان : « ووصينا الانسان » .

ثم الوصية لا تعني فقط الامر بالايجاب ، او فرض الكتاب ، فلم يقل امرنا ولا كتبنا ، وانما « وصينا » تدليلاً على المدى البعيد العال من الله المتعال في هذا الأمر ، إذ ينبثق من اعماق فطرة الانسان ، ثم ينطلق موكّدة منضبطة مبرمة من خالق الانسان ، تحكيماً لدين الفطرة فانها أمر تصاحبه الموعظة المؤكدة ، ومن ثم يضرب الى اعماق المجتمع متبنياً له كافضل واعلى ما يكون في بناء المجتمع السليم ، لإراحة الانسان ، وازاحة المشاكل التي تحول بينه وبين رقيه كإنسان .

« .. الانسان » إنما الانسان والانسان فقط ، رغم شمول التكليف له واللجان واضرابهما من المكلفين ، لأن الإنسان هو الأصل في ذلك ، ومن ثم يشمل من سواه ، وانه فعلاً من الأنس .

فأنسه وانسانيته يقتضيان الإحسان بالوالدين الذين يبذلان من عصارة حياتهما له ليحيى آمناً مرتاحاً ، ما لا يبذله أي كان ممن تحسن إليه وتضحى له .

انها وصية للانسان قائمة على اساس فطرته الانسانية ، دون حاجة الى غيرها

من صفات ذاتيات او مكتسبات ، كما وان صفة الوالدية الحنونة الرحيمة المطلقة دونما بغية جزاء او شكور ، هذه الصفة تزيد تأكيداً في توفير حنان الأولاد كأقل جزاء لهم وشكور ، حناناً مطلقاً دون شرط إلا الوالدية .

« بالديه احساناً » لا - : الى والديه ، حيث الإحسان بها يوحى بكمال الحنان والقرب في الاحسان ، كما احسن الله بيوسف (ع) : « وقد احسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو » ( ١٢ : ١٠٠ ) : احساناً مصاحباً ملاصقاً ليوسف ، فضلاً من الله ورحمة ، فالإحسان بالوالدين ، احسان مصاحب ملاصق دون اي بعد ولا امتنان ، ولانه احسان بسبب الوالدية ، واما احسان الله بالمحسنين فملاصق مصاحب كقرب واحسن ما يكون ، وان كان بامتنان بسبب الربوبية لا العبودية اللهم الا فضلاً .

واما الإحسان « الى » فقد يوحى ببعد في الاحسان ، وبين المحسن والمحسن اليه ، بُعد الإحسان : كأن يكون للامتحان الامتحان كما الى قارون : « واحسن كما احسن الله اليك » ( ٧٧ : ٢٨ ) ام بعداً في الإحسان ، كالذي يصاحبه الامتنان من محسن الى من يستحق الاحسان ، فهو احسان سيء لمكان الامتنان : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » ( ٢ : ٢٦٤ ) .

فالإحسان بالوالدين يعني أحسن الإحسان واقربه « بالوالدين » : بسبب الوالدية ، واحساناً ملاصقاً مصاحباً لهما دون فصل او فضل <sup>(١)</sup> بل وعلى الأولاد ان يخفضوا لهما جناح الذل في الإحسان وان اساءا : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا اياه وبالوالدين احساناً إما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما

(١) هذا اذا كانت الباء متعلقة بـ « احساناً » فهي اذاً للمصاحبة الملاصقة ، او السببية والجمع هنا أجل ، واما اذا تعلقت بالوصية فلا ، اللهم الا ان « قضى .. » في غيرها يبعده ، فالقضاء اما له أو عليه وليست به ، فالباء في آيات الوصية تتحمل كلا التعلقين : وصية واحساناً : وصية بالديه واحساناً بالديه ، بسبب الوالدية مصاحباً ملاصقاً .

أَفَ لَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (١٧ : ٢٤) : فاحرى لهما الاحسان بهما ان أحسنا !.

« بوالديه » المتشاركين في ايلاده ، مهما تفاضلا فيه ام في سواء ، فللفاضل فضله بمزيد الاحسان :

« احسانا » كما هنا وفي غيرها و « حسنا » كما في ثالثة : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا » وان جاهدك لتشارك بي ما ليس لك به علم فلا تطعها .. ( ٨ : ٢٩ ) والحسن هو الفعل الحسن المبالغ في الإحسان لحد كانه الحسن ذاته ، تدليلا على مدى الإحسان الواجب بها ، أنه لأعلى المستويات قدر المستطاع ، دونما قيد او شرط ، مما يوحى بان « احسانا » ايضا يعنيه ، بما فيه تنوين التنكير ، لا تحقيرا ، وانما تعظيما وتكثيرا لحد لا يعرف مدام ، فانه احسان لا يقطعه قاطع ، حتى وإن جاهدك لتشارك بي ما ليس لك به علم ، فلا يبدل الاحسان هنا بالإساءة ، وانما ترك الطاعة في الاشرار بالله ، مع الحفاظ على المعروف من صحبتها : « ووصينا الانسان بوالديه .. وان جاهدك على أن تشارك بي ما ليس لك به علم فلا تطعها وصاحبها في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من ائتاب الي .. » ( ٣١ : ١٤ - ١٥ ) . فلقد اريد من الحسن والإحسان هنا وهناك أحسن الإحسان ، وكما انهما بذلوا لك من الإحسان أحسنه ، وحينما لم تك تعلقك لنفسك شيئا !.

نرى الوصية بالاحسان تكرر في القرآن بحق الوالدين دون الاولاد - اللهم الانادرة بشأن الميراث - لأن الفطرة الوالدية وحدها تتكفل برعايتهما للاولاد ، رعاية ذاتية لا تحتاج إلى وصية واثارة ، بل وقد تزيد على المسموح والواجب اذ تصل الى حد التضحية في سبيل الحفاظ على حياة الأولاد او صالحهم ، دون أي من أو رغبة في جزاء أو شكور ، اللهم إلا شذرا نذرا ، دون الأولاد ، فقليل

هؤلاء الناشئون الذين يتعنتون للوالدين ، وانما يتحيثون الفرص لاستغلالهما في سبيل تبني حياتهم المستقبلية ، فهم وهم فقط بحاجة الى ايقاظ فطرة الحنان والطاعة والإحسان بالوالدين ، بكل تبشير وانذار ، وبصورة مطلقة لا يحجزها اي حاجز مادي ولا نفسي ، اللهم إلا ان يحمله للاشراك بالله ، فتترك الطاعة فيه باحترام دونما اخترام مع استمرارية المصاحبة الطيبة في دنياهما ، مهما خسرا اخرهما ، على ان الإحسان بهما لا يختص بالنواحي الظاهرية الهادية ، فأحرى لها النواحي النفسية والروحية ، فمحاولة الأولاد -- بوسائط أو دون وسائط -- لاهداء الوالدين ان كانوا ضالين ، إنها أحرى ما يكون من الإحسان بهما ، أن تضمن اسعادهما في الحياتين .

ثم وحق الولد على الوالدين أن يعلما انه منهما ومضاف اليهما في عاجل الدنيا وآجله بخيره وشره ، فليعمل في أمره عمل من يعلم انه مصاب على الاحسان اليه معاقب على الاساءة اليه .

ثم الوالدة احق من الوالد في واجب الإحسان بها لأنها تتحمل وتعمل اكثر من الوالد في الأكثر ، يوحى بذلك ذكر متاعبها فقط بعد الوصية بحقها جميعاً كما هنا : « حملته امه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » وفي غيرها : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته امه وهناً على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك إلي المصير » ( ٣١ : ١٤ ) .

« حملته امه كرها ووضعته كرها .. » عرفنا كره الوضع أنه شاق بأي وضع ، فما هو كره الحمل ؟ هل هو حمله بعد الثقل ؟ أم وحمله منذ اللقاح وإلى الثقل ؟ أقول : إن بداية الحمل للباكر كره إذ تفتض وتُسجرح ، رغم اللذة التي معها « فإن مع العسر يسراً » ثم كره آخر منذ الحمل وحتى الوضع هو حمله وامتصاص الحمل في كافة أدواره من رمق الأم ، غذاءً ودماً أم ماذا .

فعلى ضوء تقدم علم الأجنة يكشف لنا في عملية الحمل طرف جسم ضخم نبيل في صورة حسية مؤثرة :

« . . إن البويضة منذ تلتقي لقاحاً بالخلية المنوية تسمى للالتصاق بجدار الرحم، مزودة بخاصية أكالة تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله، فيتوارد دم الأم إلى موضعها حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائماً في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من عصارات وخلصات، وتمتصه لتحيها به وتنمو، وهي كأكلة دائبة الأكل لجدار الرحم، دائمة الإمتصاص لمادة الحياة، فالأم تأكل وتشرب وتمضم لتصب هذا كله دماً نقياً غنياً لهذه البويضة الأكالة، وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم، فهي تفتقر إلى جير بعد جير، حيث تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هذا الهيكل الصغير، وهذا قليل من حملها الكثير .

وقد يوحى التنكير هنا « كرهاً » بنكارة الحمل في زاويتي هاتين، وعله المعنى من : « وهناً على وهن » هناك، وهن النقل على ذلك الوهن، بعد الذي ذاقته حين الحمل، ولأنه مجبور باللذة لم يحسب هنا له حساب فلم يثلث الوهن، وإنما « وهناً على وهن » = : « كرهاً » !

« ووضعت كرهاً » : كرهاً تذكره فيه الأم حتى نفسها، دون أن تذكره ثمرتها، رغم أنها تذوى وتموت وتتمزق وتذوب، ولكنها أم، حنونة عطوفة لحملها، لحد قد ترضى أن تموت والحمل لا يموت، أو تتأذى هي والحمل سليم .  
فيا لهذه الوالدة التي تحمل حملها كرهاً : « وهناً على وهن » وتضعه كرهاً، مشمرة حملها في مثلث الوهن، ومربّعة لوهنها في رضاع الحمل، أن تمتص ثمرة قواها، وحصيلة طاقاتها بعد الوضع، وكما كان قبل الوضع، فهل له أن يجازيها أقل جزاء ولو بأكثر الإحسان، كلا ثم كلا .



ولقد صدق الرسول ﷺ فيما يقول : « لا ولا بزفرة واحدة ! وقد جاءه رجل كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها فسأله ﷺ هل ادبت حقها ؟ » (١)

### « وحله وفصاله ثلاثون شهراً » :

انها توحى بأقل الحمل انه : ( ستة أشهر ) حيث الفصل - وهو انفصاله عن الرضاع - في غيرها بعامين : ( وفصاله في عامين ) ( ٣١ : ١٤ ) وحولين كاملين : ( والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ) ( ٢ : ٢٣٣ ) فلا يبقى من الثلاثين إلا ستة أشهر ، فلو وضعت المرأة حملها عندها لم يكن بذلك البعيد ، فضلاً عن أن تتهم فترجم كما فعله الخليفة عثمان (٢) ولكن الخليفة عمر سأل أهله فانتبه فلم يرحم (٣)

(١) رواه الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن بريدة عن أبيه .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٤٠ - اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ببيعة بن عبد الله الجهني قال : تزوج رجل من امرأة من جهينة فولدت له تماماً لسته أشهر فأنطلق زوجها الى عثمان بن عفان فأمر برجمها فبلغ ذلك علياً ( ع ) فأذاه فقال : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لسته أشهر وهل يكون ذلك ؟ قال علي ( ع ) : أما سمعت الله تعالى يقول : « وحله وفصاله ثلاثون شهراً » ؟ وقال : « حولين كاملين » فكم تجده بقي الا ستة أشهر ؟ فقال عثمان : ما فطنت لهذا علي\* بالمرأة فوجدوها قد فرغ منها وكان من قولها لأختها يا أختي لا تحزني فوالله ما كشف فرجي أحد قط غيره ، قال : فشب الغلام بعد فاعترف الرجل به وكان أشبه الناس به ، قال : فرأيت الرجل بعد يتساقط عضواً عضواً على فراشه .

هذا ! ولقد نسي الخليفة هذا الحكم حينما رفعت امرأة أخرى اليه ولدت لسته أشهر ، فقال عثمان : انها قد رفعت الي امرأة ما أراها إلا جاءت بشر فقال ابن عباس اذا كملت الرضاعة كان الحمل ستة أشهر وقرأ « وحله وفصاله ثلاثون شهراً » فدروا عثمان عنها . اخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن أبي عبيدة مولى عبد الرحمن بن عوف ( ٦ : ٤٠ ) .

(٣) الدر المنثور ٦ : ٤٠ - اخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق قتادة عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي قال : رفع الى عمر امرأة ولدت لسته أشهر فسأل عنها

تحقيقاً لأمر الله : ( فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ) .

( حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ) .

إن الأربعين هنا هو أبلغ الأشد ، كما الأشد جمع الشد : هو الاستحكام في طاقات نفسية وبدنية تجعل الإنسان مستقلاً في حياته الفردية والجماعية ، فللإنسان أدرار أربعة : الطفولة وبلوغ الشد والأشد والشيخوخة : ( ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ) ( ٤٠ - ٦٧ ) فالطفل هو الطفيلي المتطفل في حياته ، المتكفل بها في شئونها من قبل الوالدين أو غيرها ، حيث لا يستوي في حياته دون كافل ، ثم إذا يبلغ أشده - : لا فقط شده - يستقل ، فلا يعني هنا شد العضلات والبنية الجسدانية فحسب وإنما ( أشده ) وأقلها مثلث : العقل ، والحكمة والجسم بحيث يستطيع الإصلاح في ماله : ( ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ) ( ٦ : ١٥٢ ) وفي حاله : ( ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ) ( ١٢ : ٢٢ ) الحال الجامعة - لأقل تقدير - بين العقل والحكمة ثم في الأشد المزيد .

وإذا استمرت الأشد في التعامل والتكامل ، تصل إلى الأبلغ في كمال السن : ( . . . وبلغ أربعين سنة ) كأصدق مصاديق الأشد ، ثم بين الأشدين بداية ونهاية متوسطات ، وليس أولها بداية التكليف ، فإن بلوغ العقل والجسم ، - بل العقل فقط - كاف في جري قلم التكليف ، اللهم في الجسم الذي لا يتحمل حمل بعض التكاليف البدنية ، كالصوم أم ماذا ، فلا يجري قبل السن المحدد للتكليف ، ولكننا العقل ، والعقل فقط ، إذا بلغ شده ، فصاحبه مشدود بجبل التكليف ، ثم إذا أضيف إليه شد الرشد والحكمة ، فلا يكلف أحد في

⇒ اصحاب النبي (ص) فقال علي ( ع ) : لا رجس عليها ، ألا ترى انه يقول : « وحله وفصاله ثلاثون شهراً » وقال : « وفصاله في عامين » وكان الحمل هنا ستة اشهر فتركها عمر ، قال : ثم بلغنا انها ولدت آخر لسته اشهر .

حفظ ماله وحاله ، وإنما هو القائم فيهما : « حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم » (٦:٤) فبلوغ النكاح هو بداية التكليف ، وليس يكفي لتسليم أمواله إلا بعد إنباس رشدي ، فبلوغ الأشد يتراوح بين بلوغ شد التكليف أو شديده<sup>(١)</sup> وبين الأربعين ، ان يحصل له ثالث هو شد الرشد والحكمة ، ثم تتعامل فتتكامل أشده الثلاثة او ما زاد ، ولحد البلوغ الكامل : الأربعين ، فالأربعون هي - عادة - غاية الرشد ، إذ تتكامل فيها كافة القوى ، وفي هذه السن تتجه الفطرة السليمة الى عمق الحياة ، الحاضرة والمستقبل ، ولكي تستصلحها بما يصلحها .

هذا هو السير العادي في أدوار السن ، وليس لازماً دون استثناء ، فقد نبي يحيى عند الصبا : « وآتيناه الحكم صبياً » وكان من أكمل الوحي ، وكما آمن علي ( ع ) عند الثانية عشرة من عمره ، عند بزوغ الوحي على الرسول محمد ﷺ فكان أكمل الايمان<sup>(٢)</sup> وإنما آية الأربعين تعني السيرة الأغلبية ، دون العموم<sup>(٣)</sup> ، ودون شخص أو أشخاص خصوصاً ، ثم انها توحى بمدى حاجة

(١) شد العقل ، ار شدي العقل والجسم .

(٢) اصول الكافي بإسناده عن علي بن اسباط قال رأيت ابا جعفر ( ع ) وقد خرج عليّ فأخذت انظر اليه رجعت انظر الى رأسه ورجليه لأصف قامته لأصحابنا بمصر فبينما انا كذلك حتى قعد فقال : يا علي ان الله احتج في الامامة بشئ ما احتج به في النبوة فقال : « وآتيناه الحكم صبياً » « ولما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة » فقد يجوز ان يؤتى الحكمة وهو صبي ويجوز ان يؤتى الحكمة وهو ابن أربعين سنة .

(٣) الخصال للصدوق عن ابي بصير عن ابي عبد الله الصادق ( ع ) : اذا بلغ العبد ثلاث وثلاثين سنة فقد بلغ أشده واذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه فاذا طعن في واحد واربعين فهو في النقصان وينبغي لصاحب الخمسين ان يكون كمن كان في النزع .

وفي التهذيب بإسناده عن عبد الله بن سنان عن ابي عبد الله ( ع ) قال : سأله ابي وأنا حاضر عن قول الله عز وجل « حتى اذا بلغ أشده » قال : الاحتلام .

اقول : يبعده ان ليس في الاحتلام الا شد واحد او شدين الا نادراً ، وان قوله : وبلغ أربعين سنة بعد « أشده » يوحي بأن سن الأشد قبيل الأربعين فيناسب الرواية الاولى .

الأولاد إلى كفالة الوالدين ، وإلى حد الإربعين أيضاً ، فضلاً عما قبله وبعده ومنذ الولادة فالطفولة .. فهل للأولاد أن يجازوا الوالدين ولو أقل جزاء ؟ اللهم لا ! إلا أن يستمدوا في ذلك برب العالمين ! :

« قال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي .. »  
 « .. اوزعني » : ألهمني ، وليس فقط إلهام الإعلام والإفهام ، فكثيرون هؤلاء الملهمون علماء المهنون عملاً ، والقصد هنا « ان اشكر .. » لا ان أفكر ، وإنما هو إلهام عملي ، او افهام يتبعه العمل : دعوة صارمة تدفع للعمل : « أن اشكر نعمتك .. »

نعمتان هما من الله كسائر النعم : ١ - « التي انعمت علي » أن تربيت منذ كنت جنيناً ولأبلغ الأشد : « الأربعين » . ٢ - « وعلى والدي » : أن ربياني صغيراً وكفلاني كبيراً : ان اشكرك في نعمتك علي بأداء واجب طاعتك وعبادتك ، وأشكرك في التي انعمت علي والدي ان اقوم قومة حسنة في الإحسان بهما ، فإنه ايضاً من عبادتك ، قد « إياك نعبد وإياك نستعين » .

« ان اشكر .. » : قولياً وواقعياً : علمياً وإيمانياً ومن ثم عملياً ، شكراً في هذا المثلث الميمون المنتهي إلى نتاج رأس الزاوية : العمل الصالح المرضي :  
 « وأن أعمل صالحاً ترضاه » كأنه الشكر فقط والأولان يبيان له فيتقدمانه :  
 اقول شكراً وأؤمن شكراً لأعمل شكراً : « اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور » ( ١٣: ٣٤ ) ، فالعمل الصالح لجناب الربوبية وساحته ، المرضي عند حضرته ، هو الشكر لنعمته حقاً ، دون المقاولات والمحاولات التي لا تعدو الشفاه والقلوب إلى الواقع .

« صالحاً ترضاه » شكراً لنعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، صالحاً يضم إلى شكر الله شكر الوالدين شكراً لله دون سواء .

« وأصلح لي في ذريتي » : ان يكونوا لي كما كنت لوالدي اضافة إلى سائر الصلاح ، كجزاء متتابع لكل ولد بما فعل من الإحسان بوالديه ، أن يحسن به ولده كما أحسن هو بوالديه .. أصلح لي في ذريتي كما أصلحت لوالدي في ، إصلاحاً عدلاً متتابعاً جماعياً يتبنى إصلاح المجتمع على قواعده الأصيلة « الوالدان والأولاد » .

وإنما ( في ذريتي ) لا ( ذريتي ) ككل ، حيث الإصلاح ( في ) يعني البعض وهو الممكن المعقول ، وأما الكل فلا ، كيف وهو يشمل كافة الأنسال الناسلة منه بينه وبين القيامة وهذا مما لا يكون ، ومن أدب الدعاء رعاية الإمكان عقلياً وواقعياً ، فلا نجد أحداً من النبيين يدعو : ( وأصلح لي ذريتي ) إذ الظالمون لا يأهلون الصلاح ، وكما عن إبراهيم ( قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ) ! ولا يصلح الله تعالى إلا من يستصلح ، دون فوضى وبلا شروط .

وهذه سنة إلهية أن يجازي الأولاد بما فعلوا بالوالدين وبالعكس في الأولى قبل الأخرى ، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشرأ : ( وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ) ( ٤ : ٩ ) .

ولماذا هذه الطائفة في الدعاء ، الشاملة له ولأبويه وذريته ؟ إصلاحاً لهم جميعاً ، بما يوزعه الله أن يعمل صالحاً يرضاه ؟ :

لأنه تاب وأسلم : ( إني تبت إليك وإني من المسلمين ) : توبة إلى الله ثم إسلام لله ، فلا إسلام قبل التوبة ، كما لا استجابة لدعاء قبل الإسلام والتوبة ، وترى انه الإسلام القولي : أن يشهد الشهادتين ؟ وهو أدنى الإسلام الذي لا يضره عدم التوبة بل ولا الكفر في الباطن كما المنافقون بهذا المعنى مسلمون ! .

كلاً : انه إسلام الوجه لله قلباً وقالباً : ( ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ) ( ٤ : ١٢٥ ) ، وكل درجة منه درجة بعد الإيمان ، بل هو ناتج عن الإيمان ، فما لم يكن إيمان فلا إسلام ! وهذا الإسلام هو الإيمان والعمل الصالح للإيمان بعد التوبة : ( إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ) ( ١٩ : ٦٠ ) .

« أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » :

أولئك الأكارم ، التائبون نصوحاً ، المسلمون حقاً ، الصالحون أعمالاً ، الشاكرون لله ، المحسنون بالوالدين ، أولئك الذين يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا من هذا وذاك ، ويتجاوز عن سيئاتهم : المعاصي الصغيرة : تركاً لصغائر الواجبات ، وفعلاً لصغائر المحرمات ، فإنها كلها سيئات ، ويتجاوز عنهم سيئاتهم كل سيئاتهم ، وقد يسدل سيئاتهم حسنات إذا أحسنوا التوبة والإسلام والعمل الصالح : ( إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ) ( ٢٥ : ٧٠ ) .

نتجاوز .. في أصحاب الجنة ، وهم درجات ، فالتجاوز أيضاً درجات ولحد تبديل السيئات حسنات :

( وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ، في آيات أخرى وهي تدرى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ) ( ٢٩ : ٧ ) . ( ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ) ( ٤ : ٣١ ) ففعل أحسن الحسنات كما هناك ، وترك أسوء السيئات كما هنا ، هما من أشفع الشفعاء عند الله لتكفير سائر السيئات : إيجابية في فعلها ، وسلبية في ترك صغائر الواجبات فإنه من السيئات .

ثم يقابل هؤلاء الصالحين بجماعة طالحين عاشوا حياتهم ككفراً بالله وكفراناً بالوالدين ، فحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم :  
« والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين » .

.. الإنسان الذي سامح عن إنسانيته ، أن عزب ضميره وغرب عقله وهربت عاطفته ، وحتى بالنسبة لوالديه المؤمنين الذين يحذرانه الوعد الحق ! هذا اللا إنسان - إذ عبر عنه بـ « الذي » لا الإنسان - :

« .. قال لوالديه أف لكما .. » : كلمة تبرم إظهاراً للتسخط والتوجع ، لا لشيء إلا أنها وعداء - بما وعد الله - : الخروج من قبره يوم الخروج ، تحذيراً له عن الكفر والفسوق ، حناناً عليه لما بعد الموت ، كما يحثان له قبل الموت .  
« قال .. أف لكما .. » : ترجيراً منها لما وعدا ، وزجراً لهما عما وعدا ، مقابلة الحسن بالسوء ! رغم أن أفه محرم لهما وحق إذا كبرا وساءت أخلاقهما : « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ( ١٧ : ٢٤ ) حتى وإذا كفرا وأمرأه بالكفر : « وانجاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً .. » ( ٣١ : ١٥ ) !

فكيف إذا حسنت أخلاقهما وأحسننا إليك في الأولى والأخرى : أن وعداك الخروج للحياة الأخرى ، ليقفوك على حد العبودية في الأولى ، فهل لك أن تجابه هكذا إحسان من والديك بأسوء السوء؟ : بتأفف جارح وقح : « أف لكما أتعدانني أن أخرج » ؟ ولا ريبة في وعد الخروج إلا استغرابك : « وقد خلت القرون من قبلي » : أن لو كان الخروج حقاً صادقاً لخرج من القرون قبلي ولو

واحد ، ولم يخرج ولا واحد ، فالخروج إذاً أسطورة ١.

وما أحق هذا المسكين أن يستدل بعدم الخروج إلى الحياة الدنيا على عدمه في الحياة الأخرى ، وليس الخروج الموعود إلا للحياة الحساب الجزاء ، لا الحياة التكليف البلاء ، ورغم أن جماعات من القرون الأولى خرجوا إليها بإذن الله تدليلاً على إمكانية الخروج بعد الموت .

ثم الخروج من الأجداث في الأولى ليس لعبة فوضى أن يبعث جيل مضى في عهد جيل أتى ، إنما هو الحساب الجماعي الختامي للرحلة كلها « لتجزي كل نفس بما تسعى » .

وإذا لا يعقل ويفهم هذا الولد الغبي لغة الإنسان ولا حجة الرحمان ، فماذا يصنع الوالدان بهذا الحيوان إلا :

« وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق » .

ان وعد الخروج - حق : ثابت بكافة صنوف البراهين ، عقلية وعدلية وحسية أم ماذا ، ولأنه وعد الله ، فيرجع عليهما ثانياً بكلمة جوفاء وقلب خواء : « فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين » . « لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » ( ٢٧ : ٦٨ ) : خرافاتهم وأوهامهم المختلقة المسطرة التي تنتقل للتفكه والمسخرة !

فيا عجباء من هذا الحمق العميق أن يعكس أمر الحق والباطل هكذا ، فيدلج الحق في الأساطير ، ويدلج الباطل في الحقائق ؟ فهل ان الحياة الحساب العدل أسطورة مع ما تملك من براهين ، والفوت الاحساب الفوضى ليس بها وهو لا يملك أية براهين ؟ .

ثم : « الذي » هذا ليس يعني شخصاً بعينه كما يدعى<sup>(١)</sup> ، بل هو كل من

(١) الدر المنثور ٦ : ٤١ - اخرج البخاري عن يوسف بن ماهك وعبد بن حميد والنسائي



يعق والديه كافرأ بالله واليوم الآخر هكذا ، وهم جماعات وليس واحداً وكما يقول الله :

« أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس أنهم كانوا خامسين » :

« أولئك » من حماقى الطفيان « الذين حق » : ثبت « عليهم القول » : كلمة العذاب « في امم » : جماعات وقرون « قد خلت » : مضت وغبرت « من قبلهم من الجن والانس » فهم وإياهم شرع سواء إذ كانوا معاً في شرعة سوداء « انهم كانوا خامسين » دينهم ودنياهم ، أولاهم وأخراهم ، وأية خسارة أخسر من خسارة الأمن والإيمان دنياً ، ثم خسارة النعيم والرضوان عقبى؟! .

⇒ وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن محمد بن زياد - هما عن مروان وأخرج ابن جرير عن ابن عباس وابن أبي حاتم عن السدي - كلهم أن الآية نزلت في عبدالرحمان بن أبي بكر (رض) .  
أقول : لكن الآية تأتي عن ذلك المكان الجع في تأليها : « أولئك الذين .. » وأن عبدالرحمان هذا أسلم فكيف يحق عليه القول في امم في النار ، وكما أخرج ابن أبي حاتم عن السدي « ثم اسلم فحسن اسلامه » واليكم بعض الاثر عن الحجاج في ذلك :

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال : أتني المسجد حين خطب مروان فقال : أن الله قد أرى أمير المؤمنين ( معاوية ) في يزيد رأياً حسناً وأن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : أهو قلية ! أن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده ، فقال مروان : أأنت الذي قال لوالديه أفلكما؟ فقال عبد الرحمن : أأنت ابن اللعين الذي لعن أبك رسول الله (ص) ؟ قال : وسمعتها عائشة فقالت : يا مروان ! أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ؟ كذبت والله ما فيه نزلت ، نزلت في فلان ابن فلان .

أقول : لا عبد الرحمن ولا فلان بن فلان أياً كان ، وإنما كل من كان بهذه الصفة ، عبد الرحمن وغيره ، ولكن ليس عبد الرحمن ولا يشمله لأنه أسلم فلم يبق على كفره ونكرااته للآخرة ، فلا يحق عليه وعد الله في أمم قد خلت من قبله .

ثم وليس أولاء وهؤلاء على شرع سواء في الجزاء ثواباً وعقاباً - بل :

« ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » :

« ولكل » من الفريقين : صالحين وطالحين « درجات » : للمؤمنين حسب مراتبهم درجات ، ولغيرهم كذلك درجات ، وليست فوضى وبلا حساب وإنما « مما عملوا » : سوا - في أعمال الإيمان وعقائده وأقواله ، في مثلث الإيمان درجات وكما في كل زاوية منه درجات ، كذلك وثالث الإيمان درجات كما في كل زاوية منه درجات « وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » .

وكما أن درج المؤمن والكافر في درجة واحدة ظلم ، كذلك درج كل من الفريقين في درجة واحدة ، رغم اختلاف درجاتهم : ظلم : « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله وماواه جهنم وبئس المصير . هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون » ( ١٦٣ : ٣ ) « ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » ( ١٣٢ : ٦ ) .

ثم هنا درجات حسب الصالحات والطالحات « مما عملوا » وهناك درجات الاستعدادات ليست مما عملوا ، وإنما ابتلاءات من الله : « ورفع بعضكم فوق بعض درجات لبلوكم فيما آتاكم » ( ١٦٥ : ٦ ) « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » ( ٤٣ : ٣٢ ) .

وإنما الجزاء الحساب يوم الحساب حسب الدرجات مما عملوا ، لا ما خلقوا عليها بلاء وامتحاناً ، مهما أملوا ! كما وان من الدرجات هي العلى « فأولئك لهم الدرجات العلى » ( ٢٠ : ٧٥ ) ومنها الدرجات الدنيا التي هي درجات و « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » ( ٤ : ٤٠ ) « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلهما وهم لا يظلمون » ( ١٦٠ : ٦ ) .

فه هم درجات عند الله » ( ١٦٣ : ٣ ) : « ولكل درجات مما عملوا » لماذا ؟ .. ( وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ) فمطف الواو هنا يعطف بنا إلى المحذوف من غايات الدرجات ، فأعمالهم هي التي تجعلهم عند الله بإذنه درجات ، وإن كانت الحسنات بفضل مضاعفات ، وإن كانت بعض السيئات بفضل مكفرات ، ولكننا الأصل المذكور هنا : ( وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ) توفية عدل ، وإن كان هناك فضل فوق عدل ، وليس هنا ظلم دون عدل .

ثم إن توفية الأعمال ؟ هي الوفاء الكامل للعاملين بنفس الأعمال : إبرازاً لصورها وأقوالها المسجلة في مختلف السجلات الكونية : من أرض بفضاءها ، ومن أعضاء العاملين لها أم ماذا (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينه وبينها أمداً بعيداً ) ( ٣ : ٣٠ ) .

فهي تشهد لك أو عليك يوم يقوم الإشهاد ، فتُعذب بها نفسياً أو تتلذذ على رؤوس الأشهاد ، ثم هي تتحول بإذن الله إلى ملكوتها وحقائقها الشريفة أو الخيرة فتُعذب بها نفسها أو تثاب : ( هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ) ( ٢٧ : ٩٠ ) ( لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ) ( وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ) لا ينقصون : عما عملوا من طاعة أو عصيان ، وإنما جزاء عدلاً وفاقاً في العصيان ، ومع فضل من الله في بعض العصيان تكفيراً وعفواً ، ومع الفضل كل الفضل في الطاعات ، إذاً فلا نقصان لا في طاعة ولا عصيان .

ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » .

هنا معرض السيئات بعد أن قضي الأمر وأتى دور الحساب : ( يعرض الذين

كفروا على النار ) كانهم متاع للنار هي تشريه ، وكما يجاء بجهنم ( وجيء يومئذ بجهنم ) ( ٨٩ : ٢٣ ) وتعرض هي أيضاً للكافرين : ( وعرضنا جهنم للكافرين : ( ١٨ : ١٠٠ ) فانها أيضاً متاع للكافرين هم مشتموها . فبعد أن كملت المعارضة تكمل المعاملة المخالطة ، دون معاكسة أو معاكسة ، إذ زالت الموانع من الجانبين المتاعين <sup>(١)</sup> بتمام العرض مع بعض وكمال الملازمة ، حيث الطينة السجينية لا تلائم إلا السجين ، فالنار لا تشري وتحرق إلا الكفار كما الكفار لا يشتركون إلا النار ( جهنم يصلونها وبئس القرار ) ! .

عرض وعرض ولكن دون اي خفاء في أي منهما كمتاع ، فأنتم ( يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ) ( ٦٩ : ١٨ ) عرضاً لصورككم بسيركم وأعمالكم وأقوالكم ، لا تخفى خافية من سيئة ظاهرة أو باطنة ، وأما جهنم ( وعرضنا جهنم للكافرين عرضاً ) ( ١٨ : ١٠٠ ) : حقيقياً لا تخفى منها خافية ، فلا مبالغته هنا وهناك ولا مبالغته ( يوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق ) ( ٤٦ : ٣٤ ) ؟ وقرآنهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي . . ( ٤٢ : ٤٥ ) .

فلما تمت المعارضة الحجة الذاتية في المتاعين المعروضين ، حقت كلمة العذاب ، وبعد مصارحة الحجة من رب العالمين :

« اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . . »  
 . . « وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات » ( ٤٠ : ٦٤ ) :  
 طيبات خلقت لكم واحلت لتكسبوا بها حسنات ، وتنموها لعقبى الحياة ، ولكنكم اذهبتموها في دنيا الحياة ، مستمتعين بها في الشهوات ، مستغلين إياها للموبقات ، فلم تبق لكم - إذا - طيبات ، وإنما خبيثات نقات ، اللهم الا من تمتع

(١) العرض هو اظهار لعدم المانع من تلبس شيء بشيء .

بالطيبات المحللات وأمتع ، واستفاد من زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق حسب شريعة الله ، فإن ذلك ليس من اذهاب الطيبات <sup>(١)</sup> وإنما الذي

(١) قد يكون اذهاب الطيبات اخلاذاً الى الدنيا فهو كفر ، او يكون قتعاً بالحلال دون غفلة عن الآخرة فـ «قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة» ولكن القدرة من اهل الله احياناً يتركونها ، لا تحريماً لها ، وإنما زهداً في الدنيسا وتسكيناً للفقراء وكما يروى عن عمر بن الخطاب قال : استأذنت على رسول الله (ص) فدخلت عليه في مشربة أم ابراهيم وأنه لمضطجع على حفصة وان بعضه على الثراب وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً فسلمت عليه ثم جلست فقلت : يا رسول الله ! انت نبي الله وصفوته وخيرته من خلقه وكسرى وقبصر على سرور الذهب وفرش الديباج والحريز ، فقال رسول الله (ص) : اولئك قوم عجلت طيباتهم وهي وشيكة الانقطاع وإنما أخرت لنا طيباتنا .

وعن أمير المؤمنين علي (ع) في بعض خطبه : والله لقد رقت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها ، ولقد قال لي قائل : ألا تذهبها ؟ فقلت : اعزب عني : فعند الصباح يعمد القوم السرى .

وفي الدر المنثور ٦ : ٤٣ - أخرج احمد والبيهقي في شعب الايمان عن ثوبان (رض) قال : كان رسول الله (ص) اذا سافر كان آخر عهده بأنسان من أهله فاطمة وأول من يدخل عليه اذا قدم فاطمة فقدم من غزاة له فألقاها فاذا بمسح على بابها ورأى على الحسن والحسين قلبين من فضة فرجع ولم يدخل عليها فلما رأت ذلك فاطمة ظنت انه لم يدخل من اجل ما رأى ففتكت الستر وقرعت القلبين من الصبيين فقطعتهما فبكى الصبيان فقسمته بينهما فانطلقا الى رسول الله (ص) وهما يبكيان فأخذه رسول الله (ص) منها فقال : يا ثوبان ! اذهب بهذا الى بني فلان اهل بيت بالمدينة واشتر لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج فان هؤلاء اهل بيتي ولا أحب ان يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا .

وفي نور الثقلين انه لما دخل العلاء بن يزيد بالبصرة يعود علياً (ع) قال له العلاء : يا أمير المؤمنين ! اشكو اليك أخي عاصم بن زياد ، لبس العباء وتخلّى من الدنيا ، فقال (ع) : عليّ به ، فلما جاء قال (ع) : يا عديّ نفسه لقد استهام بك الحبيث ، أما رحمت أهلك وولديك ؟ أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره ان تأخذها ؟ انت اهون على الله من ذلك ! قال : يا أمير المؤمنين ! هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك ؟ قال : ويعحك ، اني لست كأنت ، ان الله تعالى فرض على أئمة الحق ان يقدرُوا أنفسهم بضعة الناس كيلا تبيغ بالفقر فقره .

يستمتع بها اخلاذاً إلى الحياة الدنيا فيقال لهم :

ها أنتم لم تدخروا من هذه الطيبات شيئاً تعيشون بها في الآخرة ، إذ لم تحسبوا لها حساباً ، وإنما حسبتم أنها الأولى والأولى فقط ، فأذهبتم فيها كل الطيبات ، غافلين عن الآخرة كأن لم تكن شيئاً مذكوراً : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » ( ٣٠ : ٧ ) .

تري وما هي الطيبات الذاهبة الفانية في الحياة الدنيا ، التي كان من المفروض ابقاءها واستثمارها للحياة الأخرى ، والدنيا بما فيها فانية لا تبقى ؟ ! .

إن الطيبات هي طيبة الحياة : روحاً إنسانية وعقلاً ؛ حالاً ومالاً ، وكل ما رزقك الله من مظاهر الحياة ، روحية ومادية ، التي تُتبنى لك حياة سعيدة في العاجل والآجل . ولكنك أذهبتها في هذه الدنيا مبصراً إليها كأنها الحياة فقط ، لا مبصراً بها عمق الحياة ، ولكي تستغلها للآخرة ، مستغلاً لها في الأولى ومستكثراً للآخرة ، فأنت أنت الأحمق الأظفى أغضت عين العقل فأذهبت طيباتك في حياتك الدنيا ، وبدلت نعمة الله كفوفاً ، واستمتعت بها كأنها فقط للأولى ، ولإشباع غريزة الشهوات ، فلم تبق لك أية طيبات ، اللهم إلا خبيثات وخبيثات « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعلهم في جهنم أولئك هم الخاسرون » ( ٣٧ : ٨ ) : « الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة إلا أن الظالمين في عذاب مقيم » ( ٤٢ : ٤٥ ) .

إنكم « استمتعتم بها » بدل أن تستمتعوها ، لتشتروا بها الحياة الأخرى ، فلا متعة لكم منها فيها حيث اذهبتموها في متع الأولى ، وهذه إهانة لنعم الله ومهانة للطيبات تجزون بها جزاء وفاقا :

( فالיום تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض وبما كنتم تفسقون ) : استكبار يخلفه اذهاب الطيبات في الحياة الدنيا تغافلاً عن الآخرة ،

وكما أنه يخلف فسوقاً: خروجا عن طاعة الله، فمعظم الفسوق من مخلفات الاستكبار كما ان الاستكبار من خلفيات الاخلاق إلى الحياة الدنيا : ظلمات بعضها فوق بعض .

إن الاستكبار فسوق عن طاعة الله ، ومروق عن عبادة الله ، فإن الكبرياء ليست إلا لله ، فالجزاء العدل ، الوفاق الفرض ، لمن استكبر في الأرض ، ليس إلا عذاب الهون : هونا على هون ، فمن العذاب ما ليس على هون رغم أنه في نفسه هون ، وذلك للفاسق غير المستكبر .

وقد توحى آية الفسوق هذه بأن الكفار مكلفون بالفروع ، مؤخذون عليها كما الأصول ، حيث الفسوق بالاستكبار ليس إلا عمل المعاصي وترك الطاعات ، كما الاستكبار في الأرض ، نكران للأصول ، واستبداد على الله وعلى عباده ، فلو اختص عذاب الهون بالاستكبار ، لم يك لذكر ( وبما كنتم تفسقون ) مجال ، إذا فهم معذبون بالكل ، دون اختصاص بالجل : الكفر والكفر فقط ، بل والمعاصي أيضاً .

صحيح ان الطاعات لا تقبل إلا الايمان ، فالصالحات بمنعة مع الكفر ، إلا أنها امتناع بالاختيار ، والامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار .

\*\*\*

وَإِذْ كُنَّا أَنْخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَا قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ  
النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي  
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ - ٢١ . قَالُوا أَجِئْتَنَا  
لِتَأْفِكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّمَا تَعِدُّنَا إِن كُنْتُمْ الصَّادِقِينَ - ٢٢ .

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ - ٢٣ . فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْظَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ - ٢٤ . تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ - ٢٥ . وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيهَا إِن مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ - ٢٦ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ - ٢٧ . فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِنْكَامُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ - ٢٨ .

\*\*\*

... تسلييات عاليات لخاطر الرسول الأقدس محمد ( ﷺ ) : بما جرى على هود ( ع ) وعلى قومه بما خانوه وأهانوه وكانوا هم أقوى منهم واطلم وأطغى ، فلم ( الفرقان - ٤٢ )



تغن عنهم قوتهم ولا طغواهم و ثروتهم شيئاً ، وبأحرى هؤلاء الذين ابتلي بهم الرسول محمد ( ﷺ ) .

واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النثر من بين يديه ومن خلفه إلا تعبدوا إلا الله أني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم <sup>(١)</sup> .

( واذكر ) زاداً في سبيل الدعوة ، وحياداً عن الفشل في الحصول على البقية ( اذكر أخا عاد ) : هوداً ( ع ) أخا عاد الأولى ، ولا خبر لنا عن الثانية وإنما الأولى : « إنه أهلك عاداً الأولى » ( ٥٣ : ٥٠ ) مما يوحي بأنهم كانوا أقوى منهم وأظلم وأطغى ، فلقد كانوا أقوى الأقوياء وأشد الأشداء في التاريخ .

« أذكر أخا عاد » : أخوة في الإنسانية والقومية والإقليمية والقراية أم ماذا إلا صالح العقيدة ، فهي بهذا فريها لا تنفع ما لم تكن أخوة الإيمان كما لم تنفع أخا عاد وكذلك أنت مع قومك .

« أذكر . . » ماذا لقي من أخوته من كفر صارم ، وتكذيب عارم ، ثم ماذا لقوا ( بريح صرصر عاتية . . ففزع القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ) ( ٦٩ : ٨ ) وهم كانوا أقوى من قومك مُكنة ورذالة ، وأنت أقوى منه مكانة ورسالة .

( اذكره ) ما طاب لك وطيب خاطرك ولقد ذكر كما أمر بقوله ( ﷺ ) ( يرحمنا الله وأخا عاد ) <sup>(٢)</sup>

( اذكر . . إذ أنذر قومه بالأحقاف ) وتري أين الأحقاف ، وهي الكُثَب المرتفعة من الرمال المعوجة حيث كانت منازل عاد ؟ هل هي ( ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ) ( ٨٩ : ٧ ) وقد كانت مبنية على الأحقاف : أراضي

(١) راجع ج ٣٠ ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٤٣ - اخرج ابن ماجه وابن مردويه عن ابن عباس (رض) قال :

قال رسول الله (ص) ..

الرمول والصخور ، المبنية عليها ارم ذات العماد ، وهي بالشامات ، وعلتها قلعة بعلبك ، أو انها نموذج من تلكم العماد الحجرية المنقطعة النظير في تاريخ الإنسان ؟

أم هي واد بين عمان ومهرة ؟ (١) أو رمال بين عمان وحضرموت ؟ (٢) أو رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن (٣) أو منزل في طريق مكة من القادسية (٤) أم ماذا ؟

(١) يروى عن ابن عباس كما عنه والضحاك انه جبل بالشام .

(٢) نقله في مجمع البيان : وقيل رمال فيما بين عمان الى حضرموت .

(٣) عن قتادة قال : ذكر لنا ان عاداً كانوا احياء باليمن اهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر .

(٤) نور الثقلين ٥ : ١٨ نقلاً عن الخرايج والجرايح ان المهدي الخليفة أمر بحفر بئر بقرب قبر العبادي : ( منزل في طريق مكة من القادسية الى العذيب ) لعطش الحاج هناك ، فحفروا اكثر من مائة قامة فبينما هم يحفرون اذ خرقوا خرقاً واذا تحته هواء لا يدري قعره وهو مظلم وللريح فيه دوي ، فأدلو رجلين فلما خرجا تغيرت ألوانهما فقالا : رأينا هواء ورأينا بيوتاً قائمة ورجالاً ونساء وإبلًا وبقراً وغنماً وكلها مسسنا شيئاً رأيناه هباء فسالنا الفقهاء عن ذلك فلم يدر أحد ما هو . فقدم ابو الحسن موسى بن جعفر ( ع ) على المهدي فسأله عن ذلك فقال : هؤلاء اصحاب الاحقاف ، وهم بقية من قوم عاد ، ساخت بهم منازلهم وذكر على مثل قول الرجلين . وعن تفسير علي بن ابراهيم القمي قال حدثني ابي قال : امر المعتصم ان يحفر بالبطانية بئراً فحفروا ثلاثمائة قامة فلم يظهر الماء فتركه ولم يحفروه ، فلما ولي المتوكل أمر ان يحفر ذلك البئر ابدأ حتى يبلغ الماء فحفروا حتى وضعوا في كل مائة قامة بكرة حتى انتهوا الى صخرة ، فضربوها بالمحول فانكسرت فخرج منها ريح باردة فبات من كان يقربها فأخبر المتوكل بذلك فلم يدر ما ذلك فقالوا : سل ابن الرضا ( ع ) وهو ابو الحسن بن محمد العسكري ( ع ) فكتب اليه يسأله عن ذلك فقال ابو الحسن ( ع ) : تلك بلاد الاحقاف وهم قوم عاد الذين أهلكهم الله عز وجل بالريح الصرصر .

اقول : ولم يثبت احد من هذه الوجوه لأنها قبيلات او اخبار آحاد اللهم الا ما يوحيه القرآن كما بينا ..

القدر المسلم قرآنياً ان الأحقاف هي أودية<sup>(١)</sup> الأراضي التي بنيت عليها ارم ذات  
العماد ، وإذا كانت باقية حتى الآن فقد تكون قلعة بعلبك ، العماد المنقطعة النظير  
في تاريخ الإنسان ، وقد يوحى ببقاءها : « تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا  
لا يرى إلا مساكنهم » : السورة - أن دمرت الصرصر العاتية أشياءهم بأشياءهم  
إلا مساكنهم عبرة للمعتبرين ، إلا أن « لا يرى إلا » هنا ، لا تضمن بقاء الرؤية إلى  
زمن نزول القرآن ، فضلاً عن الآن ، فقد تختص بوقت العذاب ، ولفترة بعد  
تدميرهم ، كما قد توحى له : ( فهل ترى لهم من باقية ) ( ٦٩ : ٨ ) ؟ كلا ! لا  
أشخاصاً ولا آثاراً ، الا دماراً ومخازي وآصاراً ! : ( وفي عاد إذ أرسلنا عليهم  
الريح العقيم . ما تذر من شيء أثت عليه الا جعلته كالريم ) ( ٥١ : ٤٢ ) ثم  
المساكن هي محال السكن : أعم من البيوت ، فقد تعني محال البيوت ، الأودية الأحقاف  
المبنية عليها ارم ذات العماد ، فلو كانت هي البيوت لذكرت كما في ثود : ( إنا دمرناهم  
وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا أنفسهم .. ) ( ٥٢ : ٢٧ ) . ولكن  
البيوت قد يعبر عنها بالمساكن فقد تعني هي أيضاً البيوت : ( وعاداً وثمود وقد  
تبين لكم من مساكنهم .. ) ( ٢٩ : ٣٨ ) فهي مساكنهم مبنية زمن نزول  
القرآن ومرئية ، ولا تتميز مساكن المعذبين إلا ببقاء بقايا من بيوتهم الخاوية ،  
لا أرضاً مستوية أو عوجاء ! فعلها قلعة بعلبك أم ماذا ! مبيئة لحد الآن ومرئية  
ولا نجد مساكن لهم غيرها تناسب أن تكون ارم ذات العماد .

وبما أن الغرض هنا لا يتعلق بمكان الأحقاف ارم ذات العماد ، وإلا لصرح به ،  
فلنسكت عما سكت الله عنه ، إلا ما نعرف من أنهم الشم حماقى الطغيان ،

(١) لقوله تعالى : « فلما رأوه عارض مستقبل أوديتهم » فلتكن الاحقاف هي الاودية التي

بنيت عليها ارم ذات العماد .

فأحقافهم من أشر الوديان <sup>(١)</sup> ثم لا تتأكد من بقاء أثر من عاد .  
 ( وقد خلعت النذر من بين يديه ومن خلفه ) وترى ماذا يعني بين يديه ومن  
 خلفه ؟ هل هم الرسل الذين خلوا قبله ( من خلفه ) وخلوا في انذارهم زمنه  
 ( من بين يديه ) : إذ عاصروه ؟ : ( فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل  
 صاعقة عاد وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم إلا تعبدوا إلا  
 الله . . ) ( ٤١ : ١٤ ) والرسل هنا هم النذر هناك .

فكما لا يعني ( من بين أيديهم ) : هنا الرسل الذين أتوا من بعدهم ، إذ لم  
 يأتوهم وإنما أتوا من بعدهم ، وإنما هم الذين كانوا في زمنهم ، ولا ( من خلفهم )  
 يعنيهم ، وإنما الذين أتوا قبلهم ، فإنذارهم من قبلهم من آباءهم إنذار لهم .  
 فكذلك الرسل من بين يدي هود ومن خلفه ، دون الذين أتوا من بعده ،  
 إذ لا صلة لمن بعده به ولا بهم ولا حجة له ولا لهم ، وإنما الذين أنذروهم حاضرين  
 ثم الذين أنذروا آباءهم ، فلينذروا برسلمهم حاضرين ، أو غابرين حاضرين ، فهم  
 أقرب إلى الهدى ممن لم ينذر آباءهم فهم غافلون ، كقومك اللذ : ( لتنذر قوماً  
 ما أنذر آباءهم فهم غافلون ) ( ٣٦ : ٦ ) .

ودعوة الرسالات الماضية والحاضرة - وكذا المستقبلية هي في صيغة واحدة :  
 ( ألا تعبدوا إلا الله ) دعوة واحدة إلى إله واحد دونها أي خلاف واختلاف ،  
 دعوة مركزة واحدة ثم انذار واحد : ( إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ) .

( ١ ) الدر المنثور - أخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال : خير واديين في الناس  
 وادي مكة ووادية ارم بأرض الهند ، شر واديين في الناس وادي الأحقاف ووادي بحضرموت  
 يدعى برهوت يلقي فيه أرواح الكفار وخير بشر في الناس زمزم وشر بشر في الناس برهوت وهي  
 ذاك الوادي الذي بحضرموت .

أقول : « ارم » هنا لا يعني ارم ذات العماد ، وإلا كان مطروحاً مكذباً على الامام علي  
 إذ لا يقول ما ينافي القرآن : فإن ارم فيه هي بالأحقاف .

و ( يوم عظيم ) في هذه الإنذارات هو القيامة الكبرى ، وبالنسبة لعاد يضاف يوم الصرصر يوم نحس مستمر ، فيوم عذابهم عظيم في الدنيا كما هو عظيم في الآخرة .

ف ( إني أخاف . . ) كما هي مقالة سائر المنذرين بين أيديهم ومن خلفهم ، كذلك هي مقالة هود لعاد إذ يخوفهم بعذاب الدنيا قبل الآخرة وكما قالوا : « قالوا أجنثنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » .

توحي أن وعد عذاب يوم عظيم يختصهم كما طلبوه ، وكما يعهم وسواهم كعذاب عام يوم الآخرة ، فقد يعني اليومين العظيمين معاً ، أو يختص في وعد هود يوم الدنيا ، بعدما وعدهم مراراً وتكراراً عذاب الآخرة .

فيسا لهذا الحق الصارم والكفر العارم أن عاداً يعكفون على آلهتهم كأنها الحق القاطعة ، دونما خوف من عذاب يوم عظيم ، لحد يتهددون نبيهم : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » . فلو أن هندهم احتمالاً لصدق ذلك الوعد لعدلوا عن آلهتهم ، ولكننا القلوب خاوية مقلوبة بما ظلموا ، فهم في نظرة العذاب ، ويزعمون أن هوداً هو الآتي بالعذاب ، وكأنه إله مع الله ! .

« قالوا أجنثنا لتأفكنا » تصرفنا كذباً وافتراء « عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا » من عذاب يوم عظيم « إن كنت من الصادقين » في نبوتك وانباءك :

« قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنني أراكم قوماً تجهلون »  
« قال إنما العلم عند الله » : لا يعدوه إلى سواه وإن كان نبي الله ، ف « إنما العلم » : علم العذاب الموعود : ما هو ؟ كيف هو ؟ متى هو ؟ كل ذلك ( عند الله ) ! ( وأبلغكم ما أرسلت به ) من وعد العذاب والوعد فقط ، فلست أعلم ما هي حقيقة العذاب الموعود ؟ ولا شكله وكيفيته ؟ ولا متى يحين حينه ، إنما ( وأبلغكم ما أرسلت به ) : بلاغاً وإنذاراً وعذاباً أم ماذا ! : وكما في

نوح واضرابه : ( قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين ) ( ١١ : ٢٣ ) .

وهذه هي السنة العامة في معجزات المرسلين ، انها من أفعال الله الخاصة وليست من أفعالهم ، وانما تجري باذن الله على أيديهم أم بوعدهم تثبيتاً للحجة ، وايضاحاً للمهجة ، اللهم إلا ما يظهر الله تعالى على غيبه من يشاء منهم ، وكما أرى ابراهيم كيف يحيي الموتى أم ماذا (١) .

ف ( انما العلم ) علم المعجزات ، كل العلم وبكل المعجزات ( عند الله ، وليس عندي .

( و ) انما ( أبلغكم ما أرسلت به ) : من وعد العذاب ووعدده فقط : ( ولكني أراكم قوماً تجهلون ) :

فيا لآية العلم هذه من زوايا ثلاث ، قارعة حجتهم الداحضة : أولاً بانحصار علم العذاب الآية بالله ، ثم انه ليس إلا مبلغاً عن الله ، وأخيراً ( ولكني أراكم قوماً تجهلون ) ! : تجهلون لاعن جهل قاصر : الجاهل جهله ، وانما عن تجاهل مقصر ، وهكذا الأثرية الساحقة من الكافرين ، أنهم متجاهلون تقصيراً ، لا جاهلون قصوراً : ( ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا ان يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ) ( ٦ : ١١١ ) إذاً فأقلهم جاهلون وهم القاصرون ! .

إنه ليس في حجتي ما ترتابون ، ولا عندكم ما به تحتجون ( ولكني أراكم قوماً تجهلون ) في كل ما تقولون وتقرحون من أقوالكم وأفعالكم ، متخبطين فيها : ( وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ) ( ٢٧ : ١٤ ) ( وتلك عاد

(١) قد نشبع البحث عن المعجزات حقه في محالها الأنسب انشاء الله تعالى .

جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد. وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود (١١ : ٦٠) .

أراكم تجهلون وحتى مصالحكم في الحياة الدنيا ، إذ تطالبون أخاصكم المرسل إليكم بكل رفيق وحنان ، تحقيق وعد العذاب عاجلاً غير آجل ، متهددين بإياه : لو لم يأت به فهو كاذب في وعده ! .

ترى كيف تجهلون مدى وعدي ؟ فلم يكن إلا وعداً غير موقت ، وأن الله يأتي به إذا شاء لا أنا ، ولكنكم قوم تجهلون لغة الإنسان ، فتستعجلون إلى ما تهوون غصاً عما توعدون ، ثم تكذبونني سلفاً إن لم آت بما تفترحون ، وإن في ذلك جهالات وحقائق :

١ - وعدتكم أن الله يأتي بعذاب ، وأنتم تطالبونه مني : (فأت بها) ٢١ - ولم يكن الوعد مؤقتاً وأنتم تستعجلون : (فأت بها) وإذا لم استعجل فتكذبون : «إن كنت من الصادقين» : ثالث الحماقة الجهالة . لاحظت بمنك الحجة البالغة «أنها العلم عند الله» وليس عندي علم لا باتيان العذاب ولا بوقته «وأبلغكم ما أرسلت به» من رسالات الله ومن وعد العذاب من الله غير موقت : «ولكني أراكم قوماً تجهلون» !

فلنفرض أنني ما جئت بالعذاب ، فكيف أكون كاذباً وليس التعذيب من شأني ؟ أو أجعل عنكم العذاب فكيف لا أكون صادقاً وليس التمعيل من شأني ؟ .

ثم وفي تعجيل العذاب كما عجل به عجلة دماركم فماذا توبجون ، أفألهتكم هي التي تنجيكم من بأس الله ، «إفكاً آلهة دون الله تريدون» ! كما ولستم في تأجيله تخسرون وتكذبون ، إذ لم يكن الوعد كما تستعجلون ، فأنتم أنتم الخاسرون في

عاجل العذاب وآجله ، فكيف تحمقون في مجابهة رسولكم الناصح الأمين ،  
متهددين إياه بالكذب لو لم يأت بها تهوون ، مواجهة الحجة بالتهديد الهاتك ،  
والتشديد الفاتك .. « ولكني أراكم قوماً تجهلون » !

فلو وقفتم عند حد فيما تجهلون ! ولكنها مستمرة وحتى إذا جاءكم تحسبون  
عارضاً يطر كم :

« فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطراً بل هو ما  
استعجلتم فيها عذاب أليم » .

« فلما رأوه » : العذاب الموعود ، والمستعجل به رأوه « عارضاً » سحاباً  
يعرض في الأفق ثم يطبق في السماء « مستقبلاً أوديتهم » : تستقبل مخازن مياههم  
وكانها موجهة لها لتمطرها وتلأها ماء ، وذلك بعدما أصابهم حر وعطش شديد  
« قالوا » : استبشراً بعارض ممطر بعد جدد ، واستهزاء بهود : « هذا عارض  
ممطراً » تنديداً برسولهم وتكذيباً ، فإذا بهم يسمعون منه بإعراض عن عارضهم  
الممطر « بل هو ما استعجلتم به » من عذاب الموعود : « ريح » وليس سحاباً  
عارضاً ، وإنما من ثغنها وتكائفها خيل اليهم انها سحاب « ريح فيها عذاب أليم » :  
تحمل أليم العذاب .

... وإنما « ريح صرصر عاتية » سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً  
فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية «  
( ٦٩ : ٨ ) .

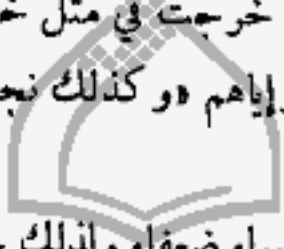
« وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته  
كالرميم » ( ٥١ : ٤٢ ) وهي ريح : « تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا  
يرى إلا مساكنهم وكذلك نجزي القوم المجرمين » :

تستقبلهم عاصفة مدمرة مزجرة ، وقد بلغوا في حقهم لعقمهم أن حسبوها



عارضة ممطرة ، وهم أولاء ضحايا الزمجرة ، فأنحسموا حسوماً صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية ، ورمم بالية « فهل ترى لهم من باقية ؟ اللهم لا إلا باقية ! . إن الصرصر العاتية دمرتهم - كما تدمر كل شيء - بحيث لا يرى إلا مساكنهم : الأحقاف المبنية عليها إرمهم وبيوتهم ، فالتدمير الإستئصال هو من طبيعة الريح الصرصر العقيم العاتية « ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » فهل إنها ما أتت بيوتهم حين أتتهم ؟ ! أو أنها لم تكن شيئاً حتى تدمره ، أو أنها في غير رميمها تحولت معهم رميمات فلا يرى إلا الرميم ، مساكن وأجساداً ، أو بقيت من مساكنهم ما قدل على تدمرهم وتدمرهم ، وعله أولى لما قدمناه <sup>(١)</sup> .

ومن عجيب الأمر أنها « خرجت في مثل خرق الإبرة .. » أو « مثل الخاتم » <sup>(٢)</sup> فدمرت أشياءهم وإياهم « وكذلك نهجزي القوم المجرمين » في دنياهم ، فأولى لهم في آخرهم ! .

وترى هل كان هؤلاء الأغبياء ضعفاء ولذلك حسموا ؟ كلا ! وإنهم كانوا أقوى الأقوياء وأقوى منكم :  تحقيق كامبوتر علوم إسلامي

« ولقد سكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون » <sup>(٣)</sup> .

(١) تناصراً من آيتي المساكن المراثية لحد الآن والثانية : « وعاداً وغمود وقد تبين لكم من مساكنهم » اللهم الا ان يعني تبين البيان القرآني ، لا الابصار العياني .

(٢) روى الاول ابن بابويه القمي في من لا يحضره الفقيه عن رسول الله (ص) والثاني في الدر المنثور ٦ : ٤٤ - اخرج الطبراني رابو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) . اقول : واجع ج ٣٠ آيات عاد في سورة الفجر و ج ٢٩ من سورة الحاقة .

(٣) لقد ذكرت عاد في ٢٤ موضعاً من القرآن ، وهذا دليل ان لهم موضعاً عظيماً من الكفر والعناد ، ومن العذاب الشديد .

آية التمكين هذه توحى أن عاداً كانوا امكن من هؤلاء واسمع وابصر وافأد، ولأنهم كانوا يجحدون بآيات الله ويستهنئون ما أغنت عنهم ما فضلوا به من مكنة السمع والأبصار والأفئدة وسواها ، وحاق بهم ما كانوا به يستهنئون ، فأولى لهم اولاء : قوم الرسول محمد ﷺ ألا تغني عنهم مكنتهم وهي اضعف واقل قدراً ، فما هي مكنتهم الأقوى ؟ وما هي قوتهم في الثلاثة الاخرى ؟

انهم - مع الآخرين المهلكين - كانوا احسن اثاثاً ورعياً : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم احسن اثاثاً ورعياً » (١) (٢٣: ١٩) وأشد قوة وآثاراً : « اولم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم اشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق » (٤٠ : ٢١) ..

ولأن عاداً ألعن حماقى الطفغيان فليكونوا هم من اشدهم قوة وآثاراً في الأرض ، واحسنهم اثاثاً ورعياً ، فأشدهم عذاباً في الآخرة والاولى .

هنا نتبين ان « إن » تنفي عن الحاضرين زمن وحي القرآن المكنة التي كانت عند عاد ، فقوله من قال : انها زائدة ، فارغة زائدة ، اذ تنافي بلاغه القرآن وفصاحته ، ولا تلائم الآيات الاخرى التي تؤكد أن عاداً كانوا اشد واقوى ، على أن المساواة في المكنة بين الغابرين والحاضرين لا تفيدهم عبرة .

ثم المكنة الأشد في عاد تعني القوى العقلية والعلمية والجسمية : « أشد قوة » وقوى الجمال والمال والآثاث : « أحسن اثاثاً ورعياً » ومن ثم الآثار أية آثار : « أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض » : « ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه » . ولعل آثار بعلبك من تلكم الآثار ، التي تحدث عن آصارهم في حمل هذه الآثار : فكم من ضحايا رضخوا بدماءهم حمل هذه الصخور الضخمة ، وكم من

(١) الرعي هو الجمال والمنظر الحسن كما عن الامام الباقر ( ع ) .

اشلاء فرشت لكي تقوم تحتها هذه العماد في إرم عاد ؟ ! .  
ولقد جمعوا الكمال عقلاً وجسماً ، والجمال رأياً ورءياً ، أكمل من هؤلاء  
وأجمل ، فلم تك تغن عنهم لا مالههم ولا مالههم من رأي أو رأي ، ولا قوتهم في  
العقل والمال والجسم .. ولأنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا بها ..  
ثم الثلاثة الاخرى : السمع والابصار والأفئدة ، لا بد وأنها - كذلك - أقوى  
ولكي تزيدهم قوات إلى قوات ، وإلا لم يكن لذكرها مجال ، وبعد التمكين في  
الأرض قوة وآثاراً ، لأنهم والحاضرين ومعهم الناس ، هم مشتركون في أصول  
هذه الثلاث ، وإنما الاختلاف في الدرجات : « ورفع بعضكم فوق بعض درجات  
ليبلوكم فيما آتاكم » ( ٦ : ١٦٥ ) : درجات في مختلف الطاقات : سمعاً وبصاراً  
وأفئدة أم ماذا ، وقد تحول إلى دركات كقوم عاد ، الذين بدلوا نعمة الله كفراً  
« إذ كانوا يجحدون بآيات الله » ولم يستفيدوا من هذه الدرجات إيماناً بالآيات وحاق  
بهم ما كانوا به يستهزئون ، وكان حقاً عليهم ما حاق بهم ! .

لأنهم كانوا أسمع من هؤلاء بأذان مداركهم ، وأبصر بأبصارها ، وأفئدة  
بقلوبهم المتفئدة : المتوقدة بأنوار العلوم المادية « فما أغنى عنهم سمعهم ولا  
أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء » : ما أغنت عنهم في دفعهم إلى الإيمان إذ لم  
يستعملوها في التسمع للآيات والتبصر بها والتفؤد لها ، وإنما أخذوا بها إلى الحياة  
الدنيا فجمعوا لها غافلين عن الاخرى ، فما أغنت عنهم في دفع العذاب ، كما لم  
يندفعوا بها إلى الصواب والثواب .

كذلك والحاضرون والمتحضرون ، الذين بلغوا من المكنة ، وفي السمع والأبصار  
والأفئدة - بلغوا قمتها ، فيسمعون الأصوات من مشارق الأرض ومغاربها من  
الإذاعات ، ويبصرون صورها من التلفزيونات ، ويعقلون ويعلمون مختلف العلوم  
والاختراعات بالأفئدة : المتوقدة بأنوار العلم ، وعلى أضواء هذا المثلث تمكنوا فيما

لم يمكن فيه انسان التاريخ فيما نعلم .

كذلك هؤلاء لا تغني عنهم حضاراتهم بحذافيرها من شيء ، ما هم مكذبون بآيات الله وجاحدون ، وسوف يحقق بهم ما كانوا به يستهزئون : « بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون » ( ٨٤ : ٢٣ ) .

فالعبرة التي يستفيد منها كل ذي مكنة ، وكل ذي سمع وبصر وفؤاد ، ألا يغتر ذو قوة بقوته ، ولا ذو مال بماله ، ولا ذو علم بعلمه ، فإنها قوى من قوى الكون ، لو لم تجر في مجاريها ، والسنن التي سننها الله ، لرجعت عذاباً وقبأباً تدمر كل شيء ، كما فعلت بعاد وثمود !

فتلك عاد تدمروا وتدمروا ، تسمعون أخبارهم وترون آثارهم ، ولكي تعتبروا بهم وبأضرابهم :

« ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون »

ترى ماهي الصلة بين « أهلكنا ما حولكم » و « لعلهم يرجعون » ف « هم » أولاء قوم عاد و « كم » هم الحاضرون في الخطاب ؟ ثم وكيف يرجع المهلكون بعد هلاكهم اللهم إلا إلى الله يوم الدين ؟ .

إن « ما حولكم » تشمل قرى عاد وسواهم من المهلكين ، ولقد صرف الله لهم من آياته قبل أن يهلكهم « لعلهم يرجعون » فلما بقوا على ما طغوا ولم يرجعوا أهلكهم الله .

ومن ثم في « أهلكنا ما حولكم » : المخاطبين بوحى القرآن ، تذكير لهم بما جرى على القرون من قبلهم قبلهم لعلهم يرجعون ، وإلا فشم الهلاك الدمار كما أهلك ما حولكم فما لكم لا تؤمنون ؟

وتصريف الآيات هو صوغ آيات النبوات وسائر الآيات في صيغ مختلفة حسب البيئات أو الطلبات ، آيات تتوارد وتترى « لعلهم يرجعون » عن غيهم

ولكنهم... صرفناها لهم لينصرفوا ، إلا أن صيغة الكفر المعاند لا تنصرف ،  
إلا إلى جهنم وبئس المصير .

« أهلكنا ما حولكم » كعاد بالأحقاف - ارم ذات العماد ، وثمود بالحجر ،  
وسبأ باليمن وفي مدين أم ماذا ، وهي من القرى التي كانت حول أم القرى ،  
قرية منها أو بعيدة عنها ، فإنها أم القرى كلها ، كما الرسول ( ﷺ ) أرسل  
« لتتذر أم القرى ومن حولها » : كل القرى فإنها أياً كانت فهي حول المركز  
الرئيسي للدعوة الإسلامية العالمية .

ولكننا القرى الهالكة حولكم ، القرية تكفي عما هي بعيدة عنكم ومنها  
الأحقاف ومنها... « فهل ترى لهم من باقية » ؟ .. وهل نصرتهم آلتهم أم ضلت عنهم  
وألهت ؟ :

« فلو لا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً لآله بل ضلوا عنهم وذلك  
إفكهم وما كانوا يفكرون »

وكيف ينصرونهم في بأسهم وهم أولاء كانوا لهم جنداً محضين ، يكفثون  
عنها بأس الحاضرين لكسرها ، فمؤلاء الآلهة القربان « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى  
الله زلفى » كيف لم تقرب عابديها إلى الله أو تشفع لهم أو تنفعهم حين بأسهم كما  
كانوا لها جنداً محضين ؟ .

« بل ضلوا عنهم » : حين البأس : ضللاً عن كونها إذ دمرت بتدميرهم ،  
وعن كيانها - باحرى - إذ ضلت الوهيتها المؤتفكة : واقعياً إذ ما أثرت ، وفي  
ظنهم : إذ عرفوا أنهم خاطئون ، فحين البأس الموت تكشف الحقائق ، ثم البرزخ  
معرض الكشف التام ، ثم في القيامة الاثم : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا  
عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » متحللاً عن الكلال التي كانت من علل منك  
أو من حجاب الحياة الدنيا .

( وذلك ) المشهد المهيمن حين الهلاك - انه حقيقة ( افكهم وما كانوا يفترون ) حيث الافك والغربة ، الظاهر ان يوم الدنيا بمظهر الحق ، سوف يبرزان بالمظهر الحق : ( يوم تبلى السرائر ) ( ٨٦ : ٩ ) ف ( لا تخفى منهم خافية ) .

( وذلك افكهم ) : ضلال آلهتهم وضلالهم - اذ يظهر ان بمظهر الحق ولحدّ هم يصدقون : ( حق إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ) ( ٣٧ : ٧ ) .

( وذلك ) الدمار المخزي البعيد - على تبين ضلالهم بضلال آلهتهم ( ذلك ) حقيقة ( افكهم وما كانوا يفترون ) ( ضعف الطالب والمطلوب ) - يوم تظهر الحقائق دون حجاب ، فلاهل الحق الثواب ، ولهؤلاء الآفكين المفترين التباب !

لقد انتهى يوم الفوضى الضلال ، الذي كان يعيشه الضالون بكل رعونة ودلال ، تحسبونهم انهم اهل الحق وسائر الناس ضلال ، لكنهم : ( وذلك افكهم وما كانوا يفترون ) .

مرکز تحقیق کامپیوتر علوم اسلامی

\*\*\*

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ - ٢٩ .  
قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ - ٣٠ .  
يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ - ٣١ . وَمَنْ لَا يُجِبْ

دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ  
 أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ - ٣٢ . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ  
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى  
 أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - ٣٣ .  
 وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا  
 بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ - ٣٤ .  
 فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ  
 كَانْتُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ  
 نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْدَى إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ - ٣٥ .

\* \* \*

.. جولة جديدة فيها استماع الجن للقرآن فرسالتهم إلى سائر الجن ، تجده  
 بالإنسان السير نحو التصديق بالقرآن الذي جاء له كاصل وللجن فرعاً ، فمشهد  
 الفرع المصدق للقرآن يدفعنا للايمان أكثر مما كان .

« وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا  
 أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين » .

الصرف هو رد الشيء من حالة إلى أخرى أو من مكان إلى آخر ، مما يصرفنا  
 عن القول : إنه كان وحياً للجن أن ينصرفوا إلى الرسول ﷺ لاستماع القرآن ،  
 وإنما هو إلهام لهم إلهي : أن ينصرفوا من حالتهم السابقة ، البعيدة عن الرسول

ﷺ إلى قربه ، وأن يحضروا محضر قرآنه المبين ليتبينوا ، وإذ ليس الوحي لأم موسى : « أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » ، ليس هذا وحياً رسالياً يحمل رسالة إلهية يحملها المرسلون ، فبأحرى ألا يكون صرف الجن وحياً رسالياً وإن كانوا قبل الإسلام أنبياء مرسلين إلى قومهم ، حيث الوحي بحذافيره انقطع عن غير محمد ﷺ منذ بزوغه له وحتى القيامة الكبرى ، اللهم إلا إلهامات تخص المؤمنين حسب الدرجات ومنهم رسل الجن ، إذ بعثهم الرسول ﷺ إلى قومهم منذرين ، وقد كانوا يلمسون السماء لاستماع الوحي ومحادثات الملائكة الأعلى ، قبل هذه الرسالة الأخيرة ثم منعوا : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً » ( ٧٢ : ٩ ) .<sup>(١)</sup>

ومن لطيف التعبير هنا وفي غيره ( صرفنا ) أم ما يؤدي معناه ، دون ( أوحينا ) وإن كان كوحى الأرض أو النحل أو أم موسى أم ماذا ومن ذا ؟ تأكيداً لحتم الوحي بخاتم المرسلين ، فلا يؤتى حتى بلفظه ، الشامل للوحي الرسالي والإلهام ، ولكي يسد كل ثغرة من فكرة الوحي بعد الإسلام ! فلا تجد صيغة الوحي لما ألهم إلى أيٍّ من الملمهين بعد الإسلام على جلالة أقدارهم ، رغم ما تجدها لما قبل الإسلام ، وحتى بالنسبة للنحل وللأرض ! اللهم إلا وحي الشر من أهله إلى أهله ( وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ) ( ٦ : ١٢١ ) تأشيراً أن كل وحي يدعى بعد الرسول ﷺ فإنما هو من شيطان إلى شيطان وليس من الله في شيء ! .

(١) التفصيل الى سورة الجن ج ٢٩ من الفرقان .



ثم النفَر من الجن هنا هم النفَر الذين فصلت نفَرهم سورة الجن: انزعاجاً من الجَو الطائش الفوضى إلى أمان وحي القرآن ، فلم يكن مصادفة عابرة ، وإنما صَرفاً من الله لهم مقصوداً ، ولأنهم كانوا من أصفى الأصفياء بين الجن ، وإلا لم يصرفوا لحمل رسالة القرآن من الرسول إلى قومهم ، دون سواهم .

لقد صُرفوا إليه ﷺ وهو يقرأ القرآن في ( حُجُون ) بمكة وكما يروى عنه ﷺ : ( بت الليلة أقرأ على الجن رفقا بالحجون ) (١) دون أن ينصرف هو ﷺ إليهم رغم ما قد يروى (٢) حيث ( إذ صرفنا ) دون ( صُرفت ) !.

وترى كم عدد المصروفين من نفَر الجن - علماً بأن النفَر لا يقل عن ثلاثة ولا يزيد عن عشرة - ؟ انهم جماعة من رجال الجن يمكنهم النفَر لتلقي هذه الرسالة السامية ، وليرجعوا إلى قومهم منذرين ، وبما أن النفَر يضمن معنى الجهاد ، فليكن في صرفهم إلى الرسول جهاداً ، مصروفين إليه ومنصرفين عنه ، وهل تكفي ثلاثة واضراباً لذلك النفَر الجهاد ، وضد الجن الكافرين ؟ لعله وينصر الله ! ولكننا الحال تقتضي أن يكونوا أكثر عدد تحملهم لغة « النفَر » وهم تسعة أنفار ،

(١) الدر المنثور ٦ : ٤٤ - أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود (رض) قال سمعت رسول الله (ص) يقول: .. وأخرج ابن مردويه في الدلائل والبيهقي عنه أنه سئل ابن قرء رسول الله (ص) على الجن فقال : «قرأ عليهم بشعب يقال له الحجون» .  
أقول : وأنا أفسر هذه الآيات في شعب الحجون بمكة المكرمة حيث الآن بيتي ، بمقربة مسجد الجن ، وقد يروى عن علي عليه السلام وابن مسعود وابن عباس أنه بطن نخلة ، وعن كعب الأحبار أنهم انصرفوا من بطن نخلة إلى قومهم منذرين فخرجوا بعد وافدين إلى رسول الله (ص) فانتبهوا إلى الحجون ، مما يدل على أنها شعب واحد باسمين أشهرها الحجون كما هو الآن « شعب الحجون » .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٤٤ - أخرجه عبد بن حميد وأحمد ومسلم والترمذي عن علقمة في حديث عن ابن مسعود (رض) أنه (ص) قال: أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ..

كما ويصدقه صحيح السنة وقد سماهم الإمام علي (ع) <sup>(١)</sup> وإن كان العدد هنا ليس غرضاً يقصد ولو كان لبان ، وإن كان قد تؤيده آية اللبّد <sup>(٢)</sup> إذ تجمعوا على الرسول ﷺ يستمعون القرآن بعضهم لصق بعضهم كلبّد الأسد ، كتابة عن كثرتهم ، لكنها ليست أكثر من عشرة لمكان النفر خلاف ما قد يروى <sup>(٣)</sup> .

« صرفنا .. يستمعون القرآن » فلم يكن الصرف إليه ﷺ إلا لاستماع القرآن ، ولا الإنصراف إلا للإنذار بالقرآن ، ولأنه الحجة الواقية لإثبات وحيه ، ورسالة نبي القرآن .

« فلما حضروه » : القرآن ونبي القرآن ، فهما هنا معاً محتملان ، إذ صرفوا إليه هو ، يستمعون القرآن « فلما حضروه قالوا انصتوا » : لاستماعه ، إنصاتاً بالسنتهم فلا يتكلموا ، وبقلوبهم فلا ينشغلوا ، لكي يستمعوا القرآن بأسماع

(١) الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عن أمير المؤمنين (ع) في حديث .. فأقبل إليه من الجن التسعة من أشرفهم واحد من جن نصيبين والثمان من بني عمرو بن عامر من الأحبة منهم شضاء ومضاة والمملكان والمرزيان والمازمات ونضاة وهاضب وهاضب وعمرو ، وهم الذين يقول الله تبارك اسمه فيهم : « وإذ صرفنا إليك نفراً » وفي الدر المنثور ٦ : ٤٤ - أخرج ابن أبي شيبة وابن منيع والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن مسعود في حديث قال : « كانوا تسعة » وأخرج مثله الطبراني والحاكم وابن مردويه عن صفوان بن المعطل . ومثله - أخرج الواقدي وأبو نعيم عن كعب الأحبار .

(٢) هي قوله تعالى : « وأنه لما قام عبد الله كادراً يكونون عليه لبداً » أن رسل الجن هم كانوا من لبّد الخير في سائر اللبّد (راجع تفسير سورة الجن) وقد أخرج في الدر المنثور عن عدة طرق عن الزبير .

(٣) كما أخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس (رض) قال : كانوا تسعة عشر ، وما أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال : هم اثنا عشر ألفاً من جزيرة الموصل .

آذانهم ، ومنها إلى قلوبهم ، حتى يعوه ويحفظوه إستعداداً للإنذار « فلما قضي »  
القدر الذي قضي لهم باستماعه « ولوا إلى قومهم منذرين » :

فليكن القرآن الذي سمعوه قرآناً جامعاً لما يتطلبونه : حجة الرسالة ، وهكذا  
كل القرآن ! مخاطباً إياهم في خطاباته وإيحاآته ، فليكن منه سورة الرحمان <sup>(١)</sup>  
ولذلك تراهم - لما قضي - « ولوا إلى قومهم منذرين » ، تحمل قلوبهم ومشاعرهم  
ما لا تطيق إلا تصديقه والإسراع في إبلاغه ، وإنها هي حالة امتلاء الضمير بما  
يملي عليه املاءه للآخرين ، فيأله من قول غلاب قاهر بليغ ، تدخل حشاشته  
القلوب ، فتقلبها إلى مقلب القلوب !.

وما هي صيغة الانذار ، الغلابة الخلابة ، المحركة لقلوب المنذرين ، دونما  
آية أخرى ، إلا هي نفسها ؟ إنها : !

« قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه -  
يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم » ... : « فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجيباً .  
يهدي إلى الرشـد فأمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً » <sup>(٢)</sup> .

كيف - والقرآن أنزل من بعد عيسى ، قالوا - : « أنزل من بعد موسى » ؟ ألا أنهم  
كانوا هوداً ناكرين إنجيل عيسى ؟ وهذا مس من كرامة مرسلي الجن أن يكونوا  
كفاراً ، والمرسلون هم المصطفون ! فليكونوا ممن آمن بنبوات تترى ، فإيماناً  
بعيسى (ع) بعد موسى ، ثم انصرفاً إلى خاتم الأنبياء !

أم لأن القرآن يشابه كتاب موسى (ع) إذ يحمل شريعة الناموس كأساس ،

(١) في مجمع البيان روى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : فلما قرأ رسول الله  
(ص) الرحمن على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئاً فقال رسول الله (ص) : الجن كانوا أحسن  
جواباً منكم ، فلما قرأت عليهم : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » قالوا : « لا ولا بشيء من  
آلائك ربنا نكذب » .

(٢) راجع تفسير سورة الجن ( الفرقان ج ٢٩ ص ١٣٢ ) .

وكتاب عيسى لا يحملها ، وإنما يدعو إلى كتاب موسى دون زيادة إلا دعوات أخلاقية ، وتحليلات لبعض ما حرم إبتلاءً في كتاب موسى (١) ، فلأن الإنجيل لا يحمل شريعة جديدة تنسخ شريعة التورات وإنما تكملها أخلاقياً ، اعتبره رسل الجن هنا استمراراً لشريعة موسى ، إذ أن القرآن كتاب أنزل من بعد موسى ، وهذا هو حق المعنى في انتقالهم إلى القرآن بعد كتاب موسى ، تلميحاً مليحاً أنه الشريعة المفصلة المستقلة بعد التورات « مصدقاً لما بين يديه » من الإنجيل والتورات « يهدي إلى الحق » : الشرع الثابت الذي لا حيول عنه ولا تحويل « وإلى طريق مستقيم » على طول الخط بيننا وبين القيامة الكبرى ، لا عوج فيه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » !.

ولا يعني تصديق القرآن لما بين يديه ، تصديق الموجود من كتب الأنبياء ، المحرفة عن جهات إشراعتها ، وإنما « بين يديه » ما أوحى إليهم ، تصديقاً لوحيتها ، لا تثبيتاً للعمل بها ، اللهم إلا الأحكام التي لم تنسخ منها

وترى كيف عرفوا أن القرآن نزل ككتاب موسى ؟ لأنهم آمنوا من قبل بكتاب موسى ، بالآيات الكبرى التي أتى بها موسى ، ثم قايسوا ما سمعوه من القرآن إلى كتاب موسى ، فأدركوا صلة عريقة بينهما في أصول الدعوة وجماع من فروعها ، وأنها من تلك النبوة التي نبع منها كتاب موسى ، بل وأحرى ، فإذا كان كتاب موسى وحياً وليس فيه آيات النبوة إلا قليلاً ، فليكن القرآن وحياً وهو كله آيات للنبوة : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين .. » قياس ناجح بين

(١) وكما يقول تعالى حكاية عن عيسى ( ع ) : « ولا حل لكم بعض الذي حرم عليكم » وهو الذي حرم عليهم ابتلاء لا أصلاً يبقى : « وعلى الذين هادوا حرمنا » .

القرآن وكتاب موسى ، دون حاجة في القرآن إلى بينة سواء ، مهما احتاجت التوراة إلى بينات سواها ! .

فالإيمان بالقرآن ، فبمن أنزله ومن أنزل عليه ، إنه استجابة طبيعية مستقيمة لسماع القرآن ، وعياً في النفس لمن استقامت فطرته ، دون حاجة إلى حجة سواء ، بل هو حجة الحجج تدل لوحياً بنفسها كالشمس في رابعة النهار ! .  
« يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب اليم » :

« داعي الله » هو رسول الله ﷺ بكتاب الله ، فهما - إذاً - هما داعيا الله :

وأما رسول الله ف: « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة .. » ( ١٢ : ١٠٨ )  
« قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً » ( ٧٢ : ٢٠ ) « إليه أدعو وإليه مآب » ( ١٣ : ٣٦ ) « وانك لتدعوهم إلى صراطٍ مستقيم » ( ٢٣ : ٧٣ ) فهو يدعو الناس بكتاب الله إلى الله ، « يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ » ( ٣ : ٢٣ ) دعوة بإذن الله : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » ( ٣٣ : ٤٦ ) .  
وأما كتاب الله ، فهو هو الأصل في مادة الدعوة ، لولاه لم تكن رسالته ولا دعوة ، فإنه بينة الداعية وحجة الدعوة : « وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن » ( ٢٧ : ٩٢ ) « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ( ٥٠ : ٤٥ ) .

وإن دعوة الله لا سواء ، بينة في رسول الله وفي كتاب الله ، داعيتان تحملان بينات من الله مع بعض ، كما يشهد بعضها لبعض ، فرسول الله هو هو كتاب الله ، كما كتاب الله هو رسول الله ف: « يا قومنا أجبوا داعي الله » : داعيا الله ! .  
( أجبوا داعي الله وآمنوا به ) إجابة الدعوة إسلاماً باقرار ، وإيماناً بها

تصديقاً بالجوانح والجوارح ، فلا فحسب اسلام الإقرار ، ولا إيمان التصديق ، بل وإيمان العمل أيضاً : مثلث الإجابة : لساناً وقلباً وأركاناً بدرجاتها :

( يغفر لكم من ذنوبكم ) وإنما ( من ذنوبكم ) : بعضاً - لا ( ذنوبكم ) : كلا - لأن الذنوب تشمل ما تقدم قبل الاستجابة وما تأخر بعدها ، وليس الله ليغفرها كلها بمجرد الاستجابة للداعية والإيمان أياً كان ! وإنما يُغفر ما تقدم أصلَ الإيمان الاستجابة : ( قل الذين كفروا أن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف ) ويغفر بعض ما تأخر لذلك الأصل ، ولأنه من أكبر الحسنات ( إن الحسنات يذهبن السيئات ) ثم يغفر سيئات بمكفرات أخرى بعد الإيمان الاستجابة : ( إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً ) أم ماذا !.

( ... ويحركم من عذاب أليم ) على ضوء الاستجابة الإيمان وهي درجات ، فغفران بعض الذنوب وإجارة العذاب أيضاً درجات بدرجات دونها فوضى اللاتحساب ، وإنما بحساب عدل ثم فضل ( يا قومنا أجيئوا ) :

« ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين » !

( ومن لا يجب ) ، وهو يعرف أنه داعي الله ، فقد ترك إجابة الله ، والتارك إجابة الله ( ليس بمعجز في الأرض ) : لا يعجز الله في أرضه ولا دعوة الله ولا داعي الله : لا رسولا ولا كتاباً لا في أرضه ، فكيف إذا في سماءه ؟ : ( وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ) ( ٢٩ : ٢٢ ) .

وإنما يعجز ويظلم نفسه أن ترك الداعية ، وعرض نفسه لشفا جرف هار فانهار به في نار جهنم « وليس له من دونه أولياء » : يشفعون له ، أو يحولون بينه وبين

بأس الله ( أولئك ) الحماقى البله عائشون حياتهم ( في ضلال مبين ) قد ( في )  
إيحاء لطيف لفرقهم بضلال ، مهما مشوا في دلال وكأنهم على هدى ، يحسبون  
المجيبين لداعي الله في ضلال .

« أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على  
أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير » .

إن حماقى الطغيان قد يرون ترك الله لهم يوم الدنيا إعجازاً في الأرض فعجزاً  
له عن عذابهم ، ثم ولا يقدر أن يحيي الموتى للجزاء رغم وعده ، ولكنهم « أو »  
لم يروا « مع ما يرون من آثار قدرته وسلطانه » أن الله الذي خلق السماوات  
والأرض « كما هم معترفون : » ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن  
الله « ( ٢٥ : ٣١ ) : ثم « ولم يعي بخلقهن » - « افعيننا بالخلق الأول » ( ١٥ : ٥٠ )  
فالخلق الأول هو في الأولى ، والثاني هو الإعادة خلقاً في الاخرى - والعيا بالأمر  
هو العجز بسببه بعد وقوعه أو مصاحباً عجزاً معرفياً أو في القدرة ، فالذي  
لم يعي بخلق السماوات والأرض ، فهل يعي أن يحيي الموتى ، وقد أحياكم ولم  
تكونوا شيئاً مذكوراً !

أولم يروا أنه ( بقادر على أن يحيي الموتى ) وهو أهون عليه وأدنى :  
( لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ) ( ٥٧ : ٤٠ ) ( بلى ) إنهم  
رأوا وهم فاكرون ( بلى إنه على كل شيء من هذا وذاك ) ( قدير ) .

إن نقى العي بالخلق هنا تعريض بنكران المشركين : كيف وانه خالق  
الكون ، عاجز عن إحياء الموتى ؟ وكذلك بما تسرب في التورات من هذه  
الأساطير الواهية : أنه تعالى استراح في اليوم السابع من خلقه ، كانه عيي بخلقه  
ولغب : ( ولقد خلقنا السماوات والأرض في ستة أيام وما مسنا من لغوب )  
( ٣٨ : ٥٠ ) .

« ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

عرض لهم على النار في الاخرى لتشتريهم ، كما شروا أنفسهم بموجباتها في الاولى ، ثم تعريض بكلمة لاذعة : « أليس هذا بالحق » ثم تحويل لهم إلى النار وبئس القرار : فهم إذأ في ثالث العذاب جزاء من ربك عذاباً وفاقاً ، كما كانوا في الاولى يعرضون أنفسهم على نيران الشهوات ، ويعرضون عن الموعظات تعريضاً بتفككات ، ويذيقون أهل الحق بمختلف العذاب : نفسياً وجسدياً ، فيوم العرض يجمع لهم بين رؤية العذاب - وهو حقيقة أعمالهم - وبين واقعه : يتوسطها سؤال قارع نفوسهم ، عذاباً فوق العذاب ، ثم جواب يلوي أعناقهم ويلدغ أعماقهم : « قالوا بلى وربنا » ! بكل مذلة وارتياح ، يحلفون بربهم الذي كانوا به يكفرون ، إن عذابه هو الحق الذي كانوا ينكرون ، وهنالك الجواب مع انتهاء الحوار البوار : أن وقع الحق وبطل ما كنتم تهرثون واليه تهرعون : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

هذه نهاية الحجة الدامغة القارعة على الذين كفروا ، بعرض البراهين كلها ولحد كأنهم يشهدون مشهد العرض يوم العرض ، ومن ثم تصبير للرسول ﷺ وتسكين لحاظه الشريف عما يلقاه من أذيات ، تصبراً في سبيل الدعوة على عزم كما صبر أولوا العزم :

« فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار فهل يهلك إلا القوم الفاسقون »  
 ألا يا أيها الرسول ! إنه لطريق شاق مرير ، فيه دماء تسيل من أشلاء تفرش فيه ألوان الأذيات والحرمانات ، وفيه ما لا يتصبر عليه إلا أولوا العزم الراسخ وبعون الله « فاصبر » :



صبراً يصمدك في وجه الطغيان، صبراً يقدمك في اجتياز تلك العقبات، فانظر إلى سيرة أولي العزم من الرسل ماذا تحملوا من المشاق والعقوبات « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » : ولقد صبر كما أمر على مكروها ومحبوها <sup>(١)</sup> .

ومرى من هم أولوا العزم من الرسل ؟ من الواضح أنهم أفضلهم قبل أن نعرف معنى عزمهم ، لمكان « من » : فهم بعضهم ، وأن خاتمهم - وهو أفضلهم أجمع - لا يؤمر إلا بتصبر البعض الافضل ، بل وأفضل منهم ، ولأنه يحمل أفضل الشرائع وأعظمها وأعزمها .

ثم العزم هو الثبات والجِد والفرص والصبر والحزم : أن سبقوا الأنبياء في اقرارهم بالله ، وثباتهم دون تفلت في الدعوة إلى الله <sup>(٢)</sup> ، وحزمهم في سبيل الدعوة إلى الله ، وعموم شرعتهم إلى عباد الله <sup>(٣)</sup> واستقلالها عن مضي من يوم ، لقاء الله فبقاء شريعتهم وعزمها حتى يأتي ولي عزم آخر من الله أم إلى

(١) الدر المنثور ٦ : ٤٥ - اخرج ابن أبي حاتم والديلمي عن عائشة قالت : ظل رسول الله (ص) صائماً ثم طوى ثم ظل صائماً ثم طوى ثم ظل صائماً قال : يا عائشة ! ان الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد يا عائشة ! ان الله لم يرض من أولي العزم من الرسل الا بالصبر على مكروها والصبر على محبوها ثم لم يرض مني الا ان يكلفني ما كلفهم فقال : فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - واني والله لاصبرن كما صبروا جهدي ولا قوة إلا بالله .

(٢) بحار الأنوار ج ١١ ص ٣٣ ج ٣٠ عن الامام الصادق (ع) في معنى أولي العزم « أي انهم سبقوا الأنبياء الى الاقرار بالله وأقروا بكل نبي كان قبلهم وبعدهم وعزموا على الصبر مع التكذيب لهم والأذى » .

(٣) المصدر ج ٢٥ عن الامام الصادق (ع) « بعثوا الى شرق الأرض وغربها » « وجنبا وانسها » كما في ج ٦١ ص ٥٦ .

أنبياء الله (١).

فهم إذا أصحاب عزم في طاعة الله ثباتاً على عهده ، لا كآدم ( ع ) : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً » ( ٢٠ : ١١٥ ) : في عهدنا إليه ألا يطيع الشيطان : « وعصى آدم ربه فغوى » ( ٢٠ : ١٣١ ) .

وأصحاب عزم في الدعوة إليه ، لا مثل ذا النون : « إذ ذهب مغاضباً فظن أن نقدر عليه فنادى في الظلمات ألا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » ( ٢١ : ٨٧ ) : من المنتقصين في الدعوة ! .

ثم وأصحاب عزم في شماع الدعوة أن تشمل المكلفين أجمع دون تقلت أحد فإنه خلاف العزم الشامل ! وعزم في أصل الدعوة استقلالاً عن سبق ، وعزم في بقاء الدعوة لفترة طالت أم قصرت ثم تنسخ أم إلى يوم القيامة ، وفي صيغة واحدة : عزم في كل ما تتطلبه الدعوة والداعية والمدعو إليهم ، في مثلث حازم عازم صارم ! .

ولقد دلت آيات ، ومن ثم روايات أنهم سادة النبيين والمرسلين : من دارت عليهم الرحى : « نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ( ﷺ ) » ( ٢ ) :

( ١ و ٢ ) اصول الكافي بإسناده عن سماعة بن مهران قال قلت لأبي عبد الله ( ع ) في قول الله عز وجل : فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل : فقال : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ( ص ) قلت : كيف صاروا أولوا العزم ؟ قال : لأن نوحاً بعث بكتاب وشريعة ، وكل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه حتى جاء إبراهيم بالصحف ، وبمعزية ترك كتاب نوح لا كفراً به ، فكل نبي جاء بعد إبراهيم أخذ بشريعته ومنهاجه وبالصحف حتى جاء موسى بالتوراة وشريعته ومنهاجه وبمعزية ترك الصحف ، فكل نبي جاء بعد موسى أخذ بالتوراة وشريعته ومنهاجه حتى جاء المسيح ( ع ) بالإنجيل ، وبمعزية ترك شريعة موسى ومنهاجه ، فكل نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهاجه حتى جاء محمد ( ص ) فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه ، فعلاؤه حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة فهؤلاء أولوا العزم من

الذين أخذ الله عليهم خصوص العهد بعد عمومه : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . ليسئل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً » ( ٣٢ : ٨ ) .

والذين شرع لهم من الدين دون سواهم : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ( ٤٢ : ١٥ ) .

ثم و « محمد - ﷺ - » آخرهم مبعثاً وأولهم ميثاقاً، فبعثه إلى أرواحهم في الروح كما توحى آية الميثاق : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : « أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » ( ٣ : ٨١ ) فهو رسول مصدق لما معكم : « النبيين » جاءكم في الروح قبل مجيئه بسواه : جاءكم رسولا فأنتم كأمته : ( لتؤمنن به ) ! ولم يؤمر أي نبي أن يؤمن بآخر وان كان أفضل منه، وهو من أولي العزم - إلا تصديقاً بسواه وان كان أدنى منه - اللهم إلا إيماناً بعد تصديق بخاتم المرسلين <sup>(١)</sup> . لذلك تقدمه في ميثاق النبوة آية الميثاق الأخرى : ( ومنك ومن نوح .. ) رغم تأخره في البعثة ! وتنفرد آية الشرعة بـ ( الذي أوحينا ) دون تعميم بـ ( ما أوصى ) كان شرعته

⇒

الرسل . ومثله في عيون أخبار الرضا عنه ( ع ) بزيادة : وهم أفضل الأنبياء والرسل وشريعة محمد ( ص ) لا تنسخ إلى يوم القيامة ولا نبي بعده إلى يوم القيامة فمن ادعى بعده نبوة أو أتى بعد القرآن بكتاب فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه .

والكافي بإسناده عن ابن أبي يعفور قال : سمعت أبا عبد الله ( ع ) يقول : سادة النبيين والمرسلين خمسة وهم أولوا العزم من الرسل وعليهم دأوت الرحي : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وعلى آله وعلى جميع الأنبياء .

( ١ ) التفصيل إلى محله في تفسير آية الميثاق .

فقط هي الوحي ( الذي ) تدور عليه الرحي دون غيرها ، ايجاء بأن الشرائع كلها شرعة من ( الذي أوحينا ) تحمل ( ما أوصى ) الى نوح وسائر الأنبياء الذين دارت عليهم الرحي ، توصيات تنحون نحو ( الذي أوحينا ) فما تقدمها على ( الذي أوحينا ) الا كتحضيرات بخطوات ، تمشي بها تعبيداً لطريقها وتعيداً عليها .

فهي هي كلها وزيادات : نسخاً لشيء من أحكامها الموقته ، واستمرارية التكملة لها كلها لحد لا تنسخ إلى يوم لقاء الله ، مشعة وضاءة على قلوب وأفكار العالمين : <sup>(١)</sup> « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ومهيئاً عليه » ( ٤٨ : ٥ ) هيمنته الإمام على المأمومين ، وكما الله مهيمن على العالمين : ( الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ) ( ٥٩ : ٢٢ ) .

من هذا المثلث البارع في براعة الرسول نعرف أن عزمه أعزم من عزمهم ، وأعظم ، كما شرعته أعظم من شرعتهم وأعزم ، فلا يعني التشبيه : « كما صبر » إلا أصل المشابهة ، لا المساواة في عزمهم ، فإن لكل داعية ودعوة عزمها يناسبها « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » ومن فروعه :

( ولا تستعجل لهم ) : العذاب رغم ما يستعجلون . ف « كأنهم يوم يرون ما يوعدون » إذا هم من أجدائهم إلى ربهم يحشرون ( كأنهم .. لم يلبثوا ) : في الحياة الدنيا وفي البرزخ ( إلا ساعة من نهار ) إذ يستقلون الأولى - مها كانت طويلة - يجنب الأخرى <sup>(٢)</sup> : ( ويوم يحشرهم كان لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ) يتعارفون

(١) اصول الكافي باب الشرايع علي بن ابراهيم بإسناده عن أبي عبد الله ( ع ) قال : ان الله تبارك وتعالى أعطى محمداً ( ص ) شرايع نوح و ابراهيم وموسى وعيسى .. وفضله بفاتحة الكتاب وبخواتيم سورة البقرة والمفصل .

(٢) راجع ج ٣٠ من الفرقان ص ١٠٣ حول الآية « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

بينهم ) ( ١٠ : ٤٥ ) ( ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون ) ( ٣٠ : ٥٦ ) فمها كان لبثهم قليلاً فليس ساعة من نهار وإنما لبث إلى يوم البعث برزخاً وقبلة ، فهو قلة ليست كتلك القلة : ( ساعة ) وإنما يجنب الأخرى ! ( فما بين الأولى والأخرى إلا غمضة عين ) (١) فاغمض عينك في الأولى عما تهوى حتى تقر في الأخرى فيما تهوى - وذلك :

( بلاغ ) للناس أجمعين ، وللناكرين ( فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ) :  
الخارجون عن طاعة الله ، بما خرجوا عن حكم العقل والفطرة ، إذا فليبصر الداعية ، وليصمد في الدعوة ، فما هي إلا حياة خاطفة أياماً قلائل تنقضي فيعذبون بها طويلاً ( فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ) ثم وتنعم أنت والمؤمنون طويلاً ! .

مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

\*\*\*

(١) روضة الواعظين للشيخ ابن الفثال : قيل للنبي (ص) كم ما بين الدنيا والآخرة ؟ قال : غمضة عين ، قال الله عز وجل : كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار .

( سورة محمد - مدنية - وآياتها ثمان وثلاثون )

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ  
سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ - ١ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ  
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ - ٢ . ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ  
يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ - ٣ . فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا  
فَضْرِبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا  
بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ  
اللَّهُ لَأَتَّصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ  
قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ - ٤ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ  
بَالَهُمْ - ٥ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَافًا لَهُمْ - ٦ . يَا أَيُّهَا  
الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ - ٧ .  
وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ - ٨ . ذَلِكَ

بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُحْبِطَ أَعْمَالُهُمْ — ٩ . أَفَلَمْ  
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ  
قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا — ١٠ . ذَلِكَ  
بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ — ١١ .  
إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا  
تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ — ١٢ . وَكَأَيُّنْ مِنْ قَرْيَةٍ  
هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا  
نَاصِرَ لَهُمْ — ١٣ . أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ  
زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ — ١٤ . مَثَلُ الْجَنَّةِ  
الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ  
لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ  
مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ  
رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ  
أَمْعَاءُهُمْ — ١٥ .

إنها سورة « محمد » إذ تفتتح بفرض الإيمان به كشرط أصيل للإيمان بالله والعمل الصالح ، وإلا : فـ « أضل أعمالهم » وهي أيضاً سورة « القتال » إذ تحمل لفظة القتال : « وذكر فيها القتال » وعليها تعنيها ، وكما تحمل معناه : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » وهي - أخيراً - سورة : « الذين كفروا » فإنها الآية البادية لها <sup>(١)</sup> . فهي إذا سورة : محمد - القتال : الذين كفروا - تبرز محمداً ( ﷺ ) كمقاتل مقدم يقود حزب الله في حرب أعداء الله !.

هذه السورة تحمل سيرة المؤمنين والذين كفروا في الدنيا ومصيرتهم في الآخرة بما تصف من أعمالهم ، ففريق في الجنة وفريق في السعير ولا يظلمون من نكير :

« الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم » .

« الذين كفروا » هم « وصدوا » أنفسهم وغيرهم « عن سبيل الله » أن سدوا هذه السبيل عن عباد الله ، فصدوهم عن سبيل الله : منعاً للناس عن الإتصال برسول الله ، وتضليلاً للواصلين كيلا يواصلوا سيرهم إلى الله ، أو يرجعوا فيكفروا كما هم كفروا فيكونوا سواء في الكفر بالله ، وهم يأملون النجاح بما يعملون <sup>(٢)</sup> إهتداء إلى بغيتهم في ضلالهم وفي إضلال عباد الله - هؤلاء : ( أضل أعمالهم ) : ( أضل ) الله ( أعمالهم ) بما أضل كفرهم وصدهم عن سبيل الله <sup>(٣)</sup> فأعمالهم

(١) في كتاب ثواب الاعمال بإسناده إلى أبي عبد الله ( ع ) قال : من قرء سورة « الذين كفروا » وفي الدر المنثور ٦ : ٤٦ عن عبد الله بن الزبير قال نزلت بالمدينة سورة « الذين كفروا » وفيه عن ابن عباس روايتان : انزلت سورة القتال بالمدينة .. سورة محمد .. «

(٢) فالكفر والصد عن سبيل الله يحملان أملاً هادفاً ، ثم الضلال يعني قطع هذا الامر عن هكذا عمل .

(٣) ما أجمله الجمع بين فاعلين لـ « أضل » هما : الله وكفرهم وصدهم عن سبيل الله ، فان الله لا يزيع الا من زاغوا « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » .

( الفرقان - م ٦ )



في كفرهم وصددهم لا تهتدي إلى آمالهم ، فهم مع اعمالهم وآمالهم هواء هباء ، لا ينتهون وتنتهي إلا إلى حبط وضياع ، فالحق تعالى منهم براء ( والله يهدي من يشاء ) ( ٢ : ٢١٣ ) ( والله لا يهدي القوم الكافرين ) ( ٢ : ٢٦٤ ) .

فالذي ينوي صالحاً ويعمل صالحاً فيأمل بينهما صالحاً فالحق يهديه إلى ما يأمل في أولاده أم أخراه ، وأما من ينوي صالحاً ويعمل غير صالح ، فقد يهديه بنيتة أو يضلّه بعمله فمرجى أمره إلى الله ولا سيما الجاهل بمرضاة الله قاصراً غير مقصر ، وأما الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، ف ( أضل ) كفرهم ( أعمالهم ) وأضل الله بها ، فلا يهتدون في اعمالهم وآمالهم سبيلاً إلا سبيل جهنم وأولئك هم وقود النار .

ولقد صدق قول الله للذين كفروا وصدوا من مشركي مكة في دنياهم قبل اخراهم بفتح مكة .

وإن كان الذين كفروا ، يعمهم وأضرابهم أي كانوا وأنى وأين ؟ فانما هو الكفر والصد عن سبيل الله . من غابرين أو من يستقبل أو حاضرين ، وكما نلمسه على طول الخط ف ( إن الباطل كان زهوقاً ) .

وكما أن الكفر والصد عن سبيل الله دركات ، كذلك ضلال الأعمال دركات فالذي يكفر مستضعفاً فيصد بكفره - دون قصد - آخرين من أمثاله ، فضلال أعماله ضعيف كضعفه ، والذي يستكبر ويستضعف ، ويصد - هادفاً - عن سبيل الله بشتى المحاولات ، والدعايات ؟ فضلال أعماله أضعاف ، وبينهما متوسطات .

كما وإن ضلال اعمالهم لا تختص بكفرهم وصددهم ، بل والصالحات التي تصدر عنهم أحياناً ، فانها أيضاً غير صالحة فحابطة إذ لا تقوم على أساس الايمان والنية الصالحة فهي إذا فلتة عارضة ، أو نزوة طارئة لانها ليست من نبة فائضة ، فلا

تجري إلى مجاري الحياة والإنبات ، وإنما غورومات .

أم - ولا أقل - هي حابطة في الأخرى ، مهما كانت ناتجة ناجحة في الأولى :  
( من كان يريد الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون .  
اولئك ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون )  
( ١١ : ١٦ ) .. هذه صالحاتهم فكيف بطالحتهم ؟ ! .

إذا فالكافرون الصادون عن سبيل الله هم في مثل أعمالهم ضالون فلا يهتدون  
سبيلاً <sup>(١)</sup> . وأما المؤمنون :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من  
ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم »

مثلث الصالحات قبل ثلاث الطالحات يستوجب من الله رحمت : فلا فحسب  
أن الله يهدي أعمال الذين آمنوا وعملوا الصالحات في صالحاتهم ، بل وفي تكفير  
سيئاتهم ، ولحدّ قد يبد لها حسنات ، ثم وبصلح بالهم : شأنهم وقلوبهم وحالهم ،  
إذا فهم في مثلث الهداية ، بينما الله يضل أعمال الذين كفروا وصدوا عن سبيل  
الله : يضلها طالحات وصالحات ويضل بالهم بما ضلوا : « فلما زاغوا ازاغ الله  
قلوبهم » فهم إذا في ثلاث الضلالة . !

وترى ما هو إيمانهم الأوّل قبل الصالحات ، وما هو الثاني بعدما ؟ « وهو  
الحق من ربهم » ! أفلم تكن الصالحات مع إيمانها حقاً من ربهم ؟

علّ الإيمان الأوّل يشمل الثاني بدليل الصالحات واطلاق الإيمان ، فهو الإيمان  
بما يتوجب ، المؤهل للأعمال الناتجة عنه أن تكون صالحات ، فليشمل الإيمان  
بمحمد وبما نزل على محمد ، ولكن النازل على محمد يحتمل القمة العالية في الإيمان ،

(١) ١ - في عمر الكفر والصد ٢ - وفي أعمال الخير التي لا تهدف مرضاة الله ٣ - وفي  
سائر الأعمال التي ليست صدأ ولا خيراً .

ففيه الايمان بسواه وزيادة ، وفيه ما يستحكم عرى الايمان ، فكأنه « هو الحق من ربهم » لا سواه ، فهو هو الايمان الحق من ربهم لا سواه ، وهو النازل من ربهم حقاً ، فالكافر بما نزل على محمد ، الناكِر له ، إنه كافرٌ أياً كان ، موحداً ام كتابياً أو مؤمناً بمحمد كافرأ بما نزل عليه ، فما لم يؤمن بسما نزل عليه وأصله قرآنه المتين فليس من المؤمنين ، « هو الحق من ربهم » : ما نزل على محمد والايمان به <sup>(١)</sup> : حق النزول وحق الايمان ، فما سواهما من النازل والايمان به ، كأنه في جنبه لا يحسب له حساب ، ولأنه في ضمنه فلا يستقل عنه .

ثم « وما نزل على محمد » منه الأصل كوحى الكتاب وهو الثقل الأكبر ، ومنه الفرع كوحى السنة وهو الثقل الأصغر ، يحملها صحيحاً فيمن يحملون عترة رسول الله ( ﷺ ) ، وقد نزل على محمد في وحي الكتاب : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ( ٤ : ٨٠ ) وعشرات أمثالها ، « ما نزل » إذا يعم عامة الوحي : كتاب الله وسنة رسول الله ( ﷺ ) .

وهؤلاء الأماجد : « كفر عنهم سيئاتهم » التي كانت قبل الإيمان بالإيمان : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » ( ٣٨ : ٨ ) والتي تحصل بعد الايمان به وبالصالحات : « ان الحسنات يذهبن السيئات » ( ١١ : ١١٤ ) ثم « وأصلح بالهم » :

واصلاح البال يشمل بال الخلال أية حال : شأناً وقلباً وعقلاً ولباً وعلماً وإيماناً - وعلى أية حال : دنياً وعقبى ، فيلقي على الروح ظلال الطمأنينة ، ومن إصلاح البال تكملة الايمان ، بما آمنوا وعملوا الصالحات ، وبالتوبة ، فاستزادة من حسنات وتكفير لسيئات ولحد تبديلها بحسنات : « إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً » ( ٢٥ : ٧٠ )

(١) « وهو الحق » كما يعني النازل من ربهم ، كذلك الايمان بالنازل من ربهم فهما اذا معنيان .

تبديلاً بما قابوا فلا يأتوا بعدُ إلا بحسنات ، فيثابون كذلك أن تبدل سيئاتهم فيما مضى بحسنات ، ومن أقله تكفيرها .

ثم وليست هذه وتلك فوضى جزاف ، بل بأسباب من هؤلاء وهؤلاء اسحقوا بها هذه وتلك :

« ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وإن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » .

فاتتباع الباطل يتبع العمل الحابط الباطل ، ضلال تلو ضلال ، كما اتباع الحق يتبع العمل الحق وصلاح البال ، ثم وليس عرض الكفار بأعمالهم وآمالهم فضلاً لهم ، ولا عرض المؤمنين بصالحاتهم فتكفير سيئاتهم وإصلاح بالهم ، ليس إلا مثلاً يضرب به لكثرة الحق والباطل أياً كانوا ، ليضرب في أعماق الحياة ، بين الذين آمنوا مع بعض ، وبين الذين كفروا مع بعض ، كما بين الذين كفروا وصدوا ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يختص حكم الحبط بالكافر الصاد ، مهما كان أحبط من الكافر غير الصاد ، كما ولا يختص بالكافر ، فيشمل المؤمن المرائي أم من ذا ، بسائر هؤلاء الذين تحبط أعمالهم ، دنياً وعقبى ، كلا أو بعضاً ، كما لا يختص تكفير السيئات وصلاح البال بالمؤمنين الكاملين ، وإنما لهم الأكمل ، « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » السورة ، « كذلك » الضابطة العامة مع كونها حقاً واقعاً « يضرب الله للناس أمثالهم » فهو مثل يقاس عليه كل من اتبع الحق أو الباطل ، كهذا المثل أم سواء في مختلف درجات الإيمان ودركات الكفر ، أو الفسوق والاعتدال .

« فإذا أقيمت للذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم » .

.. وإذ عرفتم موقفكم من الإيمان ، وكيف أن الله يصلحكم ويهديكم دون الكافرين الذين لا مولى لهم :

« فإذا لقيتم الذين كفروا ، في معركة الشرف والمكرامة : حرب الدفاع ، والوقاية ، أو إزالة العقبات عن سبيل الله ، وبعد الإيعاظ إليهم ، والإحتجاج عليهم : ببالحجة وواضح المهجة ، فلم يتمظوا ، واستمروا في غيهم وبغيهم - إذا : « ف » لا عليكم إلا « ضرب الرقاب » رقاب رقبات الشر ورغبات الكفر والإلحاد ، وإنما « الرقاب » وليس الرؤوس ؟ لأنهم غربت عقولهم وجمدت أدمغتهم لحد كأنهم لا رؤوس لهم كإنسان مها كبرت رؤوسهم في الطغيان : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » ( ٨ : ١٢ ) فعند لقاء هؤلاء الحماق فاضربوا « ضرب الرقاب » لا فحسب ضرب الأطراف الأخرى التي تثل ولا تقتل ، وإنما حسماً لمواد الفساد السامة للمجتمع لا عليكم إلا « ضرب الرقاب » ولحد الإثخان :

« حتى إذا أئختموهم قشداً الوثاق » والإثخان هو القتل الضريع الشديد الكثير الذي تتحطم به قوة العدو بحيث لم يبق له رمق الهجوم ولا الدفاع ولا الفرار ، فليس القصد إلا تهاوي قواهم الشريرة الضارية وكسر شوكتهم حتى لا يقوم لهم ساق ولا قائمة تقوم بالصد عن سبيل الله أو الهجوم على حرمة الله ، فمن ثم يأتي دور أسرهم بشد الوثاق ، فيمن تبقى : شدهم في أسرهم أمناً عن الإنفلات ، وهيمنة على الأمن .

فلا وثاق للعدو الضاري ولا شد فيه حتى الإثخان إذ الغاية ليس هو الأسر ، ثم من أو فداء ، وإنما هي إزالة القوة المعتدية عن ساحة الإسلام . « ف » ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فسيا أخذتم عذاب عظيم » ( ٨ : ٦٨ ) .

ولا قدافع بين الآيتين رغم ما قيل، فأية الانفال تنهى عن الأسر قبل الإثخان، وهذه تأمر بالأسر بعد الإثخان، ولقد نقم بعض الطامعين الطامعين رسول الهدى لماذا لا يكون له أسرى ننتفع بها قبل أن يشخن في الأرض، فتقل الأسرى وبعدهما نخسر من قتلتنا بغية الإثخان، فجاء الجواب الناقم الحاسم: « وما كان لبي .. » فحروب الأنبياء لا تعني غنائم الأموال والنفوس وتفتش البلاد، وإنما تفتح القلوب أو دفع الأخطار عن ساحة الاسلام، وإنما شوكة الإيمان ونهضة الكفر، لا استغلالها لتجارة الغنائم والأسرى، ولمن يخسرون المعارك لصالح الكفار، الذين يهاجمونهم قبل انتهاك قواهم فيقتلونهم ويرجعون أسراهم، فهذه انتفاضة خامرة تستوجب العذاب العظيم في الدنيا وفي الآخرة، وإنما هي فقط: « أن يشخن في الأرض »: « ف ضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق » ثم ماذا بعد الإثخان والوثاق ؟:

« فإما مناً بعد وإما فداءً »، وإياها من جملة جميلة فريدة في القرآن تحمل أجمل المواجهات لأخطر الأعداء وبعد إثنائهم، عند القدرة والسيطرة الحاسمة لجنود الاسلام عليهم، فشد وثاقهم بأسر، أفبعد هذا وذاك ( فإما مناً بعد ) وبترجيحهم وتحريرهم دون مقابل، ولا بأسرى المسلمين، الذينهم في أيديهم وطبعاً معذبون؟ اجل ! ولكي يستفيقوا من غفوتهم وغفلتهم لو كان لهم ضمير، فيهدتوا الى هدى الاسلام، التي هي البغية الاولى والاخيرة، وإذا لا يستحقون هكذا من - وعندما لا يؤمل خيرهم - فالشق الأخير: ( وإما فداءً ) : أي فداء: بتحرير مقابل من أسرى المسلمين إن كانوا (١)، أم اخذ مال، أم ولا أقل: اخذ ميثاق وثيق ألا يرجعوا للعرب، أو يتجسسوا لصالح كتلة الفساد، أو

(١) الدر المنثور ٦ : ٤٦ - اخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عمران بن حصين ان النبي (ص) فادى رجلين من اصحابه برجلين من المشركين اسروا .

يضلوا المسلمين عن دينهم ، وفي الحق إن ذلك كله من الله عليهم ان يُداروا لهذا الحد ، فيحرروا دون قتل<sup>(١)</sup> ولا فتك ولا ضرب مبرح ، ولا إجاعة ولا تعطيش ولا أي من النكبات المتداولة بين المتحاربين ، اللهم إلا أن يشذ شاذ فيُقتل<sup>(٢)</sup> وطبعاً : لا بجريمة القتل والأسر ، وإنما لأمر ما يستحق به القتل ، كأن يتجسس ، أو يتحسس منه ذلك أم سواء ، مما يخاف منه على كيان الإسلام أو المسلمين ، أو يسترق - دونما حبس يحبس عنه محاولة الإيصال - وماذا ، ويكلف بيت مال المسلمين عبثاً وحملًا !. وإنما يسترق دفعاً عن طوارئ الفساد إذا تحرر ، عندما لا يطعن فداء - وثأميناً وتوطئناً له على الإسلام ، إذا عاش جوه في بيت مسلم فرأى ازدهاراً في كل زواياه الحيوية ، وثم إذا آمن يعتق بمختلف أسبابه ، فما الرق في الإسلام أصلاً اقتصادياً ، أو سياسة تعذيبية ، أو نقمة من الأسرى ، وإنما كياسة ونعمة وثقافة ، كآخر الأدوية لذلك الداء العضال !.

ذلك ، ولكننا الأصل الموعول عليه بعد إثنان الحرب هو المن أو الفداء اللهم إلا إذا بقيت الداء فتداوى ببقية الأدوية : استرقاقاً أم ماذا ، وأخير أقتل إذا لم تبق دواء إلا القتل ، فأخر الدواء الكي<sup>٤</sup> ! وإنما هو تفتح القلوب ما أمكن ، أو صد الهجوم على حرمة الإسلام بها أمكن ، دون انتقام وحيلة وحشية بدوافع نفسية أم ماذا ، فالحرب الإسلامية في صيغة واحدة : « في سبيل الله » لا سواء !

(١) المصدر عن الحسن قال أتى الحجاج بأسارى فدفع إلى ابن عمر رجلاً يقتله فقال ابن عمر ليس بهذا أمرنا إنما قال الله «حتى إذا اتختموهم فشذوا الوفاق فاما مناً بعد واما فداء». (٢) كعب بن أبي معيط والنضر بن الحارث إذ أمر رسول الله (ص) بقتلها بعد أسرها يوم بدر كما يروى عن ابن جريج ، وقتل يوم أحد أبا عزة الشاعر بعد أسره ، وقتل بني قريظة بعد نزلهم على حكم سعد بن معاذ ، وذلك كله حكم هامشي إذا لزم الأمر ، خارج عن الضابطة العامة في الأسرى « فاما مناً واما فداء ».

فلا يقتل الأسير<sup>(١)</sup> لكفره أو أسره ، ولا يعذب ولا يجاع أو يعطش ، ولا يلحق قاراً ، ولا يجهز على جريح ، ولا يعاقب صغير ولا كبير أو امرأة<sup>(٢)</sup> ، اللهم إلا إذا لزم الأمر ، وفي «سبيل الله» ! فنص المن والفداء يتضمن حكم أسرى الحرب بما هم أسرى ، وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى وإن كانت تشمل الأسرى فلا تدافع بينها لمن تدبرها حق تدبرها !

وترى أن ضرب الأعناق ومن ثم شد الوثاق «فإما مناً وإما فداء» - ترى إن ذلك حتى متى ؟ ذلك : «حتى تضع الحرب أوزارها» فإذا وضعت فلا شد للوثاق ولا أي وثاق حتى يكون من «أو فداء» ، اللهم من لم يمين أو لم يفد من المشدودين قبل وضع الأوزار ، وإذا لا وثاق فلا ضرب للرقاب وأحرى !

وأوزار الحرب هي أثقالها الأضرار ، من قتلها قل أو كثر ، ومن أي فعلها ومخلفاتها ، كآسر من جانب العدو فيقابل بشد الوثاق ، أم ماذا فيعتدى عليه بمثل ما اعتدى : فإذا لا عداء ولا اعتداء فلا وثاق .

« فإذا لقيتم .. فاضربوا الرقاب .. فشدوا الوثاق .. حتى تضع الحرب أوزارها » كل أوزارها ، فإذا لا وزر فلا حرب ، وإنما صلح وصفاء ، فلماذا - بعد - استيزار بشد الوثاق أم ماذا ؟

« ذلك » : البعيد الغور في سياسة الحرب الإسلامية ، مما تتوجب عليكم

(١) المصدر - اخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن القاسم بن عبد الرحمن ، قال : بعث النبي (ص) سرية فطلبوا رجلاً فصعد شجرة فأحرقوها بالنار فلما قدموا على النبي (ص) أخبروه بذلك فتغير وجه رسول الله (ص) وقال : «اني لم أبعث أعذب بعذاب الله» إنما بعثت بضرب الرقاب وشد الوثاق «وقد روى عن الحسن أن رسول الله (ص) هكذا صنع بأسرى بدر مناً أو فداء» .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٤٧ - اخرج عبد الرزاق عن الضعفاء بن مزاحم قال نهى النبي (ص) عن قتل النساء والولدان إلا من عدا منهم بالسيف .



امتحاناً بلوى دون امتحان ، فالدنيا هي دار امتحان ، وإلا فـ :

« لو شاء الله لانتصر منهم » دون أن تتكلفوا القتال ، انتصار الانتقام أن يهلكهم كما أهلك ممن قبلهم بعذابات من فوقهم أو من تحت أرجلهم ، كآيات معجزات ، لا كقاعدة عامة في الإنتصار - لا ! « ولكن ليبلوا بعضكم ببعض » : بلوى حسنة للذين آمنوا وإن كانت صعبة ، وبلوى سيئة للذين كفروا ، وليس الإنتصار دائماً لكتلة الحق حربياً ، مهما هم منتصرون واقعياً « ليبلوا بعضكم ببعض » ثم وليس القتل في سبيل الله هلكى ضالة أعمالهم : أن قاتلوا فقتلوا فضلوا تحت التراب ، أو ظلوا - لذلك - في تباب ، ولا سيما إذا غلب المسلمون - بل :

« والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم » : فلا ان الله يضل أعمالهم دنيى أو عقبى ، ولا ان القتل يضل أعمالهم ، رغم أن الكافرين « أضل أعمالهم » حين ما عملوا وبعده ، ولكنهم أولاء « فلن يضل أعمالهم » عاجلاً ولا آجلاً - بل :

( سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم ) عمل واحد في سبيل الله ، تشملهم به مثلث بارع من رحمت الله : هداية وإصلاح بال ودخول الجنة ! وهي كلها بعد الشهادة : ( قتلوا .. سيهديهم و .. ) وكما هداهم وأصلح بالهم ووعدهم الجنة قبل الشهادة

وعل هدايتهم بعد الموت - اضافة إلى هدى الجنة ومزيد المعرفة - هي هدايتهم إلى أن قتلهم لم يذهب هدراً ، وإنما وضاعة مشعة للايمان والمؤمنين ، ولكي يهتدوا بهدي الشهادة فيقدموا دعوة الاسلام ويصبغوها بدماء الشهادة تدليلاً ان ارواحهم تزهر ولا يزهر الايمان ، يهديهم الله بعد قتلهم ، إن دماءهم نبعة فوارة تغور وتثور على الكافرين لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

( ويصلح بالهم ) بما يتبجحون في البرزخ بغفران سيئاتهم وأن ليسوا أمواتاً  
 ( بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون  
 بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون  
 بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ) ( ٣ : ١٧١ ) : من ثم  
 ( ويدخلهم الجنة في ) البرزخ وفي القيامة - الجنة التي ( عرفها لهم ) منذ الدنيا  
 بالوحي ، وفي البرزخ والآخرة بشارة وواقعاً في حق اليقين .

« يا أيها الذين آمنوا أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »

.. إن تنصروا الله : تنصروا إلى الله ( كما قال عيسى بن مريم للحواريين مَنْ  
 أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ) ( ٣ : ٥٢ ) : تنصروا رسول  
 الله إلى صراطه المستقيم وسبيله القويم فالإيمان الحياة القيمة التي خططها الله لصالح  
 العباد ، وتنصروا عقولكم في العقل عن الله ، وصدوركم في الإنشراح بآيات الله  
 وقلوبكم في الإيمان بالله ، وألبابكم في الحصول على عمق المعرفة بالله ، تجنيداً  
 لكل هذه الجنود في سبيل الله ، في معارك الحياة بين كثر الحق والباطل ،  
 ففلاحاً في الحصول على مرضات الله وفلاحاً لمن يصد عن سبيل الله .

ان تنصروا الله في الدفاع عن شريعة الله والحفاظ على شعائر الله ودفع الناس  
 عن شريعة الناس : ( .. وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم  
 بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت  
 صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرون الله من  
 ينصره ان الله قوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا  
 الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الامور ) ( ٢٢ : ٤١ ) .

فالله هو الذي يدفع الأشرار بالأبرار تشريعاً وتكويناً ، تحريضاً وتأيداً ، فثم  
 إذا ما اندفعوا وحققوا نصر الله سماهم أنصار الله - أي : الأنصار إلى الله - وفي  
 الحق أنصار أنفسهم في الإنسلاخ إلى سلك الله : سبيل الله التي هي سبيل صالح

الانسان في الحياة : ( فلم يستنصركم من ذل وله جنود السموات والارض وهو العزيز الحكيم وانما اراد ان يبلوكم ايكم أحسن عملاً ، وبادروا باعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره رافق بهم رسله وأزارهم ملائكته واكرم اسماءكم عن أن تسمع حسيس نار ابدأ وصان أجسادهم ان تلقى لغوياً ونصباً ) (١) .

ف ( ان تنصروا الله ) : دين الله وطريقه ، وتنصروا حزب الله وفريقه ، ومن أصدق مصاديقه الجهاد في سبيل الله قاتلاً أو مقتولاً كإحدى الحسينين : ( قل هل تربصون الا إحدى الحسينين ونحن نترصد بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده او بأيدينا .. ) ( ٩ : ٥٢ ) :

( ان تنصروا الله ) هكذا ( ينصركم ) فيما نصرتموه ( ويثبت اقدامكم ) : لكي تستقيموا إليه : ( فاستقيموا إليه ) ( ٤١ : ٦ ) .. انه يثبت اقدامكم على الايمان الجهاد حتى لا تفروا من الزحف ، ولا تغلثوا عن قوة الايمان إلى ضعف ، ولا تملثوا عن الحرمان ولا تغلثوا ، فعلى قدر النصر يكون التثبيت ومن ثم ينمو حتى الثبات على الايمان ولو عند انفلات الروح قتالا في سبيل الله ! ف [ ان الجهاد باب فتحه لخاصة اوليائه ، وسوغهم كرامة منهم ونعمة ذخرها ، والجهاد لباس التقوى ودرع الله الحصينة ، وجنته الوثيقة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلة وشمله البلاء ، وفارق الرجاء ، وضرب على قلبه بالإسهاب وديث بالصغار والقماءة ، وسيم الخسف ، ومنع النصف ، وازيل فيه الحق بتضييع الجهاد وغضب الله بتركه نصرته وقد قال الله عز وجل : ( ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم ) (٢) ] .

(١) نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي نقلا عن الامام علي عليه السلام .

(٢) المصدر عن امير المؤمنين ( علي ) و : الاسهاب ذهاب العقل و « ديث بالصغار » : ذلل بغير مدلل ، والقماءة هو الذلة والصغر .

ثم إن لتثبيت الأقدام في هذه السبيل جلوات شتى ومجالات : في معارك الكرامة وكافة معتركات الحياة : ( يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .. ) ( ١٤ : ٢٧ ) : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » ( ٨ : ١٢ ) .

وهذه النصر المطلق من الله ليست إلا عند مطلق النصر من المؤمنين بالله : ان يتجردوا في نفوسهم برغباتها الله ، فيتجردوا عنها وعن كل نقائصهم حفاظاً على شريعة الله ، تفدية حياة شخصية لإقامة حياة جماهيرية على ضوء دين الله ، أو يمينتوا من هو خطر على حياة الشريعة ، دونما غش هنا وهناك ولا غش يغطي : ان يكون الجهاد صيغة واحدة : ( في سبيل الله ) وقد سئل رسول الله ( ﷺ ) عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال : ( من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ) (١) فلا راية في الحرب إلا راية : « لا إله إلا الله » دون أية رايات أخرى من حميات وشجاعات وسائر الرغبات .

وترى كيف ان تثبيت الأقدام يتلو النصر هنا وما النصر إلا به : أن تثبت على المحنة والبلاء حتى تنتصر فكيف يتأخر هنا عن النصر ؟ أقول : هناك تثبيت أول هو من أداة النصر ان يثبت على المحنة والبلاء ، وآخر هو أن يثبت على النصر والنعماء لكي لا ينتصر ببطرهم وزهوهم الأعداء ، فكثير هؤلاء الذين ينتصرون ، ثم وكثير منهم يخسرون إذ لا يثبتون على شروط النصر ، وقليل هؤلاء الذين يثبتون فيكسرون شوكة العدو على طول الخط دونما رجعة .

إذا فالنصر الدائب يعيش بين ثباتين اثنين ، ثانيهما الأهم فانه أداة استمرارية

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي .



هذه المصيرة الضاربة في الارض الى اكنافها ، فالسير في الارض ، في سير الاقوام المؤمنة والكافرة ، وماذا فعل بهم وماذا بقي لهم من آثار ، ان في ذلك لمبرة لمن يخشى ، وتخفيفاً لبأس البؤسى الذين لا يخشون الله فهم في طغيانهم يعمهون : « قد خلست من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ( ٣ : ١٣٧ ) « افلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور » ( ٢٢ : ٤٦ ) .

هذه الآيات وعشرات أمثالها : انها لفئات فيها ضجعات وفرقعات ، مشاهد الأشلاء والدماء من كل دمار وبوار للمكذبين قبلهم ، وليأخذوا عنها عبراً في أمثالها : « وللكافرين أمثالها » كضابطة عامة للكفار في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، دون اختصاص بالغابرين ، فلمن يستقبل والحاضرين أمثال هذه العاقبة المدمرة ، كل على شاكلته وما ربك بظلام للعبيد ! .  
فالكافر - اياً كان - عاقبته التدمير والتدمير ، فليكن الغابر امثلة وعبرة للحاضر ، وقد كان بعضهم اشد منهم قوة وأكثر جمعاً ، فما بال الأخف الأجوف لا يخشى أمثالها ؟ ! .

ومن ثم قاعدة قائمة في الحياة للذين آمنوا والذين كفروا ، تكشف لنا اسباب الدمار لاولاء ، وأسباب القرار لهؤلاء في صيغة فريدة تتردد هنا وهناك :  
« ذلك بان الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » .

« ان الله مولى الذين آمنوا » في الحياة الدنيا وفي الآخرة : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » ( ٤٠ : ٥١ ) « وان الكافرين لا مولى لهم » في الحياة الدنيا فضلاً عن الآخرة .

ترى كيف « ان الكافرين لا مولى لهم » ولهم اولياء مهما كانوا شياطين ،

يزخرفون لهم دنيا الحياة ، وينصرونهم في زهرتها وبهجتها ، في جمعها بثروتها ، في زعامتها ورئاستها ، وفي كل مجالاتها ، وذلك بما جعل الله : « انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » ( ٧ : ٢٧ ) ؟ .

نقول : ولاية الله تعني انها تغني عن سواء فلاحاً ونجاحاً في الحياة الايمانية عملاً في الاولى وجزاءاً في الاخرى ، ولا تغني ولاية غير الله ولا تغني إلا تأخيراً عن الحياة ومدّاً في الغي والشهوات : « ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون » ( ٧ : ٢٠٢ ) . والله يمد اولياءه في الطاعات :

ففيما تثبت الولاية للكافرين تغني ولاية الغي والطغوى ، وفيما تُغنى فهي ولاية التقوى ، فلو لم تكن لهم أية ولاية لا طغوى ولا تقوى كان أهون لهم وأنجى ، فولاية الشيطان الذي يمدهم في الغي هي أنكى من ألا يكون لهم ولي أصلاً ، فـ « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياءهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ( ٢ : ٢٥٧ ) « وأن الكافرين لا مولى لهم » : يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وإنما من النور إلى الظلمات مها زخرفت لهم الحياة الدنيا فهم يعيشون ظلمات الحياة في الأولى بزلاتها وضلالاتها ، ويصلون في الأخرى سعيراً .

وليس النصر والولاية الموعود ان من الله للمؤمنين إلا نصرهم في تقدم الايمان والثبات عليه ، ان يقيموا على الايمان ويستقيموا إلى الله وإن زهقت أرواحهم ، ثم يوم القيامة يضل الكافرون عن أولياءهم ويضلون عنهم ، والمؤمنون يحدون ولاية الله أزهر وأظهر : ( ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ) ( ١٠ : ٦٤ ) .

ففيما يقدم الله أوليائه للبلاء ، او لا يحول بينهم وبين البلاء ، ليس ذلك تخلياً منه عن ولايتهم ، ولا تخلفاً لوعده لهم ، وانما بلاء معه وبعده الرخاء ( فان مع العسر يسراً ) او ابتلاء بما تخلفوا - في الاولى ، ولكيلا يبتلوا بالجزاء الأنكى في الأخرى ، فبلاء المؤمن رخاء أو رجاء الرخاء ، ونعمة الكافر نقمة وابتلاء ، والله منه براء .

ف ( ذلك ) : الفوز العظيم في الحياة من النصر والتأييد للمؤمنين : أن كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم ، وان الله ينصرهم ويثبت اقدامهم : ( بان الله مولى الذين آمنوا ) : يلي امورهم في أولاهم وأخراهم في صراطي التكوين والتشريع فالجزاء الأوفى ، لأنهم دخلوا في حظيرة العبودية ايماناً وعملاً صالحاً ، فهو هو وليهم وكفى .

و ( ذلك ) الكبت المهن على الكافرين أن أضل أعمالهم فتعساً وتدميراً في أولاهم ، وفي الأخرى النار مثوى لهم ب ( أن الكافرين لا مولى لهم ) إلا أسماء لا تحمل مسميات : ( ان هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ) ( ٥٣ : ٢٣ ) . وليست حياتهم في الأولى إلا حياة الأنعام وأضل سبيلاً ثم في العقبى النار مثوى لهم :

« ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يمتنعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .

لقد صاغ المؤمنون أنفسهم بصيغة الإنسان بالايان وعمل الصالحات ، فساقهم الله إلى جنات ، وصاغ الكفار أنفسهم بصيغة الأنعام بالتمتع والاكل ماسمحين عن ضمائرهم وعقولهم فعاق بهم ما كانوا يكفرون ، اذ يحسبون الحياة كل الحياة مائدة طعام وفرصة متاع دون أن يهدفوا وراءه ما يهدفه الانسان ، ولا تقوى ( الفرقان - ٧ )



في اقتناءه عما لا يباح ، وترى لماذا النار مشوى لهم وحدهم دون الأنعام وهم يتمتعون متعة الأنعام ويأكلون اكلة الأنعام ؟ .. ولأن الله خلق الأنعام هكذا ليصلحوا أكلًا للإنسان ، فلو شعروا ما يشعره الإنسان لما رأيت منها سمينًا ، وأما الإنسان فقد خلقه المعرفة والطاعة ، متذرعًا كل ما في الحياة لا كمال نفسه وذويه كإنسان ، فإذا لا يفقه بقلبه ولا يبصر بعينه ولا يسمع بأذنه فهو إذا صيغة سائغة للنار : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم اضل أولئك هم الغافلون » ( ١٧٩ : ٧ ) : هم كالأنعام فسيما يستهدفون من الحياة ، وهم اضل من الأنعام إذ قصروا هنا ثم النار مشوى لهم دون الأنعام ، حيث محقوا كل سمات الانسانية ومعالمها ، فأنسحقوا في وصمات البهيمة ومظالمها دون تعفف عن قبيح ، ولا تلهف على مظلوم ، فقد انضغطوا تحت وطأة الشهوة ، وانتهفوا بهتاف المتعة اللذة ، فأصبحوا اضل من الانعام الهيام .

وانها هي موازنة جميلة دون بمجاملة بين الانسان الحيوان والحيوان ، هدفًا في العياة ، وسيرة ومصيرة مهما اختلف الشكلا : ان الحياة الدنيا المتاع يعاملها المؤمن كمتاع يشتري به الحياة العليا ، زهدًا عنها ، أو صرفًا لها كسبيل إلى العلا ، مبصرًا بها ما وراءها فهي تبصره ، ثم الكافر يعاملها كمتعة لا متاع ، يذهب طبيباته اقتناعًا لمتاع الدنيا ، قلبًا للثمن متعنا ، مكبًا على وجهه في مشيه ، مبصرًا اليها كنهاية المطاف فهي تعميه ! يعيش حيوانًا ويموت حيوانًا وأحوت مما كان وأهون : « والنار مشوى لهم » .

وترى كيف ان الله يدخل المؤمنين العاملين جناته هنا وكأنه لا يدخل الكافرين ناره فهم الداخلون و « والنار مشوى لهم » ؟ عل ذلك مهانة لهم أن لا ولاية لله لهم حتى في عقابهم وهو ولي العقاب ، ثم النار ليست إلا نتيجة

اعمالهم عدلاً ، فكأنهم يدخلونها دون إدخال وبطبيعة الحال ، وأما المؤمنون فيشرفون بتشريف الله وسلام : « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » ( ٣٩ : ٧٣ ) وان دخول الجنة لهم فضل فوق عدل ، ولا سيما بمضاعفات الثواب والكرامات !.

ثم وليست النار المثوى لهم فقط في الأخرى ، فحياتهم الدنيا كذلك كلها نار وان أبرقت وأرعدت : ( ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ) ( ٢٠ : ١٢٤ ) اذا ف ( النار مثوى لهم ) في الأولى والأخرى .

كما وان جنات المؤمنين تعم الحياة الدنيا ، منها حرموا عن زهراتها وشهواتها ولهاوتها ، فانهم عائشون مع الله ، مطمئنين بالله ، راضين بمرضات الله ، قبالهم في سبيل الله لذة ، وذلم في مرضاة الله عزة ، فهم في جنات دني وعقبى : ( لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ) : - : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد » ( ٤٠ : ٥١ ) منها كانت جناتهم في الاخرى اعلى واولى ، كما النار للكفار في الأخرى اشد وانكى ! .

( وكأين من قرية هي اشد من قريتك التي اخرجتك اهلكتناهم فلا ناصر لهم )  
القرية هي المجتمع ، وليست هي محله الا مجازاً ، ولقد اخرجته قريته :  
مشركون مكة ، وهو متحسر كانه منهسر بخروجه عن قرية الدعوة : عاصمة الرسالة ، فليس اخراج زعيم الدعوة عن العاصمة هيناً يتحمل ، الا بها يُطمئن الله وقد طمأنه - وعله - حين إخراجه (١) . ان الله سوف يهلك الكافرين في العاصمة بما يعدك من الفتح المبين ، كما واهلك من قبلهم كفوم فرعون وعاد

(١) فقد روي انها نزلت في الطريق بين مكة والمدينة في اثناء رحلة الاخراج والهجرة وهي قريبة من حيث الموقع والظرف .

وثود، وهم أشد من هذه القرية « فلا ناصر لهم » هؤلاء وهؤلاء ، ولا مولى لهم يلي أمرهم في كفرهم ، فلا بد لهم ان يذهبوا هلكى عجالة ام إجمالة ، وقد هلك الكفر بأهله عن مكة المكرمة فلم يبق فيها ولا مشرك واحد ! .

« أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم »

ترى - والميزان ميزان الله - ان الفريقين على سواء في ذلك الميزان ؟ ظلماً أو جهلاً أو عجزاً عن الموازنة العدل ! . فالمتؤمنون الصالحون الذينهم على بينة من ربهم : آية واضحة تدلهم إلى ربهم وعلى ما يتوجب لهم وجاء ربهم ، آية الوحي البينة لهم بآيات معجزات ، وآية العقل النابه التي تفرض عليهم تصديق البينات ، وآية النصر من ربهم .. « أفمن كان على بينة من ربه ، هكذا » كمن زين له سوء عمله « الذين كفروا وزين لهم الشيطان أعمالهم فضلوا عن السبيل وهم يحسبون أنهم مهتدون » واتبعوا أهواءهم ، فلم يتبعوا بينة من ربهم : عقولهم وآيات ربهم وإنما أهواءهم الهاوية ، وميولهم الغاوية ، أهما على سواء في ميزان العقل والعدل ؟ انهم يختلفون حالاً وبالأ ومنهجاً واتجاهاً ، مهما اتفقوا في شاكلة الانسانية الظاهرة ، فأولاء انعام وهؤلاء انسان ! ، ومهما خفيت هنا الحال فسوف تظهر هناك يوم تنقلب الاحوال :

« مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم »

( مثل الجنة ) لا وصفها الواقع ، وإنما مثل من وصفها : ( فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ) ( ٣٢ : ١٧ ) فالجنة - وحتى الجسمانية منها - هي ارفع وأعلى من أن يستوصفها الانسان وهو في الحياة الدنيا ، اللهم الا لمن هم في

الحياة العليا وهم في الدنيا ، واما المتقون ككل فلا يدركون هنا الا مثل الجنة التي وعدوا ومنه : الانهار الاربعة من اللف ما يشرب ومن كل الثمرات مما يؤكل ومغفرة من ربهم وهي ارفع واعلى فانه رضوان من الله : ( ورضوان من الله اكبر ) .

( فيها انهار من ماء غير آسن ) آية وحيدة بين آي الأنهار في الجنة ، الوصفة لمياهها بـ ( غير آسن ) : لا يتغير بطول المكوث ، ولا نجد عندنا هكذا ماء ، اللهم إلا ماء زمزم لحد ما ، فهو مثقل للماء غير الآسن في أنهار الجنة<sup>(١)</sup> فليست الآخرة دار تغير ، وإنما هي دار خلود ، ولا سيما يحناتها بأهلها ورزقها ، فالجنة بتمامها غير آسنة ، حتى وبالنسبة للبنها ، وطبيعة اللبن ان يتغير لفترة قليلة ! : « وأنهار من لبن لم يتغير طعمه » : خلاف اللبن الدنيا وحتى إذا عاجلتها لتبقى ، في ثلاث ام ماذا ، فانها تفقد البعض من خواصها وطعمها وقد تسمم ! ولم يذكر اللبن في القرآن إلا هنا للأخرى وإلا أخرى الأولى : « نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنًا خالصًا » ( ١٦ : ٦٦ ) وعلة لأنه أطف ما يشرب بعد الماء وأقربه للتغير ، فإذا لا يتغير لبن الجنة فغيره أولى بعدم التغير . وإذا كان الماء شراباً يروى ، فاللبن يطعم كما يروي ، وفيه الكثير من الخواص المنبهة في مختلف الأكل .

« وأنهار من خمر لذة للشاربين » : انها لذة الأبدان والعقول ، وليست ذلة للعقول ، فانها لا تخمر العقول وتحجبها ، وإنما تخمر بقايا الجهل والخلول عن ذكر الله ، ف « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » ( ٣٧ : ٤٧ ) لا يهلك ولا ينزع العقل : « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » ( ٥٦ : ١٩ ) ولا فيها صداع الرأس ،

(١) وكما نقل الكثيرون وجربنا ان ماء زمزم لا يتغير ولو طال في مكان مكشوف طوال سنين ! .

خلاف خمر الدنيا، فهي لا تحمل من خمر الدنيا إلا اسماً<sup>١١</sup> ثم هي «لذة للشاربين» :  
في العقل والروح ، في المنظر والطعم ، في الجسم والصحة : « يتنازعون فيها  
كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم » ( ٥٢ : ٢٣ ) .

« وأنهار من عسل مصفى » : خالص عن كل أذى : من شمع أو رغو  
أو قذى ، أو لدعة من نحلة أم ماذا ؟ مما يوجد في عسل الدنيا مصفى وغير  
مصفى ، فأين « أنهار من عسل مصفى » من عسل في الدنيا الذي لا تحصل  
على قليل منه إلا بكثير من تعب واذى ؟ ! ترى بينها من البون لحد لا يكاد  
يسمى ما في الدنيا عسلاً ، وإنما « شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس »  
( ١٦ : ٦٩ ) ثم ولا يوجد عسل في القرآن إلا هنا للجنة « من عسل مصفى » .  
ويا لها من طراوة ونضارة أن تجري هذه الأنهار الأربعة في جنة المتقين  
دونما انقطاع ولا عزوب :

« ولهم فيها من كل الثمرات » أنضرها وأطراها وأبقاها .

ثم واكبر من كل ذلك : « ومغفرة من ربهم » هي جنة رضوان « ومغفرة  
من الله ورضوان » ( ٥٧ : ٢٠ ) « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز  
العظيم » ( ٩ : ٢٧ ) هو أكبر من ( جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها  
ومساكن طيبة في جنات عدن ... ) ( ٩ : ٧٢ ) .

فجنة المغفرة الرضوان هي أكبر الجنات ، يكتفي بها أهل الله المخلصين ولو  
لم تكن وراءها جنات ، وهم القلة القليلة من عباد الله ، ولذلك تأتي قليلاً في  
آيات الجنات ، الكثيرة في ذكريات سائر الجنات .

« كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً » ؟

(١) راجع ص ٢٢٦ - الفرقان حول الآية « يسقون من رحيق مختوم » وسورة الواقعة  
حول الآية « لا يصدعون عنها ولا ينزقون » .

ترى كيف تمثل الجنة التي وعد المتقون - في استفهام انكاري هكذا -  
 به ( من هو خالد في النار ) لا بالنار ؟ علته لأن المتقين هم الجنة والطاغون هم  
 النار ، جنة في جنة ونار في نار ، أو أن استفهام التماثل هنا يعم الجنة بالنار  
 وأهل الجنة بأهل النار ، فذكرت الجنة أولاً : ( مثل الجنة ) ولأنها من فضل  
 الله ، ثم أهل الجنة ( المتقون ) إذ يدخلونها بفضل الله ، فهي هي الأصل وهم  
 الفروع ، ثم ذكر أهل النار ثانياً ( كمن هو خالد ) ثم النار : ( في النار )  
 لأنهم هم وقود النار وأصلها ، فالنار هي الفرع ١.

وترى ما هذا الماء الحميم الذي يسقونه فيقطع أمعاءهم ولماذا يشربونه ؟  
 إنه الحار لدرجة الحمة القيمة في الحرارة: أن لو كان حديداً لذاب سائلاً ،  
 وهو الصديد : « من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد » ( ١٤ : ١٦ ) يصد  
 عنهم رمق الحياة وما هم بأموال ! وكلهل : دردي الزيت المغلي : ( وإن  
 يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً )  
 ( ١٨ : ٢٩ ) فكأنهم إذ يسقون الحميم الصديد مستغيثين من العطش المهلك ،  
 يرون أنه ماء يخفف الوطنية فيشربونه ، أو لا يملكون لأنفسهم عنه صرفاً  
 فيتركونه ، ولو يكرهونه <sup>(١)</sup> ولكنه ماء في الظاهر وبلاء في الأثر : يشوي  
 الوجوه إذ تواجهه ، ويقطع الأمعاء إذ يدخلها !

وهم بعد إذ قطع الماء أمعاءهم يبدلون أمعاء غيرها ليزوقوا العذاب و ( لا  
 يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها شيء ) : « كلما نضجت جلودهم  
 بدلناهم جلوداً غيرها » ( ٤ : ٥٦ ) وهي جلود الأرواح : الأبدان بما ظهر  
 منها وما بطن .

(١) مجمع البيان روى أبو امامة عن النبي (ص) في قوله « ويسقى من ماء صديد » قال :  
 يقرب اليه فيكرهه فإذا دنى منه شوى وجهه ووقع فروة رأسه فإذا شرب قطع أمعائه حتى  
 يخرج من دبره يقول الله عز وجل « وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم » .

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ  
 قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ  
 اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ - ١٦ . وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا  
 زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ - ١٧ . فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَّا  
 السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا  
 جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ - ١٨ . فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ  
 لِذُنُوبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ  
 وَمَثْوَاكُمْ - ١٩ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ  
 فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ  
 فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ  
 الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ - ٢٠ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ  
 الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ - ٢١ . فَهُمْ  
 عَسِيتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا  
 أَرْحَامَكُمْ - ٢٢ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى  
 أَبْصَارَهُمْ - ٢٣ . أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ  
 أَقْفَالُهَا - ٢٤ . إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ

مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ - ٢٥ .  
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي  
 فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ - ٢٦ . فَكَيْفَ إِذَا  
 تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارُهُمْ - ٢٧ .  
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاقْبَضَ  
 أَعْمَالَهُمْ - ٢٨ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ  
 لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ - ٢٩ . وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ  
 فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ  
 أَعْمَالَكُمْ - ٣٠ . وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ  
 مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ - ٣١ . إِنَّ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ  
 مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ  
 أَعْمَالُهُمْ - ٣٢ .

\*\*\*

جولة مع المنافقين بعد جولة الكافرين ، وإذا كان اولاء في النار فهؤلاء في  
 الدرك الاسفل من النار ، بما توجه منهم الى الاسلام والمسلمين من اخطار ، فالله  
 يستعرض - فيما يستعرض - كيدهم وميدهم ، ولكي يحظرهم المسلمون ويحذروهم



فتبقى كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

« ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » .

« ومنهم » : من الكافرين ، دون المؤمنين إذ وصفوا بأوصاف تخصهم دون المنافقين ؟

« من يستمع إليك » دون أن يستمعوا قولك كـ « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ( ٣٩ : ١٨ ) وإنما « إليك » بعيدين عنك وعن وحي الرسالة رغم أنهم عندك ، فـ « إلى » هنا توحى بالبعد ، وانهم صم في استماعهم : « ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » ( ١٠ : ٤٢ ) فهم صاغون كحيوان ، صماً عن صوغ الإنسان فإذا استمعوا إليك ليس إلا هزة أو تجسسا !

« حتى إذا خرجوا من عندك » بعدما استمعوا إليك « قالوا للذين أوتوا العلم » باستماعهم ووعيم قولك « ماذا قال آنفاً » ؟ : قبل حين ، كأنهم لم يسمعه رغم أنهم استمعوا إليه ، وإنما لم يفقهوه ، ! ( أنهم عن السمع لمعزلون ) ( ٢٦ : ٢١٢ ) وهم يسألون الذين أوتوا العلم ( ماذا قال آنفاً ) ؟ تعريضاً أننا ما نفقه ما يقول لأنه فارغ عن أي معنى معقول ، كأضرابهم : ( قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول ) ( ١١ : ٩١ ) أو تحريضاً للعالمين تعنتاً : لو يحمل معنى فعلونا ! والرسول لم يسطع أن يسمعهم ! : ( أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ) أو توهيناً لمقال الرسول : لو كان مقالاً عالياً لحفظناه إذا استمعنا إليه ، لكننا نسيناه بعد حين لأنه كلام مهين ، وما حجتهم في قولتهم الخواء إلا استكبارهم عن الحق والله منهم براء .

( أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ) طبع الله ان تركهم في طغيانهم يعمهون

وفي غيهم يسرحون ويمرحون ، وكفى انقطاع الهداية الإلهية لاستمرار الطبع فازدياده : ( فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ) ( ٥:٦١ ) فطبعه - إذاً - ترك هدايته ! .

( واتبعوا أهواءهم ) قبل أن يطبع الله فاستحقوا طبعاً من الله ، وبعد أن طبع الله فازدادوا إتباعاً لأهوائهم<sup>(١)</sup> ، فهم يعيشون لأنطباع قلوبهم ما هم يتبعون أهواءهم .

وكما اتبّع الأهواء يستهوي زيادة الطبع ، كذلك الإهتداء يتبع زيادة الهدى وأخرى :

« والذين اهتدوا زادهم هدى وآثارهم تقواهم » هؤلاء الأكارم زادهم الله هدى بما زادهم اهتداءهم ، كما آتاهم تقواهم ، بما آتاهم اهتداءهم بزيادة هدايتهم فاهتداءهم مادة للزيادة والله فاعلمها ، حيث النور يجلب النور ، كما النار تجلب النار ، كما تقواهم مادة للزيادة والله مؤتيها .  
ومن سنن الإهتداء والتقى التجاوب كما منها الزيادة لكل في نفسه ، فالهدى : العلم الايمان ، والتقوى : العمل الصالح ، انها متجاوبان : كلما ازدادت الهدى زادت التقوى ، وكلما ازدادت التقوى زادت الهدى ، حتى يأتي دور التقوى في الاخرى اذ تبرز حقيقتها : « آتاهم » حقيقة « تقواهم » .

فآيتا التقوى تشمل الأولى كحصيلة للهدى ، والاخرى كحقيقة للتقوى ، هي جزاءها بنفسها ، فإن تقوى الله عن هدى علمية ايمانية هي التي تملك العاقبة الحسنی : « والعاقبة للتقوى » ( ٢٠ : ١٣٢ ) دون الهدى الخاوية عن تقوى ، او التقوى الخالية عن هدى ، وانما صدفه عمياء ، او تقليد على الاعمى اللهم الا فضلاً من ربك لو مات على هذه التقوى ! .

(١) فالجمله - إذاً - حالية بواو الحال : طبع الله على قلوبهم حال انهم اتبعوا أهواءهم .

« فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها فاني لهم اذا جاءتهم ذكراهم »

ماذا ينتظرون ولكي يؤمنوا إلا الساعة ولا تأتي الا بغتة ، او اشراطها فقد جاءت ، فإذا جاءت الساعة التي هي واقع ذكراهم « فاني لهم اذا جاءتهم ذكراهم » ؟ « وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان واني له الذكرى » أذكرى بعد اذ حلّوا في واقعها وقد مضت حياة الذكرى ، اللهم الا تحسراً يقول يا ليتني قدمت لحياتي » ( ٨٩ : ٢٤ ) ثم ولا تأتي الا بغتة دون امهال لمجال الذكرى قبلها .

واما اشراطها فقد جاءت ، ومتى هي اشراط الساعة ومتى جاءت وهل لها بقية باقية ننظرها ؟

الأشراط جمع الشرط ، وهو العلامة المشروط بها الشيء ، في امكانيته أو حتميته او قربه ، فأشراط الساعة : قيامة الإمامة والإحياء الحساب الجزاء ، انها نماذج تدل عليها من ذي قبل هي أشراط امكانيتها او حتميتها او قربها ، وقد جاءت في كافة صنوف البراهين ! التي تثبتنها في هذا المثلث البارح : انها ممكنة ثم محتومة ثم وهي قريبة ، بادلة وأشراط عقلية وحسية وسمعية ، فنحن - اذا - نعيش اشراط الساعة في اجواء الرسائل الإلهية بالآيات الأنفسية والآفاقية ! فمن اشراط امكانيتها إحياء عديد من الموتى طيات الزمن الرسالي قبكيتاً وتسكيتاً لناكري الحياة بعد الموت ، كما ومنها حياة اموات اخرى ، نباتية وسواها : هي تترى ليل نهار « ومن آياته انك ترى الأرض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي احيانا لمحيي الموتى انه على كل شيء قدير » ( ٤١ : ٣٩ )

ومن آيات حتميتها علم الله وعدله وقدرته على جزاء الظالمين ، فاذا لا يجازيهم

كاملة في الأولى فلا بد من حياة أخرى لتجزي كل نفس بما تسعى ، والا فربنا سبحانه وتعالى إما ظالم على علمه وقدرته ، او عاجز على عدله وعلمه ، او جاهل على عدله وقدرته ، ام ماذا مما يمس من كرامة ربوبيته !

ومن آيات قربها انشقاق القمر « اقتربت الساعة وانشق القمر . وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر .. » فانشقاق القمر آية لقرب الساعة كما هو آية لنبي الساعة !

كما ونبي الساعة ، وعلى حد قوله ( ﷺ ) : « انا والساعة كهاتين » : سبائته ووسطاه <sup>(١)</sup> وهو خاتم النبيين ، وكتاب الساعة : القرآن العظيم ، انها من اهم اشراط الساعة التي جاءت ، وكما يسمى نبي آخر الزمان ، فقد ختم زمن الرسالات الإلهية المتواصلة بنبي الساعة ، كما ختم الوحي بكتاب الساعة ! .

هذه الرسالة الاخيرة ، التي تحمل البشارة والندارة الاخيرة هي اضخم وأعظم هذه الاشراف ، اذ تنذر بقرب الاجل المضروب ، الذي لم يبق منه الا قدر الزيادة بين السبابة والوسطى ، منذ بزوغ الرسالات حتى نبي الساعة ، وكما الآيات في قرب الساعة تجاوبها <sup>(٢)</sup> .

فهذه آيات بينات من اشراط الساعة التي جاءت الى زمن نزول آية الاشراف ومن ثم اشراط اخرى الى زمننا ، ثم اشراط تتبعها اعتبرت كأنها جاءت لتحقيق وقوعها مستقبلا وضمن ما جاءت ماضياً ، ومن التي تستقبلنا : فتح يأجوج

(١) راجع تفسير سورة القمر من هذه الموسوعة ج ٢٧ والحديث اخرجه في الدر المنثور : ٦ : عن انس قال قال رسول الله (ص) .. وأشار بالسبابة والوسطى .

(٢) : « ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريباً » (١٧ : ٥١) « وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً » (٣٣ : ٦٣) « انا انذركم عذاباً قريباً » (٧٨ : ٤٠) « انهم يرونه بعيداً . ونراه قريباً » (٧٠ : ٧) راجع تحقيق معنى القرب ومداه التقريبي الى الجزء ٢٩ سورة المعارج .

ومأجوج : « حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق ماذا هي شاحصة ابصار الذين ظلموا » ، وعلمها قبل ظهور المهدي كشرط من اشراطه ، كما هو من اعظم الاشراط التي تستقبل الساعة ، اذ يؤسس دولة اسلامية عالمية على ضوء الكتاب والسنة الصادقة ، بما تقدم هذا الشرط من اشراط اخرى وعلامات ، تجدها في المفصلات (١) .

(١) الدر المنثور ٦ : - اخرج ابن ابي شيبة والبخاري ومسلم وابن ماجه وابن مردويه عن ابي هريرة قال : كان رسول الله (ص) يوماً بارزاً للناس فآلاه رجل فقال : يا رسول الله (ص) ! متى الساعة ؟ فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن اشراطها : اذا ولدت الامة ربتها فذلك من اشراطها ، واذا كانت الحفاة العراء وعاء الشاة رؤس الناس فذلك من اشراطها ، واذا تطاول وعاء الغنم في البليان فذلك من اشراطها . وفي تفسير القمي بإسناده عن عبد الله بن عباس قال : حججنا مع رسول الله (ص) حجة الوداع فأخذ بحلقه باب الكعبة ثم اقبل اليها بوجهه فقال : الا اخبركم باشرط الساعة ؟ وكانت ادنى الناس منه يومئذ سلمان وحمه الله فقال : بلى يا رسول الله (ص) ! فقال : من اشراط الساعة اضاءة الصلوات واتباع الشهوات والميل مع الاهواء وتعظيم اصحاب المال وبيع الدين بالدنيا فعندها يذاب قلب المؤمن في جوفه كما يذاب الملح في الماء مما يرى من النكر فلا يستطيع ان يغيره ، قال سلمان : وان هذا لكائن يا رسول الله (ص) ؟ قال : اي والذي نفسي بيده ان ان عندها يليهم امراء جورة ووزراء فسقة وعرفاء ظلمة وأمناء خونة قال سلمان : وان هذا لكائن يا رسول الله (ص) ؟ قال : اي والذي نفسي بيده - يا سلمان ان عندها يكون النكر معروفاً والمعروف منكراً ويؤمن الخائن ويخون الامين ويصدق الكاذب ويكذب الصادق ! قال سلمان : وان هذا لكائن يا رسول الله (ص) ؟ قال : اي والذي نفسي بيده ، يا سلمان ! فعندها تكون امارة النساء ومشاورة الإماء وقعود الصبيان على المنابر ويكون الكذب ظرفاً والزكاة مغرماً والفقير مغنماً ويحفر الرجل والديه ويبر صديقه ويطلع الكوكب المذنب - قال سلمان : وان هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال : اي والذي نفسي بيده يا سلمان ! وعندها تشاؤك المرأة زوجها في التجارة ويكون المطر قبيظاً ويغيظ الكوام غيظاً ويحتقر الرجل العسر ، فعندها تقارب الاسواق اذا قال هذا لم أبس شيئاً وقال هذا لم أربح شيئاً فلا ترى إلا ذاماً لله - قال سلمان :

فهذه وتلك من علامات الساعة واشراطها ، التي تناسبها امكانية وتحققاً وقرباً  
فلها صلات الدلالة كأدلة براهين ، والا فها هو دور اشراط لا ترتبط بصلات  
عقلية ام واقعية بالساعة ، اللهم إلا ادعاءات لا يقبلها ويصدقها الناكرون .

⇒

وان هذا لكائن يا رسول الله (ص) ؟ قال : اي والذي نفسي بيده فعندها يليهم اقوام ان  
تكلموا قتلهم وان سكتوا استباحوهم ليستأثروا بغيثهم وليطأن حرمتهم ، وليسفكن دماءهم ،  
ولتملئن قلوبهم غلا ورعباً فلا تراهم إلا وجلين خائفين مرهوبين قال سلمان : وان هذا لكائن  
يا رسول الله (ص) ؟ قال : اي والذي نفسي بيده يا سلمان ! ان عندها يؤتى بشيء من المشرق  
وشيء من المغرب يلون امي فالويل لضعفاء امي منهم والويل لهم من الله لا يرحمون صغيراً ولا  
يوقرون كبيراً ولا يخافون من شيء ، جثثهم جثة الأدميين وقلوبهم قلوب الشياطين - قال  
سلمان : وان هذا لكائن يا رسول الله (ص) ؟ قال : اي والذي نفسي بيده يا سلمان ! وعندها  
يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت اهلها وتشبه  
الرجال بالنساء والنساء بالرجال ويركبن ذوات الفروج السروج فعليه من امي لعنة الله - قال  
سلمان : وان هذا لكائن يا رسول الله (ص) ؟ فقال : اي والذي نفسي بيده ان عندها تزخرف  
المساجد كما تزخرف البيع والكنائس ، وتحلى المصاحف وتطول المنارات وتكثر الصفوف  
والقنوب متباغضة ، والسنن مختلفة - قال سلمان : وان هذا لكائن يا رسول الله (ص) ؟ قال :  
اي والذي نفسي بيده يا سلمان ! وعندها تحلى ذكور امي بالذهب ويلبس الحرير والديباج ،  
ويتغنون جلود النمر صفاقاً - قال سلمان : وان هذا لكائن يا رسول الله (ص) ؟ قال : اي  
والذي نفسي بيده يا سلمان ! وعندها يظهر الزنا ويتعاملون بالغبية والرشى ويوضع الدين وترفع  
الدنيا - قال سلمان : وان هذا لكائن يا رسول الله (ص) ؟ قال : اي والذي نفسي بيده يا سلمان !  
وعندها يكثر الطلاق فلا يقام لله حد ولن يضروا الله شيئاً - قال سلمان : وان هذا لكائن  
يا رسول الله (ص) ؟ قال : اي والذي نفسي بيده يا سلمان ! وعندها تظهر القينات والمعازف  
ويليهم اشرار امي - قال سلمان : وان هذا لكائن يا رسول الله (ص) ؟ قال : اي والذي  
نفسى بيده وعندها يحج اغنياء امي للزينة ويحج اوساطها للتجارة ويحج فقراءهم للزينة والسمعة ،  
فعندها يكون اقوام يتعلمون القرآن لغير الله ويتخذونه مزامير ويكون اقوام يتعلمون لغير  
الله وتكثر أولاد الزنا ويتغنون بالقرآن ويتهاقنون بالدنيا - قال سلمان : وان هذا لكائن

⇐

إذا فحماقى الطغيان ماذا ينظرون ؟ « هل ينظرون إلا الساعة ان تأتيهم بغتة ؟ » ولنفرض انها أتتهم فماذا يستفيدون ! أيستفيقون من غفوتهم ؟ « فأنى لهم إذا جاءهم ذكراهم » بواقعه وهم ناكروا قبل واقعه ! فان ذكر الساعة قبلها بأشراطها هي التي تفيدهم ، دون ذكرها بنفسها اذا اتت « فأنى لهم اذا جاءهم ذكراهم » ؟ فلات حين ذكرى مناص وخلاص ، وانما ذكرى تباب وعقاب .  
 ام ينظرون قبلها دلالاتها الاشرار ، « فقد جاء اشراطها » التي لا قبل لها فلماذا لا يؤمنون ؟ ! .

فاعلم انه لا إله الا الله واستغفر لذنبك والمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم » :

يا رسول الله (ص) ؟ قال : اي والذي نفسي بيده يا سلمان ! ذاك اذا اقتهكت المحارم واكتسبت المآثم وتسلط الاشرار على الاخيار ويفشروا الكذب وتظهر اللجاجة وتفشو الفاقة ويتباهون في اللباس ويمطرون في غير اوان المطر ويستحسنون الكوبة والمعازف وينكثرون الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يكون المؤمن في ذلك الزمان اذل من الامة ويظهر قراءهم وعبادهم فيما بينهم التلاوم فأولئك يدعون في ملكوت السماوات الارجاس الانجاس - قال سلمان : وان هذا لكائن يا رسول الله (ص) ؟ قال : اي والذي نفسي بيده يا سلمان ! فعندها لا يخشى الغني على الفقير حتى ان السائل يسأل فيما بين الجمعيتين لا يصيب احداً يضع في كفه شيئاً - قال سلمان : وان هذا لكائن يا رسول الله (ص) ؟ فقال : اي والذي نفسي بيده يا سلمان ! فعندها يتكلم الروبيضة - فقال سلمان : وما الروبيضة يا رسول الله (ص) فذاك ابي وامي ؟ قال (ص) : يتكلم في امر العامة من لم يكن يتكلم (١) فلم يلبثوا الا قليلا حتى تخور الارض خورة فلا يظن كل قوم الا انها خارت في ناحيتهم فيمكنون ما شاء الله ثم ينكثون في مكثهم فتلقى لهم الارض افلاذ كبدها - قال : ذهب وفضة ، ثم اومى بيده الى الاساطين فقال : مثل هذا ، فيومئذ لا ينفع ذهب ولا فضة فهذا معنى قوله : « فقد جاء اشراطها » .

(١) الروبيضة لا معنى لها في اللغة ، ولذلك لم يفسرها الرسول (ص) الا بعنوان عام « يتكلم في امر العامة من لم يكن يتكلم » او الذي لا يحق له التدخل في امر الشعب ، وقد تكون (رضا بهلوي) باختلاف ترتيب حروفها .

توجيه إلى الدعامة الاولى التي تتبنى الدعوة الاسلامية منذ بزوغها وعلى طول الخط ، تفريعا على كل ما مضى من ولاية الله للمؤمنين وان الكافرين لا مولى لهم « فاعلم » : ثباتا على ما علمت وعرفت ، ثم زيادة في العلم والمعرفة : « انه » : الشأن كله ، وشأنك كله : « لا إله الا الله » فضمير الشأن توحى بحصره في سبيل الدعوة في علم التوحيد ، الذي يشمل الروح كلها ، ويشغل العقل والصدر والقلب والفؤاد واللب كلها ، ثم يتخطاها الى واقع الحياة الرسالية كلها ، دون ان يحمده على المسالك ويثبت على قول « لا إله الا الله » او الايمان به دون علم ، او العلم به دون ايمان ، وانما العلم اليقين ثم عين اليقين بما لكل من درجات ، وهي كلها من درجات في « فاعلم .. » : العلم المطلق لا مطلق العلم ، وانما المطلق الذي يمازج روح الانسان بجوانحها ، ثم يظهر في جسم الانسان بجوارحه ، ويا لكلمة التوحيد من براعة وبراعة ، فاولها خالص الكفر : « لا إله » وآخرها خالص الايمان : « الا الله » ! (١) .

فلا تعني « فاعلم » انه كان جاهلا بالتوحيد قبل الامر ، ولان العلم لا يحصل بالامر ، ولولا العلم بحقه لم ينزل عليه الوحي : « فاعلم » وسواه ، وإنما تعني فيما تعني الثبات والزيادة بأسبابها .

( فاعلم ) ... وتزود بهذا العلم البارع في سبيلك الفوغاء والشوكاء ( واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ) .

وترى هل أذنب الرسول ( ﷺ ) في حياته الرسالية أو قبلها ذنب العصيان حتى يؤمر بطلب الغفران ؟

(١) علل الشرايع للصدوق بإسناده الى ابن شهرمة عن جعفر بن محمد ( ع ) قال لا يبي حنيفة : اخبرني عن كلمة اولها شرك وآخرها ايمان ؟ قال : لا ادري ! قال : هي « لا إله الا الله » اولها كفر وآخرها ايمان .

( الفرقان - م ٨ )



في الحق ان الذنب لا يعني العصيان اياً كان ومن أي كان ، وانما هو ذنب الفعل وتبعته الصعبة وعقابه الخطرة ، في الدنيا أو الآخرة ، فذنب الآخرة هو العصيان الذي ذنبه العذاب ، وذنب الدنيا هو الدعوة إلى الله الذي ذنبه دوائر السوء من الطفاسة المعارضين للدعات ، إذ يتربصون الدوائر بأصحاب الدعوة الإلهية هتكاً وفتكاً وطردها وقتلاً ، وكلما كانت الدعوة أثقل فذنبها التبعة أعضل ، فالإستغفار عنه أشكل : أن يطلب الغفر والستر عما يعرقل الدعوة أو يفتك بالداعية ، كما غفر الله ذنب محمد بما فتح مكة : ان حسم مواد الشرك والضلالة فأنحسمت عنه عرقلات الدعوة .

فلكل نبي أو صاحب دعوة إلهية تبعة عبر الدعوة هي ذنبه لمعارضيه ، كما كان لآل فرعون على موسى : ( ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ) ( ١٤:٢٦ ) وما ذنبه لهم إلا قتله القبطي المقاتل للإسرائيليين ولا يحرم وكز الكافر المقاتل دفاعاً عن المؤمن القاتل ( فوكزه موسى فقضى عليه ) : أن صادف قتله .

فالذنب منه طاعة ومنه معصية ، ففريق في الجنة وفريق في السعير ، دون ما يزعمه الكافرون الذين يتشبهون بآيات الذنب كهذه فيتهكون حرمان المرسلين : انهم عاصون ، ولا ما يخيل إلى سواهم زعم العصيان فيأخذون في تاويلاتهم وتوجيهاتهم بئمة ويسرة ، بكل تعسف وعسرة ، ولكي يذودوا عن ساحة الرسول ، ما القرآن ينسبه إليه من عصيان ! .

فعبثاً يحاول هؤلاء وهؤلاء تفسير الذنب أو تأويله ، إلا أن يشوبوا إلى ما يعنيه في الأصل فيتوب الكافرون ، ويعلم المؤمنون انسه بالنسبة للمرسلين من أعظم الطاعات ، فالرسالة ذنب ، والدعوة إلى الله ذنب ، والجهاد في سبيل الله ذنب : فانها تخلف دوائر السوء ، واذئاب العراقيل ممن يعارضون دين الله ، فأصحاب الدعوة هم بحاجة إلى الإستغفار من ذنوبهم : أن يطلبوا غفر الله وستره

على ما تستقبل دعواتهم من أخطار ، تحسم أصول الدعوة ، وتحطم الداعية ،  
ان يستغفروا الله بعد أن يعلموا أن لا إله إلا الله : ( فاعلم أنه لا إله إلا الله  
واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ) :

والمتقلب هو التقلب الإنتقال وزمان الانتقال ومكانه ، كما المثلوى هو  
الإستقرار في هذا المثلث : انقلاباً في زمان أو مكان :

من متقلب النطف من الأصلاب والترائب إلى الأرحام ، ومنها إلى الحياة  
الثانية الدنيا - وفيها من يقظة إلى نوم ، ثم ويقظة من حركات النصب : المعاش  
إلى مثاوي الاستقرار : المنازل - ثم من الحياة الدنيا جملة إلى البرزخ بمتقلباتها  
ومثاويها ، ثم منها جملة إلى الحياة الأخرى : المثلوى التي لا بعدها مثوى ، بما فيها  
من متقلبات الحساب سهلة وصعبة إلى مثاوي الجزاء : إلى نار أم جنة المأوى .

فكل مثوى هنا وهناك متقلب كما كل متقلب مثوى ، إلا المثلوى الأخرى

في نار الخلود أم جنة المأوى : *مركز تحقيق كامبوت علوم إسلامي*

فلأن ( الله يعلم متقلبكم ومثواكم ) في حياة التكليف الإيمانية ، وفي حياة  
الجزاء ، انها متقلب الايمان ومثواه ، أن زادكم في سيركم إلى الله - ومعكم  
رسول الله - هو العلم : ( انه لا اله إلا الله ) فهو هو القادر على غفر ذنوبكم أيأ كان :  
من ذنب عصيان رفعاً بعد حصوله ، أو دفعاً كيلا يحصل ، أم ذنب طاعة تستتبع  
دوائر السوء من حماقى الطغيان ، أم إغانة على قلوبكم من صحبة لهم ، غفراً في  
هذا المربع من الذنوب التي يشار ككم فيها الرسول إلا ذنوب العصيان اللهم إلا  
دفعاً عن وصمة العصيان ، عصمة إلهية للرسول .

ولأن اتصال الرسول ﷺ بهؤلاء الطغاة المعارضين وصحبته لهم عبر  
الدعوة ، ان في ذلك تبعات بطبيعة الحال تعاكس على قلبه المنير فيغان على قلبه ،  
فليستغفر ربه ليزيل عنه وصمات هذه التبعات ، معها كانت عبر الدعوة في واجب

الرسالة ، فالاشتغال بخلق الله ، ولا سيما من يحادون الله ، انه انشغال عن الخلوة بالله ، وان كان ذلك بأمر من الله ، فليستغفر الله عن هذا الذنب الطاعة ثانية ، كما يستغفر عن ذنب الرسالة ، ولقد صح عن الرسول ﷺ قوله : « انه ليغان على قلبي واني لاستغفر الله كل يوم مائة مرة »<sup>(١)</sup> ، فهل انه عن مائة عصياناً ، ولا يبتلى به افسق الفساق فكيف بأول العابدين ؟!

فلا يغين على قلبه ما يرين عليه من عصيان ، بل هو مما يضيق على صدره من خلطه الرسالي بحماقي الطغيان ، فيستغفر الله ان يزيل عن قلبه المنير اثر الإغانة فيخلو بربه كما كان .

هذا ، ثم وتزيد امته عليه ذنباً هو اللطم او العصيان ، فاستغفاره للمؤمنين يشمل كما يشمل ذنبي الرسالة ، فاستغفاره له ولهم في هذا المثلث يتحد في رفع وازالة التبعات بعد حصول الذنب ايأ كان ، ثم هنا رابع هو الدفع ولما يحصل ، ان يذود الله عنه وعن المؤمنين وصحات الذنب العصيان ، عصمة له وتأيداً لهم ألا يذنبوا هكذا ، وكما نجده كثيراً في آيات الاستغفار عن الذنوب<sup>(٢)</sup> .

« ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا نزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الدين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المخشي عليه من الموت فأولى لهم » .

« ويقول الذين آمنوا » وهم المؤمنون غير المنافقين ، حيث النفاق يباين الايمان ، مهما كان للايمان درجات قد يتسرب الى بعضها الشرك الخفي : « وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون » (١٢: ١٠٦) ، « والذين في قلوبهم مرض » هنا هم من المؤمنين ، اذ لا مجال للمنافقين ان يدخلوا في زمرة المؤمنين ، ولا

(١) اخرجه في الدر المنثور عن جماعة عن الاغر المزني قال قال رسول الله (ص) .

(٢) تفصيل البحث عن مراحل ومصاديق الذنب تجده في سورة الفتح انشاء الله تعالى .

لأدنى درجات الايمان ، حيث المفاصلة بين الايمان والنفاق لا تناسب أية مواصلة ، بخلاف الاسلام الذي يجمع كتلة الايمان وكتلة النفاق ، مهما اخرج الكفر .  
 « .. يقول .. : لولا أنزلت سورة ، ترى انه نزول أية سورة ؟ وقد نزلت قبل هذه السورة سور كالمكية كلها ، والمدنية عديد منها !

او انها السورة المحكمة التي لا تقبل التأويل ؟ فكذلك الامر ، حيث الاكثية الساحقة من المكية محكمات ، او في الكثير من آياتها وكفى ، كما المدنية النازلة قبل القتال !

او انها السورة المحكمة المذكور فيها القتال كسورة القتال ؟ أنهم قالوا قبل نزولها : « لولا انزلت سورة ، بشأن القتال ، تشوقاً الى النضال ، وبعد اذ كانوا محرومين عن النزال في ساحات القتال ، في معارك الجهد والكرامة ، طيلة العهد بمكة ، حتى اذا استقروا في المدينة .. : قالوا مقاتلهم هذه ، فريق عن جد الايمان على سلامة من قلوبهم ، وفريق على ضعف الايمان ومرض في قلوبهم !  
 « فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ، وهي سورة : القتال -

رأيت :

« رأيت الذين في قلوبهم مرض « مرض النفاق والشقاق ، من غير المؤمنين ، ممن لم يقولوا : « لولا انزلت سورة » ومن المؤمنين الضعفاء ، الذين في قلوبهم مرض الخوف والتخاذل ، ولما يستقر جوهر الايمان في قلوبهم ، ولما يستكن الايمان في اعماقهم ، واما سائر المؤمنين الأقوياء فهم يتحينون الفرص لخوض المعارك في سبيل الله ، ويلتمسون قتالاً في الله ليل نهار .

« فاذا انزلت .. رأيت .. ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت » :  
 انهم خائفون لحد الهلع ، لا يتجملون بحياء أمام الخطر الحادق بالمسلمين ، ولا يتعملون أذى في سبيل الله والحفاظ على كرامتهم كمؤمنين ، وكأنهم اخذتهم

غشية الموت وغفوة الفوت ، فلا حياة لمن تنادي منهم ، ولا حياة لمن نادوا بنزول سورة القتال ، ولا وفاء لمن وعدوا خوض النضال ، ثم ولا إيمان أصلاً للمنافقين إذ لم يشاركون وحتى ضعفاء الإيمان في نزول سورة القتال !  
« فأولى لهم » :

أولى للمنافقين نفاقهم هذا من وفاقهم ، وكأنهم خلقوا للنفاق ، فلا يرجى منهم أي وفاق : و « أولى لهم » من هذه الفضيحة العار ، ومن هذا الخور البوار « طاعة وقول معروف » ! أن يتركوا النفاق إلى الوفاق ، كما لأبي جهل في كفره : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » ( ٧٥ : ٣٥ ) أن يترك الكفر إلى الإيمان ، أم يبقى على كفره كأنه خلق للنار !

ثم وأولى للمؤمنين الذين قالوا لولا نزلت سورة ، ولكنهم كذبوا -  
« أولى لهم » :

« طاعة وقول معروف » : طاعة الله إذا أنزلت سورة تحمل فرض القتال أم ماذا ، وقول معروف صادق : ترجياً لنزول سورة القتال صادقين كسائر المؤمنين ، أم قولاً صادقاً سواء إذ ليسوا من أنفسهم آمنين أن يثبتوا على هذه المقالة « فأولى لهم طاعة وقول معروف » : كما أولى للمؤمنين الصادقين إيمانهم في قولهم « لولا نزلت سورة » فلما نزلت صدقوا الله ! فأولى لفريقي المؤمنين وقسمي الكافرين « طاعة وقول معروف » من الفضيحة العار ، لكلٍ حسب شأنه المؤمن أو الشائن<sup>(١)</sup> .

(١) هذه احتملات - وكلها صحيحةا تتحملها الآية - تدور حول رجوع ضمير الغائب في « أولى لهم » إلى فريقي المؤمنين المعنيين بقوله تعالى « ويقول الذين آمنوا » وإلى الكفار والمنافقين - ثم « أولى لهم » مبتدأ خبره طاعة وقول معروف - أو خبر مبتدأ معذوف كـ « هذا » أولى لهم - وإذا احتملت الآية معاني عدة لا تنافر بينها وكلها سليمة - فلا ضير أن تكون كلها معنية ، وكما ترونه في أسلوبنا في هذا التفسير .

« فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » :

فإذا عزم أمر القتال كواقع مفروض ، وبعد أن أنزلت سورة القتال دون ترجيهم كذباً وزوراً أو غروراً ، فهناك الامتحان الامتحان لمن لم يصدق في مقاله « لولا أنزلت » والامتحان الناجح لمن صدقوا الله : « فلو صدقوا الله » بخوضهم المعركة بعد إذ عزم أمر القتال « لكان خيراً لهم » من خوض الترجي الخواء في المقال ، فعند الإمتحان يُكرم المرء أو يُهان ، وعند تقلب الأحوال يعرف جواهر الرجال !.

وترى كيف ينسب العزم هنا إلى الأمر ، وليس إلا توطين النفس على الأمر ، ولا نفس للأمر - أي أمر ؟.

إنه بلاغ وبلوغ في العزم على الأمر ، وكان الأمر هو العازم في نفسه ، وبإله من بلاغة رائعة في التعبير عن مدى العزم .

« فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » :

تنديد شديد بالمفسدين ، منافقين أو ضعفاء من المؤمنين ، حينما يتولون عن أمر الجهاد متثاقلين ، وحينما يتولون أمور المسلمين<sup>(١)</sup> والمعنيان هما المتوقعات من حال المخاطبين ، الذين يقولون ولا يعملون ، قولاً في ترجي الجهاد : لو أنزلت سورة ذكر فيها القتال ، ثم هم أولاء يخالفون ، يقولون في المجالس كيت وكيت ، فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد ! أم قولاً في ترجي الإصلاح أن لو تولوا أمور المسلمين فلسوف يصلحون ، فقولهم قول عجاب ، ثم عملهم في قباب : « ومن

(١) التولي هنا يحتمل التولي « عن » من الولاء لا الولاية ، فهو الإعراض عن أمر الله أو التولي « إياه » من الولاية فهو التصدي للحكم من تكلف الولاية أو تقبلها ، والآية تحتلها - مهما كان الأول أنسب معنى بمناسبة المورد ، والثاني أنسب لفظاً إذ لم يتعد بـ « عن » فالمتبع عموم اللفظ لا خصوص المورد لو كان ، فالمناسبة المعنوية لا تختص الآية بنفسها ، ويؤيده ما رواه في جمع البيان عن النبي (ص) « فهل عسيتم إن توليتم » يعني إن توليتم أمور المسلمين .

الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام .  
وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد .  
وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد « ( ٢٠٦ : ٢ )  
فحذار حذار ، يا من تتولون أمور المسلمين دونها لياقة أو لباقة ، عن أن  
ترجعوا إلى الجاهلية الأولى فتنفستوا في الأرض وتقطعوا الأرحام ! ( ١ ) .

« أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » :

« أولئك » المنافقون « الذين لعنهم الله » : إبعاداً عن رحمته ونعمته لما  
بدلوها كفرًا ونقمة ( فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ) ( ٦١ : ٥ ) ( فأصمهم ) عن  
آذان قلوبهم ، إذ لاتصلها كلمة الحق التي يسمعون بآذانهم ، أم هم لا يسمعون :  
( يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين )  
( ١٩ : ٢ ) فهم صم لا يسمعون ( وأعمى أبصارهم ) : أبصار قلوبهم عن  
إبصارهم آيات الحق : ( فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في  
الصدور ) ( ٢٢ : ٤٦ ) فهم عمى لا يبصرون : يعيشون صماً وعمياناً ، تولياً  
عن الحق وتصدياً لأمر المسلمين ، وليتهم كانوا يفتحون بصائرهم وآذان قلوبهم  
فيتدبرون القرآن فلا يُدبرون :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » :

أم إن قلوبهم كالأبواب المقفلة ، لا تتفتح لوعظ واعظ ، ولا يلج فيه عدل  
عادل ، فالقلب المقفول ، هو الغافل والمغفل عنه ، وفي الحق إن أقفال القلوب  
هي التي تغفلها فتغفلها عن موارد الذكرى بالقرآن ، فرغم أن القرآن ميسر

---

( ١ ) ثواب الأعمال للصدوق عن السكوني عن الصادق جعفر بن محمد ( ع ) عن أبيه عن  
آبائه قال : قال رسول الله ( ص ) : إذا ظهر العلم واحترز العمل واثقلت اللسان واختلفت  
القلوب وتقاطعت الأرحام هنالك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم .

لذا كرى ، فالقلوب المقلوبة المقفلة الغافلة لا تستطيع ان تتذكر بالقرآن وإنما القلوب المنفتحة بالصدور المنشرفة هي التي تسكب عليها الأنوار ، فتستحم بالنور فتحي بحياة أرقى وأحى ، بأنوار معارف القرآن العظيم ، إذ تحرك مشاعرها وتستجيشها فتجندها وتعسكرها لحرب الطفوى في محارب التقوى .

فالقلوب الحية المنفتحة هي التي تتدبر القرآن ، ثم تنفتح وتحى أكثر مما كان تعاملها بينها وبين القرآن وتجارباً في الاستحياء بحياة أضوء وأرقى ، فالقرآن حياة للقلوب « جعله الله رباً لعطش العلماء ، وربيعاً لقلوب الفقهاء ، ومحاجاً لطرق الصلحاء ، ودواء ليس بعده داء ، ونوراً ليس معه ظلمة » .

والغاية القصوى لنزول القرآن تدبر آياته : « كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » ( ٣٨ : ٢٩ ) : يدبروا فيه فيتذكروا انه وحي خالص من الله دون خلط بسواه : ( أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ) ( ٤ : ٨٢ ) . فتدبره يثبت انه من عند الله ، ومن ثم يربط الإنسان بخالص الوحي ويخرجه من الظلمات إلى النور ، ولا يعني تدبره ، تصفح أقوال الرجال ، أم كلما يروى من قيل وقال ، حتى إذا لم يوجد رأي أو رواية تفسر آية وقفنا في تفسيرها حائرين ، كأن القرآن ليس بياناً أم ليس فيه تبيان ! مهما كان لتدبره أهل خصوص ، لا عامة الناس ، ولا الذين يعرفون فقط لغة القرآن ، وإنما الخواص الذين يعيشون القرآن حياتهم ، فهم حياتهم القرآن وأخلاقهم القرآن ! مهما كان لكل نصيب من معاني القرآن ، وكما يروي الإمام الحسين عن أبيه علي أمير المؤمنين ( ع ) : ( كتاب الله على أربعة أشياء ، على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق ، فالعبارة للعوام ، والإشارة للخواص ، واللطائف للأولياء ، والحقائق للأنبياء ) .



ثم التدبر في كل أمر هو الفحص عن كل دابر يلحق غايته ، وعن كل غايه يلحقه دايته ، أمور متجاوبة لو دبّرت وربّرت كما يصح للحصول على المراد لحصل فهو في القرآن نضد آيات له متناظرة ، كل دبر بعض للحصول على معنى آية يقصد تفسيرها ، وهذا تدبر التعبير التفسير ، ثم يتلوه تدبر الإيمان ، ولكي يأخذ الإيمان بالقرآن شغاف القلب لحد الهيّمان ، ثم أخيراً تدبر العمل ، ان يلحق تدبر العلم والإيمان ، تدبر الأركان ، إذا فتدبر القرآن في صيغة جامعة يتبنّاها - هو : مثلث : التفهم - الإيمان - العمل ، كل دبر بعض ، كما لكل تدبر بالنسبة لمراتبه مع بعض ! .

ومن ثم - وعلى غرار مثلث التدبر في القرآن فأقفال القلوب أيضاً ثلاثة : إقفال عن المعرفة ، وأخرى عن الإيمان بعد المعرفة ، وثالثة تقفل الإيمان العرفان عن التجلي في عمل الأركان ، وهو الاصل المعني بالتدبر في القرآن <sup>(١)</sup> ، فهذه اركان الإقفال على القلوب ، التي تحرمها عن المعرفة ، ثم عن الإيمان ، ثم عن العمل ، أو عن الازدياد في كل مرحلة من هذه الثلاث ، أو ان يتخطى كل سابق إلى لاحق .

فالقلب - بمفرده - بين أعضاء الروح محطة إذاعة وإستداعة ، تستذيع من العقل والصدر فيطمئن بالإيمان فيعقل ما أخذه عنها : ( افلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ) ( ٢٢ : ٤٦ ) ومن ثم تذيع - ما أخذه في جر الأعمال ، فد ( القلوب ائمة العقول ، والعقول ائمة الأفكار ، والأفكار ائمة الحواس . والحواس ائمة الأعضاء ) <sup>(٢)</sup> .

(١) رواه في الجمع عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السلام في الآية انها قرآء فقالا : فيقضون ما عليهم من الحق .

(٢) عن الامام الصادق عليه السلام - رواه في بحار الانوار .

ومن أقفال المعرفة صمم القلب وعماه ( وانها لا تعمى الأبصار وإنما تعمى  
القلوب التي في الصدور ) ( ٢٢ : ٤٦ ) ( وجعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه  
وفي آذانهم وقراً ) ( ٢٥ : ٦ ) (١) .

« ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول  
لهم وأملى لهم » .

والإرتداد على الأدبار : إلى الجاهلية الأولى ، وبعد تبين الهدى ، إنه من  
مخلفات عدم التدبر في القرآن بأقفال القلوب ، بما سول لهم وأملى الشيطان !  
( فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان .. ) ( ١٦ : ٩٨ ) ! فهناك  
شيطان من خارج يسول ويملي ، وآخر من داخل يتسول ويتملى « وكذلك سولت  
لي نفسي » ( ٢٠ : ٩٦ ) متعاملين في تسويل الإنسان : تزييناً تحرض عليه  
النفس أن يصور لها القبيح حسناً والحسن قبيحاً ، ثم في إملاءها : مدأ في غيها  
المسول لها ، وقطوياً في آملها ، خطوات حسيسات في خطيئات لحد انهيار  
الإنسان في النار : « جهنم يصلونها وبئس القرار » ! رغم انهم لم يكونوا بذلك  
البعيدين عن الهدى ، فقد ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، وإنما  
انحرفوا بما جرفوهم ، وانحرفوا بما حرفوهم ، إبتداءً من بعض الأمر وإنتهاءً  
إلى كل الأمر ! فأصبحوا كفاراً كالكفار :

« ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله  
يعلم أسرارهم » :

« والذين كفروا فتعسأ لهم واصل أعمالهم . ذلك بانهم كرهوا ما أنزل الله

(١) محاسن البرقي عن الامام الصادق ( ع ) : ان لك قلباً ومسامع ، وان الله اذا اراد ان  
يهدي عبداً فتح مسامع قلبه ، واذا اراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح ابداً وهو قول  
الله عز وجل : « ام على قلوب اقفالها » .

فاحبط أعمالهم ، السورة .

فإسراهم لطاعتهم في بعض الأمر يوحى بإسراهم هؤلاء المذبذبين أن يطيعوهم في كل الأمر ، ولكنهم وعدوهم إسراراً : ( سنطيعكم في بعض الأمر ) ولماذا في بعض الأمر ؟ عله لأن طاعتهم في كل الأمر تكشف النقاب عن نفاقهم ، فلا يقدرّون على التجسس لصالح الكفار ، ثم هم واقعون في محاذير الكفر وجاء الدولة الإسلامية ، حارمين أنفسهم عن عوائد الإسلام الإستسلام ، وعن دوائر السوء التي يتربصون بها على الإسلام ، أو إنهم انحرفوا حالاً في بعض الأمر ، فلا يطيعونهم إذاً في كل الأمر ، فإن دركات الكفر هي تلو بعض حتى تجرف بالإنسان إلى شفا جرف هار : أن يطيعوهم في كل الأمر . والذين كرهوا ما نزل الله ، يعم المشركين وسائر الكفار لا سباً لليهود ، إذ كانوا يتوقعون أن تكون الرسالة الأخيرة فيهم ، مؤولين البشارات بحق محمد الإسماعيلي إلى نبي إسرائيل ، فلما اختار الله آخر رسله من بني إسماعيل - لا إسرائيل - كرهوا رسالته وما أنزل الله عليه ، ومن قبل كانوا كارهين لما أنزل الله على أنبياءه بحقه فاستنوا سنة التأويل والتجديل ، وشتوا على الرسول ﷺ حرب الدس والمكيدة ، بعدما عجزوا عن مجاهرته مناصبة العداء : عن حرب التنكيل ، وضموا اليهم كل منافق وحائق ، وكل ضعيف الإيمان ، فأطاعوهم في بعض الأمر ، ومن ثم في كل الأمر ، ولكنهم كل أمرهم في أمرهم إذ أجلاهم الرسول ﷺ عن الجزيرة في آخر الأمر ، ومعهم المشركون أجمع .

« فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم » :

هؤلاء التابعون ، وكما المتبوعون الكافرون : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ذوقوا عذاب الحريق » ( ٥٠ : ٨ ) .  
ويا لها من مأساة ، ضرب الوجوه التي اتجهوا بها إلى غير الله ، والأدبار التي

ارتدوا عليها عن دين الله ، وهم في مستهل الحياة الأخرى ، في اللحظة الأخيرة من الحياة الدنيا ، ففي حالة الاحتضار الاحتقار تستقبلهم هكذا الانذار « ذوقوا عذاب الحريق » .

فلأن الحياة بعد الموت برزخية ، فليس لهم إلا ذوق العذاب ، في حفرة من حفر النيران<sup>(١)</sup> لا كل الحفر ولا كل العذاب .

وإذا كان ذوق العذاب ، يستقبله ضرب الوجوه والأدبار ، إذاً فماذا يكون أصل العذاب !

والتوفي هنا أخذ الأرواح بأجسادها الأصلية لها ، التي عاشتها حياة التكليف ، فالملائكة القابضة للأرواح - وعلى رأسهم مدير شئون الأموات : ملك الموت - هم يتوفون الأموات : أخذاً وافياً دون أي فوت أو انقلاط ، في أي من جزئي الأموات : أرواحاً وأجساداً ، فلا تفضل عنهم مها ضلت عن سائر الخلق : « وقالوا إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد . قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم .. » ( ٣٢ : ١١ ) .

وهم حينما يتوفونهم يضربون الوجوه والأدبار ، فضرب الوجوه ، مواجهة لهم حين الاحتضار بعذاب الإحتقار ، وضرب الأدبار التي تعودت الإدبار عن الحق ، ولأنهم حين يتوفون لا يُخرجون أنفسهم عن الحياة الدنيا بملاذها ، فلا يطاوعون المخرجين ، فالملائكة - إذا - يضربون أدبارهم قائلين : أخرجوا أنفسكم : « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » ( ٦ : ٩٤ ) .

(١) كما في الحديث : القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران ، والبحث عن الحياة البرزخية تجده في محالها الانسب طيات آياتها كآية الانفال .

« ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم » :  
 فإذا لا أعمال لهم صالحة إلا حابطة ، فما لهم - إذا - إلا طالحة كالحلة ،  
 فما لهم حينما يستقدمون الموت ، وإلى الحياة الحساب ، إلا ضرب الوجوه  
 والأدبار ، ومن ثم ذوق عذاب النار ، فإنهم عاشوا حياة مركوسة معكوسة  
 سلباً وإيجاباً ، فأوجبوا سخط الله حيث اتبعوا ما أسخط الله ، وسلبوا رضوان  
 الله إذ كرهوا رضوانه ، معجبين بهذه الحياة البائسة بما سؤل لهم الشيطان  
 وأملى لهم .

« ومن طلب مرضات الناس بما أسخط الله تعالى كان حامده من الناس ذاماً ،  
 ومن آثر طاعة الله تعالى بما يغضب الناس كفاه الله تعالى عداوة كل عدو وحسد  
 كل حاسد وبغى كل باغ وكان الله له ناصراً وظهيراً » (١) .

ولأن الله سبحانه وتعالى لا يحول من حال إلى حال ، وليست له أية حال  
 على أية حال ، فإنه لا يتغير بانفعال الأحوال ، فلا يعني - إذا - سخطه  
 ورضوانه تغير حال ، وإنما ما يناسب ساحته القدسية كعقابه وثوابه (٢) ، كما

---

(١) اصول الكافي - العدة بإسناده عن جابر عن أبي عبد الله (ع) قال قال رسول الله (ص) :  
 والقمي في التفسير عنه (ع) قال قال رسول الله (ص) : من أَرْضَى سلطاناً بسخط الله  
 خرج عن دين الإسلام .

(٢) التوحيد للصدوق بإسناده إلى هشام بن الحكم أن رجلاً سأل أبا عبد الله (ع) عن الله  
 تبارك وتعالى له رضى وسخط ؟ قال : نعم - وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين ، وذلك أن  
 الرضا والغضب دخال يدخل عليه فينقله من حال إلى حال معتملاً ، مركب للأشياء فيه مدخل ،  
 وخالفنا لا مدخل للأشياء فيه ، واحد أحدي الذات وأحدي المعنى ، فراضاً لثوابه وسخطه  
 عقابه من غير شيء يتدخله فيهيجه وينقله من حال إلى حال ، فإن ذلك صفة المخلوقين المعجزين  
 المحتاجين ، وهو تبارك وتعالى القوي العزيز ، لا حاجة به إلى شيء مما خلق ، وخلق جميعاً  
 محتاجون إليه ، إنما خلق الأشياء من غير حاجة ولا سبب اختراعاً وابتداعاً .

هو كذلك في كل ما يصف به ذاته من صفات وأفعال .  
 أفحسب هؤلاء الحماقي المرضى أعمالهم ، شطارة ومهارة وانهم السابقون ؟ أم :  
 « أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء  
 لأريناكنهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم » .

أم حسب مرضى القلوب ، ممن أسلم استسلاماً ونفاقاً ، ومن آمن ثم نافق ،  
 أم حسبوا أن الله لا يعلم نفاقهم ، أم لا يقدر على إخراج أضغانهم : وأحقادهم  
 ضد الاسلام ودعوته ، ف « لن يخرج الله أضغانهم » وإنها توحى لمكان « لن » ،  
 باستحالة ما لإخراج أحقادهم ، فلذلك تراهم مصرين على النفاق ، مسرين  
 النفاق كأن الله لا يعلم أعمالهم « والله يعلم أعمالكم » :

ومعرفة المنافقين على ضروب شتى : كأن يُعرفوا بسيماهم : بسمات في  
 وجوههم ، يعرفهم كل ناظر إليهم ، ولكننا الدنيا دار ابتلاء وبلاء ، فلا تبلى  
 فيها السرائر ، وإنما هي الآخرة : « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي  
 والاقدام » ان يبدو الإجرام ظاهرة باهرة ، لا تخفى منها خافية ، فلم تجر سنة  
 الله في الأولى على تعريف المجرمين ، منافقين أم كافرين ، بما يسمهم في سيماهم ،  
 ولكي يتم الابتلاء الامتحان : « ولو نشاء لأريناكنهم فلتعرفهم بسيماهم » - فان  
 « لو » توحى انه لن يريهم رسوله هنا فضلاً عن سواء ، بسمات في سيماهم .

إلا أن هناك معرفة أخرى حتمية تحتاج إلى كياسة وفطنة - والمؤمن  
 ينظر بنور الله - وهي المعرفة في لحن القول ، وانحرافه عن جادة الصواب ، بما  
 فيه من غمز ولمز ، إمالة للقول عن استقامة الدلالة ، وإحالة له في نبرات ،  
 وظهوره في فلتات ، فما أضمر إنسان أمراً إلا وقد يظهر في صفحات  
 وجهه وفتلات لسانه : فالعاقل هو الذي يعرف الناس في لحن

القول<sup>(١)</sup> و « المرء نخبو تحت لسانه »<sup>(٢)</sup> : « ولتعرفنهم في لحن القول » ..  
« والله يعلم أعمالكم » : مؤمنين ومنافقين .

ثم هنالك معرفة ثالثة بغير سياقهم ولحن القول ، هي أحيانية ، بما يرى الله ويُرىه ، والمنافقون منها حذرون : ( يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون ) ( ٩ : ٦٤ ) وهي كسورة المنافقين وآيات أمثالها تفضح المنافقين ، كسنة أحيانية غير دائمة ، وإنما تتبسع موارد الضرورة .

فمهما خفيت الزاوية الأولى من مثلث هذه المعرفة ، إحالة لها إلى الآخرة ، ففي الثانية كفاية لمن يعرفون من لحن القول ، وفي الثالثة تتمم لما تفلت عن الثانية من لحن في غير القول ، مما يرجع إلى غيوب القلوب ، فيظهره علام الغيوب لرسوله الكريم ، حفاظاً على كيسان الدعوة والداعية ، ولكي تعيها أذن واعية ، يخرج الله بعض أضغانهم من مخارج لحن القول في كل حين ، وبعضاً من مخارج سواء بعض حين ، ولكي تُعبّد جادة الرسالة الجادة ، فيُعبّد الله عبادة جادة .

فاللحن المؤذن بالتلفاق ليس ليختص بالقول ، فهناك ملامح من ألحان أخرى كلحن الفعل أو الإشارة أم ماذا ؟ ومن ثم مقاييس أخرى يقاس عليها الناس ، وكما يروى ( ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ

(١) التوحيد للصدوق بإسناده إلى أبي عبيدة عن أبي جعفر ( ع ) قال : قال لي : يا أبا عبيدة ! خالفوا الناس بأخلاقهم وزايلوهم بأعمالهم ، إنا لا نعد الرجل فينا عاقلاً حتى يعرف في لحن القول ثم قرأ هذه الآية ﴿ ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ .

(٢) أمالي الطوسي بإسناده إلى علي ( ع ) أنه قال : قلت أربع أنزل الله تصديقي بها في كتابه : قلت المرء نخبو تحت لسانه فإذا تكلم ظهر فأُنزل الله « ولتعرفنهم في لحن القول » .

إلا ببغض علي بن أبي طالب ( ع ) <sup>(١)</sup> فقد يوافقون الرسول ﷺ حسب الظاهر ثم ينافقونه ببغض كيانه الثاني ، ونسخته الكاملة علي ( ع ) ، فلا يجمع حب محمد الحبيب وبغض من هو استمرار لكيانه ، حاملاً دعوته ، متخلفاً بأخلاقه وهو باب مدينة علمه !

« ولنبأونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبأوا أخباركم »

سنة حتمية تربوية إلهية هي بلوى المؤمنين ، إمتحاناً دون امتهان ، إختباراً لنفوسهم في معتركات البلايا والرزايا في سبيل الله : « حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » ومن ثم إختباراً لأعمالهم التي تخبر عن نفوسهم كإذاعات خارجية : ( ونبأوا أخباركم ) .

و ( نعلم ) هنا كما في نظائرها <sup>(٢)</sup> هي من العلم : العلامة ، لا العلم المعرفة ، فالله لا تخفى عليه خافية ، فإنه علم بما في الصدور قبل أن تصدرها كأخبار ، وإنه يعلم السر وأخفى ، فكيف تخفى عليه السريرة وما دونها فيبأونهم لكي يعلم ! وإنما هو علم : أن يجعل بالبلوى : جهاداً وسواء — علامة

(١) الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : « ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله (ص) إلا ببغض علي بن أبي طالب » .

وفي الجمع عن أبي سعيد الخدري قال : لحن القول بغضهم علي بن أبي طالب ( ع ) قال : كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله (ص) ببغضهم علي بن أبي طالب . ومثله عن جابر بن عبد الله الأنصاري . وعن عبادة بن الصامت قال : كنا نبور أولادنا بحب علي بن أبي طالب فإذا رأينا أحدهم لا يحبهم علمنا أنه لغير رشده . قال أنس : ما خفي منافق على عهد رسول الله (ص) بعد هذه الآية .

(٢) نجدها في أحد عشر موضعاً في القرآن ، لم تأت في أحدها موجهاً على مفعولين ، والعلم يتعلق دائماً بمفعولين ، فليس إلا علماً — من علم يعلم علماً وعلامة — لا علم يعلم علماً ، يدل على ذلك وحدة المفعول وأدلة الآيات والعقول ، رغم أنه لم يذهب إليه أحد فيما أعلم ، فكم ترك الأول للآخر !

( الفرقان - م ٩ )



على النفوس المجاهدة الصابرة المثابرة ، بما تجاهد وتصبر وتصابر ، وعلامة الأخبار الأفعال ، فإنها علامات النفوس ، فيعرفها الكيِّس من حق القول وحق الفعل ، كما يعرف المنافقون من لحن القول ولحن الفعل ، وكما يناسب دار الإبتلاء .

هذا : دون العلم عن الجهل وحاشاء ، فإنه 'مراء' ودون العلم الفعلي أم ماذا فإنه تكلف وتعسف وكلام الله منه براء لأنه بيان للناس وهدى ونور ، وهو حمال ذو وجوه ، فاحملوه على أحسن الوجوه : فـ ( حتى نعلم ) : نجعل علامة لـ ( المجاهدين منكم والصابرين ) ومنها أخباركم : الأعمال الجهادية الصابرة التي تخبر عن طيبة نفوسكم : ( ونبلو أخباركم ) : حتى نعلم .. وحتى نبلى أخباركم<sup>(١)</sup> ، فبلوى المؤمنين ذريعة لعلامة الإيمان ، ولبلى أخبار الإيمان ، فلا تظهر أخبار الإيمان إلا في قلب الأحوال ، وعند قلب الأحوال تعرف جواهر الرجال ، وعند الإمتحان يكرم المرء أو يهان ، فالإبتلاء بالبأساء والضراء ، وبالسعة والنعماء ، وما إلى ذلك من كرب وبلاء ، إنها تكشف عما هو مخبوء في معادن النفوس ، مجهول لسائر النفوس ، بل ولأصحابها أيضاً ، فإن حب الشيء يعمي ويصم ، ومن ثم تتكشف لها ما خفي عنها انفسها وقبل أن تظهر أخبارها كما تتكشف لغيرها بعد أن تبلى أخبارها ، فكل بلوى تخلف علمين : علامتين ، واحدة سرّاً لذوات الصدور ، واخرى جهراً لسائر الناس : ( حتى نعلم .. ونبلى أخباركم ) !

(١) فـ « نبلو » مفتوحة بالمعطف على المجاهدين ، فيها إذا مقصودان في « حتى نعلم » فالعلامة هنا منها خفية هي علامة الايمان في القلب ، ومنها ظاهرة هي علامة أخبار الجهاد والصبر ، فبلوى هذه الاخبار هي من « نعلم المجاهدين .. » ولكي تظهر علامة الايمان الخفية ، بمن يعلم السر وأخفى .

( ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم ) .

وهذا من انحس الكفر ، ان الذي تبين له الهدى يخالفها إلى الهوى ، لحسد يكفر بها ، ويصد الناس عنها ، ويشاقق الرسول فيها ، ان يختار هو شقاً يضاد شق الرسول : ثالث الكفر العناد العناد ، الذي لا فوقه كفر ، وهو يعم من أهل الكتاب من آمن ثم ارتد هكذا ، أم لم يؤمن من بعد ما تبين له الهدى ، وكذلك المشركين ، ولا سيما الذين آمنوا منهم ثم ارتدوا ، أم اسلموا نفاقاً ثم برزوا كافرين ، كذلك والمسلمين ، ممن ولد مسلماً وسواء ، ثم ارتد ، فصيغة الآية جامعة لمن ركز قواعد حياته الشريرة على هذا الثالث الجامع به العناد العناد ، وترى انهم ينفعهم أعمالهم شيئاً ، أم هم يضرون الله شيئاً ؟ كلا : فد ( لن يضروا الله شيئاً ) إحياء إلى استحالة زمنية وذاتية أن ينضر الله باضرارهم ( ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ) ( ٣ : ١٤٤ ) ( إن الذين اشترؤا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ) ( ٣ : ١٧٧ ) بل ولن يضروا المؤمنين ايضاً إلا أذى : ( لن يضروكم الا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ) ( ٣ : ١١١ ) ( وسيحبط أعمالهم ) : شريرة في الصد والشقاق في الأولى ، فلا يؤثران في إطفاء نور الله ، أم وخيرة - لو صح التعبير عما يعملون من خير - في الاخرى ، فأعمالهم بالية خواء ، والله تعالى منهم براء .

وهنا يطمئن المؤمنون بنصر الله ، فلا يخافون ولا ألد الكفار مهما ثاروا في كفرهم وفاروا ، فهم أضال وأضعف من أن يلحقوا ضرراً بالله ، بل الله هو الذي يلحق بهم ضرر الإحباط ، مهما أبرقوا وأرعدوا ضد الدعوة والداعية ، آذوا الرسول والمؤمنين فترة من الزمن ، فالعاقبة للمتقين ، وحتى الأولى في نصرة رب العالمين : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ — ٣٣ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ — ٣٤ . فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَمُ أَعْمَالَكُمْ — ٣٥ . إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ — ٣٦ . إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ — ٣٧ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ — ٣٨ . »

\*\*\*

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ . »  
 انه ليس الكفر بالله ومشاقة رسول الله بالذي يحبط فقط أعمال الكافرين ،  
 بل وكذلك المؤمنين التاركين لطاعة الله ورسوله ، رغم إيمانهم بالله ورسوله ،  
 انهم تبطل أعمالهم ، فما من شجرة يفرسها الإيمان بالله ورسوله ، إلا ويحرقها

ترك طاعة الله ورسوله<sup>(١)</sup> وإنما الإيمان مع الطاعة هو المصالح المصالح للأعمال .  
 وانها طاعة الله كأصل وفي القصة ، ومن ثم طاعة رسول الله كفرع وعلى  
 الهامش ، فإنها طاعته كرسول وسفير صادق عن الله ، لا كمحمد بن عبد الله ،  
 ولذلك عبر عنه . بـ « الرسول » ولذلك فصل طاعته عن طاعة الرسول :  
 « وأطيعوا الرسول » لا « والرسول » حتى لا يُظن أنها على سواء وفي ردف  
 واحد ، وإنما « أطيعوا الرسول » فيما يفعل بوحى ويقول كرسول ، ومن ثم « من  
 يطع الرسول فقد أطاع الله » ( ٤ : ٨٠ ) لأنه كما يقول « لتحكم بين الناس بما  
 أراك الله » ( ٤ : ١٠٥ ) ! .

وطاعة الله هي في اتباع محكم كتابه ، وطاعة الرسول في سنته الثابتة ،  
 الجامعة غير المفرقة ، الموافقة لكتاب الله ، فمن زعم أنه يطيع الله ، قائلاً :  
 حسبنا كتاب الله ، ثم يترك سنة رسول الله فقد أبطل أعماله ، ومن يزعم أنه  
 يطيع رسول الله ، اتباعاً لما يروى عنه منها خالف كتاب الله ، فقد أبطل أعماله ،  
 وإنما طاعة الله في كتابه كأصل ، وطاعة رسول الله في سنته كفرع شارح غير  
 جامع ، هما الأساسان لا سواهما ، في اتباع دين الله ! .

وترى ما هي الأعمال التي تبطل بترك طاعة الله وطاعة الرسول ؟ طبعاً انها  
 الأعمال التي لها صحة ولها بطلان ، بموافقة الكتاب والسنة أم بخالفتهما ، سواء  
 أكانت عبادية أم ماذا !

(١) ثواب الأعمال للصدوق عن أبي جعفر الباقر ( ع ) قال : قال رسول الله ( ص ) : من  
 قال : سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : الحمد لله غرس الله له بها شجرة في  
 الجنة ، ومن قال : لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : الله أكبر غرس الله  
 له بها شجرة في الجنة ، فقال رجل من قريش : يا رسول الله ! ان شجرنا في الجنة لكثير ؟  
 قال : نعم ، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها وذلك ان الله عز وجل يقول :  
 « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » .

فالطاعة في الواجب إيجابه وتطبيقه ، وفي الحرام تحريمه وتركه ، وفي المباح إباحته ، وفي المندوب الانتداب إليه ، وفي المكروه كراهته ، فمن يأتي بواجب بغير نية الوجوب ، من استحباب أو كراهية أو إباحة أم حرمة ! فقد أبطله ، وهو أضل ممن لم يفعله ، فتجاوب الإيمان والنية والعمل مع الكتاب والسنة ، انه لزام صحة العمل - فـ لا قول إلا بعمل ، ولا قول ولا عمل إلا بنية ، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا باصالة السنة <sup>(١)</sup> : سنة الله ورسوله (ص) .

فمن أتى بواجب على شروطه ولكنه رثاء الناس فقد أبطل ، حيث لم يطع الله في نية العمل : « فادعوا الله مخلصين له الدين » ( ٤٠ : ١٤ ) .

وترى ان البطلان طابع الأعمال التي يؤتى بها دون الطاعة - فقط - أم وانها تبطل بقية الأعمال التي تؤتى على وجوبها من الطاعة المصححة ؟ كأنها هي الأولى كضابطة عامة ، ومن ثم الأعمال التي تربطها رباط الشرط والمشروط أم ماذا ، كمن يأتي بوضوء فاسد ، ثم يأتي بصلاة على شروطها إلا الطهارة ، فباطل الوضوء يبطل الصلاة ، أو يقال انها صلاة متخلفة عن الطاعة في الطهارة ، فلا تبطل الأعمال الطالحة إلا أنفسها ، كما الصالحة تصلح أنفسها ، فالأعمال التي يؤتى بها طاعة لله وللرسول صحيحة وسواها باطلة حابطة .

« ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم » :

قد تدق المغفرة أبواب بعض الكفار ، غير المشركين ، من الذين كفروا جهلاً وقصوراً ، فلم يصدوا عن سبيل الله وماتوا وهم كافرون ، وبأحرى المسلمين ذوي الكبائر كل على حدوده وشروطه ، ولكنها وباب التوبة مغلقة على الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ، ولا سيما من

(١) وسائل الشيعة عن الامام جعفر بن محمد الصادق عليها السلام .

بعد ما تبين لهم الهدى ، اللهم إلا أن يتوبوا قبل أن يموتوا ، فالفرصة متاحة قبله ، وأما إذا بلغت التراقي فلا رجعة ، فلا توبة ولا ثوبة « فلن يغفر الله لهم » .  
« فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » :

.. زمن مبكر من العهد المدني ، والمسلمون فيه مبكرون من العهد الاسلامي المكّي الذي لم يؤمروا فيه بحرب ، فطبعاً تستثقل جماعة منهم تكاليف الجهاد الطائل ، فتحن عزائمهم ، راغبين في الهدنة السلم ، لحدّ قد يجنحون اليه ، فتهدم قواعد القدرة والشوكة الإسلامية ، إلى ذلة شائكة استسلامية ! فهناك النهي التهديد عن الدعوة الى السلم وهنا ، مضمناً أسباب نجاحهم بثلاث : العلو الإيماني ، والمعية المنتصرة الإلهية ، وثواب الأعمال المستمر ، فلا دعوة للسلم إذاً ، وإنما قبول لها ككرامة إنسانية من العدو إن جنح للسلم : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » ( ٦١ : ٨ ) .

« ف » إذ طمأنكم ربكم بنجاحكم بما جلا وآجلا ، وبإخباط أعمال الكافرين فيها « لا تهنوا » عن الحرب في معارك الشرف والكرامة ، في سبيل الله ، في سبيل صالح الكيان الانساني الاسلامي ، الفردي والجماعي ، ومن أذل وأرذل مظاهر الوهن حال رديئة خائبة : « وتدعوا إلى السلم »<sup>(١)</sup> ، فلا تدعوا اليه دعوة ذليلة لعدوكم كأنه غالب عزيز والحرب لمّا تحتم ، أم استحدثت ، كما ومن الوهن ترك ابتغاء القوم : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » ( ٤ : ١٠٤ ) ومنه الوهن لما يصيب المحارب في سبيل الله فيفشل فيفر من الزحف أم ماذا « فها وهنوا لما أصابهم في

(١) الجملة معطوفة على « فلا تهنوا » عطف على المنهي فيقتضي لاء النهي كما في المعطوف عليه - ولا تدعوا الى السلم .

سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » ( ١٤٦ : ٣ ) .  
 لا تهنوا هنا وهناك وكيف تهنون « وأنتم الأعلون » : « ولا تهنوا ولا  
 تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ( ١٠٤ : ٤ ) : أنتم المؤمنون الأعلون :  
 علو العقيدة الإيمان وعلو التصميم ، علواً في تفهم الحياة وغايتها وصلتها بالعقيدة  
 وبالعلمي الأعلى ، علواً في الأولى وفي الأخرى ، فيما يصمد العزم ويقوي الحزم ،  
 علواً وحتى إذا قتلتم في سبيل الله إذ تتصل أرواحكم بالمال الأعلى ..

.. « فلا تهنوا .. والله معكم » معية خاصة تختلف عن سواكم : كـ « هو  
 معكم أينما كنتم » ( ٥٧ : ٤ ) لا - وإنما معية الهداية والنصرة والعزة فالغلبة  
 في أيٍّ من أشكالها : قاتلين أو مقتولين !

فلنفرض انه قتل في المعركة من قتل ، أو انهزمتم ، فالحرب سجال  
 وامتحان ، وليس انهزامكم انهزام الامتحان ! ثم « ولن يترككم أعمالكم » لن  
 يقطعكم أعمالكم<sup>(١)</sup> لا الأعمال الجهادية ، فإنه يجازيكم بها خير الجزاء ، فليست  
 هي مبتولة الجزاء ، ولا سواها من خير تبغونه لو بقيتم أحياء ، فلئن قتلتم لن  
 يقطعكم الله هذه الاعمال ، فإنه بمنه وفضله يكتبها لكم دون أن تعملوها ،  
 فيكفيكم أن تأملوها ففاجأكم القتل فلم تعملوها .

فلم تنقطع عنكم خير الحياة بانقطاع الحياة ، وإنما انقطع عنكم شرها ، ثم  
 كتب لكم خيرها ولم تعملوها ، وكتب لكم بالجهاد خير الجزاء ، فأنتم أنتم  
 الأعلون لا من الكافرين فحسب ، بل ومن سائر المؤمنين أيضاً ! .

فـ « لن » هنا في « لن يترككم أعمالكم » لها موقعها لا سيما للقتلى في سبيل  
 الله ، لن تجد مثلها في غيرها ، فإنها تحيل - بفضل الله - انقطاع الصالحات عن

(١) يترككم من « وتر يترك » وأصله القطع ، ولن يقطعكم أعمالكم بعد انقطاع الحياة ، أم  
 إذا بقيتم لن يقطعكم سائر الصالحات المنوية لولا الجهاد .

قتلى الأموات ، بانقطاع الحياة : ان الله سوف يكتب لهم حسنات ، وعلة إلى يوم القيامة ، فإن « لن » للاستحالة المقتضية استغراق الزمان منذ القتل إلى انقضاء الزمان في الأولى ، ثم الله ينمي تلکم الصالحات في الأخرى .

ثم المقاتلون الذين لم يقتلوا ، هم كذلك « لن يترككم أعمالكم » : الأعمال الصالحة التي تركت مغبة الجهاد ، ومن ثم - وعلة أيضاً - الصالحات المتروكة بعد المات ، فإنها لم تنقطع عنهم ، بعد الجهاد الإستماتة ، فالجهاد في سبيل الله مما يخلد المجاهد في حياة الصالحات ، وبعد أن قتل أو مات ، ولأنه باذل حياته لله ، فينصبغ بصبغة الله ، ويخلد صالحاً وان قتل أو مات ، ولكننا القتلى لهم حظوتهم ، إذ يبعدون بالقتل عن شرور الحياة وتضمن لهم خيراتها .

فعلى المسلم العاقل النابه أن ينجح للقتال في سبيل الله وهو في مثلث النجاح والفلاح : « أنتم الأعلون - والله معكم - ولن يترككم أعمالكم » ، ولتكن مقالته للكافرين : « هل تربصون بنا إلا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا » ( ٩ : ٥٢ ) .

« إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وان تؤمنوا وتتقوا يفوتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم » .

هناك حياة جهاد في سبيل الدنيا اللعب للهو ، وهنا حياة جهاد في سبيل الله ، تبديل الحياة الدنيا بالحياة العليا ، تجارة مربحة لن تبور ، فاتركوا الدنيا إلى العليا : إيماناً وتقوى بأجورهما ، « ولا يسألكم أموالكم » ، فيما يؤتي أجوركم ، إنما إيمانكم وتقواكم ، سؤالاً لصالحكم في الدارين .

وهذه الاجور الغالية في الاخرى تقتضي سؤال كل الأموال أن تصرف في سبيل الله ، ولكنه « لا يسألكم أموالكم » كل أموالكم - ولأنه :

« ان يسألكموها فيحفركم تبخلوا ويخرج أضغانكم » :



« إن يسألكموها » كلها « فيحفظكم » : يجهدكم ويحملكم مشقة البذل ككلٍّ ، مغبة ذلك الأجر ، « تبخلوا » عن ذلك الاتفاق الإجهاد « و » من ثم « يخرج » الله « أضفانكم » أحقادكم خلاف أمر الله ، بما يخرجها بخلكم عن إنفاقها كلها في سبيل الله <sup>(١)</sup> ولكن الله لا يريد إحقاقكم فتفضحوا ، حكمة منه وفضلاً ورحمة ، فإن أحكامه تتماشى مع الفطرة ، دون أن تتأدى على الفطرة ، وهي تتناسق مع أنظمة الحياة ومناهجها وقواعدها ، فإنها إنسانية الطاقة ورحمانية الإنافة العملاقة ، ولكي تربى الإنسان بتكاليف دون الطاقة .

« ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وان تقولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » :

« ها أنتم » المؤمنين المتقين ! انتبهوا - تركنا سؤال جميع أموالكم إلى بعضها : ( تدعون لتنفقوا ) من فضلها الزائد عن ضرورات الحياة ( فمنكم من يبخل ) ومنكم من لا يبخل ( ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ) لا عن الله ، ولا عن عباد الله - فإنه يقطع عن نفسه رصيد الإنفاق ، الذي ينفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون ، ومن قبل ينفعه في إزالة الأشواك عن صراط الإيمان ، تعبداً للسبيل إلى الله بإبادة أو تسكيت أعداء الله ، وتبديداً لأشواك البخل عن البذل ، فإنما يبخل البخيل أرصدة كهذه الغالية الكريمة عن نفسه ، دون الله - فـ ( والله الغني ) لا سواه ( وأنتم الفقراء ) دون الله ، فهو إذ يسألكم إنفاقاً في سبيل الله ، ليس لفقره إليكم ، فإنما سبيل الله هي سبيل صالح الحياة ، التي ليست

(١) ففاعل « يخرج » هو الله ، وهو البخل - فالله لا يخرج أحقادهم إلا ببخلهم الظاهر

عند سؤال كل الاموال .

إلا من الله ، فلماذا البخل إذا وفيم ؟ وعمّاذا البخل إذا ؟ أبحلاً من مال الله وفي سبيل الله : ( وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ) ( ٥٧ : ٧ ) فيها أنتم أنتم الفقراء ، ليست أموالكم أموالكم ، وإنما أنتم مستخلفون فيها امتحاناً ، فلا تبخلوا عنها امتحاناً .

( وإن تتولوا ) عن الإيمان ، أو التقوى في الإيمان ، أو الانفاق في سبيل التقوى الإيمان<sup>(١)</sup> ( يستبدل ) الله بكم ( قوماً غيركم ) والمخاطبون هنا في العهد المبكر المدني هم المسلمون العرب ، فـ ( قوماً غيركم ) عليهم مسلمون من غير العرب ، وكما يروى عن نبي العجم والعرب من قوله ﷺ : ( والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس )<sup>(٢)</sup> .

( ثم لا يكونوا ) هؤلاء الأغيار الأبرار ( أمثالكم ) في التولي الإدبار عن الانفاق وأمثاله في سبيل الله ، وكما هو اليوم ملموس في المسلمين الفرس ، رغم الضغوط المتواردة عليهم من السلطات ، فاتفاقاتهم - وحدهم - في سبيل اعلاء كلمة الله ، تربوا اتفاقات سائر المسلمين ، وسوف يكون الأكثر نصرة لتأسيس الدولة الإسلامية زمن القائم المهدي ( ع ) هم رجال من فارس كما يدل عليه الأثر ، واقعاً وحديثاً .

(١) التولي هنا راجع الى ما ذكر في الآيتين من الإيمان والتقوى والانفاق .

(٢) الدر المنثور ٦ : - اخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الاوسط والبيهقي في الدلائل عن ابي هريرة قال : تلا رسول الله ( ص ) هذه الآية « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » فقالوا : يا رسول الله ( ص ) ! من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ؟ فضرب رسول الله ( ص ) على منكب سلمان ثم قال : هذا وقومه - والذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس . أقول : ويشير اليه بعض ما ورد عن ائمة اهل البيت عليهم السلام .

وإنها لندارة رهيبة ختام سورة القتال ، تنذر من يتولى من المسلمين العرب  
عن حكم الله ، باستبدالهم بغيرهم ، وكما فعل ، أو لعل ، كما وانذر الله بني  
إسرائيل بسحق ملكهم ، وانتقاله إلى سواهم وكما فعل بنقل الشريعة عنهم إلى  
بني إسماعيل ، ولكننا هذه الشريعة هي خاتمة الشرائع فلا تبدل ، وإنما  
يستبدل من يحملها ويتحمل أعباءها ويتولاها ، بمن لا يحملها ويتولى عنها ،  
وان ليس للانسان إلا ما سعى .



\*\*\*

( سورة الفتح - مدنية - وآياتها تسع وعشرون )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا - ١ .  
لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ  
عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا - ٢ . وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا  
عَزِيزًا - ٣ . هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ  
لِيَزِدَّادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ . وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا - ٤ . لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ  
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ  
سَيِّئَاتِهِمْ . وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا - ٥ . وَيُعَذِّبُ  
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ  
ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ  
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا - ٦ . وَلِلَّهِ جُنُودُ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا - ٧ .  
إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا - ٨ . لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ  
وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّوْهُ وَتُقَرَّوْهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا - ٩ .

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ  
فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ  
عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا - ١٠ .

\*\*\*

.. إنها سورة الفتح أولاً بفتح مكة وأخيراً بفتح دائب لا قبل له لو ظلوا  
مسلمين ، تحمل بشارة الفتح المبين ، تنزل سادسة الهجرة - عقيب صلح الحديبية  
وبيعة الرضوان - في كراع الغميم بين مكة والمدينة<sup>(١)</sup> ، بعد ما يرجع الرسول  
والمؤمنون عن الحديبية .

وقبل فتح مكة بعامين ، في حين كانت هجمات المشركين تترى عليهم في كل  
عام مرة أو مرتين . فالمؤمنون صامدون في حربهم ، والذين في قلوبهم مرض  
حائذون : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم  
غلظة واعلموا أن الله مع المتقين . وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم  
زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين في  
قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون . أولاً يرون أنهم  
يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون » ( ١٢٦ : ٩ ) .  
وبطيات هذه المناوشات بشارات الفتح تترى هنا وهناك تلو بعض ،  
فالمؤمنون يستبشرون والمنافقون يسارعون بغية ما يبغون : « فترى الذين في  
قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي

(١) الدر المنثور ٦ : ٧٤ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنصرف رسول الله  
(ص) من الحديبية إلى المدينة حتى إذا كان بين المدينة ومكة نزلت عليه سورة الفتح « ومثله ما  
أخرجه ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن مروان والصور بن مخرمة » .

بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فادمين » ( ٥ : ٥٢ ) .  
وفي حين أن فرض القرآن نشرًا وتطبيقًا لزامه فتحٌ مبين ، أن يرجع الداعية إلى معاد الدعوة : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربّي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين » ( ٢٨ : ٨٥ ) وكما يرى رؤياه المبشرة بما وعد ويصدقها الله : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلفين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » .

وإن هذا الفتح المبين هو المحبّب للمؤمنين : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » ( ٦١ : ١٣ ) كما وإنها منتظرة لبعض الكافرين ، فلقد كانت أحياء العرب تنتظر بإسلامها فتح مكة قائلين : ( إن ظهر محمد على قومه فهو نبي ) فلما فتح الله مكة دخلوا في دين الله أفواجاً ، فلم تمض من فتح مكة سنتان حتى استوثقت الجزيرة إيماناً ولم يبق في سائر العرب إلا مظهر للإسلام والحمد لله .

واقعد نزلت سورة الفتح قبل سورة النصر ، وبعد بشارات الفتح والنصر ، بشارات وإشارات تتلاحق منذ الهجرة في طياتها ، وإلى صلح الحديبية وإلى أن فتحت مكة فكان ما كان .

تري أن سورة الفتح - إذا - تحمل بشارة فتح خيبر ؟ وما هو يحنب فتح الفتوح إلا قطرة في يم ، أو حلقة في فلاة في ؟! وإن كان له موقعه في الجزيرة ، فإن اليهود هناك كانت البقية الباقية من كفار الجزيرة ، سوى مشركي مكة ، أم إنه صلح الحديبية ، رغم أنه صلح وليس حرباً ، خلاف ما زعمه الخليفة عمر ، إذ يواجه رسول الهدى في حمية بعد الصلح ، بقوله : « فلم تعطي الدنيا في ديننا ؟! » فيجيبه الرسول ﷺ قائلاً : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره

ولن يضيعني » ويجابه مرة أخرى بقولته : « والله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصُدُّ هدينا » - ومعه من معه من أضرابه - فقال رسول الله ﷺ : « بنس الكلام هذا اعظم الفتح ، لقد رضي المشركون أن يدفعوك بالراح عن بلادكم ويسألونكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب وقد كرهوا منكم ما كرهوا وقد اظفركم الله عليهم وردكم سالمين غافلين مأجورين ، فهذا اعظم الفتح ، أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تفلون على أحد وأنا أدعوك في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا؟ قال المسلمون : صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح ، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا ، فأنزل الله سورة الفتح <sup>(١)</sup> .

(١) الدر المنثور ٦ : ٦٨ - أخرجه البيهقي عن عروة ( رض ) .. وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود وابن النذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن مجمع بن جارية الأنصاري ( وذكر قصة نزول السورة ثم قال ) فقال رجل يا رسول الله ( ص ) أو فتح هو ؟ قال : والذي نفس محمد بيده انه افتح . وقد يلح لنا تكرار هذا السؤال بعنف وإهانة من عمر قبل نزول السورة أيضاً لحد يعرض الرسول ( ص ) عن جوابه في بعض ما سأل وهو يحسبه غضباً منه ( ص ) . كما أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن عمر بن الخطاب ( رض ) قال كنا مع رسول الله ( ص ) في سفر فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي فقلت في نفسي ثكلتك أمك يا ابن الخطاب فزرت رسول الله ( ص ) ثلاث مرات فلم يرد عليك فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت ان ينزل في قرآن فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرخ بي فرجعت وأنا أظن انه نزل في شيء فقال النبي ( ص ) لقد أنزلت علي الليلة سورة أحب الي من الدنيا وما فيها « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ... » .

أقول ولأن السورة نزلت بعد صلح الحديبية وهي أحب الى رسول الله من الدنيا وما فيها ، نعرف انها تحمل بشارقة لمستقبل سار، أما انها تخبر بما حصل فليس فيه أمر جديد حتى يستمر

وفي الحق إذ ننظر إلى جوء الحديبية نرى الانتصار ظاهراً في صلحها ، حيث  
المشركين - وهم أكثر بكثير - هم المقدمون على ذلك الصلح ، الواعدون الرسول  
- ضمن ما وعدوه في وثيقة الصلح - أن يزوروا البيت في العام القابل لثلاثة أيام ،  
ولم يخطر بخلدهم أنهم على قلة عددهم وعددهم يرجعون عن هذه السفارة سالمين :  
« بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، وقد  
رجعوا منتصرين .

وإنها لموقف القوة والشوكة الإسلامية ، الشائكة كالنيازك النارية في عيون  
المشركين ، التي تبشر بفتح مكة لهم « آمين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا  
يخافون » إذ اعترفت حينه قريش بالنبي والإسلام ، والقوة الهائلة لنبي الإسلام ،  
والتأسك المتين بينه وبين المؤمنين ، فاعتبرت المسلمين أنداداً لهم ، فدفعتهم  
بأثني هي أحسن ، في حين أنها غزت المدينة قبلها في سنتين مرتين .. فهذا فتح  
مبين للمؤمنين ، مها خفي على سواهم .

وفتح آخر هو أقوى : تفتش قلوب كثير من المشركين بقبول الإسلام ،  
فتحاً للدعوة والداعية ، حيث أمن المنعاربون بعضهم بعضاً ، فالتقوا وتفاوضوا ،  
فأسلم في هذه الفترة القصيرة طوعاً ، أضعاف ما كان مع الرسول ﷺ في  
الحديبية ، إذ كانوا ألفاً وأربعمائة ، ثم خرجوا عام الفتح وهم عشرة آلاف ،

بها الرسول ( ص ) من جديد .

وحيث أن الرسول ( ص ) اجاب عمر بعد تركه ثلاث مرات - اجابه بنفس السورة -  
تؤكد هذا الأمر ، وان عمر كان قبل هذه الأسئلة يخاطب الرسول ( ص ) في حمية وتعنّت .  
وقد أخرج ابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه وأبو داود والنسائي وابن جرير والطبراني  
وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود ( رض ) قال : اقبلنا من الحديبية مع رسول  
الله ( ص ) فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي وكان إذا أتاه اشتد عليه فسرى عنه وبه من السرور  
ما شاء الله فأخبرنا أنه أنزل عليه « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً » .

( الفرقان - ١٠ )



إسلام خلال عامين يربو إسلامهم خلال تسعة عشر سنة ، في عدد المحاربين ، فقد والله - وعلى حدّ تعبير رسول الله ﷺ - كان أعظم فتح أو أعظم الفتوح! (١) ولكنه مع كل هذه المواصفات لا يبلغ مدى فتح الفتوح: فتح مكة المكرمة ، وإنما له نصيبه من معنى الفتح قدر ما فتح السبيل الى فتح مكة ، وكما يروى عن الرسول ﷺ « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » قال : فتح مكة (٢) .

فصلح الحديبية فتحٌ إذ فتح مجالاً واسعاً موفقاً محبوراً لفتح مكة ، حيث أمنوا به بأس قريش فاتجهوا إلى تخليص وتطهير سائر الجزيرة عن سائر الكفار بفتح خيبر ، فقسم الرسول ﷺ غنائمه بين من حضر الحديبية .

فلا تصدق رؤيا الرسول ﷺ « لتدخلن المسجد الحرام » ولا وعده برده إلى معاد ، ولا دخول الناس في دين الله أفواجاً ، ولا ظهور الإسلام على الكفر ظاهراً باهراً ، ولا فتح مبين ، إلا في فتح مكة المكرمة : عاصمة الرسالة الإسلامية ومنطلق الدعوة ومولدها .

وفي الحق إنه فتح الفتوح ، كأنه الفتح لا سواء ، ولأنه غاية الفتوح وبُغية المسلمين لا سواء ، إلا كذرائع إليه ، ولحدّ تراه أحب إلى قلب الرسول ﷺ من الدنيا وما فيها .

(١) كما مضى في المتن - عن الدر المنثور ٦ : ٦٨ ما أخرجه البيهقي عن عروة ..

(٢) الدر المنثور ٦ : ٦٩ - أخوج ابن مردويه عن عائشة (رض) قالت قال رسول الله (ص) إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً : قال : فتح مكة .

وفي نور الثقلين ٥ : ٤٨ في حديث عن الامام الرضا (ع) فلما فتح الله على نبيه مكة قال له يا محمد : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » .

أقول : لعله يعني بما فتح الله فتحها في الإضاء كما مضى ، ثم وكافة الأحاديث الواردة في نزول السورة متفقة أنها نزلت بعد الحديبية وأن الرسول (ص) سرّبها سروراً بالفسا ، وليس ذلك إلا لأنها بشارة لمستقبل هو - طبعاً - فتح مكة وإن كانت - ايضاً - اشارة الى صلح الحديبية الذي هو فتح قبل الفتح - تأمل .

وهل هنا وجه للجمع بين الفتحين ان تحملهما سورة الفتح كما يروى ، مع انها تحمل بشارة بفتح واحد « فتحاً مبيناً » ؟

أقول : نعم ، انه صلح الحديبية كذريعة ، وهو فتح مكة كأصل ، فهما واحد كيانهما رغم انها اثنان كوناً ، قصيدة الماضي هنا نبأ بمضيها لفتح مضى ، وبشارة بتحقيقها بفتح يستقبل ، فتحقق الوقوع في بشارة يجعلها كأمر مضى أو أكد وأقوى ، كما أن وقوعه أيضاً أمر مضى ، وهنا أمران ماضيان : فتح مضى زمنياً وكذريعة ، وفتح مضى كيانه وإمضاء في وعده تعالى ، فهاض واحد هنا « فتحنا » يشير إلى اثنين ، ثانيهما رغم استقباله أهلى وأولى ، من أولاهما رغم مضيه فإنه كذريعة له أدنى .

وآيات من السورة نفسها تبين هذا التلاحم الوطيد بين الفتحين فتجعل فتح مكة - المستقبل - إثابة لمبايعة تحت الشجرة : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » كذلك وصدقاً لرؤياه وجعلاً لفتح قريب : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » .

فالفتح القريب المستقبل مجعول عند الله في الماضي وممضى « إثابة لمبايعة مرضية مضت » مجعول ممضى لحد يعبر عنه بـ « إنا فتحنا » كأنه أمر مضى ، لأنه ماض في الجمل والتقدير ، مهما كان مستقبلاً ، ولأنه ماض - كذلك - في التحضير ، حيث الصلح فتح لهذا الفتح مجالاً واسعاً ما له من نظير .

لهذا يحق أن يكون صلح الحديبية فتحاً إذ فتح سبيلاً إلى فتح مكة ، ومبيناً ، حيث أبان كونه فتحاً عندما فتح مكة ، ومن ثم الفتح المبين والمبشر هو فتح مكة فتح الفتوح !.

وقد تصرّح أو تلمّح آيات من السورة أنها نزلت بعد فتح مكة : ( وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً ) كما الأخرى تشير إلى جو الحديبية : ( هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله .. ) مما يدل أن السورة امتدت منذ الحديبية حتى فتح مكة ، ولكي تشمل بشارة الفتحين كوناً وكياناً ، دلالة وزماناً !.

« إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » :

( إنا ) - هنا - تلمّح إلى جمعية الصفات رحمانية ورحيمية ، دون الذات المقدسة الإلهية ، وإنما هي الصفات الفائضة بها الخيرات ، الممكن افاضتها ( لك ) في فتوحات ، وقد برزت هنا ( فتحنا مبيناً ) : أبانت وبيّنت شوكة الإسلام ، شائكة في عيون المناوئين المحتلين عاصمة الرسالة ومركز الدعوة الأصيلة ، وأبانت وشيكة ومهانة للمشرّكين ، ( فتحاً ) هو فتح الفتوح ، فإنه بوحده كل الفتوح ، حيث ترجع به العاصمة إلى زعيم الدولة فهذا الفتح ( لك ) كمتن في الرسالة ، وإن كان لكافة المسلمين كهوامش فيها . ( مبيناً ) يبين ما خفي من حق أو باطل ، يبين وعد الله المتين لرسوله الأمين : ( لتدخلن المسجد الحرام انشاء الله آمنين ) و ( مبيناً ) : يفصل ويبين بين الدوائر المترتبة بالرسول وبالمؤمنين ، حيث انجمدت به نيران الهجمات والهمجات عليه ، وانجمدت كافة الحركات الثورات والعرقلات ضده ، ( فتحاً ) فيه كل خير فائض لحدّ يعتبره الرسول خيراً من الدنيا وما فيها ومما طلعت عليه الشمس وغربت ، وليس تنوين التنكير هنا توهيناً وتنكيراً لمحتد الفتح ، وإنما تعظيماً له بحيث لا يُعرف موقفه إلا أن يعرفه فاتحه كما عرف في مواصفات أربع :

( فتحاً ) يدعم لصاحب هذه الرسالية السامية قوائم أربع لعرش الدعوة

والدعاية :

« ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » :

وهنا يبرز ذنب الرسالة كأول دعامة من هذه الدعائم ، نتيجة الفتح المبين ، أترأه عصياناً منه لربه يستحق به فتح الفتوح ، فما هي الصلة القريبة أو البعيدة بين عصيانه هو وان يفتح الله له مكة ؟ إن هي إلا " مثل ما يزعمه الصليبيون بحق المسيح أنه صلب وبصلبه " لعن وبلغنه تحمل جميع لعنات الناموس ، فإن أباه الإله لم يجد بداً في سبيل غفران ذنوب أمته إلا " تفدية الصلب ! .

فهلاً يقدر الإله القدير أن يغفر ما تقدم من ذنب رسوله وما تأخر إلا بفتح مكة ؟ لا نجد أية صلة بين غفر الذنب العصيان وفتح الفتوح !

تري وما هو هذا العصيان الذي لا يغفر له إلا " بفتح مكة ؟ وكيف يغفر الله ذنباً هكذا عظيماً من عبده بما يفعل الله ودون استغفار ؟ ودون أن يقف لحد الغفر عما تقدم ، بل وما تأخر ؟ وهو ذنب واحد " شامل حياة الرسول ﷺ ما تقدم وما تأخر ، ذنب عاش حياته وعاشته حياته فما أعظمه !

أسئلة لا جواب عنها ما دام الذنب عصياناً ، اللهم إلا أن يتحول إلى أعظم الطاعة والإيمان ، وأنعم النعم في تقدم الإسلام نتيجة الفتح المبين ! .

في الحق إن الذين فسروا الذنب هنا بالعصيان أخطئوا في تفسيرهم لغويًا وتفسيرياً معاً فابتلوا بقرية العصيان على رسول الهدى وهو أوّل العابدين ثم تفرقوا في الذود عنه أيادي سبا (٢) أو صمد الأجهلون منهم على فريتهم قائلين

(١) تستفاد وحدة الذنب من « من ذنبك » فلم يقل « من ذنوبك » .

(٢) من قائل أنه يعني ذنب أمته أو شيعته ، وهل من فصاحة اللفظ أو بلاغة المعنى أن ينسب الله ذنب أمته إليه (ص) ثم يغفره بفتح مكة الذي لا صلة بينه وبين غفر الذنب . ومن قائل أن ما تقدم ذنب أبويه آدم وحواء ببركته وما تأخر مغفرة ذنوب أمته بدعائه ،

إنه ﷺ لم يخل عن أخطاء ! أم ماذا ؟ .

وليتهم فكروا في محند الرسول ﷺ ، على ضوء القرآن نفسه ، وآية الذنب نفسها ، ولغة الذنب وبيئته ، لكي يعرفوا أنه ذروة الطاعة هنا لحدٍّ يحققها كمرامها الفتح المبين .

فإنه أمر أن يكون أوّل من أسلم ، أوّلية الأولوية في الاسلام : ( قل إني أمرت أن أكون أوّل من أسلم .. قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ) ( ٦ : ١٥ ) فهل خالف ولم يخف ؟ كلاً فإنه أوّل العابدين : ( قل ان كان للرحمان ولد فأنا أوّل العابدين ) ( ٤٣ : ٨١ ) وهل ينسب هكذا عصيان إلى أوّل العابدين ؟ وكل عصيان غواية : ( وعصى آدم ربه فغوى ) ( ٢٠ : ١٢١ ) وقد نقيت عنه الغواية : ( ما ضل صاحبكم وما غوى ) ( ٣ : ٥٣ ) وكل عصيان من سلطان الشيطان : ( إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ) ( ١٥ : ٤٢ )

.. ثم وهو شهيد الشهداء يوم الدنيا ويوم الدين : ( ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ) ( ١٦ : ٩٢ ) وأخيراً ( وإنك لعلی خلق عظيم ) ( ٦٨ : ٤ ) وترى الخلق العظيم عند الله وهو إله العظمة في الخلق ، هل يناسبه العصيان العظيم ؟ ! ووحدة الذنب : ( ذنبك ) تلمیحة أو تصريح بوحدة العصيان - لو كان - عصيان بوحدة يشمل زمن

⇒

وآيات عدة تنص ان الله غفر لها قبل الفتح بألوف من السنين !  
وقائل بالتقدير ، ان لو كان لك ذنب قبله أو بعده لغفر الله لك .  
وقائل انه دعاء له بالغفر ، وهل انت الله يدعو لعبده ان يغفر ذنبه ومن يغفر الذنوب الا الله ؟ !  
وقائل انه ترك الاولى ، والحق ان تركه وما سبقه من تأويل اولي ، فاتها تأويلات رديئة تشوه وجه القرآن ! .

الحياة الرسالية أو حياة الرسول ﷺ : ( ما تقدم من ذنبك وما تأخر ) كائن معه عائش إياه قبل الفتح وبعده ، وحتى بعد غفره له ، فما هذا العصيان العظيم الذي عاشه الرسول دون استغفار ، ما أعظمه وأطولوه وأعضله ، لحد لا يغفر إلا بفتح مكة دونما أية صلة بينه وبينه ؟ !

ثم ولا تجد أيّ عاص في العالمين يعيش عصياناً لربه دون مهل حتى المشركين ، فهل ينسب هكذا عصيان إلى أفضل الخلق أجمعين ، فما أخطأه تفسيراً وألغنه بحق أول العابدين !

في الحق ان الذنب كذنب ليس عصياناً ولا أي خطأ ولا تركاً للأولى ، فهو لغوياً في الأصل الأخذ بذنوب الشيء ، ويستعمل في كل ما يستوخم عقباؤه ، فإن كانت هي عقبي الآخرة فشر عصيان وأعضله ، أو كانت هي عقبي الدنيا فخير طاعة وأفضله ، إذا كانت عقبي يستوخمها أهل الدنيا ، ممن يجاربون دعاة الحق ، فالرسالة الإلهية هي أخطر ذنوب ، إذ تستوخم عقبي الدنيا ، وتجنّد الطاقات الشيطانية ضد صاحب الرسالة ، يرصدون كل مرصد لحقق صوتهها وبحق صيتها .

فكلما كانت الرسالة أشمل ، وصاحبه أصمد وأنبل ، كان ذنبها : تبعثها وعقباؤها في الدنيا ، أشكل وأعضل ، كما والحفاظ عليها ، وصدّ العراقيل عنها ، وغفر ذنبها - طبعاً - أصعب وأفضل .

والرسالة الإسلامية هي أشمل الرسائل في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، وحاملها أسمى وأنبل حملة الرسائل ، وانها تشكل خطراً حاسماً لجذور الكفر والطغيان ، مما يبعث العصاة والطفاة ان يجندوا كافة الطاقات لإماتتها في نطقها ، وإماتتها وحطتها عن درجتها وفاعليتها ، وقد فعلوا ما فعلوا ، وافتعلوا ما افتعلوا ، فرموه بالسحر والشعر والكهانة والجنون ،

وسخروا منه ومن يؤمن به ، وآذوه ما لم يؤذَ أحدٌ من البنين : ضربوه وأدموه وكسروا رباعيته وحاصروه وأهليه والمؤمنين ، ثم اضطروه للهجرة من عاصمة الرسالة الى ما هاجره ، وإن كان أسس فيها دولة الإسلام فأصبحت مبدأ التاريخ ومنطلق الدولة .

فهل من غفرٍ لهذا الذنب ، وصدِّ لهذا الطغيان ، وحدِّ لذلك البأس الدائب إلا فتح العاصمة ، إذ فتحت به حصون الضلالة ، فلم تبق بعد في الجزيرة أية قائمة من قوائم الشرك والإلحاد ، ومن ثم انتشرت وتوسعت دولة الإسلام من عاصمتها أم القرى ، الى كل القرى .

فقد كان للرسول ﷺ كرسول ذنب واحد ، ومن ثم غفر واحد ، فذنبه الوحيد رسالته العالمية الخالدة ، الأكيدة الوطيدة ، وهي التي عاشها وعاشت « ما تقدم » على فتح مكة « وما تأخر » عن فتح مكة ، لكنها كانت محظورة مخطورة قبله ، فأصبحت مغفورة مستورة بعده ، غفر الإزالة للتبعات ممن آمن ، وغفر السر لها لمن أسلم منافقاً ألا تظهر رغم كامنه ، وغفر الجبران عما سلف من كل ما أصابه قبل الفتح ان يتناساه الرسول ويستهمنه وجاء الفتح المبين .

فأصبحت هذه الرسالة محفوظة عن كيد الكائدين بذلك الفتح المبين ، ذنب واحد فتحه فتح واحد : ذنب بوحدته يشمل كل ذنب : فرسالته ودعوتيه ودعايته وهو يحملته ، كان ذنباً كله بحساب الكافرين ، فأصبح الفتح المبين غفراً له كله « ما تقدم وما تأخر » : فتحاً لقوائم الإسلام الأربع : « ليفقر .. ويتم .. ويهديك .. وينصرك .. » .

ومن قبل كانت تنزل عليه آيات تترى بهذا الشأن ، أمرة له بالصبر : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » ( ٤٦ : ٣٥ ) « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت » ( ٦٨ : ٤٨ ) « واصبر على ما يقولون

وامجرهم هجرأ جميلاً ( ٧٣ : ١٠ ) وواعدة له الحكم : « واصبر لحكم ربك إنك بأعيننا » ( ٥٢ : ٤٨ ) أو أمرة له بالاستغفار لذنبه وللمؤمنين : لرسالته الخطيرة وإيمانهم الخطير : ( فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ) ( ٤٧ : ٢٢ ) فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ( ٤٠ : ٥٥ ) .

حيث النبي والمؤمنون معه كانوا في خطر المشركين طيلة العهد بمكة ، وبعد الهجرة إلى فتح مكة ، وقد أمر الرسول ﷺ أن يطلب هنا وهناك الفرج العظيم والغفر العميم ، أن يذاد عنهم كوامن الشر ، غفراً لهم وسترأ عما كان يتهدهم بالأنهيار ، وقد استجاب له ربه فأنجز له وعده ونصر عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده في فتح مكة ، ليشيد له أركان الدعوة : ( ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً . وينصرك الله نصراً عزيزاً ، ومن ثم : ) ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار .. ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ... ) !

وما ذنب الرسول محمد ﷺ هنا إلا " كذنب الرسول موسى : ذنب الرسالة وتطبيقها : ( ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ) ( ٢٦ : ١٤ ) فإن قتل القبطي المشرك ، المقاتل للسبطي الموحد ، لم يكن ذنب العصيان في دين الله ، وإنما في دين الطاغية فرعون ، ومن عقباه في الدنيا أن عقَّب الرسالة الموسوية إلى أمد بعيد ، إلا أن ذنب الرسالة الإسلامية عجل في تقديمها وشمولها بالفتح المبين .

فالذنب إذاً له مصداقان : أعلى الطاعة وأطغى العصيان ، وإنما فاعله وقرائنه ومواصفاته ، هي التي تقرر موقف الطاعة أو العصيان ، وموقف الرسول الرسالي ، ومواصفات الآيات لهذا الرسول الألمي ، ووحدة الذنب هنا طيلة الرسالة أو الحياة ، ولزوم رباط وطيد بين فتح مكة وغفر ذنبه ما تقدم منه



وما تأخر ، انها عساكر اقوياء أمناء تذود عن ساحة الرسول وصحة العصيان ، وتختصه بأفضل مراحل الرسالة والايان !

إن الرسول محمد ﷺ - كان بهذا المعنى - من أذنب الخلق ، ذنب العصيان عن ميول الطغاة بما جاء به في دعوته الباطلة لأهوائهم ، الجاهزة لاجتثاث جذورهم ، الدافعة عن حوزة الإسلام ، التي ارغمتهم وحطتهم عن جبروتهم وطاغوتهم .

وما استعمال الذنب كثيراً في موارد العصيان (١) بالذي يحوله دوماً إلى العصيان ، كما الانسان لو استعمل كثيراً في الأشرار ، لا يحول ذلك دون استعماله في الأخيار ، وانما يتبع القرائن في مواردنا ، فيعطى الحق في معاني هذه الألفاظ كما تعنى .

« .. ما تقدم من ذنبك وما تأخر » فيما كانوا يكمنون له من قبل ومن بعد صار مبتوراً بالفتح ، وما أصابوه من قبل أو أرادوه من بعد صار مجبوراً بالفتح ، فأصبح الفتح له مفتاحاً مجبوراً لكل فتح .

ورغم ما فسر به الجاهلون ذنب الرسول ﷺ أخذ بعد الفتح في تعبد له لربه أكثر مما مضى ، فلو كان هو ذنب العصيان لعكس أمر الطاعة وتساهل عنها إذ غفر له ما تأخر كما تقدم ، لكنه كان يحيب السائلين : « أفلا أكون عبداً شكوراً » ؟ تفسيراً لذنبه خلاف ما فسروه واستغلوه ، وتبكيئاً لمن يستغل سوء التفسير ذريعة للإباحية واللامبالاة ، كلا فإنه ﷺ استفاض بعد

(١) الحق أن تفسر لغات القرآن كما كانت تعنى منها وقت النزول ، حيث اللغات قد تخرج معها معاني أخرى على طول الزمن وتختلف الاستعمالات ، وقد ذكر الذنب في القرآن بمختلف الصيغ ٣٧ مرة والذنب مرتين وهذا هو اصل الذنب كما عن الراغب في غريب القرآن ، والاول قد يعنى منه الطاعة او المعصية وقد تعمها ، وكل حسب القرائن الدالة ، وما المستعمل في العصيان هنا أكثر من غيره منها كانت الاكثرية الساحقة تعنى العصيان في غير القرآن .

ذلك من معين الرحمة أمعن مما مضى وأمتن ، إذ « صام وصلى حتى انتفخت قدماه وتعبد حتى صار كالشن البالي فقيل له أتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً »<sup>(١)</sup> وليست شاكرية العبد في عبادته والتي تجعله كالشن البالي ومتورم القدمين ، لو كان غفر ما تأخر من ذنبه ، عفواً عن مطلق عصيانه ، كضمان له فيما يأتي كما ضمن ما مضى ، إلا عند من غرب عقله وعزب لبه ! .. وإنما زاد في شكره لربه لنعمة الفتح المبين .

« ويتم نعمته عليك » وهذه هي الدعامة الثانية لعرش الدولة الإسلامية : « إتمام النعمة » فإن النعمة ابتدأت بالإسلام منذ بزوغه ، ولكنها كانت سجالات خليطة بالغممة للأمة والنقمة لرسول الأمة ، إذ كانت الغوائل من هنا وهناك تترى عليه وعليهم قباعاً تلو بعض ، وإن كانت في المدينة أقل .

إنه كان نعمة التأليف والوحدة فأكملت بفتح مكة الذي وحد الجزيرة عن

(١) الدر المنثور ٦ : ٧١ - أخرج ابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر عن أبي هريرة أن النبي ( ص ) لما نزلت « انا فتحنا .. » صام و .. ومن طريق أهل البيت عن الإمام الرضا عليه السلام في جوابه للمأمون إذ سأله : يا بن رسول الله ( ص ) ! أليس من قولك إن الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى - قال : فما معنى قول الله - إلى أن قال - : فأخبرني عن قول الله تعالى : « ليفقر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ؟ قال الرضا ( ع ) : لم يكن أحد عند مشركي مكة أعظم ذنباً من رسول الله ( ص ) لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً فلما جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم وقالوا اجعل الآلهة إلهاً واحداً ... فلما فتح الله على نبيه مكة قال له يا محمد ! « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليفقر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » عند مشركي أهل مكة بدعائك توحيد الله فيما تقدم وما تأخر ، لأن مشركي مكة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكة ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذا دعى الناس إليه ، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم فقال المأمون : لله دوك يا أبا الحسن ( ع ) !

آخرها ثم إلى غيرها : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » ( ٣ : ١٠٣ ) .

وكان نعمة الغلبة أحياناً وسجالات فأصبحت الآن نامة لا تفسح لأحد مجالاً في حربهم : « اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » ( ٥ : ١١ ) وأما الآن فلا أيدي معادية تبسط أو تهم ، إذ قطعت بفتح مكة ، ومن قبل كانت تهم وتبسط ، وإن كانت تكف يجنود إلهية غير مرئية أم ماذا : « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » ( ٣٣ : ١٠ ) كما كان يوم الأحزاب .

وأخيراً اكمال الدين أحكامياً ، وتخليداً للدولة الإسلامية بتأييد زعامة سليمة تقطع طموح من كانوا يتحينون فرصة الانقلاب بموت الرسول ، تخليدها بذلك الإنتصاب الكبير يوم الغدير ، راجعاً عن حجة الوداع : « .. اليوم يثس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ... » ( ٥ : ٣ ) اكمالاً في جانبي الشريعة وزعامتها الخالدة ، فيأساً للذين كفروا من إفنائها أو اغتصاب واحتلال زعامتها ، اللهم إلا تدخل جانبياً لا يجتثها من جذورها ، إلا أن يخرجوا عن الدين ، ولكنه مدعم بهاتين الدعامتين مهما تركته حملته ، فبناية الدعوة مدعمة بما يضمن بقاءها كما فعل الله ، ولكنها لا تضمن إلا لمن تضمنها كما أراد الله ، ثم تهدم في نفوس صغار صغار لا يتضمنونها ، وهي باقية في كتاب الدعوة ، في ضمير الكون وعمقه ! مجالاً واسعاً لمن يتحملون ويتضمنون : تطبيقاً لها بزعامتها السليمة كما بدأت بالبشير النذير ، وكما تخلدت يوم الغدير .

« ويهديك صراطاً مستقيماً » كدعامة ثالثة لعرش الرسالة ، وتري أن صاحب الرسالة لم يكن على صراط مستقيم منذ الدعوة إلى ثامنة الهجرة التي فيها فتحت مكة ، ومن ثم اهتدي إلى صراط مستقيم !؟ ، وهو أول معتصم بالله « ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » ( ٣ : ١٠١ ) وهو أفضل مهدي إلى صراط مستقيم طول الرسالة : « قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم .. » ( ٦ : ١٦١ ) بل وهو على صراط مستقيم محيطاً عليه لزاماً به : « والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » ( ٤ : ٣٦ ) كيف لا « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم » ( ٤٢ : ٥٢ ) .

في الحق إن الصراط المستقيم له درجات وجنات ، فأولى الدرجات هداية الدلالة له وقد هدي صاحب هذه الرسالة منذ البدء ، وقبل الرسالة كان مهدياً إليه خاصاً لنفسه حتى تهيأ للعالمين ، ثم الهداية الثانية هي الإستممرار عليه مستزيداً فيه بعصمة إلهية ، بعد محاولات بشرية ورسولية ، وهو دوماً دون انقطاع بحاجة ماسة إلى هذه العصمة : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » ( ١٧ : ٧٤ ) وهذه الدرجة هي التي يطلبها هو والمؤمنون - على درجته ودرجاتهم - في صلواتهم ليل نهار : « اهدنا الصراط المستقيم » ثبتنا وأدم لنا توفيقك ، فلو شاء الله لذهب بالذي أوحى إليه فإنه ليس لزاماً للرب إلا بما كتب على نفسه الرحمة : ( ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً . إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً ) ( ١٧ : ٨٧ ) .

هذا - ولكننا الدرجة هذه لا تختص بما بعد الفتح ، فإنه مهدي بها على طول الخط ، فإنما الاختلاف قبل الفتح في الجنات لا الدرجات : صراطاً مستقيماً للداعية في الدعوة ، حيث أزيلت الشبكات والأشواك والعقبات عن طريقها بفتح مكة ، وصراطاً مستقيماً لتقبل الدعوة الإسلامية ، حيث الفتح فتح سبيلاً واسعاً لمن

كانوا في شك من صاحب الدعوة ، وصراطاً مستقيماً في تكميل الدين وإتمام النعمة وكما حصل بفتح مكة ، وصراطاً مستقيماً في العبادة وتطبيق الشريعة إذ زالت عنهم التقية ، وانقلبت على المشر كين ، إذ أسلم كثير منهم ، مهما ناقق آخرون عائشين تحت الرقابة الإسلامية ورايتها ورعايتها .

« وينصرك الله نصراً عزيزاً » كدعامة رابعة لهذه الدولة السامية ، نصراً في كافة الميادين ، وإلا فإنه والنبيون معه منصورون : ( ولقد سبقك كلنتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون ) ( ١٧٢: ٣٧ ) لا هم فحسب ، بل والمؤمنون أيضاً ، ولا في الآخرة فحسب بل في الأولى أيضاً : ( إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ) ( ٥١ : ٤٠ ) .

هذا - ولكننا النصر الموهود عزيز ، مهما كان سواء له ولسواء سجالات قبل الفتح : قد يتغلبون وقد يتغلبون هنا في الأولى ، مهما كانوا غالبين معنسى وفي الآخرة ، فكل نصر لكل منصور قبل الفتح المبين كان عضالاً وسجالات فيه مجال قل أو كثر لأطراف النضال ، وأما بعد الفتح فنصر عزيز يتغلب كافة الحركات المضادة في الجزيرة وحولها زمن الرسول ، والزمن التي كانت الدولة الإسلامية - أو تكون - ناحية منحى الرسول ، اللهم إلا في فيما شذت عنه فتشد عن النصر العزيز ولحد قد يتغلب العدو الكافر المستعمر فلا نصر فضلاً عن العزيز ف ( إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ) .

« هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم و الله جنود السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً » .

ما هي السكينة وعلى من تنزل ؟

إنها حالة روحانية إيمانية <sup>(١)</sup> تنزل على قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم واطمئناناً مع اطمئنانهم ، تستكن فيها فتطمئنهما وتسكنها <sup>(٢)</sup> عما ربما تردها من فورات واضطرابات تجيش بشق المشاعر وتستجيش مختلف المظاهر ، إذ تلقي ظلالاً كريمة على هذه القلوب من نور ، فتصبح نوراً على نور فتظل في ظلها طمأنينة وراحة ، يقيناً وثقة ، زيادة عما كان من الإيمان .

فلا مهبط — إذاً — لسكينة الايمان إلا الإيمان على درجاته وجنباة وحالاته ، ويشترك فيها المؤمنون أجمع ، كل حسب قابلياته ومتطلباته ، نزولاً من أعلى الإيمان كما للرسول ﷺ إلى أدناه كما لأدنى المؤمنين ، وصعوداً من أدناه إلى أعلاه وبينهم متوسطات ، فلا تشذ قلباً من هذه وتلك إلا وتنزل فيه « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » .

إن السكينة في القرآن نجدوها في صنوف مثلثة من الآيات : بين نازلة على المؤمنين كما في ثلاث : هذه ، وأخرى هنا ، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، ( ١٨ ) ، وثالثة : « إن آية ملكه أن يأتيهم التابوت فيه سكينة من ربكم .. » ( ٢ : ٢٤٨ ) .

وبين شاملة للرسول والمؤمنين في اثنتين : هنا وفي التوبة : فأنزل الله — ثم أنزل الله — سكينته على رسوله وعلى المؤمنين « ( ٢٦ ) ( ٩ : ٢٦ ) » .

وبين خاصة بالرسول ﷺ في التوبة — ايضاً — تاركة صاحبه في الغار دون آية سكينة : « .. إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها .. » ( ٩ : ٤٠ ) .

(١) تضافرت الأحاديث عن الصادقين عليها السلام بكلمة واحدة ان « السكينة هي الايمان » .

(٢) هي الفعلية بمعنى الساكنة او المسكونة لانها تلازم القلب وتسكن فيه لتسكنه عن اضطراب .

تري لماذا يحرم هذا اليتيم في هذه اليتيمة عن السكينة وهو صاحبه ﷺ في الغار ، وعلى أمس الحاجة إليها إذ حزن لحد نهائه الرسول ﷺ عنه : « لا تحزن » في حين تنزل على الرسول ﷺ ولم يحزن ؟! <sup>(١)</sup> انا لا ادري !

ثم : الإيمان عمل كله والقول بعض ذلك العمل .. حالات درجات وطبقات ومنازل ، فمنه التام المنتهي تمامه ، ومنه الناقص الميسر نقصانه ، ومنه الراجح الزائد رجحانه : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون .. » ( ٩ : ١٢٤ ) « إنهم فتية

( ١ ) قد يذاد هنا عن ساحة الخليفة بأنه النازل عليه السكينة هنا فانه الذي حزن ولكي تكمل صحبته بإيمانه - وتري كيف يختص الله أي بكر بسكينته وانزال جنود عليه غير مرئية وجعله كلمة الله العليا - ثم يحرم رسوله عن هذه وتلك ، وهو الذي تنزل عليه سكينة العصمة والطمأنينة دوماً - مع المؤمنين ومنفرداً كما مضت آياته .

ثم تری من هو المضمون في « إلا تنصروه » إلا الرسول (ص) فهو هو إذا المنصور في الغار « من داخل قلبه » : بانزال السكينة عليه « ومن حاولج » بتأييده يجنود غير مرئية، وجعله كلمة الله العليا : « فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين .. » ولم يأت ذكر الخليفة أبي بكر إلا هامشياً « إذ يقول لصاحبه لا تحزن » ثم تری ان الرسول هو ركن الكلام هنا وهناك « ١ - إلا تنصروه ٢ - فقد نصره الله ٣ - إذ أخرجه .. ٤ - ثاني اثنين ٥ - إذ يقول لصاحبه .. » وبعد هذه الستة الصريحة في الرسول (ص) ما هذا الذي يحول وجه الكلام ونتيجة النصر : « فأنزل الله سكينته عليه وأيده يجنود لم تروها .. وكلمة الله هي العليا » يحول هذا المثلث البارع من نصر الله الموعودة المحققة - عنه الى صاحبه ، أتحويلاً لمهمة الرسالة عن الرسول (ص) الى صاحبه في الغار ترفيعاً لساحة الخليفة ، وتخفيضاً لساحة الرسالة .

او تحفظ للكرامتين ان « عليه » هو صاحبه الذي نزلت عليه السكينة ثم « أيده يجنود لم تروها .. » هو الرسول المؤيد يجنود مرئية - ولكنك تحط من كرامة الفصاحة القرآنية : إن ضميرين تلو بعض كل يرجع إلى كل منهما دون قرينة تدل ! اللهم إلا أن تحسبها واحداً كانت الرسول هو صاحبه ، فليفرد ضميرها ويردفا ؟ أنا لا ادري ! ولا يمكن تفهم معنى الآية إلا بعد التحلل عن التعصبات الراسية !

آمنوا بربههم وزدناهم هدى ، ( ١٨ : ١٣ ) فبتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة ، وبالإضافة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله ، وبالنقصان دخل المفرطون النار ، (٢) .

إذا فالسكينة النازلة على الرسول عصمة وتسديد يحتاجه الرسول دوماً كبشر وكرسول ، مهما كان في أهل الإيمان ، والنازلة على من دونه لاستكمال الإيمان ، أو الحفاظ على الإيمان في هجمات الإضطراب التي تهدد كيان الإيمان ، ومن ثم إذا لا سكينة فلا إيمان ، وإنما كفر أو اسلام نفاق أو ما لم يصل بعد الى إيمان : « وقالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ، ( ٤٩ : ١٤ ) .

وواقع السكينة في صلح الحديبية هي جمع حفاظ الإيمان وزيادته - وإن كان النص أجمل عن حفاظه الى زيادته - إذ كان البعض في ذلك الجو الخطير في خطر الخروج عن الإيمان ، كمن يخاطب الرسول بحمية : « لم تعطي الدنيا في ديننا ؟ فيجيبه الرسول ﷺ : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني » ! ثم الآخرون تزدادهم السكينة إيماناً على إيمان حيث صمدوا وصابروا على عضال المحنة فلم يشكوا ، وأما الرسول فهو القمة في الإيمان ، فلا يحتاج هنا الى سكينة ، اللهم إلا عصمة وتسديد يحتاجه في كل زمان ومكان ، ولذلك لا يردف هو بالمؤمنين هنا .

لقد مرت على المؤمنين في الحديبية مواقف مرة عملت في قلوبهم ما عملت ، من قتلشع الى تصديق رؤيا الرسول ﷺ : « لتدخلن المسجد الحرام .. » ، إذ حسبه بعض أنه الآن ، وكما يروى عن الخليفة عمر أنه جاء الخليفة أبابكر

(١) ملتقطات من حديث مفصل حول مراتب الإيمان عن الإمام الصادق ( ع ) ( نور الثقلين ٥ : ٥٩ عن اصول الكافي ) .



محتاجاً ثائراً بقوله : أليس كان يحدثنا أنه سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى !  
أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قال : لا .. فتركه الى النبي ﷺ فسأله سؤاله  
فأجابه : أفأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ قال : لا .. قال رسول الله ﷺ :  
« فإنك آتية ومطوف به » .

فهذه الصورة التي تزعزع أركان إيمان الخليفة عمر ، ترى ماذا تفعل بمن دونه ،  
فإنما السكينة في قلبه وأمثاله حفاظ على الإيمان ، وفي قلوب المؤمنين فوقه  
« ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم .. » ولم يكن الأمر - الذي انتهى الى الصلح الفتح -  
لم يكن هيناً على نفوسهم ، فأصبحوا - على درجات إيمانهم أم ماذا - في تضييق  
من صدورهم وقلوبهم ، وضغط على نفوسهم ، حتى أنزل الله السكينة في قلوبهم  
فارتاحوا الى طمأنينة والحمد لله ! .

وإضافة إلى السكينة الإلهية النازلة في قلوب المؤمنين كجند إلهي في دواخل  
ذواتهم ، التي تطمئنهم في الهزاهز ، فجنود السماوات والارض كذلك مجندة من  
خارج ذواتهم لنصرتهم : « والله جنود السماوات والارض وكان الله عليماً حكيماً ،  
فما هي جنود السماوات والارض ، أو من هم ؟

ليس الله سبحانه كمن يجند من لا طاقة له بمُرامه ، أو لا يمشي إلى مَرامه ،  
أو يقلُّ يحب عدوه ، فالكون كله جنوده ، مما يرى وما لا يرى ، من  
سماوات وأرض ومن أو ما فيهما أو بينهما ، فلا يملك أعداء الله على كثرتهم  
في حسابنا ، لا كثيراً ولا قليلاً من عدة أو عُدَّة ، يحب ما يملكه الله من جنود ،  
تكفي طيرهم الأبابل ان ترمى أصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، تجعلهم  
كمصف ما كول ! ولكننا السنة الإلهية جارية في نطاق الأسباب ، فلا يرسل  
جنوده إلا لنصرة من جتشد طاقاته كلها في سبيل الله ، دونما كسل ولا زحف  
ولا فشل ، وبعد اذ كلت قواهم ، فقد يبعث جنوداً : إلى قلوبهم كالسكينة ،  
وإليهم كجنود مرئية وسواها بما نبه عليها في طيات آيات تتحدث عن النصر

الآية الكرامة ، في ميادين النضال الكرامة : « فأنزل الله سكينته عليه وأيده  
بجنود لم تروها » ( ٤٠ : ٩ ) « فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها ... » ( ٩ : ٣٣ )  
« وأنزل جنوداً لم تروها ... » ( ٩ : ٢٦ ) !! .

وتسرى من الذي يعلم جنود الزب إلا هو ، بعدددهم وعددهم ؟ : « وما يعلم  
جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر » ( ٧٤ : ٣١ ) ليس لأن الله  
بحاجة الى جنود هي خلقه الفقراء إليه ، لولاهم لما تغلب على أعدائه ، وإنما هي  
ذكرى للبشر ، وكناصرات عينيه تبصر ، او لا تسرى ولا تبصر ، وكان الله  
عليماً حكيماً « قبل خلق الجنود وبعثهم وبعده : عليماً بضعفكم ، حكيماً في  
جبركم بنصركم ، ومن حكمته أن يرسل جنوداً لكي نلمس نصره ، فلا نستغله  
- لو كان مجرد مشيئة إلهية - أنه هذا ، أو أن خلقه يتمنع عن تحقيق أمره في  
نصره ، فجنوده تجند على علمه وبحكمته ، « وما هي إلا ذكرى للبشر » ! :

ثم هذا الفتح المبين ، وانزال السكينة - قبله - في قلوب المؤمنين ، وإرسال  
جنود سماواتية وأرضية ، إنها تهدف ضمن ما تهدف من تعزيز الرسول الأمين :  
« ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ويكفر عنهم  
سيناتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً . ويعذب المنافقين والمنافقات  
والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله  
عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً . والله جنود السماوات والأرض  
وكان الله عزيزاً حكيماً » :

جنود إلهية هنا بعزة الله وحكمته : حكمة الغلبة على عدوه بعد عزته ،  
وهناك بعلمه وحكمته : حكمة الانتصار لعباده بعد علمه ، تحتف بالمؤمنين  
والمؤمنات لإدخالهم جنات ، وبمن سواهم لإدخالهم دركات ، كما جند كل نفس لما  
إليه المصير ، والله بما يعملون بصير .

ثم وهذه السكينة وذلك الفتح المبين هما للمؤمنين والمؤمنات عذاب

وللمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات عذاب فوق العذاب ، والله شديد العقاب !

هناك للنبي والمؤمنين بعد السكينة والفتح المبين أربع درجات والى الجنة ، وهنا للمنافقين والمشركين أربع درجات وإلى النار هي : « عليهم دائرة السوء - وغضب الله عليهم - ولعنهم - وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً » أربع وجاه أربع وأين أربع من أربع ؟ : درجات ودركات !

وترى لماذا يتقدم دخول الجنات على تكفير السيئات ، ولا دخول في الجنات إلا بعد تكفير السيئات ؟ علته لأنه الأصل المقدم في المنزلة ، مهما كان مؤخرأ في المنزل : « وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً » : تكفيراً للسيئات ومن ثم دخول في الجنات ! ثم وهنا وهناك : عظيماً في حساب الله ، عظيماً في الحق ، عظيماً في نفوس من ينالونه ، وعظيماً في الأولى وعظيماً في الاخرى !

ترى وكيف يتقدم المنافقون والمنافقات على المشركين والمشركات ؟ كأنه لأن درك النفاق أسفل من درك الشرك : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » ( ٤ : ١٤٥ ) فإن المنافق أقرب خطراً وأصعب وقعاً على المؤمنين من المشرک ، فإنه متظاهر بما بطن فيهفر منه ويُجتنب ، وذلك يتظاهر بخلاف ما بطن وهنا الويل !.

ثم هما مشتركان في ظن السوء بالله ، مهما اختلفت دركاته ، حسب درجات الشرك والنفاق وضعف الإيمان ، كما حصل من الخليفة عمر في خطابه الهائج للرسول ﷺ في صلح الحديبية : « لم تعطي الدنيا في ديننا ؟ » وكقولته الثانية له ﷺ : « أليس كنت تحدثنا أنه سنأتي البيت ونطوف » ؟ فإنها من ظن السوء بالله كأنه يخالف وعده ، وظن السوء برسول الله أنه أعطى الدنيا في دين الله ، وترى إن الله يبعث رسولاً يعطي الدنيا في دين الله ؟ !.

« بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في

قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً » ( ١٢ ) وهم المخلفون من الأعراب ، وكل ظن بالله غير الحق هو ظن السوء وإن كان دركات « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية .. » ( ٣ : ١٥٤ ) .

وفي الحق إن قلب المؤمن وسواه متقابلان في الظن بالله ، حسب درجات الإيمان ودركات اللاإيمان ، فالقلب المؤمن دوماً يتوقع الخير من الله ، لأنه موصل النياط ومربوط النيات بالله ، وفيض الخير لا ينقطع من قبل الله ، والقلب المقلوب غير المؤمن مقطوع الصلة بالله ، يتوقع الشر منه إليه وإلى المؤمنين أيضاً ، دونما ثقة بالله إذ لا نياط له ولا نيّات تربطه بالله ، فـ « عليهم دائرة السوء » :

دائرة سوء على المنافقين والمشرّكين كما هنا وأخرى تخصّص المنافقين « ومن الأعراب من يتخذ ما ينطق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم » ( ٩ : ٩٨ ) .

وهذا إخبار إنذار من الله وليس دعاءً رغم ما يُزعم ، فمن هو المدعو لله في دعائه لو دعى ؟ وليست الدعاء إلا فتمراً وقصوراً عما يرام ، فتدعو من يحقق المرّام ، وليس الله عاجزاً عن تحقيق ما يرام ، ولا إله فوقه حتى يدعوه ، أو معه حتى يشاركه فيما يدعوه ، كلا ! وإنما هو إخبار أن السوء - كل سوء - يدور حولهم ما عاشوا وبعد موتهم ، لزام « عليهم دائرة السوء » الذي يظنونونه من الله وعلى المؤمنين ، وإنما عليهم بما قدمت أيديهم وإن الله ليس بظلام للعبيد .

ومن ثم ( غضب الله عليهم ) لحسد لا ترجى رحمته إذ ( ولعنهم ) : أبعدهم عنه فلا يرجى قربه حتى يعفو عنهم ، وأخيراً « وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً » . ثم إن السوء قد يكون في زاوية من زوايا الحياة هنا وفي الأخرى ، وقد يعيش الحياة وتعيشه متعرقاً مندغماً في أهله كدائرة ماثرة تدور حولهم بما رسموها ، كما الخطيئة المتكررة كذلك تحيط بالخطيئة وتدور : « بلى من كسب

سيئة وأحاطت به خطيئة فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ( ٨١ : ٢ )  
وكلما كانت أسوء وآكد فأحاطته أحوط وأخلد، وترى إذا كانت هي ظن السوء  
بالله ، وهو من أسوء الكفر بالله ، فكيف إذا تكون دائرة السوء ؟ انها تلحقها  
ثالث الغضب واللغة وجههم المصير ، ومن ثم :

« انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً »

.. رسالة عالمية خالدة تنحو منحى مثلث الدعوة المباركة : « شاهداً  
ومبشراً ونذيراً » تكافح ثالث النفاق والشرك في دركات الغضب واللغة وجههم  
المصير ، ثلاث بثلاث ، وأين ثلاث من ثلاث !

ثم هنا زيادة : « يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً  
إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » ( ٣٣ : ٤٦ ) : دعوة وضائية كسراج منير بهذه  
الثلاث ، كما وأن هذه الشهادة تمكين لهذا البشير النذير : « وما أرسلناك إلا  
مبشراً ونذيراً » ( ١٧ : ١٠٥ ) فشهادة الداعي السراج المنير تقوية له كبشير  
نذير :

« شاهداً » يشهد الله برسالاته ، بقوله وعمله وتقريره ، فإنه على بينة من ربه ،  
وهو بنفسه آية معجزة إلهية ، كذلك وبقرآنه المبين ، فقرآن محمد ومحمد القرآن  
آية شاهدة واحدة بمظهرين ، وقد كان خلقه القرآن ، وكله قرآن ، لو قرأت  
صحيفة حياته وصفحة حركاته وسكناته فقد قرأت القرآن كله ، فإنه القرآن كله .  
و « شاهداً » لله وعلى المرسلين برسالاتهم ، وعلى الناس برسالاته ، وشاهداً  
على أعمال الناس صالحة وطالحة برقابته ، يتلقاها بما يلقيها إياه ربه ، ثم يلقيها  
يوم يقوم الأشهاد <sup>(١)</sup> شهادة مربعة رائعة في زواياها ، كاملة في قضاياها ، كافلة  
مزايها : « انا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون  
رسولاً » ( ٧٣ : ١٥ ) .

(١) تدلنا على هذه الشهادات آياتها التي تجعل الرسول محمداً (ص) شهيد الشهداء .

« ومبشراً » من يتبعونه وبطيعة الله إلى الله برضوان من الله ، ونصر في الدنيا والآخرة ، وبكافة الرحمة الإلهية الموعودة للمؤمنين ، ولكي يرغبوا إلى الإيمان بدليلي الشهادة والبشارة و « ذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد » .

« ونذيراً » : من يتخلفون عنه ، تسييراً ، أو يتباطئون ، فتسريعاً ، أو يستزيدون فاستزادة الإيمان ، ولكي تكمل هذه الرسالة السامية في زوايا الشهادة والتبشير والإنذار ، وفي كلّ تتوفر البراهين المقاطعة التي تزوي عن زواياه كل شبهة وريبة .. وترى لماذا هذه الرسالة المثلثة المدعمة بهذه الدعائم القوية :

« لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً » :

نتائج أربعة على ضوء هذه الرسالة الشاهدة المبشرة المنذرة : إيمان بالله ورسوله ، ومن ثم تعزير الله وتوقيره وتسبيحه ، طالما الأخير خاص بالله ، والإيمان والتعزير والتوقير تشمل رسول الله ﷺ : « فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » ( ٧ : ١٥٧ ) ولأن الأصل في المكانة والكلام هو الله فليرجع إليه ضمائر التعزير والتوقير والتسبيح ، ولأن الرسول يحمل رسالة الله فلا يشمله ما سوى التسبيح الخاص بالله ، شمولاً هاشمياً على ضوء رسالة الله .

والتعزير - خلاف ما قيل - ليس هو مطلق النصر إذ يقابله في آية النصر : « وعزروه ونصروه » فهو النصر العزيز ، خلاف النصر غير العزيز ، فقد يُنصر على ذل كما المؤمنون في جبهة بدر : « وقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة » ( ٣ : ١٢٣ ) وقد ينصر على عز وهو بحاجة إلى نصر كما الرسول يُنصر : « وينصركم الله نصراً عزيزاً » ، وقد ينصر على عزته لا حاجة إلى نصر كما الله ينصر : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم » ( ٤٧ : ٧ ) فانه نصرة لدين الله وليس المنصور هو الله ، والنصر لغير الله دوماً نصر مغلوب ، عزيزاً أو ذليلاً : « فدعا

ربه اني مغلوب فانتصر » ( ٥٤ : ١٠ ) وهو الله نصر ' غالب عزيز ، فالتعزير هو النصر العزيز لغالب كما الله ، او مغلوب كالمكرمين من عباد الله دون الدليل ، ومطلق النصر يشمل النصر الدليل كما يشمل العزيز غالباً ومغلوباً .

والتوقير هو التعظيم اللائق بمقام العظيم : « ما لكم لا ترجون الله وقاراً ، ( ٧١ : ١٣ ) فتوقير الله هو تعظيمه كما يحق له في ساحة الالهية ، وتوقير الرسول تعظيمه على حده وحدود رسالته ، فلو سويت بين الله وبين احد من خلقه لما وقرته فانه ضلال مبين : « تالله ان كنا لفي ضلال مبين . اذ نسويكم برب العالمين » وان كان المسوى به رسول رب العالمين .

ومن ثم - بعد الايمان بالله ورسوله ، وتعزير الله وتوقيره ، ياتي دور دوار التسبيح مراساً له ليل نهار بكل حراس واكتراس : « وتسبحوه بكرة واصيلاً » : لاختصاص البكرة والاصيل ، ثم اهمالاً في البين ، إنما توصيل الاصيل بالبكرة والبكرة بالاصيل ، ان يعيشوا حياتهم ليل نهار في تسبيح العزيز الغفار ، وانه يشمل تسبيح الصلوات واجبات ومندوبات وسواها من تسبيحات .

ف « بكرة واصيلاً » - إذا - هي كناية عن اليوم كله ، فان طرفي النهار يضمنان ما بينهما من آونات ، اتصالاً للقلب بالله على أية حال ، كثرة نهائية للايمان بالله ورسوله ، وهذه الحالة التجردية الراقية هي التي تفتح طريقاً للسالك الى مبايعة الرضوان :

« ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجراً عظيماً »

المبايعة هنا هي مبايعة شجرة الرضوان في صلح الحديبية : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » ( ١٨ ) .

ثم المبايعة منها البيع المتقابل بين اثنين ، ترتكن على مبيع ومبايع له وسلعة وثمن للمبايعة ، وهنا المبايعون هم المؤمنون ، والمبايع له هو الرسول كرسول ، وهو الله كمرسل دافع للثمن ، والسلعة هي انفسهم واموالهم والثمن بان لهم الجنة : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » ( ١١١ : ٩ ) . او وفوق ذلك : الجنة الرضوان : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله .. » ( ٢٠٧ : ٢ ) .

ومنها مبايعة البيعة : نوع من الميثاق ببذل الطاعة ، وببيع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له إذا رضى له ، ويمثلها في العادة وضع يدي المتبايعين على بعض انجازاً للبيع ، ومبايعة المؤمنين تحت الشجرة تضم كلنا المرحلتين أن باع المؤمنون انفسهم واموالهم لله ، واضعين ايديهم على يدي رسول الله بانهم يبايعون الله ، فما هو إلا رسول ! فان : « يد الله فوق ايديهم » يده كمشت في هذه المبايعة وكمبايع له في هذه البيعة ، فهي - اذاً - يد المبايعة البيعة ، لإنجازاً للبيع وايفاء للبيعة دون أن تكون هنا أو هناك جارحة ، اللهم إلا للرسول والمؤمنين في تمثيل البيعة .

فطالما هم يبايعون الرسول تحت الشجرة ف « انها يبايعون الله » إلا أن هناك ايدي من تحت للمبايعة هي ايدي الرسول والمؤمنين ، ويد من فوق هي الأصل في المبايعة : « يد الله فوق ايديهم » وليست هي ثلاثة تشاركهم في المبايعة ، وإنما تؤيدهم وتنجز لهم : للرسول ﷺ قبولاً لها ، وللمؤمنين إقبالاً إليها ، فهي يد فوق الأيدي و لا تزال في كل مجال ، ولكنها في مجال البيعة ما دام الوفاء : « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » إذ يرفع الله هنا يده فلا تأييد « ومن أوفى بما عاهد



عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » : « بأن لهم الجنة » « وذلك هو الفوز العظيم »  
فإن الله يحب الوفاء والأوفياء ، ولا يحب الناقضين للعهود .

ثم اليد ليست هي الجارحة فحسب ، إذ تستعمل في كلها للجارحة من أخذ  
وعطاء وقوة ورحمة وحنان وسلطان أم ماذا ، لحد غلب استعمالها في غير الجارحة  
وقل فيها <sup>(١)</sup> فالمتبع هي القرينة التي تدلنا على المعنى منها ، ومن القرائن القاطعة  
صاحب اليد بكيانه ، إن كان يصاحب يداً جارحة فجارحة أحياناً وغيرهما  
أخرى كـ « إلا أن يعفون أو يعفوا الذي بيده عقدة النكاح » ( ٢ : ٢٣٧ ) أو  
كائن من خلق الله ليست له يد الجارحة : كرحة الله : « وهو الذي يرسل الرياح  
بشراً بين يدي رحته » ( ٧ : ٥٧ ) أم ماذا ؟ فلا تعنى له هنا وهناك إلا يد غير  
جارحة ، فما ظنك برب العزة في يده ويديه وليست له أية جارحة « لا يحس  
ولا يحس ولا يحس ولا يدرك بالحواس الحس » « لا تدركه الأبصار وهو يدرك  
الأبصار » أتظن - بعد - أن له يداً كالأيدي الجارحة و ( يد الله فوق أيديهم ) !  
فوقية الذات والفعل والصفة ، وفوقية الإنية والكينونة ، فوقية تخرجها عن  
ذوات الخلق وأفعالهم وصفاتهم ، عن مادياتهم - وحتى ... عن معنوياتهم فليس  
كمثله شيء ) بأية مماثلة وفي أي شيء ، فهل تظن بعد أن له سبعانه يداً جارحة  
- أو تزيد قولك - كما يناسب ساحته ، زعماً أن هذه القولة الفارغة تنفي عنه  
جارحة الجارحة ! وليس هذا إلا كالقول أنه يجمل كما يناسب علمه ، ولا مناسبة  
بين الجمل والعلم ، ولا تناسبه تعالى أية جارحة ، فليست القولة الأفيونة العفنة :

(١) في مائة وعشرة موارد تذكر اليد في القرآن بصيغها المختلفة لا نجد الا قليلاً يعني منها  
اليد الجارحة ، زهاء ٢١ - أو - ٢٢ موضعاً أي : ١٠٠/٢٠ إذا فمع عدم وجود القرائن لنا  
ان نشك في انها جارحة أو نتأكد انها ليست يد الجارحة ، فكيف اذا تواترت عاكر القرائن  
القاطعة ، لفظية ومعنوية وعقلية : ان يد الله لا يمكن ان تكون جارحة الا لمن غرب عقله  
وخرب حسه .

( كما تناسب ساحته ) بالتي تصحح الغلظة المستحيلة : أن له يداً جارحة ،  
فالأوصاف والحالات المستحيلة الذات بالنسبة لساحة الألوهية لا تصح مهما بالغت  
في التنزيه إلا جمعاً بين النقائص ، ان تجمع له سبحانه بين الكمالات والنقائص ،  
فلا تناسبه على أية حال يد الجارحة فإنها جارحة لمحمد الألوهية ! وإنما المناسب  
يد القدرة : ( قل من بيده ملكوت كل شيء ) ( ٢٣ : ٨٨ ) ( تبارك الذي بيده  
الملك وهو على كل شيء قدير ) ( ٦٧ : ١ ) والملك والملكوت لا ينالان بيد  
الجارحة ! أو يد العطاء والفضل : ( قل إن الفضل بيد الله ) ( ٣ : ٧٣ ) أو يد  
الإمساك والبسط : ( وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا  
بل يدها مبسوطتان ) ( ٥ : ٦٤ ) أو أية يد أو يدين سوى الجارحة ، وفوق  
سائر الأيدي فإن ( يد الله فوق أيديهم ) والله يكلمنا بلغتنا في عرفنا كناس ،  
طالما الناس الذين لا يفهمون لغة الناس اثقلوا في تفسير يد الله إلى أيدي الناس !  
والمفروض على الناس أن يحردوا عما لله عما للناس وسواهم من خلق الله ، يد أو  
سواها ف ( يد الله فوق أيديهم ) !

وهذه الآية الفريدة في نوعها وسبكها تفسر يد الله ويديه في آياتها ، أنها  
فوق الأيدي ، لا فوقية الجهة إذ ليست له جهة ، وإنما فوقية الذات والصفات  
خارجة عن الحدود والجهات ، فوقية تجعلها ليست كمثليها يد ولا هي تماثل أية  
يد كما الله ( ليس كمثله شيء ) .

ف ( يد الله فوق أيديهم ) : هنا في البيعة والمبايعة ، وهناك وهناك في القدرة  
والرحمة ، والعذاب والمغفرة ، والملك والسلطة ، والقبضة والبسطة ، وفي كل  
مالها من ذات وأفعال وصفات ، فوقية مثلثة تفصلها عنها في كافة الجهات .

ثم المبايعة لا تختص بخلفياتها ، المؤمنين زمن الرسول ، فإنها مبايعة الله ،  
فطالما الرسول يموت فالله تعالى حي لا يموت ، فبالإمكان تحقيق هذه البيعة وتلك

المبايعة منذ الرسول الى يوم الدين ، كما النكث والوفاء يشملان طول الزمن وعرضه ، أرضه وسمائه ، جنه وانسه آمن ذا ؟ .

كما وأن رضوان المبايعة من الله للمؤمنين المبايعين ، ليس لزاماً عليه لهم وإن نكثوا أو نكصوا على أعقابهم ، بل ان آية النكث والوفاء تشير إلى أن هناك - بين المتبايعين - ناكثين وأوفياء :

« فمن نكث فانما ينكث على نفسه » : لا على ربه ولا الرسول ، حيث النكث نكص عن رحمة الله ، ونفث في عقد من نعمة الله ، وصورة البيعة الرائعة تفرض عليهم الوفاء لصالحهم ، وتستأصل للمؤمن كافة خواطر النكث مهما غاب الرسول ، فإن المرسل باق لا يزال ولا يزول ! .

وقد توحى ( نكث ) بمضيها ، بتحقيق النكث وعله منذ المبايعة - مهما كان خفياً - ثم ظهوره مستقبلاً في قلب الأحوال ، إذ عنده تظهر حقائق الرجال .

« ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » فإن الله وفي يحب الوفاء والأوفياء .

ثم المبايعة هذه تشمل عقيدة الإيمان وعمله وجهاده ، سمعاً وطاعة في النشاط والكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وعلى النصرة أن يمنعوا الرسول والمؤمنين مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم ، فمنهم من نكث ومنهم من أوفى :

\*\*\*

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا  
وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ

فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ  
بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً - ١١ . بَلْ ظَنَنْتُمْ  
أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزَيَّنَ  
ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنُّ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُوراً - ١٢ .  
وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ  
سَعيراً - ١٣ . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ  
يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً - ١٤ .  
سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِنَا خُذُوهَا ذَرُونَا  
تَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ  
قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا  
لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً - ١٥ . قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ  
سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ  
فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ  
مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً - ١٦ . لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى  
حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ

يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
وَمَنْ يَتَسَوَّلْ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً — ١٧ .

\*\*\*

بعدما تمت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، مع الإشارة الى مخلفين عنها ،  
ناقضين لها : « ومن نكث .. » هنا التفات بالحديث نصاً فاصماً عن المخلفين وعن  
الموفين الموفين معاً : تنديداً شديداً بالمخلفين يضم ملاحم الغيب إخباراً مسبقاً  
عن سوء سريرهم ومصيرهم ولما يظهر ولا حان حينه ، أنباء غيبية تنبئ النبي  
والمؤمنين من ذي قبل حتى يأخذوا عنهم حذرهم ، ولا يرتكنوا اليهم بجواذب  
الإدعاءات الجوفاء ، يفضحهم ويرقفهم مكشوفين امام الرسول والمؤمنين ،  
ويلقنه كيف يعاملهم ويرد عليهم ، فيعاجلهم ان كانوا يقبلون ، او يعاجلهم بما  
ينكبهم جزاء بما كانوا يفعلون ، إذ واجههم بكل حفاوة واحترام ، وقابلوه بكل  
جفاوة واخترام :

« سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلنا اموالنا واهلونا يقولون  
بالمستهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً ان اراد بكم ضرأ او  
اراد بكم نفعأ بل كان الله بما تعملون خبيرأ »

إن المخلفين من الأعراب وهم : المتروكون في امكنتهم خلف الخارجين  
المجاهدين ، وهم اهل البوادي غير الحاضرين ولا المتحضرين ، وهم الذين قال  
الله عنهم : « الاعراب اشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما انزل الله على  
رسوله » ( ٩ : ٩٧ ) .

هؤلاء هم المنافقون المستسلمون ، وقد كان لهم الا يقولوا - على اقل تقدير -  
مقاتلهم تلك الفاضحة ، ولكي يبدلوا كلام الله ، رغم انهم ارادوه : « يريدون

أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلك قال الله .. « فرغم أنه - بشرياً - كان لهم ذلك، ولكننا الله اخبر رسوله « سيقول لك المخلفون .. » ولم يكن إلا ما قال الله ، آية بينة معجزة تجمع الإعجاز الى الإنبياء التنديد بالمخلفين والله الحمد .  
ومن ثم يرد عليهم قولتهم المناقضة : « شغلنا اموالنا واهلونا فاستغفر لنا »  
بانها ظاهرة النفاق : « يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم » فالسنتهم مؤمنة وقلوبهم كافرة ، ترى القلب المؤمن يشغل عن واجبات الايمان بالاموال والاهلين؟  
فللناس دائماً اموال واهلون ، ولو جاز ان تشغلهم هذه او تلك عن تكاليف الايمان ، وعن الدفاع بحق الايمان ، ما نهض مؤمن بحقه ، ولم يقم للحق قائمة ! .

وان الجهاد النابض في عروقه روح الايمان، هو الذي يحافظ على الايمان اكثر مما كان ، ويحافظ على الاموال والاهلين ، فكيف يشغل المؤمن بهما عن الجهاد ؟  
اللهم إلا نفاقاً عارماً يبرره أهلوه ، والله فاضحهم من قبل ومن بعد !  
ومن ثم - وأخيراً - سئوال تنديدهم وتبكييت باعتذارهم الكذب : « قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم نفعاً ؟ » فالإنشغال بالاموال والاهلين لا يدفع عنها وعنكم ضرراً ولا يجلب نفعاً ، إذ الأسباب لا تستقل عن الله ، حتى تستغل اعتذاراً في التناقل عن تطبيق امر الله ، وحتى فيما تؤمرون او يسمح لكم بذلك الاشتغال ، فالنافع الضار فيه هو الله ، فكيف اذيامركم الله بالخروج للجهاد وترك الاموال والاهلين ، فهل هي اذاً تغنيكم عن الله ، او أن هنالك من يملك لكم من الله شيئاً كما تهوون من دون الله ، ان اراد بكم ضرراً وانتم في اموالكم واهليكم ، او اراد بكم نفعاً وانتم خارجون عنها ؟ فهل من إله غير الله يدفع عنكم ضرركم او يجلب لكم نفعكم ؟ .

وإنما الايمان هنا الإستسلام لامر الله ، لقدرة الله وطاعته ، حيث التناقل عنه الى اموال واهلين لن يدفع ضرراً ولن يؤخر نفعاً ، فليس هذا عذراً لمؤمن او اي

عاقِل ، فليس شغل الأموال والأهلين بالذي يشغلكم عن الجهاد ، بل كان الله بما تعملون خبيراً ، ١ : فاعمالكم وآمالكم شاسعة عن الايمان ، ونفاقكم هو الذي يؤخركم عن واجبات الايمان ، رضى بالحياة الدنيا عن الآخرة ، فما دائكم وما دواءكم ؟ ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ، ( ٩ : ٣٨ ) وإن أعمالكم خلاف الجهاد ، المخالفة عن الجهاد ، هي فاتجة عن ظنكم السوء بوعد الله :

« بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً » :

علَّ المخلفين من الأعراب هنا هم المتخلفون عن الحديبية فيما مضى ، وعن خيبر وفتح مكة فيما يأتي ، طالما البعض منهم تخلف عن البعض ، وبعض عن الكل ، فلما تحقق الصلح في الحديبية قال المخلفون مقاتلهم تلك « شغلتنا .. » فجاء الجواب ما جاء وإلى « بل ظننتم .. » فقلة العدة والعدة للمؤمنين ، وعدم إيمان المخلفين حملهم لهذا الظن السوء ( ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ) .

وكما في خيبر مخلفون هكذا وفي فتح مكة ، فأعذارهم أضراب ، كما هم أضراب ، وهم كلهم يعيشون إضراباً عن الجهاد وتثاقلاً إلى ظنون وأعمال متشابهة النفاق ! .

« بل ظننتم » فهذا دأبكم في تخلفكم عن الخروج ، دون قولتكم الكاذبة تلك : « شغلتنا » - بل شغلكم ظنكم السوء بالله ان لن ينصر عبده ، وبالرسول والمؤمنين ان لن ينقلبوا إلى أهليهم أبداً ، « ظننتم » انتم الأوغاد المناكيد إذ لم تؤمنوا « وزين ذلك » الظن البعيد البعيد « في قلوبكم » المقلوبة ، والشيطان هو الذي يزین شيطانات العقائد والأعمال في قلوب ذويهم فيصدهم عن السبيل بعبد

صدهم : ( وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين )  
 ( ٢٩ : ٣٨ ) وهكذا يتعامل الشيطان مع أوليائه ، ثم الله يتركهم في غيبتهم  
 يترددون وفي غيبتهم يترددون فيسمى تركه لهم في هذه المهالك تزييناً منه : ( إن  
 الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم ) ( ٢٧ : ٤ ) وفي الحق لم يزينها لهم  
 إلا كفرهم وزينهم ( فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ) ثم تركهم والشيطان  
 يزين لهم أعمالهم : ( ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين )  
 ( ٤٣ : ٣٦ ) .

ففاعل الظن السوء هم أنفسهم بكفرهم ، والمزين لهم ظنهم هو الشيطان  
 القرين لهم بما عاشوا كفرأ وعشوا عن ذكر الرحمن ، وهو الله بما لم يحل بينهم  
 وبين الشيطان أن يزين لهم ، وأن تركهم في طغيانهم يعمهون .

لهذا وذاك خسرتم أولاكم وأخراكم ( وكنتم قوماً بوراً )<sup>(١)</sup> : فساداً أو  
 هلاكاً ، مصادر البوار ومعا دن الهلاك والفساد ، كينونة تبنى حياتكم كأنكم  
 الهلاك نفسه والفساد نفسه ، والبور الماضي - في الحياة الدنيا - دائماً هي بور في  
 الحياة الأخرى : نتيجة طبق الأصل : ( لتركبن طبقاً عن طبق ) : طبق الأخرى  
 عن طبق الأولى ( ولا تظلمون نقيراً ) : ( والذين يكررون السيئات لهم عذاب  
 شديد ومكر أولئك هو يبور ) ( ٣٥ : ١٠ ) .

فنسيان ذكر الله ، ومن ثم الظن السوء بالله وبرسول الله ، همسا الأساس في  
 كونهم قوماً بوراً : ( ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً )  
 ( ٢٥ : ١٨ ) .

ثم هب انهم بظنهم السوء ان لا غلب للرسول ﷺ تخلفوا عن الخروج معه ،  
 فلماذا بعدد استحالة الرجوع إلى أهلهم ؟ : ( ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون



إلى أهلهم أبدأ ؟ ( لن ) تحيل الرجوع و ( أبدأ ) تؤكد الإستحالة ، والظن ما دام ظناً لا يستحيل ، فضلاً عن تأكيد وتأيد الإستحالة ؟ وإنما يستبعد حسب بُعد الظن .

نقول : انهم بكفرهم المتيقن الواقع ايقنوا عدم الرجوع ، ولم يكن موقعهم الا الظن ، اذ لم يملكوا برهاناً لذلك اليقين ، فهم في حسابهم ايقنوا وفي حساب الله ظنوا كما « زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا » فـ « لن » تستحيل البعث ، والزعم يستبعده دون استحالة ، ولكن زعمهم اصبح يقيناً لهم ، دون ان يملكوا حجة إلا زعماً وظناً ، وهكذا يعالج القرآن الوقائع المنحرفة ، في اشارات الى : كيف يجب ان تكون ؟ وتنديبات بها هي دون دليل .

وواقع ظن المخلفين - السوء - كان بحيث يحيل انقلاب الرسول والمؤمنين الى اهلهم سالمين ، اذ قالوا بينهم وفي انفسهم : يذهب الى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا اصحابه وهزموهم ، يعنون الاحزاب وأحد ، ثم لم يحسبوا حساباً لوعده الله وقدرته على إنجازه لعباده المؤمنين ، وإنما الخسارة الوقتية الشكلية هنا وهناك ، في الحرب السجال ، متعاملة مع خسارة الايمان وبواره ، تجعلهم يحيلون انقلاب الرسول والمؤمنين الى اهلهم سالمين .

انهم لم يروا غير تلك الخسارة الحربية الشكلية ، ولم يفكروا في سواها « وكانوا قوماً بوراً » كما الأرض البور ميتة جرداء ، لا ماء فيها ولا كلاء ، كذلك قلوبهم بور جرداء ، لا تخصب إلا ظن السوء بالله وبالرسول .

وهكذا يكون دوماً دور الكفار والمنافقين البور ، بحق المؤمنين النور ، ينظرون الى العدة الظاهرة وعُدتها ، الى ما لها ومنا لها : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » ( ٧ : ٣٠ ) فيأخذونهم بالأحوط لهم ، فيبتعدون عن طريقهم المخوف ، المحفوف بالبلايا بالأشلاء الضحايا ، حباً للسلامة والامان ،

متوقعين في كل لحظة انتهاء دورهم ، حتى يأخذوا هم في حريات الحيوانات والشهوات ، وقد يلتحقون بهم اذا رأوا لهم سلطة وغلبة عليهم ينتفعون ، ثم اذا عكس الامر هم يفرون : « كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا .. » (٢٠:٢) .

ولكنها الميزان هو ميزان الله ، يحول المحال - بزعمهم - واجباً ، والواجب - في ظنهم - محالاً ، فانه مقلب القلوب ومحول الاحوال .

« ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا اعتدنا للكافرين سعيراً . والله ملك السماوات والارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً » .

من لا يؤمن بالله ورسوله - طبعاً - هو كافر بالله ورسوله ، فهو بكفره المختار سعير النار ، واذ يعتد الجبار للكافرين سعيراً فانما هو اعتداد ذواتهم الشريرة المسعرة بنيران الشهوات الكافرة ، فهم سعير هنا معتد ، لمّا يظهر في الاولى ، وهم سعير واقع في الاخرى جزاء وفاقاً يظهر فيها ، والسعير نار شديدة التاجح هنا باطنة معتدة قبل الواقعة ، او ظاهرة واقعة : اذا وقعت الواقعة .

فظنهم السوء بالله ، وأموالهم وأهلوه ، إنها تتعامل في تأجيح نار الله لهم يوم الله ، ثم لا مولى لهم يدافع عنهم ، كيف « والله ملك السموات والارض » ملىء السموات والارض ، ملك الخلق والتدبير ، ملك التعمير والتدمير ، ملك الغفران والعذاب ، وان كان الأصل هو الغفران لمن يعمل له او يأهل : « يغفر لمن يشاء » مشية العدل والفضل « ويعذب من يشاء » مشية العدل إذ لا مجال هنا للفضل « وكان الله غفوراً رحيماً » : سبقت رحمته غضبه ، وفضله عدله ، مشيئة عادلة فاضلة دون فوضى ، فمن شاء الكفر واعتمل له هذبه ، ومن شاء الايمان وعمل له غفر له . « سيقول لك المخلفون اذا انطلقتم الى مغنم لتأخذوها فزونا نتبعكم يريدون ان يبدلوا كلام الله قل لن تتبعوننا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون الا قليلاً »

حملة ثانية على المخلفين تكشفهم ثانية وتفضحهم ، غيب مستقبل في هذه التصريحة التبكيية والتنديد بمن يعيشون نفاقاً عارماً لكي يعرفهم النبي والمؤمنون من ذي قبل ، فيأخذوا عنهم حذرهم : « سيقول لك المخلفون .. » بعد ما قالوه أولاً من قولتهم المناققة : « شغلنا أموالنا وأهلونا » في صلح الحديبية ، فثم اذا اتجه الرسول والمؤمنون الى خيبر - كذلك اناقلوا الى الأرض ، ولما تم الفتح وانطلقوا الى مغنم خيبر ليأخذوها - انتبه المخلفون عن نومتهم وقالوا : « ذرونا فتبعكم » ولكي نشاركم في أخذ الغنائم ! وهم - لا يريدون اتباعاً لهم إلا لأميرين : ١ - اخذ الغنائم ٢ - تبديل كلام الله : « يريدون ان يبدلوا كلام الله » وترى ما هو كلام الله هنا ؟ علته قوله : « سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلنا .. » فهم قائلوه في كل حرب : حرب الصلح في الحديبية ، وحرب الفتح في خيبر ، وفتح الفتوح العنوة في مكة ، فهم دائبوا الاعتذار هكذا ، حتى وفي اتباع المؤمنين لأخذ غنائم خيبر ، وان تمت الحرب ، فلعل جماعة من خيبر يترصدون بمن يأتيهم لأخذ الغنائم فينتقموا منهم .

فهم « يريدون ان يبدلوا كلام الله » قل لن تتبعونا كذلك قال الله من قبل « ومن ثم قول ثان لله من قبل في وعده : « وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه » ( ٢٠ ) والكثيرة هي مغنم خيبر وفتح مكة وما يلحقها ، وهذه : هي مغنم خيبر - وهي خاصة بالمؤمنين ، فلو اتبعهم المنافقون وأخذوا منها كان ذلك تبديلاً لكلام الله ، ولكن « قل لن تتبعونا » وحتى في اخذ الغنيمة في راحة وطمأنينة ، فضلاً عن المتابعة في الحروب الخطرة التي قد لا تكون فيها غنيمة ! .. ولعل هناك قولاً غير هذين أن لن يتبعوهم وإن لم يكن من القرآن .

فالقول « لن تتبعونا » يحيل اتباعهم هذا وذاك ، فلو كان رادعهم عن اتباعهم الرسول والمؤمنون ، لم يكن محالاً ، فلما هو رادع ذاتي لكفرهم ، وردع الهي ان

غِيضَ لَهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُمْ قَرِينٌ ، وَلَكِنَّهُمْ إِذْ لَا يَفْقَهُونَ « فَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا »  
وترى ان حسد المؤمنين في اتباع المنافقين مما يحيل اتباعهم ويحول دون ارادتهم  
« ان يبدلوا كلام الله » ؟ والكافر يستमित في محاولات تكذيب الله وتبديل  
كلام الله ، فانما هي قولة فارغة فاشلة ممن يحاولون تحقيق المحال ولا  
يستطيعون .

فلماذا لم يخرجوا مع المؤمنين ولا مرة ، وحتى لاخذ الغنائم ؟ إنها آية بينة  
معجزة تتوفر في انبياء القرآن ، لكي توقظ الرسول والمؤمنين بمكائد  
المنافقين ، وتزدادهم ايمانا أنها وحي السماء الصادق الأمين « بل » ليس كما  
يقولون : « ذرونا نتبعكم » ولا كما يزعمون « تحسدوننا » - « بل كانوا لا  
يفقهون إلا قليلا » : فقه قليل للعق يحلهم مكلفين ، ثم لا يفقهون كثيراً في  
أفكارهم وأقوالهم الهابطة الخابطة العمياء : فما هي الرباط بين أن تحسدني وأن  
أترك ما أقدر عليه وأحاوله ؟ أحسداً كأمر باطني يحيل فعلاً يحتال له ويحاوله  
محسودك بكل طاقاته فلا يستطيع « بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا » ! .

إن كلام الله من قبل « سيقول لك المخلفون .. » وقد تحقق ، ووعدته من  
قبل : « وعدكم الله مغانم كثيرة تاخذونها فمجمل لكم هذه .. » انه آية رحمة  
للمؤمنين وعذاب للمنافقين : - « ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً  
مستقيماً » (٢٠) وكيف يمكن ان تبطل الآية المعجزة بمحاولات منافقة ممن لا  
يفقهون ؟ ! .

وإنها كانت فتح خيبر بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية ، وافرة الغنائم ،  
وحصون خيبر هي آخر حصون بقيت لليهود في الجزيرة كأقواها وأغناها، وكان  
قد لجأ إليها بعض بني النضير وبني قريظة ممن أجلوا عن الجزيرة من ذي قبل .  
وقد فتحت واغتنمت فعلاً للمؤمنين دون مشاركة للمنافقين ، ومن ثم فتحت  
مكة وهي كانت أغنى وأقوى من كل فتح يأتي أو مضى ، وكذلك كان فيه

أمر المنافقين « والله الأمر من قبل ومن بعد » ومن ثم تنديد ثالث بالمخلفين يحمل لهم بشارة أجر حسن لو أطاعوا ، وعذاباً أليماً إن تولوا :

( قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ) .

تهديد ثالث يوجه إلى المخلفين بعد الحديبية وخيبر انهم سيدعون إلى قوم أولى بأس شديد لا سبيل معهم إلا « تقاتلونهم أو يسلمون » فلا ثالث هنا من مصالحة كما في الحديبية أو جزية كما مع أهل الكتاب ، وإنما قتال حتى يسلموا ، حكماً باتاً صارماً يصرمهم مهما كانوا « أولى بأس شديد » : بأس العدة والعدة ! فهذه الدعوة الأخيرة لا بد وأن تصرم هؤلاء الأشداء دونما رجعة أو مراجعة .

وترى انهم يهود خيبر ؟ والجزية طريقتهم الثالثة بأنهم أهل كتاب ! ولم يكن بأسهم شديداً وجاء الأشداء الآخريين ككفار مكة والفرس والروم ، وهذه هي المرة اليتيمة في القرآن يوصف فيها أعداء الإسلام بـ « أولى بأس شديد » ! وأن قصة خيبر مضت في ثاني التهديدات للمخلفين « سيقول لك المخلفون .. » ! .

هذا الدليل المثلث ينحي الآية عن خيبر واضرابها ، ويحصرها في المشركين الذين بلغوا في القوة الذروة في صنوف الأعداء المناوئين للإسلام ، منذ الرسالة إلى أمد .

إذا فليسوا هم هوازن ولا ثقيف ، لا وحتى الروم الأشداء في مؤتة وغيرها ، إنما هم مشركوا مكة أو الفرس أو هما ؟

فمن ناحية أن الدعوة هذه دعوة إلهية لحرب خطيرة : « ستدعون » تكون الحرب حرب الفتح في مكة ، وقد أسلمت مكة دون حرب إذ فتحت عنوة ،

رغم أن مشركيها أولى بأس شديد جندت كافة طاقاتها واستنفرت عامة قواتها .

وقد تشير ( أو يسلمون ) إلى فتح مكة العنوة ، حيث ( أو ) تخيير بين مقاتلتهم وإسلامهم وقد أسلموا دون قتال ! ولم يسبق لذلك مثيل في الفتوحات الإسلامية أبداً .

ومن جهة أنهم كانوا حاضري الجزيرة فلا يعبر عنهم بـ ( قوم ) المنكر كمن لا يعرفون ، وأن ( أو يسلمون ) هي غاية الدعوة إلى حربهم ، تعني ( تقاتلونهم حتى يسلموا ) يشبه أنهم الفرس ، أكبر دولة حينذاك وأخطرها ضد الإسلام . ولكن ( أو ) هي أصلاً للتخيير وأضرابه <sup>(١)</sup> إلا بقرينة قاطعة تدل على أنها بمعنى ( حتى ) وأضرابها ، ولا قرينة هنا إلا بخلافه كـ ( يسلمون ) <sup>(٢)</sup> ، وإن ( قوم ) المنكر لا يعني أنهم غير معروفين في الجزيرة ، بل رغم كونهم معروفين فيها قد يُجهل خطرهم ، أو أنه تنكير تعظيم إشارة لعظيم مكرهم وخطرهم . أو يقال : إن ( قوم ) هنا تشملهما جميعاً ، فرغم أنهما قومان عنصرياً وفي المكان والزمان ، لكنهما قوم واحد في الشرك والبأس الشديد ، والكفر ملة واحدة .

إذاً ( قوم ) تنكير تعظيم لعظيم الخطر لمشركي مكة ، وتنكير تجهيل للفرس الخارجين النائين عن الجزيرة ، و ( أولى بأس شديد ) يشملها على سواء ، حيث إن مشركي مكة كانوا خطراً على تأسيس دولة الإسلام ، المحتلة عندهم عاصمتها ، والفرس كانوا خطراً على استمرارها .

ثم و ( تقاتلونهم أو يسلمون ) تخيير بالنسبة للأولين حيث لم يُجمعا لهم إذ

(١) خيّر أبيع قسم بأورأهم واشكك وإضراب بها أيضاً نومي

(٢) إذ لو كان بمعنى حتى نصب فكان « يسلموا » .

أسلموا ففتحت مكة عنوة، وغاية للآخرين حتى أسلموا بعد القتال، (تقاتلونهم حتى يسلموا) .

والآية تتحملها بمرجعات كل في دلالاتها كما مضت، ولا أخطر على الاسلام في حاضر دولتها من مشركي مكة وفي مستقبلها القريب من مشركي فارس . ولأن مناوئي الدولة في بدايتها كانوا أخطر عليها، ترى الآية تعنيهم اصالة والآخرين كتابعين، حيث الدعوة الإلهية بالوحي تخص قتال الأولين (ستدعون) وان « او » للتخيير اصالة، وهي هنا تخصه بشاهد « او يسلمون » فلو كانت تعني « حتى » كانت منصوبة : « او يسلموا » ولكنها تشمل « حتى » ضمياً كما بيننا .

فهذه الآية ايضاً من ملاحم الغيب لمستقبل الفتح العنوة في مكة وفتح القتال الغلبة في الفرس، أن الخلفين من الأعراب سيُدعون ضمن المؤمنين في استنفار عام في هاتين الجبهتين، فإن أطاعوا الدعوة والداعية يؤتهم الله أجراً حسناً في الدنيا والآخرة، وإن يتولوا كما تولوا من قبل يعذبهم عذاباً أليماً ولن يضرؤا الله شيئاً، حيث الفتح عنوة وغير عنوة لا محالة كائن دونما حاجة إلى الخلفين من الأعراب، اللهم إلا ابتلاء لهم لكي يعرفوا ويعرفوا أنفسهم .

تلك الدعوة الصارمة العامة باستنفارها من يقدرُونَ على إجابتها، انها تخرج عامة الناس إلا الأعمى والأعرج والمريض :

« ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً » .

الحرج هو حالة فوق الطاقة نفسياً أم سواها، تستأصل الطاقات كلها لحد يضيق كل مدخل ويخرج كأنما يصعد إلى السماء الخالية عن تنفس : ومن يرد أن

يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد إلى السماء ، ( ٦ : ١٢٥ ) حيث التصعد إلى السماء هو الصعود الصعب الذي يضيق النفس في الصدر ويخنق ، وذلك حينما تجاوز كرة الأكسيجين حيث تخنق .

هذا هو الحرج المنفي في الدين ، فما أَراده الله ، ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ، ( ٥ : ٦ ) ولا يجعله الله ، ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم ، ( ٢٢ : ٧٨ ) .

فالأعمى والأعرج وكل مريض يتخرج عن الجهاد يعفى عنهم في استنفار الجهاد<sup>(١)</sup> كما في سواء من تكاليف عامة أو خاصة ، اللهم إلا مرضاً لا يخرج أو مريضاً يكلف بادننى من حرج ، وكذلك والأعمى والأعرج إذا كلفا دون حرج .

والضابطة السارية في عامة التكاليف هي وجوب تطبيق أحكام الله ، في طاعة الله ورسوله قدر المستطاع ودون حرج ، دون أن ينقص المخرجين من أجورهم ، فلو أن جندياً مسلماً جاهد دون طاقته وأقل من قدرته لم يطع الله تماماً : ولو أن مسلماً حرجاً عن القتال تركه فأولياً له لو استطاع اطاع الله تماماً : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً » : كل دون حرج وقدر الطاقات والإمكانات .

فلو أن أعمى أو مريضاً أو أعرج استطاعوا حضور الجبهة دون حرج كان عليهم لزاماً ، أو أن سواهم لم يسطع حضورها لم يكن عليه لزاماً ، فإنما هو مثال لأكثرية موارد الحرج : العمى والمرض والعرج ، دون حصر فيها ، ولا نفى

(١) الدر المنثور ٦ : ٧٣ - أخرج الطبراني بسند حسن عن زيد بن ثابت (رض) قال : كنت اكتب لرسول الله (ص) واني لو اضع القلم على اذني اذ أمر بالقتال اذ جاء اعمى فقال : كيف بي وأنا ذاهب البصر فتزلت : ليس على الأعمى حرج ... قال : هذا في الجهاد ليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا .



للجهاد عن أصحابها وان لم يكونوا محرجين ، وإنما المنفي هو الحرج أياً كان وفي أي كان .

ثم للحرج المنفي في الدين حدود لولاها لم يثبت حكمه :

١- أن يكون ذاتياً ليس لصاحبه حيلة ولا سبيل في إزاحته ، ولا له دخل في حصوله ، فلو استطاع سلب الحرج الموجود ، لم يكن تكليفه بما يخرج حاله حرجاً في الدين أو من الدين ، وإنما منه نفسه إذ لم يزل ، ولو أنه هو السبب لحالة الحرج باختياريه فهو المحرج نفسه عنده لا الدين ، فتكليفه عندهما ليس حرجاً في الدين حتى يتنفي ، وإنما حرج منه فلا ينفي .

٢- أن يكون واقعياً ، لا وهمياً ناشئاً من التقاليد والعادات ، ناشئاً من الهوسات والتجاهلات ، كحرمة أزواج الأدياء ، التي كادت تحول دون تزوج الرسول ﷺ بزوجة دعيته زيد بعدما قضى منها وطراً ، فلقد كان هكذا زواج محرراً له حسب البيئة التي كانت تحرمه ، مخافة أن يخالفوه أو يكذبوه ، ولكن الله فرضه عليه رغم ما أخرجته البيئة : ( ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الدين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً ) ( ٣٣ : ٣٨ ) لذلك فهو الذي زوجه زوجة دعيته : ( فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعياءهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ) ( ٣٧ ) .

ينفي عنه حرج البيئة لكي ينفي عن المؤمنين كذلك ، وإنه نموذج هام ينبه حملة الدين ان لا حرج عليهم في تبليغ رسالات الله وتطبيقها ، فلا يختلفوا أعداراً وعناوين ثانوية في تحليل ما حرمة الله ، أو إهمال ما فرضه الله بحجة ان الناس ينقمون منهم أو يعترضون ، فيقبلوا أمر طاعة الله إلى طاعة الناس . فدين الله لا موارد فيه ولا أنصاف حلول ولا مسايرة ، إنما هو الحق الصراح

يؤمر به ويعمل ، دون خشية من الناس فالله أحق أن تخشاه ، وما الناس الذين يختلقون عقبات دون أمر الله إلا نسناس ، فالله الله ، لا تتركوا حكم الله لمسايرة ومراضاة النسناس .

وجملة القول هنا أن لا حرج على النبي ولا حملة رسالته فيما فرض الله ، ولا على المرسل إليهم أن يتخرجوا فيما قضى : ( فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ( ٤ : ٦٥ ) .

\*\*\*

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا — ١٨ . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا — ١٩ . وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا — ٢٠ . وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا — ٢١ . وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْوَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا — ٢٢ . سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ

مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا — ٢٣ . وَهُوَ الَّذِي  
كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ  
أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا — ٢٤ .  
هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ  
مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجَلَّةٌ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ  
مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتَضَيَّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ  
بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا  
لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا — ٢٥ . إِذْ جَعَلَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ  
سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ  
التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمًا — ٢٦ . لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ  
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُخْلَقِينَ رُؤُوسَكُمْ  
وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ  
دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا — ٢٧ .

« لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » .

لقد مضت آية في هذه المبايعة المجيدة المرضية وهذه ثانياتها ، تنحو منحى تحقيق الرضى عن المؤمنين : « اذ يبايعونك تحت الشجرة » أن اطمأنوا الى الله عما شجر بينهم من زعزعات ومشاجرات ، فبايعوك هناك ثانية بعد مبايعة الايمان لعماً آمنوا ، بعد ما اصطدم بعرقلة الصلح في الحديبية « لقد رضى » عنهم اذ بايعوا « فعلم ما في قلوبهم » من رضى بمرضات الله واستسلام الأمر اليه ، « فأنزل السكينة عليهم » كجزاء حال على مبايعتهم ، تطمئنهم عما اضطربوا « وأثابهم فتحاً قريباً » فتح خيبر ومكة ، كجزاء مستقبل محتوم كأنه امر مضى ، كما عبر عنه أولاً بما مضى : « انا فتحنا » .

نرى هنا إثابات تلو بعض ، لأن المؤمنين في جبهة الحديبية بايعوا صاحب الرسالة تحت الشجرة السمرة <sup>(١)</sup> ، فلم تكن سهلة هينة لا تعدوا الخيال والمقال ، وانما عملية ممتحنة صعبة ، وعقبة كثودة ملتوية اجتازوها ناجحين مهما نكثوا ناكثوها « فمن ينكث فأنما ينكث على نفسه » فهم خارجون عن اثاباتها لعماً نكثوا ، وانما هي للأوفياء « ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » .

ولقد قال لهم ﷺ : « أنتم خير اهل الارض » <sup>(٢)</sup> فهل انهم الالف والاربعمائة الذين بايعوه ، كلهم بمن نكث بعدئذ ومن أوفى ؟ فكيف يكون الناكث للبيعة من خير اهل الارض ؟ ! .

(١) الدر المنثور ٦ : ٧٣ - اخرج ابن جرير وابن ابى حاتم وابن مردويه عن سلمة الأكوع (رض) قال : بينا نحن قائلون اذ نادى منادى رسول الله (ص) أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فقرأنا الى رسول الله (ص) وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه فذلك قول الله : « لقد رضي الله .. » .

(٢) المصدر عن جابر بن عبد الله (رض) قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله (ص) « أنتم خير اهل الأرض » .

والحق انهم هم المبايعون المؤمنون الثابتون الاوفياء (١) لا المسلمون المستسلمون والناكثون ، كما الله خص الموفين منهم بأجر عظيم « ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » من سكينه وفتح قريب ومغانم هنا في الاولى ، ومن اثبات اخرى في الاخرى .

ولذلك نرى المرضى عنهم هنا هم المؤمنون فهم الاوفياء ، والمبايعون في الآية الاولى أعم منهم « إن الذين يبايعونك » ولذلك قسمهم بـ « من نكث ومن أوفى » فالأوفياء هم المؤمنون المرضيون في آية الرضوان والناكثون غير مرضين .

ان المبايعة هذه كانت درجات حسب درجات المؤمنين ، فمنهم من بايعه وقتها شكلياً ثم نكثها ، ومنهم من بايع فقط على ألا يفر من زحف ، لاعلى الموت كالحليفة عمر (٢) ومنهم من بايعه على الموت في سبيل الله (٣) درجات حسب الدرجات ، كما ان النكث كان درجات حسب الدرجات .

فكما الآية الاولى تمدح - فقط - الاوفياء ممن بايعوه تحت الشجرة ، كذلك هذه « فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » ومغانم ياخذونها .. « كل ذلك خاص بمن علم الله ما في قلوبهم من صدق البيعة من الاوفياء دون الناكثين اللعناء .

ولو اننا استشرفنا الى تلك اللحظة القدسية ، لوجدناها أقدس موقف في

(١) المصدر : اخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس في قوله « فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم » قال : انما انزلت السكينة على من علم منه الوفاء .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٧٤ - اخرج مسلم وابن جرير وابن مردويه عن جابر (رض) قال : كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه وعمر (رض) أخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة وقال : بايعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت .

كما وان معقل بن يسار اقتفى اثر الحليفة في هكذا بيعة .

(٣) كما علي عليه السلام بايعه (ص) على كل ما في نفسه وتبعه ابو سنان الأسدي حيث قال له النبي (ص) : علي م تبايعني ؟ قال : علي ما في نفسك ، أخرجه البيهقي في الدلائل عن الشعبي .

في تاريخ الايمان لحد تحقق رضوان الله عن هؤلاء الأوفياء السعداء :  
 « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة » وليتها بقيت  
 كذكرى لهذه البيعة المجيدة ولم يقطعها الخليفة عمر <sup>(١)</sup> اللهم إلا مخافة أن تعبد  
 من دون الله او يتوسل بها الى الله ، ولكنها لا تحتم قطع شجرة الرضوان ، وإنما  
 منع المتوسلين بها او العابدين لها لو كانوا ، وإلا فلتهدم الكعبة - والعياذ بالله -  
 اذ يعاملها هؤلاء كأنها الله ! .

نعم يجب استئصال الاصنام والأوثان من الوجود لكي لا يبقى أثر منها يعبد  
 ولكننا الأشياء المقدسة بما قدسها الله تبقى كما هي ، وينهى عن التوسل أو  
 الاستشفاع بها الى الله .

« فعلم ما في قلوبهم » من حمية لهدام دون هوانهم ، ومن صدق في بيعتهم وكظم  
 لاستفزازاتهم وضبط لمشاعرهم لكي يستسلموا لحكم الرسول .  
 ( فانزل السكينة عليهم ) سكينة الايمان ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم .

وترى ان الله علم ما في قلوبهم بعد ما بايعوا كما يفيد معنى الفعل « علم »  
 وتؤكد فاء التفريغ ، والله عليم بما في القلوب منذ خلقها وقبله ؟  
 الحق ان « علم » هذه من العلم : العلامة ، لا العلم : المعرفة بعد الجهل وسبعائه ،  
 كما في اضرابه طيات آياته .

فقد تعني « علم » هنا انه تعالى جعل المبايعة الحقيقية علامة للأوفياء تميزهم عن  
 الناكثين ، ميزة لهم عندهم وعند من سواهم ، فـ « عند ثقلب الاحوال يعرف  
 جواهر الرجال » .

( واثابهم فتحاً قريباً ) اصله فتح مكة وفي سبيله وعلى هامشه فتح خيبر ،  
 وقد يشملهما الفتح القريب لانسلاهما في سلك واحد ، وهما نتاج فتح الصلح

(١) الدر المنثور ٦ : ٧٣ - اخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن نافع (رض) قال : بلغ  
 عمر بن الخطاب (رض) ان ناساً يأتون الشجرة التي يوسع تحتها فأمر بها فقطعت .

في الحديبية ، كما و ( مغنم كثيرة ) المعطوفة على ( فتحاً قريباً ) تؤيد هذا الجمع :  
( ومغنم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً ) هذه المغنم الكثيرة  
تباعاً للفتح القريب ، منها معجلة بعد الحديبية ومنها مؤجلة إلى فتح مكة :

( وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف ايدي الناس عنكم  
ولتكون آية للؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً ، واخرى لم تقدرُوا عليها قد  
احاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً )

فهذه المعجلة هي مغنم خيبر ، واخرى لم تقدرُوا عليها ، منها مغنم مكة ،  
وهاتين هما تلو فتح قريب ، فليكن فتح خيبر ومكة معاً .

ان مغنم خيبر قسمت على من حضر الحديبية وان كان غائباً عن خيبر<sup>(١)</sup> ،  
كما وعدم الله<sup>(٢)</sup> ومنعت عن المخلفين من الاعراب رغم ما طلبوا حضورها ،  
فانها كانت من اثابات الحديبية .

ان اثابات الحديبية للمؤمنين الاوفياء انفسية ومادية هي ايضاً ذريعة لها : من  
السكنة النازلة عليهم يومها فزادتهم ايماناً على ايمانهم ، ومن فتح قريب في خيبر  
ومكة استوثقت به الجزيرة اسلامياً ، ومغنم فيهما كثيرة في خيبر واكثر في  
مكة ، واخرى تتبعها من فتوحات وغنائم ماداموا مؤمنين مسلمين لامستسلمين .

وقد ينسلك فتح الصلح في الحديبية في « مغنم كثيرة تأخذونها فعجل لكم  
هذه » فانه مغنم نفسي ، وتقوية في نفوس المؤمنين ان استعدوا لفتح خيبر ومكة  
ومغنمهما ، الا ان ( تأخذونها ) قد لا تناسب الصلح ، وانما ( كف ايدي

(١) الدر المنثور ٦ - ٧٤ - اخرج عبد الرزاق وابو داود في مراسيله عن الزهري قال :  
بلغنا ان رسول الله (ص) لم يقسم لغائب في مقسم لم يشهده الا يوم خيبر ، قسم لغيب أهل  
الحديبية من اجل ان الله كان اعطى أهل خيبر المسلمين من أهل الحديبية فقال : « وعدكم الله  
مغنم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه » وكانت لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب .

الناس عنكم ) في الحديدية و ( فعجل لكم هذه ) في خيبر ( واخرى لم تقدروا عليها ) في فتح مكة وسواها .

و ( آية للمؤمنين ) : هي كف ايدي المشركين عنهم في الحديدية ، آية للنصرة والعزة الإلهية ، وفتح خيبر بغنائمها : آية للمغلبة الآتية في فتح الفتوح ، ومن ثم ( ويهديكم صراطاً مستقيماً ) : صراطاً الى فتح مكة اذ كانت شائكة ملتوية قبل الحديدية وخيبر ، وتجربة المؤمنين فيهما عبّدت لهم هذه الشائكة فاصبحت صراطاً مستقيماً لاسترجاع عاصمة الدولة الاسلامية

ثم « ولتكون آية للمؤمنين » عطف على محذوف بعد « وعدكم .. فعجل .. وكف .. » هو من امثال « لتكون آية على الكافرين » انذاراً لهم ، فهدماً لصرح الكفر وطرقهم التي عبدوها اليه « ولتكون آية للمؤمنين ويهديهم صراطاً مستقيماً » آية بآية وصراطاً بصراط .

« واخرى لم تقدروا عليها قد احاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً » ومغانم اخرى مؤجلة بعد المعجزة « لم تقدروا عليها » حيث الفتح العنوة في مكة دون حرب رغم اكثرية العدة والعدة المشركين ، انه لم يكن من المقدور عليه للمسلمين ، وانما « قد احاط الله بها » حيطة الهبة وآية قدرة منقطة النظير . وترى ان « اخرى » هي فقط مغانم الفتح العنوة في مكة ؟ ام والفرس والروم كذلك ؟ ام وسائر ما الى ذلك ؟ .

قد تشملها « اخرى » كلها ، بما وعد الله المسلمين المجاهدين الصامدين في خطوط النار ، كما مضت هنالك الاشارة الى فتح فارس : « ستدعون الى قوم اولى بأس شديد » وفي مجالات اخرى الى كل فتح اسلامي من هذا النمط .

وقد يبعد الشمول مضي الفعل « لم تقدروا عليها » فكيف تشمل مستقبلات الغنائم؟ ويقر به انه بشارة بغنائم تستقبلهم اياً كانت : من هوازن ومكة وفارس



والروم وسواها على سواء، و «لم تقدرُوا عليها» تنفي القدرة السابقة على الغنائم اللاحقة، ولا ريب أنها ونفيها تسبق الغنيمة كيفما كانت، بشارة ملفوفة هنا، لم يحددها وهي غيب من غيوب الله، لبث الطمأنينة والرضا في نفوس المؤمنين بالله، فلتكن كما هي شاملة للغنائم الإسلامية على طول الخط، ما لم يقدرُوا عليها «قد أحاط الله بها» ابتداء من فتح الفتوح، ومن ثم فتح مملكتي كسرى وقبصر في حرب الفرس والروم ومن ثم فتوحات أخرى<sup>(١)</sup> ما داموا هم ناصرين لدين الله، مسلمين لا مستسلمين.

(قد أحاط الله بها) أي خاصة بما لم يقدرُوا عليها و (كان الله بكل شيء محيطاً) (٤ : ١٠٨) أم هي عامة، فما هي ميزة الغنائم المبشر بها هنا؟ الجواب : أن الله لإحاطة علم وقدرته بكل شيء على سواء كما تقتضيه ربوبيته، وإحاطة عنايته بقدرته لخواص عباده انتصاراً لهم عندما ضعفوا واستكانوا، وهذه الغنائم الموعودة لهم منها (وكان الله على كل شيء قديراً).

لا فحسب أنكم تغنمون هنا وهناك، فإن لكم فتحاً متواصلاً ما دمتم مؤمنين أوفياء، بشارة سارة سارية المفعول لفتوحات تترى أو لا تنهزمون : «ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً».

(١) الدر المنثور ٦ : ٧٥ - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس «وأخرى لم تقدرُوا عليها» قال : هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم، وأخرج ابن عساكر عن علي وابن عباس في الآية «فارس والروم» «قد أحاط الله بها» قضى الله بها أنها لكم، كما وأخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال «فارس والروم»، وعن عطية قال : فتح فارس، وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : يوم حنين، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : بلغنا أنها مكة.

أقول : أنها على اختلافها تؤيد عدم اختصاص «وأخرى لم تقدرُوا عليها» بفتح مكة أو سواها، كما ولفظ الآية تساعد ذلك الشمول.

« سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » .

إنها سنة ثابتة إلهية لن تتبدل ، أن الكفار المهاجرين والمقاتلين هؤلاء المسلمين ، يولون الأدبار ، سنة يسنها الإيمان الصامد المشفوع بنصر الله : ( ان تنصروا الله بنصركم ويثبت أقدامكم ) ( ٤٧ : ٧ ) فلا تكفيها دعوى الإيمان او فكرته غير البارزة في الميدان ، فإن لها شروطاً يجمعها جماع الإيمان ( ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ) ( ١٣٩ : ٣ ) .

ولقد ترى آيات تترى في تصريحات بطيات دعايات القتال الدفاع ، قاطعة آمال الكافرين : ( لن يضرركم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ) ( ١٠٨ : ٣ ) لكنها تتعلق بالجو الذي يولد فيه انتصار المؤمنين ، حيث هم تاركون ولاية الكافرين ( ٩٦ ) معتصمين بالله مهتدين إلى صراط مستقيم ( ٩٧ ) متقين الله حق تقاته ( ٩٨ ) معتصمين بحبسه لا متفرقين ( ٩٩ ) داعين إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر مفلحين ( ١٠٠ - ١٠١ ) ومن ثم : « لن يضرركم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » ( ١٠٨ ) - « ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً » . سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً !

فلو أنهم غلبوا وجاء الكفار لم يكن تبديلاً لسنة الله ، وإنما تبديلاً لسنة الإيمان ، وتبدلاً الإسلام الصامد بالإستسلام ، فسنة الإنتصار دائمة لهم ما داموا مؤمنين .

« هو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً » .

انه نموذج من تلكم المواقف ، حاضرة حاذرة في فتح الفتوح ، أن الله تعالى كف أيدي المشركين المتطاوله عنهم ، وأيديهم كذلك ومتقابلاً عنهم ببطن مكة

لما ورد لها ومتى ؟ « من بعد أن أظفركم عليهم ، تلكم الظفيرة الزفرة المظفرة ،  
وانه لموقف مشرف عديم النظير ألا تتناول أيدي المؤمنين المظفرين على من ؟ على  
الذين آذوهم وشردوهم وقتلوهم وعاملوهم طوال الرسالة ما لم يعامل به أحد من  
العالمين !

فبطن مكة هو داخل مكة وعقرها ، لا خارجها وخارج حرما : الحديبية ،  
خلاف ما روت رواها وفسرها مفسروها ، ولا سيما « من بعد أن اظفركم  
عليهم » ولم يكن في الحديبية ظفر لا منهم ولا عليهم ، وإنما مصالحة المهادنة ،  
وإذا قيل عنها إنها فتح - فتح الصلح - فليس إلا لأنه فتح سبيلا إلى فتح مكة ،  
فقد كانت تنهار قوات المسلمين لو قاتلوا ، فلم يجدوا سبيلا لفتح الفتوح بعدما  
انهارت قواتهم ، وانصدمت نفوسهم بقتلى .

فهنا موقفان مشرفان لفتح الفتوح ، يجعلانه في قمة الفتوح في معارك الشرف  
والكرامة طوال التاريخ : إن كف الله أيدي المشركين الكثيرة عن المؤمنين القلة ،  
رغم أنها كانت عليهم متطاولة طوال الرسالة في مكة وإلى المدينة في كل عام  
مرة أو مرتين ، وكانوا يستعدون دوماً ويزدادون قوة لقضاء حاسم على  
المؤمنين ولكن ...

وموقف ثان هو أشرف ، أن كف الله أيدي المؤمنين المظفرين عن المشركين ،  
كفاً للحمية وطبيعة الانتقام ، خلاف ما يفعله الفاتحون التوسعيون ، ولكي  
يعلم العالم أن فتح مكة ما هو إلا فتحاً للقلوب لا توسعاً وانتقاماً بعد الاحتلال .  
هذا - ومن ثم الآيات التالية التي تتحدث عن جو الفتح تؤيد بطن مكة  
وظفرها ، أن ذلك كله ينحو منحى فتح الفتوح ، وإن شمل فتح الصلح في الحديبية  
هامشياً وكذريعة له على بعض الوجوه .

إن كف أيدي المشركين هنا عن المسلمين يعم صلح الحديبية وفتح مكة ،  
طالما كف أيدي المسلمين عنهم يخص الفتح بمكة ( من بعد أن اظفركم عليهم )

فانه خاص بفتح مكة ، ف ( بطن مكة ) ظرف للثاني ، والأول اعم من بطن مكة وظهرها الحديبية .

وكف ايدي الغزاة المسلمين عن هؤلاء المشركين الظالمين-الذي هو من منن رب العالمين - حجز المسلمين هنا عن ملابسات نفسية كثيرة ودقيقة لطيفة المدخل : من الزهو الذي قد يساور القلب ، او يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح ، وفرحة الظفر بعد بُعد العناء ، وهو مدخل يصعب توقّيه في القلب البشري .

ومن أمثال هذه الزهوات يؤمر الرسول ﷺ في سورة النصر أن يستغفر ربه : ليستر عنه ويسدده عنها وقد ستر : أن كف ايديهم عن المشركين .

فتراه إذ يدخل مكة فاتحاً منتصراً ، مكة التي آذته وأخرجته وحاربته ووقفت في طريق دعوته عنيدة ؛ وعرفت عليه ، تراه يدخلها منحنياً لله شاكراً على ظهر دابته ، ناسياً فرحة النصر وزهوته ، عفواً رحيماً لا ينتقم . وهذا هو الأدب الذي تقسم به النبوة دائماً ، يريد الله به أن ترتفع البشرية الى آفاقه ، او تتطلع دوماً اليها .

« هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً ان يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً »

وترى من هم أولاء الذين كف ايديكم عنهم ؟ إنهم حملة ثالث الضلال إذ ( هم الذين كفروا ) بالله والرسالة الإسلامية السامية ، لا فحسب أن يكتفوا بسلبية الكفر ؛ فلا على المسلمين ولا لهم - بل ( وصدوكم عن المسجد الحرام ) ان تاتوه طائفين - وصدوا ( الهدى ) حالكونه ( معكوفاً ) صدوه ( أن يبلغ

محله ) بمكة المكرمة كما في عمرة الحديبية .

وطالما الكفر كبيرة موبقة في ميزان الله ، ولكنما الصدع عن المسجد الحرام وصدالهدى ان يبلغ محله ... انه كبيرة في الجاهلية ايضاً ، كرية في عرفهم الذي يعرفون .

فلم يكن كف ايدي المسلمين الظافرين بهم عفواً من الله لهم لصغر الجريمة ، وانما لحكم اخرى بعيدة المدى قريبة الهدى كثيرة الندى ، مما ياتي او مضى و ( لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ) ...

فالحملة الجاهلية لا تعرف الصديق من العدو حتى ولو عرفت الصديق ، كيف وهناك ( رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ) فلولا أن كف الله أيديكم عن مشركي مكة لكنتم تطأوا المؤمنين مع المشركين ، وطأ هو وطأة عارمة ( فتصيبكم منهم معرة بغير علم ) ولكن ( ليدخل الله في رحمته من يشاء )

لقد كان هناك بعض المستضعفين من المؤمنين في مكة لم يهاجروا ولم يعلنوا اسلامهم بقية على أنفسهم وتقية من اعدائهم ، فلو دارت الحرب وهاجم المسلمون مكة وهم لا يعرفون المسلمين الجاهولين لكانت عليهم معرة تصيبهم بغير علم ، فدعاية عليهم من المشركين ان كيف يقتلون أضرابهم .

إنه ( كف ايديكم عنهم .. ليدخل الله في رحمته من يشاء ) من مؤمنين ومؤمنات كانوا بين المشركين ، ومنهم من كانوا في أصلاب رجال وارجام امهات من المشركين ، ومن مشركين قسمت لهم الهداية والدخول في رحمة رب العالمين<sup>(١)</sup> .

(١) الدر المنثور ٦ : ٧١ - اخرج بسند جيد عن جماعة عن ابي جمعة قال : قاتلت النبي (ص) اول النهار كافراً وقاتلت معه آخر النهار مسلماً وفيها نزلت « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات .. » وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين .

اقول : وقد تشمل الآية جو الحديبية إذ كف أيديهم عن بعض فلم يبتل المؤمنون بقتل اضرايهم عن جهل ، ولكنهم لا تختص به إذ لم يظفروهم الله عليهم هناك ، اللهم إلا في فتح مكة .

فهذه ثلاث درجات وبركات ينتجها الفتح العنوة الرحيمة ، رغم انهم كانوا في ثلاث دركات من كفر وصد عن المسجد الحرام والهدى ، وابن ثلاث من ثلاث !

هذه جوانب من حكم الله في هذا الفتح العنوة ( ليدخل الله في رحمته من يشاء ) من الذين يستحقون الرحمة - ف :

( لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً )

( لو تزيلوا ) : بينهم ، أن تفرقوا وامتازوا عن بعض فعراف المؤمنين والمؤمنات والذين يرجى منهم الايمان ، والذين في اصلابهم مؤمنون <sup>(١)</sup> فليس التزيل بمعنى الزوال وكما في آية أخرى ( فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون ) ( ٢٨ : ١٠ ) فانه تزيل بازالة الغشوة بينهم وبين شركائهم أن يعرفوهم فيعلموا أنهم ليسوا بشركاء الله ، لا بازالة انفسهم فان الآخرة موقف الدوام لا الزوال . والمتزيلون هنا اعم من الكافرين والمؤمنين ، حيث « لعذبنا الذين كفروا منهم » لا « لعذبناهم اجمع » .

و « لو » هنا تحيل العذاب الجماعي في الدنيا لجموع الكافرين إلا بتزيل تام ، وكما الكافرون متزيلون عن المؤمنين يوم الدين ، فالله معذبهم هناك دون مهل ، كذلك يوم الدنيا لو تزيلوا فامتازوا عن المؤمنين ، وحتى الذين هم في أصلاب وأرحام كافرة ، وكما سبق هذا التزيل في قوم نوح وبعد صبر وعناء طويلين فاستبشر « وأوحى إلى نوح انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بها

(١) تفسير البرهان ٤ : ١٩٨ - عن ابن بابويه القمي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قيل له : ما بال أمير المؤمنين لم يقاتل فلاناً وفلاناً ؟ قال : لآية في كتاب الله عز وجل « لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً » قال قلت : وما يعني بتزيلهم ؟ قال : ودائع مؤمنين في صلاب قوم كافرين وكذلك القائم ( ع ) لن يظهر أبداً حتى تخرج ودائع الله عز وجل فإذا أخرجت ظهر على من ظهر من أعداء الله فقتلهم .

كانوا يفعلون . واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » ( ١١ : ٣٧ ) .

ومن ثم في دولة الإمام القائم المهدي المنتظر المنتصر عليه السلام تنتظر تزيلا ثانياً وأخيراً ، أن الله سوف يعذب الذين كفروا ، فلا خير فيهم ولا في أصلاهم ، إذا فهم حصب جهنم العذاب في الأولى والأخرى ( ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلمهم يرجعون ) ( ٣٢ : ٢١ ) والعذاب الأدنى الموعود للفاسقين قبل الأكبر وبعد تزييلهم في طوفان نوح ، إنه ليس إلا في الرجعة في دولة القائم المهدي من آل محمد عليهم السلام كما تشهد به آيات وروايات (١) .

وهذان التزيلان من قبل ومن بعد قد يستحقان أداة الإستحالة « لو » كما هنا لانهما مستصعبان (٢) كأنهما مستحيلان رغم انها واقعان .

ف « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات . . » لم يكف الله أيديكم عنهم - و « ليدخل الله في رحمته من يشاء » كف أيديكم عنهم و « لو تزيلا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً » بأيديكم وما يفعل الله حسماً لهم - فوجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات لا يعرفون فيما بينهم ، وليدخل الله في رحمته من يشاء منهم ومن الكفار الذين يؤمنون ، وممن في أصلاب وأرحام المشركين من المؤمنين ، هذا المثلث البارع من الحكمة الإلهية حال دون استئصالهم في فتح مكة ، إضافة إلى إبراز روح الحنان للظافرين ان القصد من هذه الهجعة الرائعة ليس تفتح البلاد والانتقام من اهلها الظالمين ، وإنما تفتح القلوب المقلوبة : « ليدخل

(١) لقد فصلنا البحث حوله في كتابنا « رسول الاسلام في الكتب السماوية » .

(٢) لقد تزيّل هكذا الكافرون من قوم نوح طوال الف سنة إلاّ خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، على نصبر من نوح والمؤمنين معه ، وإياس منهم حتى قتلوا ، كذلك يكون التزييل الثاني الذي نعيش انتظاره فانه لحد الآن طال أكثر من الأول وما ندري كم طائفة اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه واجعلنا من أعوانه وأنصاره آمين .

الله في رحمته من يشاء ، كإعلام عام من على أعلام الإسلام مرفرفة عالية تبرز للعالمين ان القصد هنا وهناك : في كافة الحروب والغزوات الإسلامية ، هو فقط دخول الناس في رحمة الله « ولذلك خلقهم » .

ومتى كفروا وصدوا ذلك الصمد الكافر المائر الكريه ولماذا ؟ وهو في عرف الجاهلية ايضاً قبيح ؟ :

« إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً » :

فيا لها من حمية حامية لا يكفي لها كفرهم إلا أن يجعلوها ويفعلوها في قلوبهم كفرأ على كفر ، فإنها ( حمية الجاهلية ) حين قالوا : لا نعرف الرحمن الرحيم ! لكي يحذف الرسول البسملة عن كتاب الصلح ، وإذ طلبوا شخط (رسول الله) عن اسمه ﷺ قائلين (لو علمنا أنك رسول الله ما حاربناك فاكتب محمد بن عبد الله ! ) وذلك بعدما صدوهم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، ولا يعرف التاريخ جاهلية قبله ولا حمية جاهلة توصل مداها ! فإنها : حمية التعمت والتبختر والتبطر التي لا تتقيد بمعقبة ولا منهج إلا " فوضى ، مخالفين بها كل عرف وكل حمية ، منتهكين كافة الحرمات والأعراف ، وحرمة البيت الحرام الذي يعيشون في ظله وعلى حساب قداسه ، وحرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في أية جاهلية .

فيا لهذه النفوس من قسوة وحماوة ، لا تتقيد بأي ميزان إلا ( حمية الجاهلية ) ويقابلها الطمأنينة الآمنة السكينة التي أنزلها الله على رسوله وعلى المؤمنين ، جنات عاليات وجاء دركات سافلات ! :

« فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » :

فللرسول سكينة التسديد حتى يهديء بقمة الحفاوة واللين وجاء هؤلاء



الشياطين، فلا تظهر منه أية جفاوة .. وللمؤمنين سداً للثورة الفورية التي تتطلبها تلك الجاهلية في المشركين حتى يهدأوا في ظلال الرسول دونما فورة ولا ثورة .

فقلب المؤمن مستكن بربه ، مطمئن بآربه في سبيل ربه ، ولكنه بحاجة إلى سكينه زائدة ليزداد إيماناً واطمئناناً ، حيث التقوى قد تفلت وجاء نمرات الجاهلية ، فبالسكينه تلزم في ذواتهم وتندغم في إنياتهم :

« وألزمهم كلمة التقوى » : وأنها كلمة التوحيد<sup>(١)</sup> العربية الوطيدة ، لا لفظته الخاوية عن العمل والعقيدة ، وإنما الدالة منها في كافة مجالات الدلالة ، فإن الكلمة هي الدالة ، ففي مجال العقيدة تدل ، وفي مجال العمل تدل ، فلا تزال دالة فعالة حتى تستأصل كل طغوى ، وتجمع كل تقوى في كافة ميادين الحياة ، ولكي تخفت صوت الطغوى ، مراقبة للرب في كل حركة وخالجة ، داخلية وخارجية ، فلا يتبطر ولا يطنى لذاته ، وإنما لربه ودينه ، والرب يأمر هنا بكظم فائرة الغيظ : ( ليدخل الله في رحمته من يشاء ) .

ولم تكن لزوم التقوى بعيدة عنهم تقحم فيهم ، فإنهم كانوا مؤمنين مطمئنين مستكنين بسكينه من الله - بل :

« وكانوا أحق بها وأهلها » : كانوا أحق الناس بكلمة التقوى ، وكانوا أهلها ؛ أهلها إذ كانوا متقين ، وأهلها لها أن يزيدهم الله هدىً وتقوى : ( والذين

(١) الدر المنثور ٦ : ٨٠ - أخرج الترمذي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي بن كعب عن النبي (ص) « وألزمهم كلمة التقوى » قال : « لا إله إلا الله » وكما أخرجه جماعة آخرون عن آخرين كسلمة بن الأكوع وعثمان عنه (ص) وعن علي عليه السلام وعن ابن عباس ، هي رأس كل تقوى ، كذلك وعن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء وعن الزهري أنها « بسم الله الرحمن الرحيم » . أقول وهي من فروع كلمة الاخلاص .

اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ( ٤٧ : ١٧ ) فلا تنال زيادة التقوى  
ولزامها إلا أهلوها ( جزاء من ربك عطاءً وفاقاً ) .

ويا لها من معسكرين عديمي النظير في تاريخ الإنسان : مثلث السكينة  
التقوى بأهليتها ، وثالوث الكفر الصد عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً ان  
يبلغ محله ، التي تجمعها ( حمية الجاهلية ) !

إيمان في أحسن تقويم وكفر في أسفل سافلين « وكان الله بكل شيء عليماً » .  
فلما رأى الرسول رؤياه ( لتدخلن المسجد الحرام ) في الحديبية <sup>(١)</sup> ووفى  
هو والمؤمنون بعهد الله وميثاقه فيها ، فقد حان حين صدق رؤياه في تحقيق  
عمرة الحديبية في السنة المقبلة :

( لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله  
آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك  
فتحاً قريباً ) :

ولقد زعمت جماعة كالحليفة عمر أن هذه الرؤيا لا بد أن تتحقق في الحديبية  
ولذلك شكوا سائلين الرسول بكل حمية ، فجاء الجواب أن صدقها في السنة  
المقبلة قبل الفتح وبعد صلح الحديبية ، كما سجلوه في وثيقة الصلح : أن يفسح لهم  
بجال العمرة ثلاثة أيام وقد فسحت ، ثم « وجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » هو  
فتح مكة ، فإنه هو دون ذلك ، لا صلح الحديبية ، وذلك لأن ذلك « هنا

(١) الدر المنثور ٦ : ٨٠ - اخرج الفرياني وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر  
والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال : أرى الرسول (ص) وهو بالحديبية انه يدخل مكة هو  
وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين فلما نحر الهدى بالحديبية قال له أصحابه أين رؤياك  
يا رسول الله فأنازل الله الآية فرجعوا ففتحوا خيبر ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في  
السنة المقبلة .

وفيه عن ابن عباس قال : كان تأويل رؤياه في عمرة القضاء .

ليس إلاّ صدق رؤيا الرسول ، ولم تصدق إلاّ في عمرة القضاء بعد الحديبية بسنة وقبل فتح مكة بسنة .

فـ « لقد صدق الله رسوله الرؤيا » التي أراها إياه في الحديبية ، صدقها « بالحق » بحق الصدق وصدق الحق ، صدقاً يصاحب الحق ، والرؤيا هي : « لتدخلن المسجد الحرام » ولكن كيف ؟

إنه صادق « إن شاء الله » وتري أن صدق وعد الله كذلك بحاجة إلى « إن شاء الله » ؟! أجل - فإنه أدب دائم يؤدب به المؤمنون بالله أن يكونوا « إن شاء الله » ويروضوا أنفسهم على « إن شاء الله » حتى وفيما هو حتم حسب وعد الله كدخولهم المسجد الحرام للتطواف حول بيت الله !.

هذه المشية الإلهية يجب أن يعيشها المؤمن في صورتها التطبيقية دونما تقيد بشيء حتى تستقر في القلوب ، ولكي تصبح حياة المؤمن صورة وضاعة عن « إن شاء الله » فيكون في حياته كل الحياة مثلاً لمشية الله ، مثلاً لـ « إن شاء الله » فيعيش مشية الله حتى فيما يراه حتمياً كما وعد الله : « لتدخلن المسجد الحرام » فهو هو الله الذي يقول هنا عن صدق الرؤيا « إن شاء الله » ولكي نتأدب نحن بأدب الله ونستن بسنة الله .

ثم وليس دخول المسجد الحرام خائفين كما كان قبل الصلح ، بل « آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون » : آمنين من بأس المشركين ، محلقين ومقصرين حيث كانت عمرة القضاء ، والمعتمر بخير بعد السعي بين الحلق والتقصير مهما كان الحلق أفضل وأحرى<sup>(١)</sup> خلاف يوم الحج الأضحى حيث الحلق متعين إلاّ لمن استثنى .

(١) الدر المنثور ٦ : ٨١ - أخرج مالك والطيالسي وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله (ص) قال : رحم الله المحلقين - قالوا :

« فعلم » الله « ما لم تعلموا » من رحمة وحكمة بالغ ، ومن تأخير لصدق هذه الرؤيا حيث ظننتهموها حالاً حينها ، « فجعل من دون ذلك » الدخول لعمرة القضاء « فتحاً قريباً » الذي تكرر وعده طوال الرسالة في مكة والمدينة ، وهو فتح مكة .

#### عمرة القضاء :

روت الرواة أنه لما كان ذو القعدة من سابع الهجرة - التالي لصلح الحديبية - خرج رسول الله (ص) حسب وثيقة الصلح الى مكة معتمراً مع جماعة من المدينة واخرى من أهالي الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة ( مسجد الشجرة ) وساق معه الهدى ، وسار بأصحابه ملبين ، فلما قرب من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيول والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً وظنوا انه يغزوهم فاكثأ للعهد الذي بينه وبينهم ، فأخبروا سائر مكة ، فلما جاء الرسول ﷺ فنزل بممر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يابج ، وسار إلى مكة بالسيوف المغمدة في قريها كما شارطهم من ذي قبل ، فلما كان أثناء الطريق بعثت قريش

والمقصرون يا رسول الله؟ قال: رحم الله الحلفين - قالوا: والمقصرون يا رسول الله؟ قال: والمقصرون. وفيه اخرج الطيالسي واحمد وابو يعلى عن ابي سعيد ان رسول الله (ص) واصحابه حلّقوا وءرسمهم يوم الحديبية إلا عثمان بن عفان وأبا قتادة فاستغفر رسول الله (ص) للمحلّقين ثلاثاً وللمقصرين مرة .

اقول : استغفاره (ص) للمقصرين اعم من ذنب التقصير وسائر ذنوبهم حيث يقول الله « ولا تحلفوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله » وذلك للمصدود عن اتمام مناسكه ، واما استغفاره للمحلّقين فعن سائر ذنوبهم السابقة .

ولقد فصلنا القول حول حكم الحلق والتقصير في الحج والعمرة في كتابنا « اسرار مناسك أدلة : الحج » وقد طبع باللغة الفارسية وسوف ينقل الى اللغة العربية انشاء الله تعالى .

مكرز بن حفص فقال : يا محمد ! ما عرفناك تنقض العهد ! فقال ﷺ : وما ذاك ؟ قال : دخلت علينا بالسلاح والقسى والرماح ! فقال ﷺ : لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى ياجج ، فقال : بهذا عرفناك بالبر والوفاء ! . . .  
 وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه غيظاً وحنقاً ، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطريق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها وبين يديه أصحابه يلبون ، والمهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام الناقة يقودها .

وهكذا صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، ثم كان الفتح بعد عام من عمرة القضاء وظهر دين الله ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ثم ظهر في الجزيرة كلها ، ومن ثم يتحقق في العالم كله في دولة القائم من عترته (ع) وكما وعد :

\*\*\*

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا — ٢٨ .

\*\*\*

ذكرنا في سورة الصف طرفاً من تفسير نظيرتها « ولو كره المشركون » (١) و« رسوله » هنا كما هناك وكما في ٨٢ آية أخرى (٢) تؤكد له أصالة الرسالة

(١) ج ٢٨ ص ٣١٥ .

(٢) لفظة « رسوله » نجدها خاصة بالرسول محمد (ص) في ٨٤ موضعاً من القرآن دون سواء من رسل الله الارسولي بالنسبة للمسيح في آية واحدة .

الإلهية ، وكأنها هي الوحيدة فلا رسالة إلا له دون سواه ، والمرسلون المسبقون عليه إنما يعدّون لرسالته عدّة بكل عدّة وعدّة .

فهو المرسل « بالهدى » كل الهدى « ودين الحق » : الثابت الذي لا حول له ولا محيد عنه ، ثابتاً دائماً على مر الزمن ما طلعت الشمس وغربت ، فلا تغرب شمس الرسالة الإسلامية منذ بزوغها الى القيامة الكبرى ، مرفرفاً أعلامها ، مشعاً وضائاً على عقول وقلوب العالمين ، معطية متطلبات الحياة وحاجات البيئات من ساكني الأكواخ إلى ساكني ناطحات السحاب .

« ليظهره على الدين كله » : الطاعة كلها ، من حقها وباطلها ، كما في دولة القائم عليه السلام حيث يظهر على الأديان كلها ، فلا شوكة ولا كيان إلا له منها بقيت بقية ضئيلة من سائر الأديان ، فإنهم لا بد وهم تحت ظل الإسلام ورقابته ومن اهل ذمته لا صوت لهم ولا صوت لها ، منها انحسر سياسياً في رده من الزمن لانكسار أهلها وارتجاعهم عنها كنظام حيوي شامل ، ولكنه حتى في الناحية السياسية لم ينحسر إلا تاركوه : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

وإظهار « دين الحق » : الإسلام - على الدين كله ، منه إظهار بالحجة والآيات وهو كائن ويستمر منذ بزوغ الإسلام ، وإن كان مبتلى بالخصام في حرب سجال طوال تاريخه المجيد .. وهذا الإظهار كائن بأصل الرسالة وليس غاية لها ، والنص يجعله غاية « ليظهره على الدين كله » .

ومنه إظهاره في واقع الحياة ، غلباً في الحكم على غلبة في الحجة وهو لا محالة كائن في الدولة الأخيرة الإسلامية .

(١) تفسير البرهان عن أبي جعفر الباقر ( ع ) في الآية قال : يُظهر الله عز وجل في الرجعة وفيه عن أبي الحسن الماضي قال : يظهر على جميع الأديان عند قيام القائم ..

وليس الإظهار هو الإبحاء حتى لا يبقى دين إلا وهو يفنى ، وإنما هو الغلبة على الخصام رغم وجودهم ، ولكنهم ضعفاء هزلاء متخالفون مع بعض متعادون : من اليهود : « وقالت اليهود ... وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب اطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين » ( ٥ : ٦٤ ) ومن النصارى : « ومن الذين قالوا إنا نصارى .. فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » ( ٥ : ١٤ ) .

وأما من سواهم من ملين ومشركين وماديين فلا نعرف عنهم في دولة القائم شيئاً ، هل هم كذلك كائنون على ضعف أم بائدون ، وإن ما نعرفه هو ظهور دين الحق على الدين كله ، وعلمه يلمح إلى وجود الدين كله حتى يظهر الإسلام على الدين كله .

« وكفى بالله شهيداً » ظهوراً بآياته في قرآنه المجيد ، فإنه قوي بذاته ، شاهد لظهوره بمؤهلاته ، زاحف بلا سيف ولا حيف ، لما في كيانه من استقامة مع الفطر والعقول ، ومع نواميس الكون ككل ، وما فيه من استجابة لمتطلبات الحياة والأحياء ما طلعت الشمس وغربت .

وفيما يلي - لآخر آية من سورة الفتح - تلميح مليح بشرطي ظهور هذا الدين في شرطي الرسول والمرسل اليهم ، فيها رمز استمرارية الفتح المبين ، دون وقفة على الفتح الأول ، فلا يزالون فاتحين ما داموا يحملون هذه الرسالة السامية كما يجب وقدروا ما حملوا مما حملوا :



مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ  
بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا

سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ  
وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ  
فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ  
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا  
عَظِيمًا - ٢٩ .

\*\*\*

آية عديمة النظير تحمل تعريفاً بالبشير النذير والذين معه بتمثيل وتقدير  
من التورات والإنجيل يجعلهم مثلاً عالياً في تاريخ الإنسان منقطع النظير ، قاطعة  
آمال المسلمين المستسلمين ، مزيفة كيان من يدعون الصعابة كأنها تُرس عن  
كل قبيح ، فهم لصحبته الرسول نبراس منير ، مخطئين معية الرسالة بصحبة  
زمنية ومعاصرة !.

إنها تحمل صورة رائعة عن سيرة الذين مع الرسول ﷺ التي تجمعها نفس  
الصفة : « الذين معه » وتفصلها فصائل الآية في سلبيتهم وجاء الكفار : « أشداء  
على الكفار » وإيجابيتهم بينهم أنفسهم : « رحماء بينهم » كحالتين جماعيتين تتقدمان  
على سائر الحالات ، من لقطة تصورهم في محاريب العبادة بعد حنانهم الجماعي  
وحرايمهم ضد الكفار : « تراهم ركعاً سجداً » بما يعنيه ركوعهم وسجودهم :  
« يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » دون أن تكون مجرد صور وهيئات ، فلأنها  
تكون من الأعماق تصوّر في سيماهم صورة معنوية شاملة : ( سيماهم في وجوههم  
من اثر السجود ) و ( ذلك ) العظيم العظيم ( مثلهم في التوراة ) كما تأتي في آيات

( الفرقان - ١٤ م )



( و ) اما ( مثلهم في الإنجيل ) وكما في آيات تأتي ( كزرع أخرج شطأه فآزره ... ) .

ويا له من مثلث بارع من الكتب السماوية الثلاث تعريفاً بالذين معه ، وأن لو استقاموا على الطريقة المحمدية لكان حياتهم فتحاً دائماً بيناً و ( مغفرة وأجر عظيم ) .

( محمد رسول الله ) اسم واحد ووصف واحد : ( رسول الله ) دون أن ينسب إلى بلده وهو أم القرى وقبلة الموحدين ، أو إلى قريب له في نسب أو سبب أم ماذا ! إنما هو ( رسول الله ) وكفاه مغفرة بين العالمين أن يحمل هذه الرسالة السامية الخالدة ، ولا تجده يوصف في القرآن إلا بعبودية أو نبوة أو رسالة ، وأما الميزات الأخرى الخيالية فلا أثر لها في القرآن كله ! .

( والذين معه ) : معه في رسالته الإلهية تصديقاً وإيماناً وتطبيقاً ، ومعه في حملها كما حمل ، دعوة إليها وجهاداً في سبيلها وتصبراً لمشاقها وتحملاً لحرماتها وحرماناتها ! .

فلا تعني معية الرسول - التي لا تختص بزمان أو مكان أو قوم - معية الزمن حتى تختص بصحابته المعاصرين ، أو معية المكان لكي تنحصر بمن عاينوه وشاهدوه ، فتتجسر عن بعده من التابعين وأتباعهم إلى يوم الدين ، ولا معية نسبة أو قرابة أو لغة أم ماذا ، مما لا تقرب أصحابها إلى رسالة السماء وقد تبعد عنها ، كما أبو لهب البعيد البعيد الذي كان يحمل كافة هذه المعيات إلا الرسالة ، وقد نزلت في تبابه سورة فذة ، ثم نرى سلمان الفارسي الذي لم يحمل إلا معية الرسالة يصبح سلمان المحمدي ! .

أجل - انه لا معية هناك معنية إلا معية الرسالة ، كما يصدقها وصف محمد مسبقاً بالرسالة ، ومواصفاتها اللاحقة التي لا تحمل زماناً ولا مكاناً ولا لغة ولا قرابة ، فبإمكانك أن تكون معه قريباً إليه ، وأنت بعيد عنه عرض المكان ، طول الزمان

دون أية نسبة أو قرابة، أو أن تكون عليه ( لا معه ) غريباً عنه وأنت تعاصره وقوطنه مشاهد ألهليل نهار وأنت من أنسب أنسابه أو أقرب أقربائه ( إن ولي محمد من والى الله ورسوله وإن بعدت لمتته وإن عدو محمد من عادى الله ورسوله وإن قربت لمتته ) إذا فلا تعني هذه المعية إلا أن تنحو منحاه في رسالة السماء تطبيقاً ونشراً له في الأرض :

فكما أن الرسول كان شديداً على الكفار دون مواربة ولا مداينة ولا أنصاف حلول ، كذلك ( الذين معه أشداء على الكفار ) ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، وهذه هي سمة الإيمان ألا تعرف في سبيل الله أيأ من هذه وتلك : ( لا تجد قوماً يؤمنون بالله ورسوله يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه .. ) ( ٥٨ : ٢٢ ) .

ولا تعني الشدة على الكفار الإساءة إليهم وإن كان يؤمل منهم رشد ، وإنما السياج القويم الحاجز بينهم وبين الكفار ، لا يسمح بتدخل في شئون المسلمين ثقافياً أو سياسياً أو اقتصادياً أو أخلاقياً أم ماذا ، ثم لا يسمح لمسلم أن يوادهم ويواليهم ، فأخر أمرهم معهم : ( لكم دينكم ولي دين ) وأوله أن يهدوهم الصراط المستقيم ، دون أن تكون هناك متوسطات في مداينات أو موآربات . فهم يجتازون وشائج القرابات وسائر الحميات في ظلال وشائج الإيمان إلى تحقيق مرضات الله لأنهم حزب الله : ( رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ) ( ٥٨ : ٢٢ ) .

وكما أن الرسول ﷺ ( عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ) ( ٩ : ١٢٩ ) قائلاً لهم ( لا يرحم الله من لا يرحم الناس ) (١)

(١) الدر المنثور ٦ : ٨٢ - أخرجه ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي عن جرير عنه (ص) :

و ( لا تنزع الرحمة إلا من شقى ) (١) و ( إنما يرحم الله من عباده الرحماء ) (٢) كذلك الذين معه ( رحماء بينهم ) : تربطهم وشيجة الايمان بالله فقط مهما تفرقوا بسائر الوشائج ، فهم نسبهم وسببهم الايمان ، وجنسياتهم الايمان ، يعيشون في ظلاله إخوة متحابين ، لا تجد فيهم إلا أخوة الايمان ( انما المؤمنون إخوة ) . إذا فكل المنازعات والمشاجبات بين المؤمنين إنما هي من ضعف الإيمان أو جهلهم موقع الإيمان ، وهنالك أعداءنا يتربصون بنا الدوائر ليوسعوا الخرق بيننا ، والشيطان ينزغ بيننا : ( قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ) ( ١٧ : ٥٣ ) ( وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ) ( ٧ : ٢٠٠ ) .

فهؤلاء الذين يدعون الاسلام ثم يحاولون في تفريق كلمة المسلمين وتوسيع الخلافات فيما بينهم ، أولئك هم حزب الشيطان ، فأحذروهم مهما كبرت عمأتهم وطالت لحامهم ، أعاذنا الله من شرهم ولا سيما في قبة الاسلام ومولده . فرغم أن الواجب رفض الخلافات البعيدة المدى في مملكة الحج ، نرى عملاء بزي العلماء يخطبون ويكتبون في الحرمين المباركين ما اكتتبوا واختطبه لهم الإستعمار الكافر عارفين أو غافلين ( وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ) ( ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ) ( ١٦ : ٢٥ ) .!

وكما كان الرسول ﷺ أول العابدين فالذين معه :  
( تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ) تراهم وكأنهم راكعون دوماً وساجدون ، أجل ولأنهم حياتهم الركوع والسجود لله في كافة صورها على مختلف صيغها وهياتها ، في صلاتهم لله وفي كل صلاتها بخلق الله ، في حياتهم الفردية لله وفي

(١) المصدر : اخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة عنه (ص) :

(٢) المصدر : اخرج ابن أبي شيبة عن أسامة بن زيد عنه (ص) :

الجماعية ابتغاء فضل الله ورضوان الله ، فكل حياتهم كأنها صلاة وكلها صلوات وكلها لله ركوعات وسجودات طالما تختلف الهيئات ، فما الركوع والسجود في الصلاة إلا تعبيراً عينيّاً عن اصالة العبودية والخضوع لله ، المتعركة في نفوسهم ( يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ) : شجرة لها ساقان ، شجرة العبودية الناحية منعى رضوان من الله لأنه الله ، وفضل من الله حيث وعد عباده الصالحين ، فضلاً في الدنيا وفضلاً في الآخرة ، فيعملون لها ويأملون من الله الفضل فيهما . ثم وآثار ذلك السجود لائحة في سيماهم لمن ينظر بنور الله :

« سيماهم في وجوههم من أثر السجود »

فالسما هي العلامة اللائحة للناظرين بنور الله دون الجاهلين : ( يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ) ( ٢ : ٢٧٣ ) فأنت أنت تعرفهم والذين معك كما « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » ( ٧ : ٤٦ ) فهذا من سما التعفف والايان ، ثم هناك سما النفاق والإجرام : « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » ( ٥٥ : ٤١ ) هذا - ولكن سما النفاق هي أحياناً بحاجة إلى تعريف وحتى للرسول : ( ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ) ( ٤٧ : ٣٠ ) .

ومهما كان سما النفاق غامضاً وبحاجة إلى تعريف ، فسيما الايمان من أثر السجود لائحة للناظرين بنور الله دون تعريف - ف :

( سيماهم ) : علامتهم كائنة لائحة ( في وجوههم ) - : وجهاتهم واتجاهاتهم ومواجهاتهم ، وفي ذوات وجوههم يرى الإتجاه إلى الله لائحاً ، وكل ذلك « من أثر السجود » الذي يعيشونه الله حياتهم .

فلا يعني أثر السجود وسيما الوجوه ثغفات الجباه فقط : التي قد قصطنع مغبة الإستعمار الإستفقال ، وحتى ممن لا يعرف سجوداً لله اللهم إلا للامو ! أو ممن

يسجد مصلحياً تاجراً أم ماذا (١) .

فليس الأثر الظاهر على الجباه من السجود هو هو سيما الايمان ، كما ليست الجباه الخالية عن الثغفات سيما اللا ايمان ، فقد يجتمعان وقد يفترقان .

فأثر السجود وهو أثر العبادة المتمثلة تماماً في السجود ، هو يشمل الركوع كذلك كما « تراهم ركعاً سجداً » وهو يشمل كافة نهضات العبادة لله في كافة صورها ، فأثر العبادة لائح في سيماهم ، في ملامح وجوههم حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء ، لائحة عليها الوضوء الهادئة والصباحة النبيلة ، كذلك وفي ملامح وجهاتهم ومواجهاتهم واتجاهاتهم ، ألا نمردة فيها ولا فرعنة ولا استغلال ، ولا أية محاولات وتصرفات إلا على ضوء شريعة الله !

وهذه السيمة السامية لائحة عليهم واضحة يوم الدنيا ويوم الدين (٢) هنا لأولى البصائر وهناك لاهل المحشر أجمعين حيث ( تبلى السرائر ) ! .

« إذا نظرت إلى أحدكم عرفت أنه من أهل الصلاة بأثر الوضوء وإذا أصبحت عرفت أنه قد صلى من الليل ، وهو العفاف في الدين والحياء وحسن

(١) الدر المنثور ٦ : ٨٢ اخرج الطبراني والبيهقي في سننه عن حميد بن عبد الرحمن قال : كنت عند السائب بن يزيد اذ جاء رجل في وجهه اثر السجود فقال : لقد افسد هذا وجهه أما والله ما هي السيمة التي سمى الله ولقد صليت على وجهي ثمانين سنة ما اثر السجود بين عيني ! .  
(٢) المصدر : اخرج الطبراني في الاوسط والصغير وابن مردويه بسند حسن عن ابي بن كعب (رض) قال قال رسول الله (ص) : في قوله « سيماهم في وجوههم من اثر السجود » قال : النور يوم القيامة .

وأخرج الطبراني عن سمرة بن جندب ان رسول الله (ص) قال : « إن الأنبياء عليهم السلام يتباهون ايهم أكثر اصحاباً من امته فأرجو ان اكون يومئذ أكثرهم كلهم واردة وان كل رجل منهم يومئذ قائم على حوض ملان معه عصا يدعو من عرف من امته ولكل امة سيماء يعرفهم بها نبيهم » .

السمت ، (١) .

«وذلك مثلهم في التورات ، ذلك القدسية الفردية والجماعية السليمة الاسلامية في الذين مع الرسول مثلهم السامي في التورات ، كما في بشارات عدة تصف الرسول ﷺ وأمة بقوة في دين وصمود ضد أعداء الدين (٢) .

مثل ما في ( مزمور ١٤٩ : ١ و ٦ - ٩ ) من زبور داود : « هللوا . رنموا للرب قرناً جديداً ، اقيموا تسبيحه في مجمع الأصفياء ... يبتهج الأصفياء في المجد يرغنون على أسرتهم (٦) تعظيم الله في أفواههم وبايديهم سيف ذو حدين (٧) لاجراء الانتقام على الأمم والتأديب على الشعوب (٨) لإيثاق الملوك بالقيود وشرفانهم بقبول من حديد (٩) ليمضوا عليهم القضاء المكتوب ، هذا فخر يكون لجميع أصفائه . هللوا » .

فانها تجمع مواصفاتهم بالشدة على الكفار والرحمة بينهم أنفسهم وأنهم أصفياء ... وهكذا تجدد آيات في عموم التورات وخصوصها بحق الأمة الاسلامية (٣) .

« ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطاء فأزره » : أخرج فرخه وفرعه دون أن ينقص فرخه من قواه بل « فأزره » ناصر عوده وأصله ، أو أن الزرع أزر فرعه ، أو المعنى مؤازرة الأصل الرسالي والفرع الذي معه ، فالرسول برسالته وتوفيق الله يصنع مؤمنين ويؤازرهم ، وهم بإيمانهم وتوفيق الله يؤازرونه ويعزرونه .

ومن جراء هذا الإخراج وتلك المؤازرة « فاستغلط » الزرع بشطاء « واستوى

(١) الدر المنثور ٦ : ٨٢ : اخرج ابن مردويه عن ابن عباس (رض) عن النبي (ص) في الآية قال : ان جبريل قال : اذا نظرت الى الرجل من امتك عرفت ...

(٢) راجع رسول الاسلام في الكتب السماوية ، قسم البشارات التوراتية .

(٣) خصوص التوراة هي الاسفار الخمسة الموسوية ، وعمومها كتب العهد العتيق بأجمعها من أي نبي اسرائيلي كان .

على سوقه ، وفي ذلك الإخراج المؤازرة الإستواء ، إعجاب ومسرة لسائر الزراع  
الرسل : « يعجب الزراع » كما اعجبوا من تشريفه قبل تكونه ، ومن ثم « ليفيظ  
بهم الكفار » فالكفار يزيدهم هذا الزرع الأخير تغيظاً وتميزاً « في قلوبهم مرض  
فزادهم الله مرضاً » ( ٢ : ١٠ ) وأما رسل الله والمؤمنون بهم فيزيدهم سروراً  
واعتزازاً ، فإنهم « أشداء على الكفار رحماء بينهم » !

وهكذا تكونت الرسالة الاسلامية برسولها والذين معه ، حتى كونت كياناً  
قديماً لا قبل له ، الا على من لا يمشون على خطتها ، تتدرج من ضعف في عبدة  
وعدة إلى قوة فوق قوة ، ولكي تشمل العالم كله « ليظهره على الدين وكفى بالله  
شيداً » .

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا » .  
تري ألم يكن الذين معه - مع تلكم المواصفات التي تجعلهم في قمة الايمان - من  
المؤمنين الصالحين ، حتى يقول الله هنا في مجال المغفرة والأجر العظيم « منهم »  
لا - كلهم ؟

علّه تأكيد بعد تصريح بشروطات الايمان في تحقق وعد الله كيلا ينساها أو  
يتناساها أناس فيحسبون الايمان لفظة قول أو تصوراً أو عقيدة فقط ، وإنما  
الايمان الذي يظهر في صالحات ، وصالحات تزهر من إيمان ، هما دوماً سبب الأجر  
العظيم والغفران .

وها هي الآيات الانجيلية التي تمثلهم بهذا المثل السامي :

أنباء الملكوت وأبنائه .

الملكوت وهي حقيقة الملك تكويناً وتشريعاً ، كثيراً ما تعني الشريعة  
الإسلامية ، فأبناءها أبناء الملكوت ولهم في الانجيل الذكريات التالية :

١- « ان كلام الملكوت يزرع في قلوب الناس كما تزرع الحنطة في المزرعة والله

- صاحبها ، ( متى ١٣ : ١ - ٢٤ ) ( مرقس ٤ : ١ - ٢٠ ) ( لوقا ٨ : ١ - ١٥ ) .
- ٢ - « ملكوت الله ينشأ آناً فآناً وينمو سنة فسنة ويكبر عصرأ فعصرأ ويتقوى دونما انقطاع » ( مرقس ٤ : ٢٦ : ٢٩ ) .
- ٣ - « ينمو الملكوت ويتكاثر جداً بين بعض الأقوام لمدة قليلة دون ان يبقى كافر ولا مشرك كالخردل ، يؤثر كلام الملكوت في قلوب الناس ويؤدي بهم إلى الايمان » ( متى ١٣ : ٣١ - ٣٣ ، مرقس ٤ : ٣١ - ٣٣ ) .
- ٤ - « في أبناء الملكوت حبات الحنطة التي تعطي مائة ضعف وفيهم أولاد ابليس » ( متى ١٣ : ٢٤ - ٣٠ و ٣ : ٤٧ - ٥٠ و ٢٢ : ١٠ ) .
- ٥ - « أبناء الملكوت هم ملح الأرض وبقدر ما يحتاج الطعام إلى الملح فكذلك كل العالم وجميع أقوام كرة الأرض يفتقرون إلى أبناء ملكوت الله » ( متى ٥ : ١٣ ) ( مرقس ٩ : ٥ ) ( لوقا ١٤ : ٣٤ - ٣٥ ) .
- ٦ - « أبناء الملكوت هم نور العالم » ( متى ٥ : ١٤ - ١٦ ) .
- ٧ - « تبقى أولاد الشيطان مع أبناء الملكوت على جنب إلى يوم القيامة » ( متى ١٣ : ٢٧ - ٣٠ ) .
- ٨ - « أبناء الملكوت لا يعطون القدس للكلاب ولا يطرحون دورها أمام الخنازير » ( متى ٧ : ٦ ) .
- ٩ - « ان ملكوت الله هو مثال ملكوت السماوات لا يفكرون في جمع الخزائن ليكونوا أغنياء في الدنيا لأنهم عما قليل يتركون الدنيا ولذاتها وخزائنها » ( متى ٦ : ١٩ - ٢١ ) .
- ١٠ - « الأغنياء غير الشاكرين الذين يتوكلون على مال الدنيا هم خارجون ملكوت الله » ( متى ١٩ : ٢٣ : ٢٤ ) .
- هذه مواصفات الملكوت وأبناءه وأبنائه ، وتلك عشرة كاملة من الأناجيل تتمثل في الرسول الأعظم محمد ﷺ وأمة .



( سورة الحجرات - مدنية - وآياتها ثمان عشرة )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا  
بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ - ١ .  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ  
وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ  
أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ - ٢ . إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ  
أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ  
لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ - ٣ . إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ  
مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ - ٤ . وَلَوْ أَنَّهُمْ  
صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ - ٥ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنُ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ  
فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ  
نَادِمِينَ - ٦ . وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ  
فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ

وَزَيَّنَّهٗ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ  
وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ - ٧ . فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً  
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ - ٨ . وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ  
اقْتَتَلُوا فَأْصَلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى  
فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ  
فَأْصَلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ - ٩ .  
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأْصَلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ  
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ - ١٠ .

مركز تحقيق تكملة ترمذی

سورة هي ثورة قارعة على اللا أخلاقيات العارمة، المتبقية في الجماعة المسلمة من جاهليات، أو المتسربة فيها من عادات سيئات، نازعة هذه الكتلة المؤمنة عن أخلاق النسناس إلى أخلاق الناس ما يؤدبه يحسب الله ورسوله من عدم التقديم، وما ينظم سلوكه مع المؤمنين وسائر الناس في المجتمع الحيوي، وما يمتاز به انسان في شريعة الله، وهي على قلة آياتها كثيرة المعنى، غزيرة المغزى تنبع بحقائق تفتح للعقول والقلوب آفاقاً بعيدة، ما تتجاوز حجمها مئات المرات، لو اتخذها المؤمنون نبراساً في سيرتهم ومتراساً في مصيرتهم لعاشوا أعزة أعلون، وليكونوا مثلاً للأخلاق الفاضلة، ومثلاً للانسانية الكاملة، فيكونوا مدينة فاضلة يحكم فيها اخلاق الله، يأمن فيها المؤمنون بالله، ومن هم في ذمهم على ضوء شريعة الله، شرط الا يقدموا بين يدي الله :

( يا ايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم )

.. ترى ماذا تعني « بين يدي الله »؟ إنها الأمام تشريعاً ام سواه ، وليست اليدين الجارحتين ، فاليدان لا تختصان بها وإن لمن له جارحتان ؛ كما لو ارد التي لا تناسبانها مثل عقدة النكاح : « او يعفوا بيده عقدة النكاح » ( ٢ : ٢٣٧ ) و كسائر الموارد للمخلوق الذي ليست له جارحتان : « ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » ( ٤٦ : ٣٤ ) « إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » ( ٥٨ : ١٢ ) فكيف اذا لمن تستحيل له اليدان الجارحتان ، مهما تمحل له من لا يعرف معاني الكلام : ان له يدين جارحتين كما تناسب ساحة قدسه ، من تناقض جارح لساحة قدسه <sup>(١)</sup> قارح لتجرده عن كافة الحدود والأمثال .

فهنا التقديم بين يدي الله ، ليس ان تقدم نفسك في مشيتك على الله فلا له مشي على الأرض ام سواها ، ولا ان هناك - لو كان - تماشياً وتسابقاً حتى ينهى عنه ، وانما هو تقديم لك عليه في اعتقاد أو مقال أو فعال كتشريع وحكم ام ماذا ؟ فـ « إن الحكم الا الله يقص الحق وهو خير الفاصلين » ( ٦ : ٥٧ ) « والله يعحكم

( ١ ) فما هو لإمثال ما يقال : ان الله يجهل كما يناسب الوهيته ، ويمعجز كما يناسب الوهيته ، وينزل من سماء الى سماء ويصعد كما يناسب الوهيته ! فان من الصفات والأفعال ما لا تناسب ساحة الالهيه في أي معنى أخذت - كهذه وكالظلم والضياع والسهو والخطأ - وسائر ما يختص بالمخلوقين - كما أن منها ما يختص به تعالى دون أن يشاركه فيها غيره بأي معنى كان - كالرحمانية والرحيمية والمعبودية والشرعية .. وان كان منها ما تنسب الى الله كما يناسب ذاته وتنسب الى غيره كما تناسبه - فاللفظ مشترك والمعنى متباين - كالوجود والعدم والقدره - فالله موجود والخلق موجود ولكن الوجودين متباينان - فإين الوجود الأزلي والحادث وأين الأبدي والغائي - والمجرد والمادي - وأين وأين - ومن هذه الألفاظ اليد والعين واشباهها فانها تستعمل في معاني مختلفة حتى لمن له هذه الأعضاء ، فكيف بمن ليس له أعضاء ؟ فالعلوم قطعياً هنا أن اليدين بالنسبة لله ليستا الجارحتين ، وانما صفات أو افعال تناسب ذاته تعالى ، لا اجزاء من ذاته فليست له اجزاء ..

لا معقب لحكمه « (١٣ : ٤١) .

فمن التقديم بين يدي الله تقديم لحكم على حكم الله ، في عقيدة أم قول أم فعل ، سواء أكان نقضاً لحكم الله بعد ما حكم فهو تشريع ، أم سبقاً لحكم الله قبل أن يحكم وإن وافقه بعدما حكم ، فإنه فسوق وخروج عن التسليم لله .

وهذا أن الله سميع عليم ، ليس ليختص التقديم الممنوع بالقول لأنه فقط المسموع دون العقيدة والفعل فإنه ثني به « عليم » فيشمل غير القول مما يعلم من فعل أم عقيدة أم ماذا .

ومن ثم التقديم بين يدي رسول الله هو كالتقديم بين يدي الله ، ولا فارق بينهما إلا أصالة في الله ورسالة في رسول الله دون أي استقلال عن الله ، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ، ( ٨٠ : ٤ ) وإلا أن لرسول الله أمام الجسم كماله أمام الرسالة ، ف « لا تقدموا بين يدي رسوله » تعم تقديمك نفسك أم سواك على رسول الله في مشيته أو قيامه أم جلوسه وقعوده ، فكما أن روحه برسالته تتقدم على سائر الأرواح ، كذلك جسمه الذي يحمل تلكم الروح القدسية ، لا يقدم عليه أي جسم ولا أي روح ، فجسمه ﷺ أشرف من سائر الأرواح فضلاً عن روحه !

والنهي عن التقديم هنا وهناك يعني وجوب التأخير ، والتسليم لله ولرسوله ، دون مساوات أو مساومات مع الله أو الرسول في حكمه أم سواء ، وانها داخلة في « واتقوا الله » حيث التقوى تتنافى والمساوات كما تنافي التقديم « واتقوا الله » في الوهيته وفي رسوله أن تفسقوا عن مثلث العقيدة والقول والعمل في حكم الله « ان الله سميع » ما تقولون « عليم » ما تنوون وتعتقدون وتعملون .

ولماذا « لا تقدموا » دون « لا تتقدموا » ؟ لأن التقدم يخص المخاطب نفسه دون سواء ، والتقديم يعمه وسواء ، فكما يحرم التقدم على الله ورسوله في حكم

أو سواه ، كذلك أن تقدم غيرك على الله أو على رسوله ، وإن كان ذلك الغير رسول الله أن تقدمه على الله ، أو إماماً من الأئمة تقدمه على رسول الله ، أو أن تساوي وتسامي بين الله وسواه أو بين رسول الله وخلق سواه .

ومن ثم فلا يختص حكم التقديم بالحكم ، فانه يعم الحكم وسواه ، كأن يقدم نفسه أم سواه على رسول الله في مشيه أو جلوسه أو قيامه أو كلامه أم ماذا ، فان الرسول مقدم على الأمة بحكم رسالته ، كما الله مقدم على الخلق بالوهيته في كل شيء ، فلا يقدم بين يدي كيانه كيانه ، ولا بين يدي عبوديته سواه ، ولا طاعته سواه ، ولا حرمة سواه ، ولا بين يدي حكمه سواه ، كما ولا يسامي في ذلك أو يساوي بسواه .

فما للذين يدعون الإسلام يقدمون حكم فلان وفلان على حكم الله ، وحديث فلان على كتاب الله ، واجتهاد فلان على سنة رسول الله ، وإذا قيل لهم هذه بدعة ؟ قالوا : نعم بدعة حسنة (١) ! أو قيل لهم : حديث يخالف كتاب الله ؟ قالوا : اسناده صحيح تقبله العلماء ! فما لهم لا يؤمنون ؟ وإذا ذكرُوا لا يذكرون ، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون .

وإنما هو كتاب الله ، أو الرواية الموافقة لكتاب الله ، أو الثابتة غير المخالفة له ، دون أي اجتهاد من قياس أو استحسان أم ماذا ، من تشريع بغير مصدره ، تقديماً بين يدي الله ورسوله أو مساواتاً ، وإن عدم التقديم بين يدي الله ورسوله لزام الإيمان بالله وتقواه ، فسواه كفر بالله وطغواه .

وما هو أدب نفسي مع الله ورسوله ، كأصل وحيد في التشريع حكماً وفي

(١) وبين بدعة وحسنة تناقض بين لأن البدعة أمخال ، ليس من الدين في الدين أم اخراج ، أو من الدين عنه — فالبدعة معارضة للدين — فهل توجد معارضة حسنة للدين ؟ وما أحسن هؤلاء الذين يوجهون بدعاً جازفة بلفظ الحسنة — كأن اللفظة تحول الماهية السيئة الى الحسنة . فما لهم إن يؤفكون .

سواء سواء ، منبثقاً من تقوى الله النابعة من الشعور أنه الله وليس سواء ، ورسوله الرسول ليس سواء ، وشعوراً أنه سميع عليم ، يسمع كل تقديم في مقال ، أو تقديم في فعل أو فكرة أو حال ، فلا يرى المؤمن تقديماً هنا أو هناك ولو رؤيا مجنحة في خيال .

ولقد تأدب جماعة من المؤمنين الأولين بهذا الأدب لحد كان رسول الله ﷺ يسألهم عن اليوم الذي هم فيه والمكان الذي هم فيه ، فيتخرجون أن يجيبوا - على علمهم - إلا بقولهم : الله ورسوله أعلم <sup>(١)</sup> .

ومن التقديم بين يدي رسوله رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول ونداءه من وراء الحجرات :

«يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون» .

فليكن صوت النبي فوق الأصوات كما أن صيته فوق الصيات ، صوت في حال أو متعال ، وصيت في حال على أية حال ، ومن سوء الأدب أن يرفع صوت فوق صوته ، بل والجهر له بالقول كجهر بعضهم لبعض ، وإن كان أدنى من صوته ، فلتبرز مكانته الرسالية بين الجموع على المكانات ، وليكرم فوق كل الشخصيات ف « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » !

إنه قد يرفع صوت فوق صوته ﷺ فهو محظور ، وقد يجهر له بالقول كما يجهر لسواه على سواء ، فهو أيضاً محظور ، وإن كان دون صوته ، فالمرغوب إذاً

(١) كما جاء في حديث أبي بكر بن الحارث الثقفى أن النبي (ص) سأل في حجة الوداع أي شهر هذا ! قلنا الله ورسوله أعلم - فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى ! قال : أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال : أليس بالبلدة الحرام ؟ قلنا : بلى - قال فأبى يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم - فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه - فقال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى ! ..

غض الأصوات عند رسول الله ﷺ دون أن يساوى في صوت ، أو أن يسوى بغيره في صوت ، فضلاً أن يرفع فوق صوته صوت ، فلو حصل أي من ذلك استخفافاً به ﷺ لكان كفرأ ، وخطاب الايمان هنا ينفيه ! ولو كان اساءة أدب فمن أفسق الفسق ، والايمان قد ينفيه ، ولو كان لا شعوريا كعادة جاهلية دون تقصّد استخفاف أم إساءة وإيذاء ، كما قد تقصده - فقط - الآية ، فهو إحباط للأعمال « وأنتم لا تشعرون » لا تشعرون خطأ الجهر ورفع الأصوات ، ولا عظمتة ومداه ، ولا انه لحد الإحباط : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » ( ٢٤ : ١٥ ) « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » ( ٣٩ : ٤٧ ) : مثلث اللاشعور الرهيب ، أو مثناه لمن يشعر خطأ ولا يشعر مداه ولحد الإحباط ، فأما بعد هذا البيان الإشعار فهم شاعرون ! إذاً فالخبط أغوى والخبط أقوى على من يهبط من مكانة النبي الاقدس ﷺ .

وقد يعني الخبط هنا ما يخص أعمال الخطاب ، أن لو لم تكن فيه إساءة أدب وإيذاء لكان صواباً وثواباً ، ولكنها تحابطة بسوء الأدب ، أو يعني حبط الأعمال بين هكذا خطاب إلى المتأب ، حبطاً فقط للثواب ، لا لأصل الصحة كالصوم والصلاة ، فإن الخبط في إساءة اللاشعور يختلف عن الإستخفاف الكفر الخبط لأصل الأعمال ، والإساءة الفسق التي تحبط منها قدرها ، فلكل إحباط قدره ، كما أن لكل صالحة ثواب قدرها .

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا .. ولا تجهروا ، مخافة « أن تحبط أعمالكم ، هكذا « وأنتم لا تشعرون » مساءة أعمالكم هذه ، ولا من جرائها : أن تحبط أعمالكم .

فيا له خطاباً رهيباً جيباً ، يحذرهم هذا المزلق الذي ينتهي بهم الى حبوط أعمالهم وهم لا يشعرون ، ولقد ارتعشت قلوب بعض وارتجفت تحت هذه الواقعة

القارعة ان خشى بعضهم أن يكون من أهل النار كثابت بن الشماس<sup>(١)</sup> وكان من طبعه رفيع الصوت دون أن يرفعه عمداً ، لا هتكاً ولا إساءة ولا جهلاً ، فلم تشمله الآية ، فانها تنهى عن ذلك علماً أو جهلاً باختيار ، لا جهرأ دون اختيار . كما ندم آخرون مما جهروا جهرأ كعادة متبعية جاهلية حوّلها الإسلام إلى أدب طاهر ، مثل الخليفة أبي بكر والخليفة عمر فلما رفعاً أصواتهما فوق صوت النبي ﷺ نزلت الآية فتأبوا واختجلا<sup>(٢)</sup> .

وروى أن الجهر بالقول ، لا للرسول ﷺ وهو حي ، وإنما لغيره وفي مسجده ، أم الجهر في قراءة القرآن أو الدعاء عند قبره ، هل إن ذلك محظور<sup>(٣)</sup> ،

(١) روى الامام احمد بسند عن انس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية - وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت - فقال : أنا الذي كنت ارفع صوتي على رسول الله (ص) أنا من أهل النار ، حبط عملي وجلس في اهل حزينا ففقدته رسول الله (ص) فانطلق بعض القوم اليه فقالوا له تفقدك رسول الله (ص) ما لك ؟ قال : أنا الذي ارفع صوتي فوق صوت النبي (ص) واجهر له بالقول ، حبط عملي ، أنا من أهل النار ، فأتوا النبي (ص) فأخبروه بما قال فقال النبي (ص) لا - بل من أهل الجنة - قال انس : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم انه من أهل الجنة .

(٢) في صحيح البخاري حدثنا يسرة بن صفوان بن جميل اللخمي حدثنا نافع بن عمر عن ابن ابي مليكة قال : كاد الخيتران ان يهلكا : - ابا بكر وعمر رضي الله عنهما - ، رفعاً أصواتهما عند النبي (ص) حين قدم عليه وركب بني تميم ( في السنة التاسعة من الهجرة ) فأشار احدهما بالاقراع بن حابس (رض) أخى بني مجاشع ( أي ليؤمر عليهم ) وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع : لا احفظ اسمه ( في رواية اخرى ان اسمه القعقاع بن معبد ) فقال ابو بكر لعمر - رضي الله عنهما - ما أردت إلا خلافي ، قال : ما أردت خلافاً - فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى الآية ، قال ابن الزبير فما كان عمر (رض) يسمع رسول الله (ص) بعده هذه الآية حتى يستفهمه . وروى عن ابي بكر (رض) انه لما نزلت هذه الآية قلت يا رسول الله (ص) والله لا أكلمك الا كأخي السرار ( يعني كالمس ) .

(٣) بروى عن الخليفة عمر (رض) انه سمع صوت رجلين في مسجد النبي (ص) قد ارتفعت

﴿



عظماً على الجهر له بالقول وهو حي ؟ الحق أنه لا محذور ، وإلا لحظر على الأذان المجهور به للصلوات في مسجده ، وعلى خطبة الجمعة وسائر الخطب فيه ، وعلى الدروس التي تلقى فيه ، أم وسائر الجهر ما لم يكن فيه هتك لساحة الرسول ﷺ كجهر المعاركات التي تحصل تعصباً عند قبره ، وجهر الكلمات المفرقة لجموع المسلمين ، الهاتكة لحُرْمِهِم ، الفاتكة لحُرْمِ الرسول وحرّمه ، كالمجاهرة بتكفير جماعة غفيرة من المسلمين ، ونسبتهم إلى الشرك ، لأنهم يقبلون ضريح الرسول ﷺ الطاهر حباً فيه لا عبودية ، وكما أن غيرهم يقبلون أولادهم وأيدي وجباه علماءهم حباً أو إحتراماً لهم ، تلك إذا قسمة ضيزى ظالمة ، ان ذلك شرك وليس هذا شركاً ! جمع الله شمل المسلمين - آمين .

من ثم - وبعد التنديد الشديد بمن يرفعون أصواتهم فوق صوت النبي أو يجهرون له بالقول - يمدح من يعضون أصواتهم عند رسول الله :

« ان الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم »

إن غض الأصوات عند الرسول ﷺ وهو كسرهما ، يرمز إلى واجب التخفضّ عنده في أي صوت أو صيت ، لأنه يحمل رسالة الله ، فلا يساوى بغيره أو يسامى ، وإنما غضٌ وحضٌ ظاهر في حال ومقال من قلب ممتحن للتقوى ، وكما الجهر له ورفع الصوت على صوته ، هو من قلب مقلوب ممتن بالطغوى ، فهؤلاء تحبط أعمالهم ، وأولئك الأكارم لهم مغفرة عما تعرضهم من لم وسواه ، وأجر كريم حيث يعضون أصواتهم عند رسول الله ، وإنما « رسول الله » لا محمد

⇒

أصواتهما فجاء فقال : اتدريان ابن انثا ؟ ثم قال : من اين انثا ؟ قال : من اهل الطائف فقال : لو كنثا من اهل المدينة لأوجعتكما ضرباً - اقول لعله (رض) حرم ذلك لكونه معاركة في مسجده (ص) إلا انه كيف يفرق في حكم الله بين اهل الطائف والمدينة ؟ ان لا ادري !.

ابن عبد الله ، ولأن الغض عنده غض عند الله ، فلذلك هو تابع عن تقوى الله ، وليعيش المؤمن غضاً لكيانه كمثل عند الله وعند رسوله ، فلا يقدم بين يدي الله ورسوله .

ثم ومن سوء الأدب مناداة الرسول من وراء الحجرات وإن كانت غضيضة غير عالية على صوته ، ولا جاهرة كجهرتنا لبعض ، فإنما النداء المؤدب هي المواجهة الحضور :

« ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون . ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم » .

لقد وفدت العرب من كل مكان إليه ﷺ عام الفتح الوفود ، فكانت جفاة الاعراب ينادونه من وراء الحجرات (١) ، المطلة على المسجد النبوي الشريف : يا محمد اخرج لنا ، فكان يكره الرسول ﷺ هذه الجفوة الفجوة المزعجة ، فمسح الله تعالى غبار الإنزعاج عن خاطره الأقدس ان « اكثرهم لا يعقلون » فهم جفاة جاهلون لا يبغون هتكاً لساحتك ولا فتكاً لكرامتك ، فاغفر لهم هفوتهم منبهاً لهم لكي لا يعودوا فتحبط أعمالهم ، كما « والله غفور رحيم » : إرحمهم كما الله ، ان تعلمهم عن جهلهم ، واغفر لهم كما الله فانهم لا يعقلون ، وان كانت ثمة قلة يعقلون ، فينادونك من وراء الحجرات تساهلاً في حرمتك ، أو هتكاً لحرمتك كالمناققين .

فليصبر المؤمن حتى يخرج اليه الرسول ﷺ فإنه لا يصبر في حجراته عن حوائج المرسل اليهم الا لضرورة بيتية عائلية ، او استراحة شخصية ، هما لزام

(١) الدر المنثور : أخرج البخاري في الأدب وابن أبي الدنيا والبيهقي عن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد النخل مغطى من خارج بمسوح الشعر وأظن عرض الباب من باب الحجرة الى باب البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع واحزر البيت الداخل عشر أذرع وأظن سمكه بين الثمان والسبع .

له ، ولكي يخرج الى المؤمنين فارغ البال ، غير مضطرب الحال ، ف « كان خيراً لهم » أما هو فلا يألو جهداً في سبيل الله ، وكل عقبة له يجتازها ، وكل صعوبة يتحملها ، إنها تزداده خيراً ، ولكنكم انتم المؤمنون ! ليس لكم ان تكونوا له اذى ، فاصبروا له حتى يخرج ، وثابروا حتى لا يتخرج « والله غفور رحيم » عما مضى ممن لا يعقلون ، وكذلك لمن يعقلون لو كانوا يرجعون عن جفوتهم العائدة .  
وهكذا يجب ان تراعى حرمة الرسول الاقدس ﷺ ثم ومن حذى حذوه ونحى نحوه ، فاحتذى على مثاله ومثله ، وانتهى قرابة ما انتهى اليه برسالته ، كالعلماء المعصومين من عترته ، ثم وسائر الربانيين من أمته ، كلاً على حده ومحتده والله من وراء القصد .

« يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »

ادب جماعي تحمله آية النبأ ، يقرر للجماعة المؤمنة كيف يتلقون الأنباء ، فانهم لا يشاهدون جمعا حضور المباشرة ، اللهم الا قلة قليلة ، ومن ثم تبقى الكثرة الكثيرة غائبة عن الادراك المباشرة ، ومن المستحيلات في الحياة الجماعية الاستقلال بما يشاهده الانسان ، دون استغلال لما يشاهده غيره فيشهد به ، وهذه الآية كعديد امثالها ، تنهى عن الركون الى انباء الفاسقين الا اذا تبين فيها صدق يجعله علماً كسائر العلم ، الذي يعتمد عليه المؤمنون العقلاء ، والعقلاء المؤمنون .

ان الأخذ والرفض في الأنباء ليسا فوضى دون حساب ، وانما لكل ميزان عادل ، فلا يؤخذ خبر الفاسق الا ان يتبين صدقه ، ولا يرفض خبر العادل الا ان يتبين خطاه ، ثم لنا بين الاخذ والرفض وقفة لو لم يتبين لا صدق ولا كذب ، وليس ذكر الفاسق هنا الا لانه أظهر مظان الكذب ، فليشمل الجاهل والناسي والساهي واضراهم ممن يتطرق الى انباءهم خلاف الصدق وان كانوا غير عامدين او ان الفاسق يشملهم كلهم لانه خروج عما يحق من طاعة الله ، علماً أو عملاً ،

نقلًا للأنباء أو تنقلًا أم ماذا ، فمن يجهل صحة النبأ ثم ينقله كنبأ صادق ، انه فاسق علمياً ولو كان زاهداً ، بل وعملياً اذ لا يجوز هكذا نقل مقرر لمن يتقبي الله ، وكذلك من ينسى أو يسهو ، أو يتقبل الانباء دون تبين ، فانه فاسق في نقله الا ان يبين حقيقة الحال ، فيتبين للمنقول له انه ينقله مراعيًا شرائط الوثوق مجانباً كل جوانب الفسوق في نقله هذا النبأ ، والا فتبينوا بغية حصول العلم الاطمئنان ، مخافة : « ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ! .

وكما يروى عن الامام الصادق عليه السلام قوله للمنصور : « لا تقبل في اذى رحلك واهل الرعاية من أهل بيتك قول من حرّم الله عليه الجنة وجعل مأواه النار ، فان المنام شاهد الزور وشريك ابليس في الإغواء بين الناس »<sup>(١)</sup> - ثم أستشهد بالآية .

وترى هل يختص وجوب تبين النبأ : بالخبر العظيم الشأن ، الذي جاء به فاسق ، اذا كان في اتباعه دون تبين اصابة قوم بجهالة فندم على هذه الإصابة ؟ كما نلمح من هذه الآية ، فلا يجب - اذاً - تبين في الأخبار غير العظيمة ، أو في العظيمة التي يجيء بها المجهول فسقه أو عدله ، أو التي يجيء بها فاسق وليست فيها اصابة قوم بجهالة أم ماذا !

في الحق إن آية النبأ لا تنبئ الا عما انبأت ، لكنما الآيات في حرمة اتباع الظن واقتفاء ما ليس لك به علم تعمم وجوب التبين حتى يحصل العلم الاطمئنان اياً كان الخبر ومن أي ، الا اذا كان الاطمئنان - او النوعي منه - حاصلًا بالإخبار ووجوب التبين في آيتنا في مورد لا ينفي عدمه في سواه ، لنزول الآية في مورد خاص بالغ الأهمية ، ثم الآيات الاخرى تعم فلا تنأخر في البين .

(١) امالي الصدوق بإسناده الى الامام الصادق ( ع ) .

وخطاب الآية هذه لا يشمل الرسول ﷺ لمكان « الذين آمنوا » المختصة بالمؤمنين بالله والرسول ، وأن الاصابة بجمالة والندامة عليها ليست من شيم الرسول ﷺ الذي ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ، فلا تصدق عليه الروايتان في الوليد وعائشة (٢) ، وقد تصدقنا الآية التالية لها ، الناكرة لاتباع الرسول في هكذا امور :

(١) لقد رويت في شأن نزول هذه الآية روايتان ، احدهما عن طريق الفريقين في الوليد بن عتبة ان النبي (ص) بعث الى الحارث بن ضرار الخزاعي ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فرجع قبل ان يصل اليه فقال : ان الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله البعث الى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه حتى اذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم : الى من بعثتم ؟ قالوا : اليك ، قال : ولم ؟ قالوا : ان رسول الله (ص) بعث اليك الوليد بن عتبة فزعم انك منعت الزكاة وأردت قتله - قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته وما رأيته - فلما دخل الحارث على رسول الله (ص) قال : منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته وما رأيته وما اقبلت الا حين احتبس علي رسول الله (ص) خشيت ان يكون كنت سخطه من الله ورسوله - فنزل « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق .. » ( الدر المنثور ) أخرجه احمد وابن ابي حاتم والطبراني وابن منسده وابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن ضرار قال : قدمت على رسول الله (ص) فدعاني الى الاسلام فدخلت فيه واقررت به ودعاني الى الزكاة فأقررت بها - قلت : يا رسول الله ! ارجع الى قومي فأدعوهم الى الاسلام واداء الزكاة فمن استجاب لي وترسل الي يا رسول الله إيان كذا وكذا لتأتيك ما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الابان الذي اراد رسول الله (ص) ان يبعث اليه احتبس الرسول فلم يأت فظن الحارث انه قد حدث فيه سخطه من الله ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم : ان رسول الله (ص) كان قد وقت لي وقتاً يرسل إلى رسول الله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله (ص) الخائف ولا أرى حبس رسول الله إلا من سخطه فانطلقوا فنأتى رسول الله (ص) .. وبعث ...

اقول : لا يمكن قبول هذا الحديث هكذا - ان يعتمد رسول الله (ص) على قول فاسق فيبعث اليه بعثة تقتله ، اللهم الا ان « فزعم انك منعت .. » تلمح الى عدم ركون الرسول الى قول

( واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبيب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون )

⇒

عقبة - وان البعثة كانت للتبين - والآية لا تشمل النبي فانه تبين هنا - ولأن الذين آمنوا لا تشمل النبي على أية حال - اضافة الى برأته عن الجهالة فانه لا يصدر إلا عن وحي الله ، والثانية ما رواها القمي في تفسيره - ان الآية نزلت في مارية القبطية ام ابراهيم وكان سبب ذلك ان عائشة قالت لرسول الله (ص) ان ابراهيم ليس هو منك وانما هو من جريح القبطي فانه يدخل اليها في كل يوم فغضب رسول الله (ص) وقال لأمر المؤمنين (ع) خذ السيف واثنني برأس جريح فأخذ امير المؤمنين (ع) السيف ثم قال : بأبي انت وأمي يا رسول الله (ص) انك اذا بعثتني في امر اكون فيه كالسفود المحمى في الوبر فكيف تأمرني اثبت فيه او امضي على ذلك؟ فقال له رسول الله (ص) بل تثبت - فجاء امير المؤمنين الى مشربة ام ابراهيم فتسلى عليها فلما نظر اليه جريح هرب منه وصعد النخلة فذا منه امير المؤمنين (ع) وقال له : انزل - فقال له : يا علي ! اتق الله ما ههنا أفس اني محبوب ثم كشف عن عورته فاذا هو محبوب ، فأثنى به رسول الله (ص) فقال له رسول الله (ص) : ما شأنك يا جريح ؟ فقال : يا رسول الله (ص) ! ان القبط يحبون حشمتهم ومن يدخل الى اهليهم والقبطيون لا يأمنون إلا بالقبطيين ، فبعثني ابوها لأدخل اليها وأخدمها وأؤنسها - فأنزل الله عز وجل : يا أيها الذين آمنوا .

اقول : والحديث مضطرب حسب الظاهر - اذ ينسب الى الرسول (ص) انه امر بقتل بريء بمجرد شهادة امرأة بظنة و تهمة - الا ان في رواية عبد الله بن موسى عن احمد بن راشد عن مروان بن مسلم عن عبد الله بن بكير قال قلت لأبي عبد الله (ع) جعلت فداك كان رسول الله (ص) قد امر بقتل القبطي وقد علم انها كذبت ام لم يعلم ؟ وانما دفع الله عن القبطي القتل بثبت علي (ع) ؟ فقال : قد كان والله اعلم - ولو كانت عزيمة من رسول الله (ص) ما رجعت علي حتى يقتله ولكنه انما فعل ذلك رسول الله (ص) لترجع من ذنبها فما رجعت ولا اشتد عليها قتل رجل مسلم بكذبها .

اقول : ولكن يبقى هنا ان رجوع امرأة عن ذنبها - وما رجعت - لا يبرر ارهاق واهانة رجل مسلم بريء - وان « الذين آمنوا » ليست لتشمل الرسول (ص) كما في قصة عقبة وان الجهالة لا تنسب إلى النبي (ص) وهو لا ينضي الا بأمر الله .

وي ! كأنهم لا يعلمون ان فيهم رسول الله ، الصادر عن الله لاعن آرائهم ،  
السائر إلى الله لا إلى أهوائهم ، فـ « فيكم رسول الله » لا : محمد بن عبد الله ،  
ولا رسول الله والهوى ، ولا بشر مثلكم في الجهل والخطأ ، وانما « رسول الله »  
ﷺ لا يصدر الا عن الله ، ولا يدعو إلا إلى الله ، فمن المحال ان يطيعكم في  
كثير من الامر ، فـ « لو يطيعكم في كثير من الأمر » امر الشر وحكمه  
« لعنتكم » أثمتم وهلكتم فمعجزتم انتم عن إمرار الحياة الراحة ، واستمرار  
الحياة السعيدة ، واخلدتم إلى حياة جهنمية فوضى ، فترى لو ان الرسول اطاع  
الوليد بن عقبة في فريته على الحارث البريء ، او اطاع زوجته عائشة في جريح  
القبطي البريء ، كم كان العنت الحاصل عن طوعهما هوى وجهلا « ان تصيبوا  
قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ولكنه رسول الله لا يطيع في الأمر  
الا الله ، فانما النصح لكم بلسانه : ( يا ايها الذين آمنوا اذا جاءكم فاسق بنبأ  
فتبينوا .. ) لاله وهو التنزيه عن اتباع هواه أو سواها ، الا وحياً يوحى ،  
فضلاً عن أهوية سواها ولا سيما الفاسقين !

فلا ترغبوا في اتباعه ﷺ لكم ، ولا ترقبوا أن يتابعكم : « ولو اتبع  
الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » ( ٢٣ : ٧١ ) « فلذلك  
فادع واستقم كما امرت ولا تتبع أهواءهم » ( ٤٢ : ١٥ ) اللهم الا في قليل من  
الامر الذي لا بد ويوافق الحق ، حيث الكثير فقط في العادة هو الخاطئ لانهم  
يتبعون الظن وما تهوى الانفس : « وان قطع اكثر من في الأرض يضلوك عن  
سبيل الله ان يتبعون إلا الظن وان هم الا يخرصون » ( ٦ : ١١٦ ) ومن ثم  
القليل هو المصيب : « وقليل من عبادي الشكور » .

فاعلموا انه الرسول ، جاء ليزيل عنكم وصيات العنت ، ويبعدكم عن  
خطوات الغلط ، فكيف يزيدكم عنتاً على عنت وغلطاً على غلط ؟ : « لقد جاءكم  
رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ( ٩ : ١٢٨ ) .

وي! كأنهم لم يعلموا ان فيهم رسول الله، وانما انسان لهم أذن، يسمع ما يقولون  
ويطيع ما يهون، كلا! وانما «اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين»! اذن  
الخير الايمان، فليس الا في قليل من الامر.

إن من مقتضيات العلم: أن فينا رسول الله، أن لا نتقدم بين يديه، ولا نرفع  
اصواتنا فوق صوته، ولا نجهر له بالقول كجهرنا لبعض، ولا نطمع ان يطيعنا في  
كثير من الأمر، بل نكون له طوعاً وسلاماً ولكي نسلم عن النكبات على ضوء  
الاسلام الايمان، كما الله حببه اليها:

( ولكن الله يحب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم ) : حبب الايمان بالله ،  
فصرتم تحبون الله ، اذا فاتبعوا رسول الله : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني  
يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ( ٣ : ٣١ ) ف « هل الدين الا الحب » ؟ ( ١ )  
كلا ! ، انما « الدين هو الحب والحب هو الدين » ( ٢ ) .

وتحبب الايمان الى الانسان كتقدمة لتزيينه في قلبه ، تحبيب « الى » وتزيين « في »  
فالدعاة الى الله من جانب ، بما يعملون رايات الدعوة الحنونة الحبيبة ، وحب  
الانسان فطرياً وعقلياً للايمان - بما فطر الله - من آخر ، يجعلان - متعاملين - ركيزة  
لحب الايمان في روح الانسان ، عقلاً وصدرأ و الى قلبه ، ومن ثم يأتي دور  
تركيزه في القلب « وزينه في قلوبكم » تعاملًا بين عقيدة الايمان وعمل الايمان  
فيزدادوا ايماناً على ايمان : « والذين اهتمدوا زادهم هدى وآثام تقواهم » ( ١٧ : ٤٧ )  
« اولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه » ( ٥٨ : ٢٢ ) .

فلا تزيين للايمان في قلب ما لم يدخل فيه ، ولا يدخل فيه ،

( ١ و ٢ ) معاصر البرقي باسناده عن ابي جعفر الباقر ( ع ) في حديث له قال يا زياد ويحك  
وهل الدين الا الحب ألا ترى الى قول الله « ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله  
ويغفر لكم ذنوبكم » الا ترون قول الله لمحمد ( ص ) : « حبب اليكم الايمان وزينه في  
قلوبكم » وقال : « يحبون من هاجر اليهم » وقال ( ع ) : الدين هو الحب والحب هو الدين .



إلا من يتحجب له بعد ما حجب الله إليه ، وقبل هذا وذاك لا تحجب ولا تزين بالايان حتى يكره الكفر والفسوق والعصيان فيكرهها وقد فعل :

« وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان » فالكفر مقابل الايمان ، والفسوق خروج عما يقتضيه الايمان من طاعة الى تخلف ، فهو اذا سبب موصل الى العصيان ، وقد كره الله لنا هذا الثالث المنحوس مع ما حجب الينا الايمان ، « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » اذ لا جبر ولا تفويض بل امر بين امرين ، فمن يختار الايمان زاده الله ايماناً على ايمان ، ومن يختار الكفر والفسوق والعصيان ختم الله على قلبه بطابع الللايمان ، فأية تحبيب الايمان لا تجعل كل المخاطبين من المؤمنين غير العاصين ، او قد جمعت بينهم كلهم في ذلك ترغيباً وتشويقاً وتوحيداً لصفوف الايمان ، لا أنهم كلهم بالغون تلك الدرجة من الايمان ، وانما الله ينسبهم بما فعل فناظر ماذا يفعلون ، وهم درجات في ايمانهم كما ان سواهم درجات في كفرهم وفسوقهم وعصيانهم ، و « اولئك » الأكارم المؤمنون « هم الراشدون » الذين رشدوا في صراط الحق ، لا ببعول وقوة منهم فقط بل وانما :

« فضأ من الله ونعمة والله عليم حكيم » : عليهم بعجزكم ، حكيم في فضله لكم ، : « فلو لا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » ( ٢ : ٦٤ ) « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا » ( ٤ : ٨٣ ) « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم احد ابداً » ( ٢٤ : ٢١ ) .

هذا طرف من ادب الاصلاح فيما يفسد بينكم من فرية سوء ام ماذا ، استصلاحاً لما بينكم ، ومن ثم تنتقل المسؤولية الى الاصلاح في معارك اخرى كما بين اخويكم :

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احدهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين »

رغم ان الاخوة الصادقة والصلح البالغ هما لزام الايمان كما خاطبوا به ،  
الا ان هناك ، وبين غير الكاملين في الايمان ، او الجاهلين والمتجاهلين شرائط  
الايمان ، هنا وهناك نزوات ونزعات واندفاعات فخصامات وحميات وحماسات  
فتفككات ومنازعات شاسعة عن ساحة الايمان ، قد تتخطى التلاسن والتضارب  
الى مقاتلات ، رغم ان الايمان قيد الفتك ولكن « وما يؤمن اكثرهم بالله الا  
وهم مشركون » ( ١٢ : ١٠٦ ) غير خالصين في الايمان الموحد ، ومهما يكن  
من شيء فالمؤمن لا يحارب اخاه الا على تكلف ، وعل الاقتتال الملمع - اليه ،  
دون التقاتل - يعنيه « اقتتلا » لا « تقاتلا » حيث الاقتتال افتعال للقتال متكلف  
وليس فعلاً مقصوداً وبين المؤمنين الاخوة !

والا « وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمناً الا خطأ ... » ( ٩٢ ) ومن يقتل مؤمناً  
متعمداً فجزاءه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً »  
( ٤ : ٩٣ ) فهل هو بعد مؤمن ؟ ! .

فلا بد اذاً من صيانة إلهية تصون على هذه الفوارق الدامية ، وتعتلج ما  
تختلج في تخلد الايمان من فكرة الاقتتال ، ومن ثم واقعه اذا حصل ، ألا وهي  
استنفار سائر المؤمنين لمواجهة المشكلة الداخلية إصلاحاً ، مهما كان الثمن غالياً  
ولو كان القتال قضاء على قتال .

وترى من هم المأمورون بالإصلاح ، او القتال اذا لزم الأمر ؟ فهل إنه أمر فوضى  
بين دويلات صغيرة اسلامية - ان صح التعبير - وبين شعوب متشعبة حسب  
الدويلات ، فيزيد ويلات على ويلات ، لانهم مختلفون في اجتهادات أو  
سياسات ؟ ! .

كلا ! إنه أمر موجه إلى سائر المؤمنين العائشين تحت قيادة واحدة إسلامية ،  
دولة إسلامية واحدة بشعبها الموحد ، لا تفصل بينهم قوانين أو حدود أم ماذا ،  
فالآية هذه واضرابها تلميح أو تصريح بضرورة تأسيس دولة واحدة إسلامية ، لا

دويلات هي ويلات على المسلمين ، وظروف إستعمارات للكافرين .  
 ثم ترى : وإذا لم تكن كما الآن ، فهل المؤمنون يعيشون مكتوفي الأيدي  
 عن كل شارد ووارد فتكثر الفوضى ، كلا ! فإن إزالة الظلم والظيم واجبة على  
 طول الخط ، مهما اختلفت درجاتها ، فعلى المؤمنين العائشين في أرض المعركة  
 أن يصلحوا بين أخويهم ان استطاعوا ، على قيادة محلية عالمية عادلة ، وإلا  
 فليستنصروا من قبلهم حتى تحصل الكفاية ، فإنه فرض كفائي وليس عينياً على  
 المؤمنين كافة ، اللهم إلا إذا لزم استنفار المؤمنين كافة ، فإن الإصلاح الداخلي  
 ركن يرتكن إليه المؤمن ، على ضوء تقوى الله التي هي ركن الأركان ، ومن ثم  
 الإصلاح الخارجي .

وترى أفي اختلافٍ ضميرَي : « اقتتلوا وبينهما » تلميح معنوي ؟ أم - فقط -  
 سماح أدبي أن يعبر عن التثنية بالجمع كما في نظائرها ؟ عله تلميح الى واقع في  
 هكذا اقتتال بطبيعة الحال ، ان الأثنينية هي البداية في القتال ، ثم تنمو وتزهو  
 من طائفتين إلى طوائف ، بتحزبات جزئية داخل كل منهما ، ثم يرجع المقتتلون  
 في محاولة الإصلاح كما كانوا طائفتين ، حيث المصلحون لا يستطيعون إصلاحاً  
 إلا بتضييق دائرة الخلاف إرجاعاً إلى الأثنينية البادئة ثم الوحدة المرادة - : فهم  
 بداية ونهاية اثنتان « طائفتان .. بينهما .. احدهما » بينهما جمع « اقتتلوا »  
 فهم في دور الإصلاح اثنتان - بغياً : « فان بغت إحداهما على الأخرى » وفيئاً إلى  
 أمر الله : « حتى تفيء إلى أمر الله » .

وهذا الوجه المعنوي يوافق الأدب اللفظي أيضاً ، فإن أقل الجمع إثنتان ، فلا  
 تفنن هنا في التحول من جمع الاثنين إلى أكثر ، إلا تلميحاً إلى معنى صك هذا  
 وإضرابه .

ثم الطائفتان المتقاتلتان لهما حالات من حيث البغي المقصود وسواء :  
 ١- أنهما باغيان من كل جهة مقصودة وفأصلحوا بينهما ، إزالة للبغي بينهما ، فإن بغت

إحداهما على الأخرى « إن استمرت في البغي ، أو تحولت إلى بغي آخر أو بغي الأخرى « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » .

٢ - أو انهما باغيان جهلاً وسوء تفاهم دون تقصُّد؟ فكذلك الأمر ، كما وإذا استمرا في بغي مقصود وسواء « فقاتلوهما حتى يفيئا إلى أمر الله » قتال هو نضال للإصلاح وإن شملهما إذا بغتا .

٣ - أو ان إحداهما باغية قصداً أو سواء ، ثم عند الإصلاح استمرت أو غيرت بغيها إلى وجه آخر ، أم ثابت ولكن الأخرى بغت « فقاتلوا التي تبغي » سواء أكانت البادئة هي المستمرة ، أو الأخرى هي البادئة بعد الأولى ، فلا يكون القتال الإصلاح إلا مع التي تبغي بعد محاولة الإصلاح .

فالمصلحون يبتدئون بالإصلاح الموعظة والإيضاح « فأصلحوا بينهما » بأية وسيلة ممكنة عظة وبرهاناً ، فمن يتجاهل هذه اللغة الواعظة ، فلغة القتال « فقاتلوا التي تبغي » ولكن إلى حدٍّ وليس فوضى انتقام : « حتى تفيء إلى أمر الله » الذي تحققونه في الإصلاح ، والذي أمر من تحقيق الأخوة الإيمانية « فإن فاءت « الباغية : كرهاً هنا « فأصلحوا بينهما » حيث الفيء إلى أمر الله طوعاً هناك هو الصلح بعينه فلا حاجة في الإصلاح ، ولكنهما الفيء كرهاً هنا بحاجة إلى إصلاح بعده ، يحدده عند حده لكي لا يتكرر ، وذلك بتحكيم بنسود الاتفاق ، ولكنه « بالعدل » دون أن تتحكم فيه روح الانتقام « واقسطوا » هنا وهناك « ان الله يحب المقسطين » .

فهنا إصلاح أول طوعاً ، وإصلاح ثان كرهاً ، وقاتل قبل الثاني إذا لزم الأمر ، وليكن هذا المثلث المصلح عدلاً وقسطاً ، وهكذا ينتهي دور الإصلاح بين المؤمنين إلى حفاوة وحنان وعدل وإحسان بفضل الملك المنان والله هو المستعان .

هكذا تؤمر الجماعة المؤمنة أن تتوسط مصلحة عادلة مقسطة بين المؤمنين ،

فضلاً عما بينهم وبين الكافرين ، فليكونوا مع هؤلاء ضد أولاء عدلاً وإيماناً ، فماذا ترى في دويلة تدعي الإيمان النضال ، تم تدخل معركة الاقتتال بين مسلمين ومسيحيين صهيانية ، ثم لا تحارب إلا المسلمين لصالح الصليبيين الإسرائيليين ، وتسمي هذه الوحشية العارمة إصلاحاً ؟ أنا لا أدري ، اللهم ارجعنا إلى الإسلام واجمع شمل المسلمين ، واجعلنا كما أمرتنا اخوة مؤمنين :

« إنما المؤمنون أخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعالم ترحمون » .

انه ليس الإيمان - فقط - علاقة شخصية بين المؤمن وربّه ، بل وعلاقة أخوية جماعية أيضاً بينه وبين سائر المؤمنين ، بل وليست بينهم أية علاقة ورباط إلا أخوة إيمانية ، كل ذلك بدافع الإيمان وسناده ، يلح له الحصر : « إنما » التي تحصر كافة المناسبات بين المؤمنين بالأخوة « إنما المؤمنون أخوة » لا « إنما الأخوة المؤمنون » فإن هناك أخوات أخرى بين سائر الناس ليست بالتي تحصر مناسباتهم بالأخوة الألفة الخلّة ، بل وتبطل - وعلى أقصى الحدود بعد الموت - بالعداوة « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عداوة إلا المتقين » ( ٤٣ : ٦٧ ) وإذا كانت هذه حالة الخلّة غير الإيمانية ، فما هي حالة سائر الأخوات التي لا تستلزم الخلّة ؟ .

إن أخوة الإيمان تشريعية ، وواقعية بدافع الإيمان ، يؤمر المؤمن أن يؤصلها في حياته الجماعية لحد لا تبقى بين المؤمنين إلا الأخوة ، وليست هي الأخوة الخلقية كما بين الناس أجمعين ، ولا أخوة القرابة الشرعية التي تحرم فقط النكاح ، ولا الإقليمية أو العنصرية أو الحزبية أم ماذا من أخوات غير إيمانية ، فإنها ليست لازماً بين هكذا إخوة من حيث الألفة والمحبة ، ولا ان مناسباتهم محصورة في الأخوة ، اللهم إلا أخوة الإيمان فـ : « المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده » وارواحها من روح واحدة وان روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها « <sup>(١)</sup> فـ » هو

(١) اصول الكافي بإسناده إلى أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد ( ع ) يقول : ..

عينه ومرآته ودليله ، لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يكذبه ولا يغتابه (١) .  
فهذا ان المؤمن ينظر بنور الله ان الله خلق المؤمنين من نوره وصبغهم في رحمته  
واخذ ميثاقهم بالولاية على معرفته يوم عرفتهم نفسه ، فالؤمن اخو لبيه وامه ، ابوه  
النور وامه الرحمة ، وانما ينظر بذلك النور (٢) .

هكذا أخوة تقتضي بينهم عموم التآزر في عامة الحياة ، دون اي تنافر وتناحر  
ومن ثم اذا شذت طائفتان منهم فاقمتلوا ، فإخوة الباقين معهم تقتضي محاولة  
الإصلاح الصارم اياً كان الثمن ولو بالقتال مع الباغية حتى تقى الى امر الله ،  
دون اغتنام فرصة لاخذ الغنيمة ، ولا ان يجهز على جريح منهم او يقتل اسير ،  
او يتمقب مدبر ترك المعركة ، حيث الهدف من قتالهم اصلاحهم ، وانما تدور  
المعركة بين سائر المؤمنين وبين المقتتلين حول فلك الإصلاح الاخوي بدافع الايمان  
دون المعارك الأخرى كما بينهم وبين الكفار ، فان لها شروطها واحكامها  
الأخرى .

« واتقوا الله لعلكم ترحمون » فتقوى الله زاد المؤمنين الإخوة في إخوانهم ،  
وزادهم في اصلاحهم بين اخويهم ، فهي زادهم في مبدءهم وفي معادهم ، يعيشونها  
على طول الخط .

فكل مفاصلة بين المؤمنين هي خلاف الايمان ، وخلاف على كتلة الايمان ،  
كمن يهرفون بما لا يعرفون ان جماعة الشيعة الامامية مشركون ، ام تاركون  
الكتاب ام ماذا ؟ من افتراءات اختلقها الاستعمار الكافر ، واستغل في ذلك جهل  
جماعة بعيدين عن سائر إخوانهم المؤمنين ، ثم أخذ ينفج وينفخ في ابواق الخلافات

(١) المصدر بإسناده الى الحارث بن المغيرة عنه (ع) : ..

(٢) بصائر الدرجات بإسناده عن معاوية بن عمار قال : قلت لأبي عبد الله (ع) جعلت  
قدالك هذا الحديث الذي سمعته منك ما تفسيره ؟ قال (ع) : وما هو ؟ قال : ان المؤمن ينظر  
بنور الله ، فقال : يا معاوية ؟ ان الله ...

حتى جعل من فريقين المسلمين مسلمين وغير مسلمين ، يري كل "اخاء بالخروج عن الدين" ، فلتقطع السنة حداداً توسّع هذه الخلافات ، ولتكرس أقلام تزيدهم عداً فعيناء ، ولتوحد كلمة المسلمين على دعائم الاسلام ، دون ان يعملهم مختلف الاجتهادات على مباغضات ، فالملخطيء اجر واحد وللمصيب اجران ، ثم للمفرق اوزار تحمله الى النار ، وكما هو يشعل النار بين المؤمنين الإخوة ، فإذا نؤمر ان ندعوا اهل الكتاب الى كلمة سواء : « يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » (٦٤:٣) فأحرى بنا ونحن مسلمون أن يدعوا بعضنا بعضاً الى هذه السواء على سواء ، وان نصلح بين اخوينا ونتقي الله لعله يرحمنا <sup>(١)</sup>

( ١ ) فقولة من تسمى شيعياً لأخيه المنسحق سنياً : أنت من أهل النار اذ لست من أهل الولاية قوله فارغة هراء ، كما ان قوله الآخرين للاولين : انتم مشركون تعبدون الأوثان هراء فارغة ، فلماذا هم مشركون ؟ لأنهم يقبلون ضريح الرسول حياً له ؟ فهلا تقبلون انتم أولادكم وأحباءكم حياً لهم - ثم وليس التقبيل عبادة مهما كان - وحتى اذا قبل رجل أحد من الاولياء احتراماً له فانه محرم وليس شركاً ، فمن قال لكم ان الشيعة الامامية يقبلون ضريح النبي عبودية له ، اللهم الا الاستعمار الذي هو من النفاثات في العقد ، وهل يقبل عاقل ان جماعة من المؤمنين جاءوا من آلاف الكيلومترات لعبادة الحديد ؟ ان هذا الا افك مفترى ! .

ثم نقول للاولين لماذا تجانبون اخوتكم في الايمان فتجنبون عن الصلوات معهم او مصافحتهم او تحادثهم ، فقد يقولون ان جهالاً منهم يمسون من كرامتنا لماذا نقنت في صلاتنا ، ولماذا لا نتكثف ام ماذا ؟ فنقول للآخرين : هذه عقيدة المذهب هم تابعوها ، كما ان لكم غيرها وأنتم متبعوها ، فليس لقلد في مذهب ان يعترض على مقلد في مذهب آخر لماذا لست على مذهبي ، وأنا المجتهدين ان يجادلوا مع بعض وبالتالي هي احسن .

ومن طريف المناظرة ان شرطياً قبض على شيعي في الحرم المكي المبارك وأخذه الى مركز الشرطة وهو كان يقرأ القرآن ، قائلاً له : لماذا تقرأ هذا الكتاب ؟ قال : انه القرآن وهل ان

ثم وإن الإصلاح بين المؤمنين لا يخص حالة التقاتل الحرب ، وإنما التخالف - أي تخالف - من شأنه اختلاق الانقسامات والتفرقات ، التي تنقسم بها عرى الوحدة ، فتتقسم بها الكتلة الواحدة المؤمنة ، فتتقسم هيبتهم من قلوب الكتل الكافرة ، وخلاف ما يقول الله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (٦٠:٨) .

ان الإصلاح هنا - أي إصلاح - يقوم على دعائم العدل والقسط والايمان والتقوى ، على غرار ما يقرره كتاب الله ، دون الأهواء والمصالحات السياسية المجانبة لشريعة الله ، ودون الاستبدادات في اية اجتهادات ، وانما « امرهم شورى بينهم » .

وانه اصلاح ما فسد بين المؤمنين ، من عقائدي واقتصادي وسياسي ، ومن فردي وجماعي ام ماذا ، فليعيش المؤمنون حياة الصلح مع بعض ، وليكونوا يبدأ واحدة على من سواهم .

مركز تحقيق كتاب نور علوم إسلامي

قراءته معظورة في المسجد الحرام ؟ قال : لا - ولكن قرآنكم يختلف عن قرآننا ! قال : كلا ! فخذ هذا القرآن المطبوع في ايران وقاسه على سائر القرآن فلا تجد نقطة اختلاف ! قال : ليست لي هذه الفرصة ولكن قل لي لماذا أنت شيعي ولست مسلماً ؟ قال : انا شيعي لأنني مسلم سني ! قال : كيف يا غبي ! قال : يا اخي لأن سنة رسول الله تأمرنا ان نشايح باب مدينة العلم علياً ! فسكت ومن معه ثم قالوا : هؤلاء لهم قوة الجدل وانما دينهم التقية . فانظر الى هذه المهازل التي اختلقها الاستعمار فأصبح من جرائمه بيست الله الآمن وبلده الأمين محوراً للمعارك والمضاربات والإفتراءات والله تعالى يقول « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناء » . فلنغرض ان الشيعة الامامية - ولا يسمع الله - مشركون ! فلماذا يسمح لهم دخول الحرمين الشريفين والله تعالى يقول : « انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ... » ولو انهم مسلمون منحرفون ، فلتقم جماعة علماء عارفين بدعوتهم إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا بالهتك والفتك والضرب والاهانة ، فإن ذلك لا يزداد إلا بعداً ولا يخلف الا مرضاة المستعمرين ، الذين جعلوا من مركز الوحدة الاسلامية ميدان المعركة الضارية ، والله المستعان وعليه التكلان .



فعلينا ان نذرف دمعة الدماء ، مما نرى بيننا من عدااء ، تنفث في توسيعها  
الاعداء ، فالله اذاً هذا - كما منهم - براء ، الا ان نهتدي بهدى الله ، ونعتصم  
بجبل الله .

\*\*\*

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ  
يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً  
مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ  
الِإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الظَّالِمُونَ - ١١ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ  
الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ  
بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ  
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ - ١٢ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا  
خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا  
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ - ١٣ .  
قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا  
وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ - ١٤ .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا  
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ  
الصَّادِقُونَ — ١٥ . قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ  
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ — ١٦ .  
يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ  
اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ — ١٧ .  
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا  
تَعْمَلُونَ — ١٨ .

مركز تحقيق كتب علوم اسلامی

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم  
ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ... »

.. هتاف حبيب للمؤمنين ، باستجاشة روح الايمان ، يستيقظ فيهم نباهة  
الحنان أن يكونوا — مع بعض — عقلاء حلماء أذكاء أذكاء ، فلا يسخر قوم  
من قوم ولا نساء من نساء ، ولماذا يسخرون ، ومم يستهزءون ، لأنهم خير منهم  
في ميزان الحق فبه يفتخرون فيسخرون ممن هو أدنى منهم ؟ وهذا من شسيم  
الجاهلين ، فلا يستهزء المؤمن العارف ولو بغير المؤمنين الذين هو خير منهم بقين ،  
فكيف بمن « عسى أن يكونوا خيرا منهم » فلماذا يهرفون — إذا — بما لا  
يعرفون ؟ .

إن السخرية من أي إنسان والهزاء به جهل عارم : « قالوا أتتخذنا هـ زو

قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » ( ٢ : ٦٧ ) فإذا هي تجهل موسى الرسول عليه السلام، لو هزء وإن كانت من الإسرائيليين العارمين، فما هي إذا ممن « عسى أن يكونوا خيراً منهم » أو هم خير على يقين ؟ .

إن السخرية من أي إنسان، محظورة في هذا المثلث بكل زواياه ، ولأن الزاوية الوسطى هي الأكثر : - أن يزعم الساخر أنه خير من المسخور منه ولذلك يسخر منه - ركز النهي في الآية بها ، ثم آية البقرة عممت النهي : إن السخرية جهالة ولو كانت من نبي ولن يكون ، فكيف ممن « عسى أن يكونوا خيراً منهم » . إنه ليست السخرية على أية حال إلا جهالة ، فلو أنه أدنى منك ولحد الكفر ، فليست للسخرية دور مع الكافر ، فإنها تزيد في نفوره وكفره ، إذ قد يحتاج على الساخر أن ليس له برهان ، فلذلك يسخر مني ، أم إنه رذيل يترذل بمن يراه أدنى منه ، بدل أن يحاول في علاجه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلا لك كمؤمن أن تسخر من أحد وإن كان يسخر منك ، اللهم إلا أجزاء السخر بسخر مثله ، عقاباً وفاقاً وعند الإياس من انتباهه عن غفلته وغفوته ، والايقان أنه يعانده مقصراً ، فليست السخرية 'الجزاء' - إذا - جهالة ، بل وقد تكون حسناً أو واجباً وكما من نوح : « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإن ناسخ منكم كما تسخرون » ( ٤٩ : ١١ ) فما لبثوا أن سخرت منهم أمواج الطوفان : « وقيل بعداً للقوم الظالمين » .

وكيف ركز النهي هناك على « قوم من قوم أو نساء من نساء » والسخرية محرمة وإن بين قوم ونساء ؟ لأن هزء الجنس من جنسه هو طبيعة الحال ، قضية التحاسد التكاثري<sup>(١)</sup> ، وكما تشير بنكايه الهزء الجاهيري وأنه أتعس من أن يسخر

(١) الدر المنثور : اخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في آية السخر قال : نزلت في قوم من بني تميم استهزؤوا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهره وسالم مولى أبي حذيفة .

شخص من شخص ، فالآية تحمل النحس صور الهزة : أن يكون ممن عليه خير من الهازي ، ومن قوم أو نساء ، وإن كان سواهما من هزة محرماً دونه ، كما تفيدنا آية البقرة واضرابها ، فلا يسخر شخص من شخص <sup>(١)</sup> وإن عسى أن يكون الساخر خيراً .

هذه اومن ثم استجاشة أخرى هي أشمل وأحرى ، إستيعاء من روح الأخوة الإيمانية ، التي تجعل من المؤمنين نفساً واحدة - ف :

« ولا تلمزوا أنفسكم » فان من يلمز ويعيب أخاه المؤمن ، هو لأمز نفسه ، لأنه منه أو هو هو ، لا يفصل بينهم إلا فاصل الجسم ، والروح واحدة ، فكيف يعيب مؤمن نفسه ، اللهم إلا أن تحاول علاج أخيك كما تعالج نفسك ، بكل حنان وأمان ، ودون إيذاء وتشهير ، وإنما كمرآة تريك مساويك دون أن تجاهر بها لسواك فإن « المؤمن مرآة المؤمن » .

هذه - وكما توحى « أنفسكم » بأن لزم البعض لزم الكل ، فإنه من كرامة الإيمان ، فهل من عاقل بعد يلمز أخاه بعد أنه نفسه حيث الوحدة الإيمانية ، فذلك تتركز الاستجاشة هنا وهناك بروح الإيمان يا أيها الذين آمنوا... ، وشعور الاندماج في نفس واحدة « ولا تلمزوا أنفسكم » ، لحد :

« ولا تنازروا بالألقاب » فالنبر هي اللقب بعينه ، فالتناز هي التلاقب ،

(١) في تفسير علي بن ابراهيم القمي انها نزلت في صفية بنت حيي بن اخطب وكانت زوجة رسول الله (ص) وذلك ان عائشة وحفصة كانتا تؤذيانه وتشتمانه وتقولان لها : يا بنت اليهودية ، فشكت ذلك الى رسول الله (ص) فقال لها : ألا تجيبهما ؟ فقالت : بماذا يا رسول الله (ص) ؟ قال : قولي ان أبي هارون نبي الله وعمي موسى كلم الله ، وزوجي محمد رسول الله (ص) فما تنكران مني ؟ فقالت لهما ، فقالتا : هذا علمك رسول الله (ص) فأنزل الله في ذلك « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر .. » .

أن يسمي بعضنا بعضاً بما يدل على ذم بسوء<sup>(١)</sup> ، وإنما الألقاب الطيبة الحنونة هي التي تليق بالتبادل بين المؤمنين ، مهما كانت هناك سيئات ، فالمؤمن يستر القبيح ويظهر الجميل ، كما الله ، تخلقاً بأخلاق الله ، ولقد غير رسول الله ﷺ ألقاباً مزرية تبقت من الجاهلية للبعض ممن آمن ، بأسماء أو ألقاب طيبة ، ذوداً عن كرامة المؤمنين ما يزرهم ، فليلتزم المؤمن اسم الإيمان لنفسه وأنفسه المؤمنين ، فإنه أنفَس من أي نفيس ، فضلاً عن أن يتنازع بالألقاب السوء ، فـ : « بنس الاسم الفسوق بعد الإيمان » : إن تبرز أخاك بلقب يجانب الإيمان ، اسم هو وصم الفسوق للإيمان ، ومن ثم تتسم أنت المنازع أيضاً باسم الفسوق بعد الإيمان ، لأنك فسقت عن شريطة الإيمان ، فعليك أنت المنازع ، وذلك الساهر أو الإلزام ، عليكم أن تتوبوا إلى الله :

« ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » : أنفسهم وأخوانهم ، حيث انتقصوا سواهم سخرأ أو نبزأ أو لمزأ ، فنقصوا - هم - عن أنفسهم كمال الإيمان ، فالله هو المستعان .

ثم وليست السخرية واللمز والنبز دائرة مدار الواقع المعلوم - فقط - فإن كثيراً من الظن السوء حرام لأن بعض الظن إثم :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً .. »

(١) عيون أخبار الرضا (ع) في حديث له لما قيل له في شعر : انشدني أبي العتاهية لنفسه قال : هات اسمه ودع هذا - إن الله سبحانه يقول : ولا تنازروا بالألقاب .

وفي الدر المنثور - أخرج جماعة من الجامعين عن أبي جبير بن الضحاك قال : فينا نزلت في بني سلعة « ولا تنازروا بالألقاب » قدم رسول الله (ص) المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله (ص) ! إنه يكره هذا الاسم فأنزل الله : « ولا تنازروا بالألقاب » .

إن الظن السوء بين المؤمنين مع بعض بجانب روح الأخوة الإيمانية، ما يترتب عليه الآثار السوء، دون واقع الإدراك النفساني المجرد المفاجيء للإنسان دون اختيار، اللهم إلا إذا استطاع ترويض نفسه على ترك هكذا إدراك سوء أيضاً، أن يعيش الظنّ الخيّر، إذا غلب الخير على المؤمنين، أو اللاّظن لا خيراً ولا شراً إذا غلب الفساد، كل ذلك توقياً عما يتوقع من الوقوع في الإثم، ضابطة وقائية بكرامة المؤمنين مع بعض: ترك الظن السوء قدر الامكان، اللهم إلا قليلاً يملك فيه دليلاً قاطعاً، لكنه لا يملك التجسس عنه بغية التأكد منه، أو إذا تأكد أن يفشيّه: «ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً...» فالتجسس والتتبع عن مساوئ المؤمنين محرم، والتجسس والتتبع عن محاسنهم هو قضية الإيمان. فذلك سياق آخر فوق المسبقة، حول حرّمات المؤمنين، يتخطى الواقع الخارجي من المعاملة السوء، الى المشاعر والظنون تنظيماً لها وتنزيهاً عن أن يظن بالمؤمنين سوء، وما أروح الحياة في مجتمع بريء من الظنون، طمأنينة لا تتمعكر بقلق، فلا يؤخذ - إذاً - مؤمن بظنّه، ولا يحاكم بريئه.

تلك الروح النظيفة العالية هي نبراسة الحياة الإيمانية، وهي مئادة النكبات اللاإيمانية، وعلى حد المروي عن إمام المتقين علي عليه السلام: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك منه ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وانت تجد لها في الخير محملاً»<sup>(١)</sup> وذلك «إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم أساء رجل الظن برجل لم يظهر منه حوبة فقد ظلم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله ثم أحسن رجل الظن برجل فقد غرر»<sup>(٢)</sup> بل يترك هنالك الظن سوءاً وحسناً، دون أن تنفصم ضابطة الآية «اجتنبوا كثيراً من الظن» غلب

(١) اصول الكافي بإسناده عن الحسين بن مختار عن أبي عبد الله (ع) قال قال أمير المؤمنين (ع): ..

(٢) السيد الشريف الرضي في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: ..

الصلاح أم غلب الفساد، ولكن عند غلبِ الصلاح علينا أن نحسن الظن، لا أن لا نسيء فقط » لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ، ( ٢٤ : ١٢ ) .

إن واقع السوء ، وفي مجتمع يغلب عليه الصلاح ، إنه شبهة غير محصورة ، فلتترك هذه الشبهة مخافة الوقوع في الاثم « إن بعض الظن إثم » .

وترى إذا كان البعض ائماً دون الكثير ، فلماذا يجتنب الكثير ، علته لأن الاثم ما يبطل عن الثواب الصواب ، فيدفع إلى غير الصواب ، إما تهمة وإصابة بريء فواويلاد ، أو فضح مسيء ، فإشاعة فاحشة ، فلأن الكثير من الظن السوء يدفع إلى البعض الاثم ، يمنع هذا الكثير حيلة على ذلك القليل ، فإن عرض المؤمن عظيم كثير .

أو إذا كان الكثير الممنوع من الظن ما يرتب عليه الآثار ، فبعضه إثم في ترتيب الآثار ، لأنه قد يصادف بريئاً عن الأوزار ، ولكننا الأول أولى أو هو الحق ، لأن الظن السوء باختيار سوء أباً كانت ، ولأن بعضه إثم فليترك كله وقاية وحيلة على حرمان المؤمنين ، وإن ما يرتب عليه الآثار كله اثم يبطل عن الصواب ، صادف بريئاً أو غير بريء ، لأن فضح المسيء حرام : ف « اجتنبوا كثيراً من الظن » نفسانياً « ان بعض الظن اثم » واقعياً - حيث يبطل عن الصواب والثواب بالنسبة للمؤمنين المظنون بهم ، وعجلة الحياة الإيمانية يجب أن تكون دائمة الحراك سريعاً في الخير بين المؤمنين ، فليجتنب ما يبطلها أو يوقفها من الظن السوء مخافة البوار : .. وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً » ( ٤٨ : ١٢ ) .

وترى ان اجتناب الظن القليل الباقي بعد الكثير ليس واجباً كالكثير ؟ كلا لأنه الظن المسنود إلى قاطع البرهان ، فمجانبته إذاً خلاف البديهة ، لا تمكن حق تجب ، وإنما الواجب فيه ، الحفاظ على الأعراض ، إعراضاً عن إفشاء ما ثبت

من سوء أو التلميح به، اللهم إلاّ فيما يجب أو يجوز من شهادة أو نصح أم ماذا .  
إذا فواجب الاجتناب عن كثير من الظن حتى عن الوقوع في الإثم أحياناً ،  
مع ما فيه من تنظيف المشاعر عن الظنون السيئة ، ثم للقليل الباقي حكمه ، كل  
حسب المصلحة الجماعية قضية الإيمان .

«... ولا تجسسوا» عن معائب المؤمنين ، وإنما تحسسوا عن محاسنهم ، إظهاراً  
للجميل وسترأ للقيبح ، فالتفتيش عما استتر من أمور الناس أو عيوبهم محظور  
جماعي عارم ، يعكّر جو الطمأنينة والراحة ، ويبدله إلى الاضطراب والعاهة ،  
سواء أكان التجسس للإطلاع الشخصي ، أم للإطلاع الجماعي فأشد وأنكى ،  
وإن كان المجسس عنه عيباً دون ريب ، فكيف إذا كان صواباً يحمل اصلاحاً في  
زاوية أو زوايا من الحياة الجماعية الإسلامية ، فيتجسس الوسواس الخناس عن  
صالحات من خبايا الناس ، ليطلع عليها الناس ، فيأخذوا حذرهم واسلحتهم  
شاهرين على هؤلاء الناس ، فتقع الواقعة الشوكاء الشوحاء ، خنقاً على أية فكرة  
للإصلاح ، في حالة جهنمية يخلقها الخناس ، وليعيش حاكماً مطلق العنان على  
الناس دون سماح لحياة آمنة طاهرة .

ان التجسس عن أسرار المؤمنين محظور بأي لون وعلى أية حال سواء أكان  
حركة تالية للظن ، أو بدائية لكشف العورات والتطلع إلى السوات ، وبأية  
غاية أو عناية أخرى حصل ، وعلى أي انسان ، وإن « أقرب ما يكون العبد  
إلى الكفر ان يوافي الرجل الرجل على الدين فيحصى عليه عثراته وزلاته ليعنفه  
بها يوماً مآء »<sup>(١)</sup> وقال رسول الله ﷺ : « لا تطلبوا عثرات المؤمنين فإن من تتبع  
عثرات أخيه تتبع الله عثرته ، ومن تتبع الله عثرته يفضحه ولو في جوف بيته »<sup>(٢)</sup>

(١) اصول الكافي بإسناده الى عبد الله بن بكير عن زرارة عن ابي جعفر وابي عبد الله (ع).

(٢) اصول الكافي بإسناده الى محمد بن مسلم او الحلبي عن ابي عبد الله (ع) قال قال رسول

الله (ص) :



هذا ! اللهم إلا غير المؤمنين الخطرين على الحياة الإيمانية ، فيجسس عنهم حياتاً على المؤمنين وسياجاً عما يمس من كرامتهم ، أو من يشذ عن سبيل المؤمنين ، فيولى ما تولى ويصلى جهنم وساءت مصيراً :

من جاسوس لصالح الفجار ، أو مضلل للمسلمين ، أو أي مفسد في الأرض ، فيؤخذ على يديه ، أو يحسس عنه تأكيداً من نواياه ليوقف على حده ، أو يخفف - ولا أقل - عن حدته .

وان استنطاق الغافلين للكشف عن خباياهم تجسس ، واستغابتهم ممن يغتابهم تجسس ، دون تخصص بتسليق البيوت ، وإنما التعمش عن الأسرار ، المختفى بها أصحابها - أياً كان - تجسس<sup>(١)</sup> محظور<sup>(٢)</sup> ، اللهم إلا فيما يحمل هامة لصالح المسلمين فرادى أو جماعات ، مادياً أو معنوياً .

فالكثرة المؤمنة تعيش آمناً امينة على أسرارها وعوراتها وبيوتها وكل خباياها وخفاياها ، إلا من تخلف في سر له عن رتبة الإيمان ، فخيف منه خطر على كتلة الإيمان ، فلا سر له إذا يحترق ، إلا ما لا يناحر صالح الإيمان .

ثم - وإذا تبين لك عن مؤمن مزرقة ، أو ما لا يحب إفشائه ، فلا لك ان تغتابه :

« ولا يغتاب بعضكم بعضاً » : انتم المؤمنون ، مهما اختلفت درجات الإيمان ومذاهبه ، ما صدقت كلمة الإيمان وان في ادنى ادانيها ، فانتم كجسد واحد متبعض : « بعضكم بعضاً » تحكم فيكم روح الإيمان الواحد ، فليحضر كل بعض مع الباقي ، دون غياب ولا اغتياب ، فلا تحكم المباغضة - فقط - بحرمة الاغتياب بل وبوجوب الانتداب أيضاً لبعض في صالحه ، ومنه كف الغيبة عن بعض ، ولزوم الاكتساب لبعض إذا اغتیب أو اصاب .

(١) عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) في حديث : ومن استمع الى حديث قوم وهم له كارهون يصب في اذنيه الأذنك ( الرصاص ) يوم القيامة .

ان الغيبة وهي ذكر العيب بظهر الغيب بكتابة أو إشارة أو لسان أو أيا كان ، أو « ذكرك أخاك بما يكرهه » انها اساءة إلى المقتاب إذ تفضبه إذا سمع وتخلق فيه الضغينة والعداء لمن اغتابه ، وإساءة إلى المجتمع الإسلامي السامي ، إذ تخلق فيه جوّ اللاتّامن الفوضى كدراً قذراً ، إفشاء للفاحشة في الذين آمنوا فجرة جماعية على فعل الفاحشة : « ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وانتم لا تعلمون » ( ٢٤ : ١٩ ) ففيها تضييع لحق فردي وآخر جماعي ، فما افحشها فاحشة وما أنكأها .

ترى كيف يغتاب مؤمن أخاه وهو منه وبعضه ؟ وكيف يتفكه باغتيابه كما هو شأن كل مغتاب ؟ وما مشهد الإغتياب في الرزء والإكتئاب ، إلا كأخزى مشهد تتأذى له أكثر النفوس حسنة وأقلها حساسية ، وهو مشهد الأخ يأكل لحم أخيه ميتاً : « يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » ؟ فحب الغيبة تفكها بضاهي حب أكل لحم أخيك الميت ، فالنيل من عرضه كأكل لحمه ، وهو في غيابه ، كما كل لحم ميتاً (١) أفلا تكرهونه ؟ « فكرهتموه » : ثالث الكراهية العريقة في كل أحد وان كان في أدنى درجات الإيمان ، فلم يقل

(١) الدر المنثور : اخرج ابن ابى حاتم عن السدي ان سلمان الفارسي كان مع رجلين في سفر يخدمها وينال من طعامهما ، وان سلمان نام نوماً فطلبه صاحبا فلم يجداه ف ضربا الحياء وقالوا : ما يريد سلمان شيئاً غير هذا ان يجيء الى طعام معدود وخباء مضروب فلما جاء سلمان اوسلاه الى رسول الله (ص) يطلب لهما إداماً فانطلق فأفاه فقال : يا رسول الله (ص) بعثني اصحابي لتؤدبهم ان كان عندك ، قال : ما يصنع اصحابك بالأدم ؟ قد اتقدموا ، فرجع سلمان فخبّرهما فانطلقا فأتيا رسول الله (ص) فقالا : والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا ، قال : انكما قد اتدتما سلمان بقولكما ، فنزلت « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » .

وفيه عن أنس ان الرجلين هما ابو بكر وعمر وفيه : بأي شيء اتدتما ؟ قال (ص) : بلحم أخيكما ، والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما ، فقالا : استغفر لنا يا رسول الله (ص) ؟ قال : مراة فليستغفر لكما .

« فتكرهونه » كفعل مستقبل ، وإنما « فكريهتموه » ، كماض ، إيجاء بثبات هذه الكراهية : ان يأكل الإنسان لحم أخيه ميتاً ، ثباتاً في الفطرة لكل أحد : « فكريهتموه » : عافته أنفسكم وان كنتم جائعين غرثى .

وترى هل تحرم غيبة المؤمنين الموافقين لك في المذهب فقط ، أم وكل مؤمن من أي مذهب ؟ الحق هو الشمول ، فإن الأخوة الإيمانية تشمل كافة المؤمنين ، دون المنافقين ، وإنما المؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر أياً كانت مذاهبهم ، إذ تجمعهم كلمة الإيمان ، مهما تفرقهم مذاهب الإيمان ، فعليهم جميعاً أن يعتصموا بحبل الله ولا يتفرقوا ، والغيبة من أشد أسباب التفرقة ! .

ان حرمة الغيبة تحور على محور الأخوة الإسلامية الثابتة على غرار الآية : « فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين .. » ( ٩ : ١١ ) هذا ! فضلاً عما يأتي بأكثر من ذلك من شرائط الأيمان ، ولا تعني التوبة هنا إلا عن الشرك بالله ، ولا إقام الصلاة وإيتاء الزكاة إلا الدخول في شريعة الله ، إيماناً بالله وبرسول الله واليوم الآخر أم ماذا ، على مختلف درجاتها ، فإن الايمان درجات كما الكفر درجات ، فلا لك كمؤمن أن تواجه أخاك في الايمان بلقب الشرك او الكفر ، بعدما حرم الله التنايز بالألقاب ، فلا تجوز اغتياب مسلم غير منافق ، موافقاً لك في المذهب ام غير موافق ، اللهم الا المتجاهرين بالفسوق ، المستهزين في هتك حرمة الله ، فليس لهم - اذاً - ستر حتى يهتك بالاغتياب ، والا من الاغتياب دواءه لكي يرتدع ، ام دواء لداء عضال بين المجتمع الذي يعيشه ، ام اية مصلحة راجعة توجب او تسمح بالاغتياب ، مراعيأ هنا وهناك ألا تشيع الفاحشه في الذين آمنوا ، فان السماح في اغتياب شخص لمصلحة ، ليس لازمه السماح بإبطال هوية جماعية اسلامية ، اذ يخلف جرأة المتقين ان يشذوا عن شريطة التقوى احياناً ، اذ اوجدوا لهم رفاقاً ، فالأصل الذي لا ينقسم هو الحفاظ على روح التقوى ، والسياس على من يهوى الطغوى ، لتكون كلمة الله هي العليا

و كلمة الذين كفروا السفلى .

وترى هل للمغتاب من متاب ، فان تاب إلى الله وانااب كفاه الله وهـداه توبة عليه ؟ ام ولا بد من استرضاء صاحب الغيبة ، والا فلا توبة ؟ .

ان التقوى بعد الاغتياب تتبع توبة من الله ورحمته ، وكما في ذيل الآية : « واتقوا الله ان الله ثواب رحيم » فما وجدت سبيلا لإرضاء صاحب الغيبة فاليها أن يغفر لك فيستغفر لك ، فلا ينفعك ولا استغفار رسول الله ﷺ مالك سبيل إلى استغفار صاحبك وكما أمر ﷺ ابا بكر وعمر ان يطلبوا من سلمان ان يستغفر الله لهما <sup>(١)</sup> وإلا فالانابة إلى الله بتوبة نصوح ، وان تستغفر الله لأخيك يغفر الله لك : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (٤ : ٤٨) فهو هو الذي يرضي صاحبك برحمته ليرضى عنك ، فيتوب الله عليك .

وهذه هي شيمة التقوى : ومن ثم « ان الله ثواب رحيم » بعدما ثبت إليه بشروطه ، توبة منك الى الله فتوبة من الله عليك : « فمن تاب من بعد ظلمه واصبح فان الله يتوب عليه » (٥ : ٣٩) وكما ان توبتك الى الله بحاجة الى توبة اخرى من الله عليك : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » (٩ : ١١٨) فالتوبة منك اذاً ، وفي أي ذنب ، هي بين توبتين من الله .

ومن ثم - وبعد هذه التوصيات للمؤمنين بالنسبة لبعض - نتلفت إلى ضابطة عامة في التفاضل لا فوقها ضابطة إلا حابطة ساقطة :

(١) كما مضى عن الدر المنثور من حديث سلمان مع ابي بكر وعمر وفيه عن ابن مردويه والبيهقي عن ابي سعيد وجابر قال رسول الله (ص) : الغيبة اشد من الزنا - قالوا : يا رسول الله (ص) ، وكيف الغيبة اشد من الزنا ؟ قال : ان الرجل يزني فيتوب الله عليه وان صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفرها له صاحبه .

اقول : هذا لو وجد الى ذلك سبيلا ، والا فسييله الاستغفار لصاحبه ، ثم الله يطلب من صاحبه ان يغفرها له فيغفر كما رواه في الكافي باسناده الى السكوني عن ابي عبد الله (ع) قال : سئل النبي (ص) ما كفارة الاغتياب ؟ قال : تستغفر الله لمن اغتبتك كما ذكرته .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا  
ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير »

هتاف عام هام للإنسانية جمعاء ، الصادرة من أصل واحد ، أخذاً لها إلى  
اصالة واحدة لا تناكر فيها ولا تكاثر او تنافر ، هي اصالة ركزت لها كل رسالة  
إلهية - ألا وهي « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

قد « يا أيها » نداء بعيد تضرب إلى الغور ، تناسياً كافة التفاضلات الموهومة  
بين الناس ، تاركة كافة الألقاب الارضية المختلفة ، الا واحداً هو من خلق الله :  
« الناس » وليحملهم خالقهم - على هذا الأساس - الى شرعة الناس ، على ضوء  
شريعة خالق الناس : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » ، حيث تتوارى كافة النزعات  
والمنازعات ، وتتهاوى كافة القيم التي يتكالب عليها الناس : حيث الميزة الوحيدة  
في ميزان الله هي تقوى الله ؛ التي لا يتكالب عليها الناس ، وانما الناس هم الذين  
يتشاجرون على سائر الميزات : الطغوى ، فكل ميزة وراء التقوى هي طغوى لا  
تزداد إلا حياة جهنمية فوضى .

ان لواء التقوى المرفرفة على الأولوية كلها ، العالية من على الأعالي في ارض  
الاسلام ، إنها لا تسمح لألوية القوميات والعنصريات والاقليميات والطائفيات  
ان ترفرف او تبقى لها باقية ، اللهم الا باغية يحاربها الاسلام ، ويسميها رسول  
الاسلام عصبية جاهلية ، يدعوها فانها منتنة (١) .

تلكم اللواء هي التي تلوي باعناق المتجبرين المتكاثرين ، الذين يحملون رايات  
العصبية العارمة ، من قوميات عربية وسواها و كما خطب الرسول ﷺ يوم  
فتح مكة قائلاً : « يا أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم بالاسلام نخوة الجاهلية  
وتفاخرها بآباءها ، ان العربية ليست بأب والد ، وانما هو لسان ناطق ، فمن

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله الانصاري عنه (ص) : ..

تكلم به فهو عربي ، ألا إنكم من آدم وآدم من التراب ، وإن أكرمكم عند الله اتقاكم » (١) .

وكما في خطبة الوداع : « يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، ألا إن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ﷺ قال : فليبلغ الشاهد الغائب » (٢) .

إذا فلا زاد لمسلم إلا تقوى الله : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » (٣ : ١٩٧) دون سائر الزاد ، اللهم إلا ما يسهل ويعبد سبيل زاد التقوى ، وإنها نسب الله يرفعها الله ، وفي يوم لا أنساب بينهم ولا يتساءلون (٤) نسب هونبراس

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمي عن رسول الله (ص) : ..

(٢) الدر المنثور : أخرج ابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول

الله (ص) في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : ..

وفي أصول الكافي بإسناده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله (ع) قال : إن رسول

الله (ص) زوج مقداد بن الأسود ضياعة بنت الزبير بن عبد المطلب ، إنما زوجه لتضع المناكح

وليتأسوا برسول الله (ص) وليعلموا أن أكرمهم عند الله اتقاهم .

(٣) مجمع البيان : وروي عن النبي (ص) أنه قال : يقول الله تعالى يوم القيامة : امرتكم

فضيعتم ما عهدت إليكم فيه ، ورفعتم أنسابكم فالיום أرفع نسبي وأضع أنسابكم ، إن المتقون ؟

إن أكرمكم عند الله اتقاكم .

وفي أصول الكافي بإسناده عن حنان بن عتبة بن بشير الأسدي قال : قلت لأبي جعفر

الباقر (ع) أنا عتبة بن بشير الأسدي ، وأنا في الحسب الضخم من قومي ؟ قال فقال (ع) :

ما تمن علينا بحسبك ، إن الله رفع بالإيمان من كان الناس يسمونه وضيعاً إذا كان مؤمناً ، ووضع

بالكفر من كان الناس يسمونه شريعاً إذا كان كافراً فليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى .

وفي روضة الكافي بإسناده عن حنان قال : سمعت أبي يروي عن أبي جعفر (ع) قال :

كان سلمان جالساً مع نفر من قريش في المسجد ، فأقبلوا ينتسبون ويرفعون حتى بلغوا سلمان ،

الحياة ، ومتراس على الشيطانات ، يظل في ضلاله الناس بعيدين عن وسواس الخناس  
النفس :

ثم وفي هذا الهنأف انعطاف الى انحصار الأصل في : « ذكر وأنثى » اذا  
فالناس كلهم مخلوقون من اثنين : آدم وحواء ، فلو كان هناك بعدهما جنسية أو  
حورية كما قد يروى ، لكان اصل المجموع ذكراً وأنثى ، مهما كان الأصل للنسل الأول  
ذكراً وأنثى ، كما ان ذلك الذكر اصل الأنثى : « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي  
خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً  
ونساء .. » (١:٤) فمن نفس واحدة ( آدم ) زوجها ( حواء ) ومنهما الناس  
اجمعون رجالاً كثيراً ونساء .

وعرى هل ان « ذكر وأنثى » هنا تعني - فقط - اثنيانية الأصل الأول ، أو  
مطلقاً ، ام والفرع ايضاً ، ام الفرع فقط ؟ ان تكون « من » بيانية تبين نوعية  
الناس : أنهم ذكر وأنثى ، دون المخلوق منه ، ف « ذكر وأنثى » عبارة اخرى  
عن « كُـم » ولكنه توضيح للتوضيح ، ثم ولا صلة له باثبات وحدة الاصل ، المتفرع  
عليها توحيد الميزة التقوى ، اللهم الا ان يعنى الأمران ، ف « من » بيانية من  
جهة ونشوية من اخرى هي الأخرى ، ولا سيما من الأصل الأول ، فان الأصول

⇒

فقال له عمر بن الخطاب : اخبرني من انت ومن ابوك وما اصلك ؟ فقال سلمان : أنا سلمان بن  
عبد الله ، كنت ضالاً فهداني الله عز وجل بمحمد (ص) كنت عائلاً فأغثنني الله بمحمد (ص)  
وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمد (ص) هذا نسبي وهذا حسبي ، قال : فخرج النبي (ص)  
وسلمان يكلمهم ، فقال له سلمان : يا رسول الله (ص) ! ما لقيت من هؤلاء ؟ حبست معهم  
فاخذوا ينتسبون ويرفعون في انسابهم حتى بلغوا إلي فقال عمر بن الخطاب : من أنت  
وما حسبك ... فقال (ص) : فما قلت له يا سلمان ؟ قال : قلت : ... فقال رسول الله (ص) :  
يا معشر قريش ان حسب الرجل دينه ، ومروته خلقه واصله عقله ، قال الله عز وجل : « ان  
أكرمكم عند الله أتقاكم » ثم قال النبي (ص) لسلمان : ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلا  
بتقوى الله عز وجل ، وان كان التقوى لك عليهم فانت أفضل .

الآخري : أن كل انسان مولود من ابوين ، يماثل الاحتمال الآخر انه توضيح للواضح ، وانه لا يتبنى ازالة الفوارق ، وأما أن الإنسانية جمعاء تنتهي إلى أصل اول : ذكر وانثى ، فانه يحمل بيان مجهول ، ومن ثم فتفرع الوحدة غير المتفارقة عليه معلوم ، والآية تتبنى الغاء التفاضل الطبقي ، فلا تناسب الا ارجاع الكل الى الاصل الأول « آدم وحواء » ليس إلا ! .

وكما الأصل واحد بما خلق الله « انا خلقناكم » كذلك الفرع المتشعب القبلي بما جعل الله « وجعلناكم شعوباً وقبائل » وتري لماذا الكثرة الميزة بعد الوحدة لا الكثرة المتماثلة ، ألتكاثر والاختلاف وهما نعمة والوحدة نعمة : « ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك ( الرحمة الإئتلاف ) خلقهم » اللهم لا ! ام للتآزر والإئتلاف ؟ اللهم نعم : « لتعارفوا » حيث المماثلة في الألوان والاشكال واللغات تهدم اساس التعارف فالإئتلاف ، فلا يجوز ان يجعل هكذا اختلاف بما جعله الله وسيلة التعارف والإئتلاف ، يُجعل مسكة وذريعة للاختلاف ، من لون أو لغة أم ماذا ، وإنما الميزة الوحيدة الكريمة ، التي تؤلف شرعياً بعد التآلف الخلقي ، إنما هي التقوى : ( إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) : لوحة كريمة وحيدة في ميزان الله ، لانه لمن اتقى الله ، والتخلق باخلاق الله لزامه أن نكرم من أكرمه الله .

وما هو الفرق بين الشعوب والقبائل ؟ ولم يذكر في القرآن إلا هنا ، علّ الشعوب - جمع شعب لا الشعب - تعني المجتمعات المتشعبة : تُجمع من جهة وتُشعب من أخرى ، كما الشعب من الوادي ما اجتمع منه طرف وتفرق آخر ، فإذا نظرت من الجانب الذي تفرق أخذت في وهمك واحداً يتفرق ، وإذا نظرت من جانب الاجتماع أخذت في وهمك اثنين اجتماعاً ، فذلك قيل : شعبت إذا جمعت ، وشعبت إذا تفرقت .



إذا فالشعوب هي المجتمعات المتفرقة ، تفرق الولادة القريبة ، وتجمع الأصل البعيد ، ومن ثم القبائل تجمع الشعوب ، فكل قبيلة تجمع شعوباً عدة متناسبة ومتقاربة أكثر من سواها ، فالكيان الأول للناس هو الطبقة الأولى من القرابات الشاملة لسائر طبقات الإرث ، ثم الثاني الأقارب الأخرى ، الجامعة بين طبقات وطبقات بصلات الأنساب والقرابات والأسباب ، وهي الشعوب ، ثم الثالث مجموعات من الشعوب تجمعهم أنساب وأسباب بعيدة ، وهي القبائل .

فالقبائل هي مجامع الشعوب ، كما البشرية جمعاء مجموعة القبائل ، فهي إذا عائلة واحدة بشعوب وقبائل بُغية التعارف ، ثم أكرمهم عند الله أتقاهم :

وأخيراً ترى أن هذه التقوى هي - فقط - الصلة والعلاقة الشخصية بين العبد والمعبود ، أم أنها - وفي نطاق واسع - هي الإلتقاء عما لا يرضاه الله في كافة الميادين الحيوية ، من عقائدية وثقافية ، إقتصادية وسياسية ، ومن حربية وقضائية وجزائية أم ماذا ، فليس الايمان محصوراً في حصار العلاقة الشخصية وكما يريد الاستعمار الكافر ، حتى يجعل من المؤمنين زهاداً يزهدون عن كل تدخل حيوي في شئون المسلمين ، بل هو صيغة شاملة كاملة تجعل من المؤمنين بنياناً مرصوحاً رصيناً ورزينا في كافة الميادين ، فقد يكون المؤمن أتقى فأكرم في بعض الميادين ولا يكون في بعض ، كما هو الحال في الأثرية الساحقة بين المتقين ، وأما أن يكون أتقى فيها كلها ، فقد لا يكون إلا الرسول المصطفى ﷺ ومن يحدو محذاه من أئمة الهدى ( ع ) فهم أكرم الناس وأتقى : تقوى علمية معرفية وعبودية وسياسية واقتصادية ، يروضون أنفسهم بتقوى الله في كل زواياها ومجالاتها ، اللهم أحينا محياهم وأمتنا مهاتهم آمين .

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم » .

تري من هم الأعراب هنا ، أهم قوم العرب ؟ ومنهم مؤمنون ، ومن هم المنطلق الأول للدعوة الإسلامية ، بالغين ذروة الايمان ، كالسابقين المتسابقين لإجابة الدعوة في طريق شائك بالوان البلاء ، مليء بالأشلاء وسيول الدماء ! أم هم كل متكلم باللغة العربية ؟ فكذلك الأمر وأخرى ، كما التاريخ يشهد بسباق جماعة من المعجم في الإيمان ، لاحقين أم سابقين !

أو هم جماعة من أولاء أو هؤلاء ؟ ولأم الإستغراق تنفيه ، وأدب التعبير القرآني ينفيه ! إذا فهم جماعة طبعهم اللإيمان وإن آمن بعض منهم بعد طول مدة الدعوة ، وهو الصحيح لغوياً وقرآنياً : إنهم أهل البوادي ، البعيدين عن الثقافات ، القرييين إلى الشقاوات والقساوات : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم » ( ٩ : ٩٧ ) فالأعراب جمع العرب : الظاهر ، الذي يحى حياة مكشوفة بادية بدائية ، تظله السماء وتقله الأرض ، فهم - إذا - الظاهرون من الناس ، غير المدنيين ، عرباً أو عجماً ، كما الإعراب إظهار موقف الكلمة من حركات تدل على موقعها النحوي ، وكما القرآن حكم عربي : ظاهر لمن استظهر ، لا تعقيد فيه لا تفهماً ولا تطبيقاً : « وكذلك أنزلناه حكماً عربياً » ( ١٣ : ٣٧ ) لا أنه خاص بالعرب القومي ، أو من يتكلم بالعربية ، فإن رسالة القرآن عامة عالمية ! : « قرآناً عربياً غير ذي عوج .. » ( ٣٩ : ٢٨ ) لا عوج في عربيته : وضوحه في صكافة المجالات ، وسهولته في مختلف المتطلبات ، دون تشديد ولا تعقيد !

هؤلاء الاعراب « قالت .. آمنا » : مدللين كأنهم آمنوا « ولما .. فهم في البداية أسلموا وقلوبهم فارغة عن الإيمان ، ومنهم الذين آمنوا بعد كما توحيه « لما » الدالة على انتظار مدخولها ، وقد آمن من آمن ، وإن كانوا قلة ، وكفر من كفر أو نافق وهم الكثرة - ف : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً .. » ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا ويقرّبص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم .

ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم...  
وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق .. «  
( ٩٧ : ٩ - ١٠١ ) .

ففي الآية سلب لما يدعى : « قل لم تؤمنوا » وإثبات لإسلام هو قبل الإيمان :  
« ولكن قولوا أسلمنا » ورجاء الإيمان بعد الإسلام للذين لم ينافقوا بإسلامهم :  
« ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » ورحمة ثانية لمن سلك سبيل الإيمان ، أن يؤتى  
- بأعماله قبل الإيمان - ثواب الأعمال بعد الإيمان : « وإن تطيعوا الله ورسوله لا  
يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم » ! لفظة حبيبة لمن أسلموا من  
الأعراب « ولما يؤمنوا » فضلاً عن الذين آمنوا فأحرى لهم وأولى ! .

ثم الإسلام إسلامان ، إسلام أول هو قبل الإيمان فهو دونه كما هنا ،  
وإسلام آخر هو مع الإيمان وبعده ، كما في غيرها فهو فوقه ، وهو إسلام النبيين  
وسائر الأصفياء .

فالإسلام الأول أعم من الإيمان ، حيث الإيمان : « معرفة بالقلب وإقرار باللسان  
وعمل بالأركان »<sup>(١)</sup> وهذا الإسلام فارغ عن العقد في القلب « ولما يدخل الإيمان  
في قلوبكم » كما والإسلام الثاني أخص من الإيمان ، فمن المؤمنين من لم يسلموا  
بخالص التوحيد لرب العالمين : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »  
( ١٢ : ١٠٦ ) ومنهم من أسلموا : بعد كامل الإيمان : « قل إنني أمرت أن  
أكون أول من أسلم » ( ٦ : ١٤ ) « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو  
محسن .. » ( ٤ : ١٢٥ ) « فلما أسلما وقتله للجيين وقادينا ان يا إبراهيم قد

(١) الدر المنثور : اخرج ابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي بن ابي طالب ( ع ) قال : قال رسول الله ( ص ) : ...

صدقت الرواية إنا كذلك نجزي المحسنين » ( ٣٧ : ١٠٣ ) .

فلايمان يتبع إسلاماً قبله باللسان ، فعملًا بالأركان ، ومن ثم معرفة بالقلب : الايمان ، ثم قد يتبع إسلاماً بعده هو تسليم القلب لله ، فتكميل لإقرار اللسان وعمل الأركان ، وإلى أن يصل التسليم إلى القمة ، وبعد الايمان القمة .

ثم الذي أسلم إسلامه الأول نظرة الايمان - ولما يدخل الايمان في قلبه - ترى أنه يحرم عن ثواب أعمال الايمان؟ اللهم لا ! شرط المواصلة في طاعة الله ورسوله ، محاولة دخول الايمان في قلبه : « وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً » ، لا ينقصكم منها ، ولأنكم في صراط الايمان !

ثم اللهم نعم ! لو أنكم توانيتم في أعمالكم ، فلا أعمال صالحة حتى تؤجروا بها كما المؤمنون ، أم لم تطيعوا الله ورسوله في أعمالكم ، فانها آلة ناقصة : إما في إخلاصها ، أم في ظواهرها ، فلستم هنا وهناك في صراط الايمان حتى تشملكم رحمته تعالى أن تلحقوا بالمؤمنين في ثواب أعمال الايمان : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين » ( ٥٢ : ٢١ ) فانما الإلحاق يلحق ذرية الايمان ، الذين هم في صراط الإيمان إن وصلوا ، وإن لم يصلوا قاصرين ، أو وصلوا ولما يلحقوا الأصول المؤمنين في درجات الإيमान ، ذلك الفضل من الله أن « لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم » كما لا يلت من أعمال المتبوعين ، فلا ألت في حساب الله ، وإنما فضل ورحمة ما كان له مجال .

ثم الايمان درجات ، كما الإسلام أياً كان ، وقبلها الكفر درجات ، فأفضل الإيمان ، وكأنه الايمان لا سواء :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » .

إيمان بعد إسلام ، ثم تركيز للإيمان في القلب فلا يرتابون ، ثم مظهر جادة

يدل على ركيزة الايمان اللا ارتياب، فيجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فاولئك حقاً هم الصادقون أنهم مؤمنون، ومن دونهم دون الصادقين حقاً وعملاً، وإن كانوا صادقين قولاً وقلباً لما دونه من درجات الإيمان، فالإيمان درجات، كما الاسلام درجات، وما دونها دركات !.

فمنهم من أسلم ولما يدخل الإيمان في قلبه، ومنهم من آمن ولما يثبت في الإيمان فلم يتبع الاسلام الناتج عن الإيمان، ومنهم من ثبت الإيمان في قلبه دون ارتياب ولم يصل الى قمة الجهاد بالاموال والانفس، ومنهم من وصل فهو المؤمن حقاً وصدقاً.

وقد توحى «ثم» هنا دون «و» باشتراط التهنئة والتهيب للثبات على شريطة الإيمان الحق، دون مجرد اللا ارتياب حينئذ انقلبت الى شيء من الارتياب. ف «ثم» تثبت ثبات اللارتياب بعد الإيمان دوماً، ما كان المؤمن في قيد الحياة دون انقلات، مجاهداً بماله وماله من طاقات وإمكانات في سبيل الله نفساً ونفساً أم ماذا، فانطلاقة الجهاد انطلاقة ذاتية من قلب المؤمن، تحقق صورة وضيئة في قلبه في سيرة مرضية بقلبه في واقع الحياة، فحياته وحيدة مليئة بالإيمان، لا ازدواجية له بين عقيدة الإيمان وعمل الإيمان، بل هي توذيه وتصدمه إذا لا يطبق توحيدها لضغوط خارجية، فالخصومة بين المؤمن وحياة الجاهلية من حوله - كذلك - ناشئة من وحدوية الإيمان.

وما أهمها هنا «ثم لم يرتابوا» كما في «الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا» ! فالطريق شائك، وصراط الإيمان مليء بالبلاء، مفروش بالدماء والأشلاء، بحوادث وهواجس تزلزل وتزعزع، فعند الإمتحان يكرم المرء أو يهان، وعند تقلب الأحوال يعرف جواهر الرجال.

« قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الارض والله بكل شيء عليم ».

فلماذا الادعاء « آمنا » وأنت بين كاذب لما يدخل الإيمان في قلبك، وصادق يعلم الله ما في قلبك « أتعلّمون الله بدينكم ؟ وإذ لا ! فلماذا الادعاء؟ والله بكل شيء عليم » .

« يمينون عليكم أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » .

غلطات بعضها فوق بعض من هؤلاء الأعراب ولما يؤمنوا ، إذ يمينون عليك أن أسلموا ، وليس لك من الأمر شيء ! ولا يجدي إسلامهم نفعا إلا لهم أن يحقن دماءهم ويحفظ أعراضهم وأموالهم ، ويشرّكهم وسائر المؤمنين فيما لهم وعليهم ، ثم وإسلامهم لا إيمانهم ، وإن كان لا من ولا في إيمانهم ولما ، فلا هذا ولا ذاك « بل الله يمن عليكم أن هداكم « بالإسلام » الإيمان ، حيث ان هكذا إسلام ذريعة وصراط للإيمان ، وبعد فلا من إلا الله عليهم أن هداهم لما يصلحهم ، ودعاهم لما يحبيهم ، فهم عكسوا أمر المن ، ولا من حتى في الإيمان ، ثم لا عليك وإنما من الله عليهم ، ثم الله إنما يمن عليكم ويهديكم بإسلامكم « إن كنتم صادقين » في إسلامكم ، فمن صدق في إسلامه فهو متنعم من الله بهداه ، لا ان يمن على رسول الله أم على الله ، ومن لم يصدق فلا هدى للإيمان فلا من هنا أو هناك ، حيث الإسلام الكاذب نفاق ، وباله من وخزة دنيا وعقبى دون من « من » أو « على » .

إن من الإيمان لمن صدق هو أكبر المن على الإطلاق لو عرف الانسان قيمة الإيمان وقمته ، نفخة علينية تصل بهذه الذرة الطينية الهزيلة البائسة الى نور العظمة الربانية ، الذي يشعره بالوضاءة المنطلقة والضياء المطلق ، فروحه في السماء وقدماء تدبان على الأرض ، وقلبه يستحم بالنور ، متعلقاً بمصدر النور ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء .

إذا فمن يستحق المن ؟ وعلى من ؟ إنما المن من الله ، على من هداه الله ،

وتأييداً من الله : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » ( ٥٦ : ٢٨ ) ودلالة من رسول الله : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ( ٢ : ٦٢ ) .

« إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون » .  
 .. إذاً فهو العالم بغيب النفوس ، والبصير بمصير الأعمال ومنطلقها ، فلماذا المنّ والادعاء ؟



( سورة ق - مدنية - وآياتها خمس واربعون )

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ - ١ .  
بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا  
شَيْءٌ عَجِيبٌ - ٢ . إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ  
بَعِيدٌ - ٣ . قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا  
كِتَابٌ حَفِيفٌ - ٤ . بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي  
أَمْرٍ مَرِيجٍ - ٥ . أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ  
بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ - ٦ . وَالْأَرْضَ  
مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ  
بَهِيجٍ - ٧ . تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ - ٨ .  
وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ  
الْحَصِيدِ - ٩ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ - ١٠ .  
رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ - ١١ .  
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ - ١٢ .



وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ — ١٣ . وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ  
وَقَوْمُ ثُبَعٍ كُلُّ كَذِبِ الرُّسُلِ فَحَقَّ وَعِيدِ — ١٤ .

\*\*\*

« ق » . والقرآن المجيد ، ان المجد هو سعة الكرم والجلال ، فهو لذي الجلال والإكرام سعة لا تحد وكرم لا يعد : « ذو العرش المجيد » ( ٨٥ : ١٥ ) فكذلك قرآنه المبين وتبليغه المتين : « بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ » ( ٨٥ : ٢١ ) « فلا أجد في الأقوال من قول الله ، بل ولا مساماة ومساوات ، فالهون بين قول الله وسواه كالهون بين الله وسواه ، فلذلك يحق الحلف بقول الله كما بالله : « والقرآن المجيد » : حلفاً بأدل دليل ، وأنه خالق المدلول والدليل ، لا حلفاً عند فقدان الدليل أو نقصانه ، فكما القرآن بعلمته دليل لنبوته ورسالة من جاء به : « يس والقرآن الحكيم » ، انك لمن المرسلين . » ( ٣٦ : ٢ ) كذلك وأخرى هو دليل على ما يحمله ويدل عليه من سائر الغيب كالقيامة ، ولعل ( ق ) هنا توحى لها كما توحى للقرآن نفسه ، فليحلف بمجد القرآن : بكرم ادلته وجلال براهينه ، على صحة ما يدل عليه من غيوب لا يكشف عنها إلا بالوحي ! .

وبما ان اشمل الأسماء لليوم الآخر « القيامة » وان جواب القسم — وهو طبعاً إقرار القيامة — لم يأت بعد ، وهو المصباح الأصل في آي السورة ، نستوحي ان « ق » تشير — فيما تشير — إلى القيامة كمدلول ، كما وإلى القرآن كدليل ، ثم يصرح بالقرآن في صيغة قسم ، ومن ثم بالقيامة طوال السورة ، وكأنه يقول : قسماً بالقرآن المجيد أن القيامة لا ريب فيها ، فـ « ق » ، إذاً إشارة إلى كلا الدليل والمدلول ، ولأن القيامة — كالقرآن — باهرة لحد كأن لا حاجة في التدليل عليه حتى وبالتسمية ، فليكتف بحرفها الأول « ق » — : ممدودة تمدنا إلى كامل اسمها

كما هي الأول من القرآن ، وتقدمنا لإثبات القيامة بمختلف صنوف البراهين .  
فلا حاجة إذاً إلى الأقاويل المختارة غير المختارة في : ما هو جواب القسم  
هنا ، فذلك ينافي كون القرآن بياناً ، أترى البيان بحاجة إلى من يختلفون  
لتوجيهه وجوهام فيها يختلفون ؟ !

كما ولا صلة بما يروى في «ق» انه جبل ، فما هي المناسبة القريبة أو البعيدة بين  
جبل قاف وبين ما هو مصب السورة من اثبات القيامة ، والتنديد بناكريها ، ثم  
وهذا الجبل جبل من خرافات (١) !

فهنا القرآن المجيد برهان لا مرد له لإثبات القيامة الساعة ، وكما هو برهان  
في «يس» لإثبات رسالة نبي الساعة ، كما وهو قبل الساعة ونبيها برهان لرب الساعة  
بما فيه من ذكر : «ص» والقرآن ذي الذكر . بل الذين كفروا في عزة وشقاق ..  
وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . اجعل الآلهة

(١) الدر المنثور : اخبر ابن أبي الدنيا في العقوبات وابو الشيخ في العظمة عن ابن عباس  
قال : خلق الله جبلاً يقال له ق ، يحيط بالعالم ، وعروقه الى الصخرة التي عليها الأرض ، فاذا  
أراد الله ان يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها فمن  
ثم تحرك القرية دون القرية !

وفيه بأسناد عن عبد الله بن بريدة قال : جبل من زمرد يحيط بالدنيا عليه كنفاء السماء !  
وفيه عن ابن عباس قال : خلق الله من وراء هذه الأرض بحراً يحيطاً بها ثم خلق من وراء  
ذلك جبلاً يقال له : ق - السماء الدنيا مترفرفة عليه ، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له ق  
السماء الثانية مترفرفة عليه حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سهارات قال :  
وذلك قوله : « والبحر يده من بعده سبعة أبحر » !

وروى اللقيمي مثل ما مضى عن عبد الله بن بريدة : ق - زمرد ، وروى ما في معناه : جبل  
يحيط بالدنيا وراء يأجوج ومأجوج !

أقول : وما له من جبل متهاقت المكان والمكانة ، تتناقله السنة الرواة من سنة وشيعة من  
حيث لا يعلمون انها خرافات اسرائيليات تدخلت في أحاديثنا لنشويه سمعة الاسلام أمام العقل  
والعلم والحس .

إلهاً واحداً ان هذا شيء عجاب » ( ٣٨ : ٥ ) فإذا القرآن المجيد برهان لا مرد له في هذا المثلث المجيد ، افلا يكون برهاناً لما دونه ، بلى وربى على ذلك لشهيد ! :

« قَ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ . بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ » : - « بَلْ هُمْ مِنْهَا فِي شَكٍّ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ » ( ٢٧ : ٦٦ )  
إعراضاً عن الواضح اللائح وضوح الشمس ولوح النهار ، فلا هم يتدبرون القرآن المجيد ، ولا في قيامة القرآن المجيد ، فمن ثم « عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » وترى لم يعجبون ؟ ألمحي المنذر ؟ وهو رحمة للمنذرين ! أو لأنه منهم ؟ فكذلك الأمر ! فلو جاءهم من غيرهم ، من جن أو ملائكة لا يرونهم ، فكيف الإنذار ؟ أم ولو رأوهم - وليست إلا بصورة إنسان : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ » ( ٦ : ٩ ) أم لورأوهم بأصل الصورة ، فماذا يفيدهم انذارهم بمن هم من غير جنسهم ، ولهم العذر الحجة : اننا - أو - علنا لا نطبق ما يطبقون ، فما نحن إذا بهم مقتدين ، إذا فقولتهم هذه شيء عجيب ، لا أن جاءهم منذر منهم ! وعللهم ازدادهم عجباً ان أنذرهم برجع بعيد ! :

« إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » ؟ وترى ان رجعنا بعدما كنا تراباً لماذا هو بعيد وعماذا ؟ .. عن عدله تعالى ؟ وهو قضية عدله وفضله ! أو عن قدرته ؟ وهو أهون عليه من بدئه ! أو عن العقل لأنه مستحيل ؟ فما هو الدليل ؟ أم عن علمه إذ تنتشر الأجزاء وتضل بعد ما تندثر ، ضلالاً في واقع الأكل والمأكول ، أم في أكناف الأرض : « وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » ؟ ( ٣٢ : ١٠ ) والخالق عليم حفيظ ! :

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ » : صحيح ان الأرض تنقص منهم من أجزاءهم : ما تأكله الحيات والديدان ، وما تمتصه عروق الأشجار من قوآت الأبدان ، وما تتأكله الحيوانات ، وما تبدله الأرض تراباً أو أياً كان ، ومن اشخاصهم أم ماذا ؟ ولكنها كلها بعلم الله : « قَدْ عَلِمْنَا مَا

تنقص الأرض منهم : من أجسادهم - فقط - والأرواح باقية كما هي ! فهم - إذا - لا يذهبون ضياعاً في أجسادهم ، فالأصيلة من اجزاءها - التي عاشتها حياتها أو حياة التكليف - ترجع يوم حشرها ، وغيرها التي كانت من غيرها ، ترجع إلى أصحابها ، والزائدة الفضولة التي لا دور لها ثواباً أو عقاباً قد تنفصل عنها ، وكل ما يجب حفظه في ميزان العدل والفضل للحشر يحفظ : « وعندنا كتاب حفيظ » : كتاب التكوين الحفاظ عن أيّ ضياع ، فلا تفضل أجزاء الأبدان في بعض ، كما ولا تفضل في الأرض ، وكما لا تفسى عن جواهرها ، وإنما تتبدل تراباً وهي محفوظة في علم الله أينما حلت وارتحلت أو تبدلت عناصر أخرى ، فسيعيدها الله سيرتها الأولى <sup>(١)</sup> ، ثم لا فحسب أنها محفوظة في علم الله ، بل وعند ملك الموت أيضاً - لما يتوفاهم - بإذن الله : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » ( ٣٢ : ١١ ) فالإنسان بجسمه وروحه محفوظ في كتاب حفيظ متوفى : مأخوذ بقبضة الموت وأفيأ دون انفلات ، فمهما ضلت أجزاء - كالمسبقة أم ماذا؟ عن علومنا ، ولكنها بعين الله وفي علم الله : « ثم إلى ربكم ترجعون » فأين البعد بُعد ، اللهم إلا بُعداً في عقولهم : « بل هم بلبقاء ربهم كافرون » ( ٣٢ : ١٠ ) ! بُعداً عن البعيدين عن عقولهم ، المتحاملين عن ضمائرهم ، القريبين إلى شهواتهم وغاياتهم ، فلا هنا إنذار بعيد ولا رجوع بعيد :

« بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريع » : تكذيب دون أية حجة

(١) هنا وجه آخر : هو الآخر ان قد علمنا ما تنقص الأرض - في نفسها - منهم : بسببهم - أي ان الاجزاء الارضية التي تصبح انساناً هي معلومة لدينا ، الا انه لا يمت بصلة للجواب عن مشكلة ضلال الأجزاء ، اللهم الا مقدمة للوجه الاول : ان الله يعلم الاجزاء الناقصة عن الأرض التي تتحول اجزاء للإنسان - وهي محفوظة في كتاب حفيظ على طول الخط - فثم اذا نقصت الأرض من ابدانهم ما نقصت ، فالأجزاء الناقصة أيضاً معلومة - ولا بأس بالجمع بين الوجهين وأما خصوص الثاني فلا .

أم ريبة ، إلا هواجس وهوسات جهنمية ! وإنه لتكذيب جاهل معاند : أن يكذب بالحق لما جاء ، دون تأمل فيه ، أو أية شائبة وريبة تعتريه ، وإنما جحوداً للحق لأنه يربطهم عن الحريات ، ويقيدهم عن الشهوات ، والإيمان قيد الفتك ، وناكر الحق هكذا يعيش في أمر مريب : مختلف خليط رجيح ، وقد توحى « في » انهم غائصون غارقون في يَمٍّ متلاطم مائج مارج ، إذ ضلوا في صراط الحياة عن الحق ، إلا ما يحقق شهواتهم وكله باطل ، تتقاذفه الأهواء ، وتتأرجح حياته في هباء ، إذ لا مستقر له إلا الهوى « فهم في أمر مريب » : مختلط : حيث اختلط أمرهم في عقولهم إذ كذبوا بالحق ، فلو أنهم شاكون فيه فليتبينوا والحق بنفسه بينة ، ويملك من صنوف البينات ما تحققه ، فإن حققوه فلماذا التكذيب ؟ وإن احتاروا - ولن - فكذلك الأمر ، إلا أن يقولوا : نحن في شك حتى يأتينا البيان ، وإن فاجأوا الحق وجابهوه بالتكذيب فأضل وأطغى ! ومن مريب أمرهم أنهم مختلفون في أنفسهم ومع بعض في تكذيب الحق : أفترى على الله كذباً أم به جنة ، أو هو ساحر أم كاهن أم مزدجر ، أو أن كانه سحر يؤثر أم ماذا ؟ من تقول مريب في وجه الحق البهيج !

ومن ثم يمرج أمرهم في كافة شؤون الحياة ، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، مخبئين في تصرفاتهم ، مارجين في كل حياتهم ، لا يعيشون إلا مرجتها دون بهجتها معها ادعوها : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ... » (١٢٤:٢٠) .

ومن هنا تأخذ الآيات دورها في تقريب الحق : إشارات إلى علمه تعالى وقدرته وحكمته ، ثم تقريب للبعيد من رجوع عندهم : أنه رجوع قريب ، وكما يشاهدونه حياتهم :

« أقلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ؟ »  
إفادت نظر عريق إلى علم الله وقدرته وحكمته ، التي تسهل خروج الموتى :

« ... كذلك الخروج » ! فإنه بحاجة إلى علم : « ما تنقص الأرض منهم و ... كتاب حفيظ » وإلى القدرة على الإخراج كما بدأ .

وترى التنديد هنا أنه بترك النظر إلى السماء شهوداً ! « كيف بنيناها وزيناها » لماذا لم يشهدوا كيفية خلق السماء وبناءها وتزيينها؟ وما أشهدتم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم .. ( ١٨ : ٥١ ) إذ خلقوا بعدهما فكيف يشهدون خلقها ! أم يشهدون شهود العلم بعدهما ، وخلقها من فعل الله ، فلا يعلمه إلا الله ، أو من ارتضاء من رسول ! أم إن النظر هو الماكن لأي ذي بصر أن ينظر إلى السماء فوقه ، من بعيد ، أو من قريب بالصواريخ والسفن الجوية أم ماذا؟ ولكي يعرفوا - قدر النظر - كيفية بناء السماء وتزيينها وما لها من فروج ، دالة لأي مستدل على حكمة الخلاق العليم ؟ وهو الحق الذي تندد فيه آية النظر بالأعمى الذين يبصرون ولا ينظرون ، أو ينظرون ولا يعتبرون : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » !

إن في السماء المبنية المزينة فوقهم « وما لها من فروج » سماء من اللغات ، إلى صفحتها التكوينية الواسعة البارعة ، في مثلث من بديع الخلق : « كيف بنيناها - وزيناها - وما لها من فروج » !

فأما بناءها فهو السبع الشداد « وبنينا فوقكم سبعاً شداداً » ( ١٢ : ٧٨ )<sup>(١)</sup> و « فوقهم » هنا ، كـ « فوقكم » هناك ، إشارة كتصريح إلى كروية الأرض ، فإنها لزام كون السماء فوق سكرة الأرض كلهم ، ثم ولبناء السماء « فوقهم » زوايا شاسعة من حكمة التكوين تستحق مؤلفاً ضخماً فذاً علته يأتي بأطراف منها قليلة ، من خلق دخانها وجعلها طباقاً ، وتزيينها بمصابيح أم ماذا ؟ تلفت انظارنا هنا إلى الزاوية الأخيرة : « وزيناها » وبقائها على حالتها الرائعة رغم بليارات القنابل الفضائية التي لزامها فروج : « وما لها من فروج » !

فهنالك تزيين لمتن السماء بلونها الجلاب ومنظرها الغلاب الخلاب ، ومن ثم  
بواليدها المصابيح ، القناديل الفضية المعلقة فيها دون عمد ترونها : « رفع  
السموات بغير عمد ترونها » ( ١٣ : ٢ ) فشمَّ عمد ولكن لا ترونها ! ومن البروج :  
القصور ، أم ماذا : « والسماء ذات البروج » ( ٨٥ : ١ ) (١) .

ثم « وما لها من فروج » وآية الفروج هذه كآية البروج ، هي الوحيدة في  
القرآن التي تلفت انظارنا الى عدم الشقوق التي هي لزام المصابيح والبروج ، فكل  
صفحة منها مودة بأوناد المصابيح ، مرتفعة بالبروج ، فبارى لها من فروج ، اللهم إلا  
صفحة السماء ، ولأن مصابيحها وبروجها معلقة في أعماقها ، مدعمة بعمد لا  
ترونها ، ثم المتن الخالي عن مصابيح وبروج ، كذلك : ما له من فروج .

وهذا استعراض للسماء في دنياها ان « ما لها من فروج » ولكنها في اخرها  
كلها شقوق وفروج : « وإذا السماء فُرجت » ( ٧٧ : ٩ ) فالسماء غير ذات  
الفروج تصبح وقتئذ من ذوات الفروج ، ولحد كأنها كلها أبواب وفروج :  
« وفتحت السماء فكانت أبواباً » ( ٧٨ : ١٩ ) (٢) . وإن كانت فروجها يوم  
تدمرها بحكمة ، كما هي يوم تعميرها بحكمة ، سبحان الخلاق العظيم !

« والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج »  
وإن لم ينظروا إلى السماء فوقهم فلا يعتبرون ، فإلى الأرض التي عليها يعيشون ،  
والنظر إليها لزام حياتهم ، مدأ لها ، وإلقائاً للرواسي فيها ، وإنبات كل  
زوج بهيج : مثلث اللفات الأرضية متوازية للسماوية حذوها :

فللأرض مدان ، مد التعمير كما هنا ، ومد التدمير كما في الأخرى : « وإذا  
الأرض مدت . وألقت ما فيها ونخلت » ( ٨٤ : ٣ ) فبعد التدمير تتبدد ، كما هي  
بعد التعمير تتمدد فتنبت فيها كل زوج بهيج وموزون ، من كل الثمرات : « والأرض

(١) راجع آية البروج ج ٣٠ ص ٢٥٦ .

(٢) راجع سورة الانشقاق ج ٣٠ ص ٢٣٦ والانفطار ١٨٤ : ٣٠ والتكوير ١٥٤ : ٣٠

مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين ، ( ١٥ : ٢٠ ) وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وإن تعجب فمعجب قولهم إذا متنا وكنا تراباً إنا لفي خلق جديد ... ( ١٣ : ٥ ) .

إن مد الأرض فالقاء الرواسي وإنبات النبات ، توحي أنها كانت منقبضة غير ممدودة ، بلا رواسي ولا نبات فلاحياة ، شعوساً لا تذلل لراكب ، مضطربة الحراك ، حيث الرواسي الشاخات تمسكها عن الميبدان « وألقى في الأرض رواسي ان تميد بكم ... ( ١٦ : ١٥ ) فهنا رواسي ملقاة ، وهناك أخرى مجمولات : « وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم » ( ٢١ : ٣١ )<sup>(١)</sup> وهما الجبال الموتدة على الأرض من الأعماق ، الشاهقة إلى السماء ، وعلى الجبل والنصب أعسم من الإلقاء<sup>(٢)</sup> حيث يشمل ما خلقت من الأمواج التي برزت على سطح الأرض نتيجة الحركات والإصطدامات بالجو البارد ، وقانون الفرار عن المركز ، ثم الإلقاء يخص التي انبثقت من تفجرات البراكين ، والتي سقطت من نجوم في السماء ، ولعل الإلقاء هنا يخص ما هو نتيجة المد الضغط فتفجرت براكين ، فأصبحت مين عليها راسيات ملقاة من جوفها ، أو ما يعم الملقاة من الأمواج سطح الأرضية ، إذ كانت شمسة محترقة ، أو يعمها والتي سقطت من نجوم السماء ، أم ماذا ؟

ثم لإلقاء الرواسي - أياً كانت - دورها الهام في إنبات كل زوج بهيج

(١) راجع ج ٣٠ ص ٩٠ و ٣٠٠ .

(٢) حيث التعبير في مختلف الآيات يختلف بالجعل والنصب واللقاء .

(الفرقان - م ١٨)



موزون ، فإنها لا تكون إلا ببرودة الأرض ، وإلا فلا جبال ولا سواه إلا مذاباً مايعاً في الأرض الشموس ! وإذا لا جبال رواسي فلا ذلّ للأرض عن الشماس ، ومن ثم : بعد الذل بالجبال الرواسي يأتي دور تكوّن وظهور المياه عن الأبحرة ونزولها من السماء ، ولولا الجبال التي تكنّ الثلوج فتذخر في إغراقها المياه ، كما سبل السبيل لإنبات النبات ، سبحان الخلاق العظيم !.

وعلى « كل زوج بهيج » يشمل كافة الأحياء الأرضية من نبات وحيوان وإنسان : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » ( ٧١ : ١٧ ) بل وبهجة نبات الإنسان أبهج من نبات سائر النباتات والحيوان ، ولأنه لا تخصها :

« تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » : بل وإنهما في الآيات الأنفسية أقرب وأحرى من الآفاقية ، فكل عبد منيب إلى ربه يتبصر بهذه الآيات ويتذكر ، كما المعرض عن ربه المنيب إلى هواه يتعمى عنها فيتعثّر .

إنها ، لو أبصرت بها بصّرتك ، ولو أبصرت إليها أعمتك ، والمنيب هو الذي لا يبصر إليها وإنما يبصر بها ، يجعلها ذريعة يندرع بها إلى الحق المرام ، دون المناهج ( العلمية ) التي لا تنحو في مدها وجذرها إلا الحياة الحيوانية ، في معرفة زائفة زائغة عقيمة غير عميقة ، لا تتخطى النظر في الكون إلى معرفة خالق الكون !.

هذا هو المنهج العلمي ، الماكن الساكن في أدمغة جامدة مطموسة رانت عليها أصالة المادة والحياة الحيوانية ، وأما المنهج الايماني الصحيح فهو يزيد الناهج معرفة بارتباطات الكائنات ، ثم ربطها كلها بخالق الكائنات ، فلا وقفة له عن الحراك ، ولا عثرة له في حراك ، فإنه دائب الكدح في هذه السبيل ، ذاهب إلى ربه فملاقية : « أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك فملاقية » ( ٦٥ : ٨٤ ) !.

« ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » !.

إن مياه الأرض كلها من السماء، إستقبلتها حينما ذلت بعد شمس، فاستعدت لقبول الحياة والأحياء : « والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » ( ١٦ : ٦٥ ) « وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكنناه في الأرض وإنّا على ذهاب به لقادرون » ( ٢٣ : ١٨ ) وهذا الماء النازل من السماء مبارك ، وطهور : « وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً » ( ٢٥ : ٤٨ ) مبارك تنبت به « جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات : ( طائلات ) لها طلع نضيد : ( أول ما يطلع منسقاً بعضه على بعض ) رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً ( فإنه حياة كل حي : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ( ٣٠ : ٢١ ) - ) كذلك الخروج ، افكها هناك خروج لأرزاقكم الميتة إلى الحياة ، كذلك هنا خروج للمرزوقين إلى الحياة ليوفى لهم ما كتب لهم .

وكما نبات كل شيء ميت هو بالماء ، رزقاً للعباد في حياتهم الدنيا ، كذلك خروج الموتى من أجداثهم أحياء ، بنفس القدرة والعلم والحكمة ، والخلق الثاني مثل الأول ، دون عي فيه بالخلق الأول ، ومشاهد إحياء الميتات النباتية رزقاً للعباد تشهد - وأخرى - لإحياء الميتات الإنسانية رزقاً لهم أنفسهم بما قدموا جزاءً وفاقاً ، أو عطاءً حساباً .

أفمن يحبي هذه النباتات رزقاً للعباد في حياة قصيرة هزيلة دنيا ، عاجز أو بخيل أنت يحبي هؤلاء العباد ليرزقهم في حياة طويلة عليا ، كلا ! وإنه أحق وأحرى .

فما الطفه وأعطفه دليلاً نعيشه طول الحياة ، وما أغفله من يعيش الدليل ويتغافل عن المدلول ، وليس هؤلاء - فقط - هم المكذبون بالبعث والنشور ، بل و :

« كذبت قبليهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود . وعاد وفرعون وأخوان لوط . وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد » .

.. أقوام ثمان من أنحس المكذبين في التاريخ الرسالي وأشرسهم ، فالرسالة واحدة ، والكفر أيضاً ملة واحدة ، مهما اختلفت شواكله ، فلا تغتم بما كذبوك ، ولا تهتم بما عذبوك ، فالسبيل إلى الله شائك مليء بالدماء ، مفروش بالأشلاء ، فعليك أن تخوض المعارك بكل صبر وصمود ، حتى تخلص إلى المقصود .

وإنها لفئة سريعة دون تفصيل ، إيقاعاً على القلوب بمصارع الغابرين الغادرين - اذ « كل كذب الرسل فحق وعيد » وقرئ كل من هؤلاء الثمان كذب كل الرسل ، وكما توحى به « كل » ؟ ولم يكذب إلا رسالة واحدة أو رسالات ، دون كل الرسالات ! .

أجل - ولأن رسالة واحدة نموذج عن كافة الرسالات ، تضرب يحدورها في أعماق الزمن الرسالي ، فالرسل إخوة في الدعوة والمدعولة ، فمن يكذب برسالة واحدة ، فهو مكذب بسائر الرسالات جاهلاً أو متجاهلاً : « وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم » ( ٢٥ : ٣٧ ) وما كذبوا إلا نوحاً إذ لم يكن معهم غيره ! « وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله » ( ١١ : ٥٩ ) وإنما هم قوم هود !

كما و « كذبت ثمود المرسلين » وما هو إلا صالح ! و « كذب قوم لوط المرسلين » وعله - فقط - لوط - أو وإبراهيم (ع) و « كذب أصحاب الأيكة المرسلين » ( ٢٦ : ١٢٣ - ١٧٦ ) .

والجهولون هنا منهم هم أصحاب الرس والأيكة وقوم تبع ، وهم معروفون في مواردنا من آياتها <sup>(١)</sup> .

\*\*\*

(١) فأصحاب الأيكة وهم قوم شبيب يأتي ذكرهم في سورة الحجر والشعراء و ص وقوم تبع في الدخان وأصحاب الرس في الفرقان .

أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ  
 جَدِيدٍ — ١٥ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ  
 نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ — ١٦ . إِذْ يَتَلَقَّى  
 الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ — ١٧ . مَا يَلْفِظُ  
 مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ — ١٨ . وَجَاءَتْ سَكْرَةُ  
 الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩ . وَنُفِخَ فِي  
 الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ — ٢٠ . وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا  
 سَائِقُ وَشَهِيدٌ — ٢١ . لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا  
 عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ — ٢٢ . وَقَالَ قَرِينُهُ  
 هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ — ٢٣ . أَلْقَيْنَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَتِيدٍ — ٢٤ .  
 مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ — ٢٥ . الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ  
 إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ — ٢٦ . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا  
 مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ — ٢٧ . قَالَ  
 لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ — ٢٨ .  
 مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ — ٢٩ . يَوْمَ  
 نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ — ٣٠ .

وَأَزَلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ - ٣١ . هَذَا مَا تُوعَدُونَ  
لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ - ٣٢ . مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ  
بِقَلْبٍ مُنِيبٍ - ٣٣ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ - ٣٤ .  
لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ - ٣٥ . وَكَمْ أَهْلَكْنَا  
قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ  
مِنْ مَحْيِيصٍ - ٣٦ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ  
أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ - ٣٧ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا  
مِنْ لُغُوبٍ - ٣٨

مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي

\*\*\*

أفعمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد

.. ذلك خلق أول ، من بناء السماء وتزيينها ، ومدّ الأرض والقاء الرواسي  
فيها ، وإنزال ماء السماء وانبات النباتات رزقاً للعباد ، أفلا يدل ذلك على امكانية  
الخلق الثاني يوم المعاد الميعاد ؟ بلى وهو أهون عليه : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم  
يعيده وهو أهون عليه » ( ٣٠ : ٢٧ ) أهون في منظر قدراتنا لا قدرة الله ، اذ  
لا نهاية لها ولا عي فيها ، أم تقولون « عيينا » عجزاً « ب » سبب « الخلق الأول »  
لعظمته وعيبه ، فلا نقدر على الخلق الثاني وإن كان أهون علينا ؟ والفصل  
الشاسع بين الخلقين يزيل العي لو كان ! ثم ولا عي أيا كان ، فلا قصور ولا تقصير  
من الخلاق العليم « بل هم في لبس من خلق جديد » غارقون « في لبس » وارتياب

« من خلق جديد » هو إعادة القديم مادة ، وتلبسه بلباس جديد صورة ، وفي نشأة جديدة سيرة ، فهو إذا إعادة أكثر مما هو تجديد « يبدء الخلق ثم يعيده » إذ يجدد ما يلي من أجزاء البدن المعاد ، ثم يعيد فيه الروح للمعاد ، بل هم في لبس من خلق جديد : « وإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد » (٥١: ١٣) « وقالوا : إذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة » (٥١: ١٧) انهم عاثشون دهرهم في التباس ، مسائعون تائبون دوماً في ارتكاس ، ثم ويوم المعاد لات حين مناص ، والله يعلم ما تكن صدوركم من وسواس :

« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد »

إن مصطنعي الآلات أدري من سواهم بأسرارها وخباياها ، رغم أنهم لم يصنعوا موادها ، وإنما اصطنعوا منها صورها ، فما ترى إذا خالقها ؟ الذي خلق موادها وصورها : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ :

« ولقد خلقنا الانسان » فيما خلقناه « و » نحن « نعلم » منه كل سر وعلانية ، ومنه « ما توسوس به نفسه » حيث نفسه من خلقنا ، فإذا هو عارف بوسواس نفسه وليس بخالقها ، فإذا تظن إذا بخالقها ؟ إنه اقرب إليه منه نفسه ! : « ونحن اقرب إليه » قدرة وعلماً « من حبل الوريد » : الذي يجري فيه دم الحياة ! .

فحبل الوريد هو العرق الذي يسمى حبل العاتق ، ويريدان عن يمين العنق وشماله ، فالله يعلم غيب الانسان ووسواس اضماره ، ونجى أسرارها ، وأقرب منه وأكثر ، فالعالم بخفايا قلب الانسان اقرب إليه من عروق حياته قرب العلم والإحاطة ، وليس قرب المسافة والمساحة .

فلا أقرب إلى الانسان من خالقه ، قرب القيومية العلمية وفي القدرة ،  
 مهما بعدت ذاته عن ذاته وصفاته عن صفاته - إذ : ( ليس كمثله شيء ) فهو -  
 إذا - قريب الينا في بعده ، وبعيد في قربيه ، داخل في الأشياء لا بالمعازجه ،  
 كدخول شيء في شيء ، وخارج عن الأشياء لا بمزايلة ومجانبة ، كخروج شيء  
 عن شيء ، بل هو داخل علماً وقدرة ، خارج ذاتاً وصفات ، باين الاشياء بينونة  
 ذات وصفة ، لا بينونة عزلة ! ف ( نحن أقرب اليه ) : إلى روحه وجسمه ، إلى  
 عقله ونفسه ، إلى وسواسه وهواجسه بأسبابها ، واليه كله ( من حبل الوريد ) :  
 وريد الحياة ، ولكونه أقرب ف ( الله يحول بين المرء وقلبه ) ( ٨ : ٢٤ ) فهو  
 أقرب اليه من قلبه ، وهو يعلم منه أخفاه ، ولا يعلم الانسان إلا سره لا أخفاه :  
 ( إنه يعلم السر واخفي ) ( ٧ : ٢٠ ) فالسر ما يكنه من خابية ، وأخفى منه عالم  
 يكنه بعد ، ما سوف يكنه ولا يعلم قبل ! .

إن الوسوسة : الخطرة الرديئة - وأصلها صوت الحلي والهمس الخفي - هي  
 أخفى صنوف العلم : الخطرة النفسانية الخفية ، ومنها الوسوسة في المعاد ، فالله  
 الخالق يعلم نشأة الوسواس كلها ( ما توسوس به نفسه ) فالنفس توسوس نفسها  
 وتوسوس العقل بأسباب وآلات ، قد تجهل هي تلكم الاسباب ، ولكن الله يعلمها  
 بمواليدها ، فلم يقل ( ويعلم وسوساتها ) وإنما ( ما توسوس به نفسه ) إيجاء بعلمه  
 بكللا السبب والمسبب ، فان الباء هنا للآلة او السبب : ما توسوس بسبب نفسه .

ولقد وسوست انفس هؤلاء الناكرين عقولهم المعقولة بالهوى ، وقلوبهم المقلوبة  
 عن الهدى ، وسوست في أمر المعاد أم ماذا ؟ وترى بماذا ؟ بالوسواس الخناس  
 الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ، فما لم يكن قبول من النفس ،  
 لم تحصل وسوسة ، أو لم تؤثر اثرها ، فالشيطانات بأنواعها هي آلات يتذرعها  
 النفس لحصول الوسوسات ومفعولاتها ، والله يعلمها بأسبابها : « ونحن أقرب اليه  
 من حبل الوريد » !

ان هناك في جسم الانسان حبالاً شتى تنقل الدم إلى شتى أجزائه وأعضائه

وهي كلها تتصل بحبل الوريد : الحبل الأم الكائن في الحلقوم ، فإذا قطع انقطعت الحياة ، إذا فهو أقرب شيء إلى حياة الانسان ، ولكن الله الخالق للحبل الوريد والانسان ، هو أقرب اليه من حبل الوريد ، من نفسه ، من حياته ، من كيانه كله - : اليه

« إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » :

وترى ان « إذ » هنا ظرف لـ « نحن أقرب . . » ؟ والمتلقيان هما الملكان الحفيظان على الاعمال بأمر الله ، فكيف يكون تلقيهما ظرفاً لا قربة الله ؟ ثم ولا ظرف لها خاصاً ، فانها لزام ربوبيته وربوبيتهم ، دون اختصاص لها بحال ! ام ان تلقيهما يعلل اقربيته بـ « إذ » على التعليل ؟ والله اجل واعلى ان يعلل اقربيته إلى خلقه ، بمن يؤثمه لتلقي الاعمال من خلقه ؛ وليس التلقي أيضاً دليلاً على اقربيته ! ام إنها ظرف لـ « اذكر » وأمثالها ، ولزامه ذكر الواو قبل اذكر ، وكم في اضرابه ! وإن تقديره يخص ما لم يكن هناك م ظروف آخر مذكور .

أقول : علماً ظرف لما سبقت لها الآيات من ذكرى الناكرين عن غفلتهم : « لقد كنت في غفلة من هذا . . » : يقال لهم هذا عند نفخ الصور بعد ما تلقى المتلقيان ام ماذا .

وترى من هما المتلقيان ؟ وماذا يتلقيان ؟ وكيف ؟

.. إنهما من الحافظين علينا ، الكرام الكاتبين حفظ الاعمال عن الضياع : « وان عليكم لحافظين . كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون » ( ٨٢ : ١١ ) وما حفظهم للأعمال والاقول ام ماذا ، إلا تلقيهم إياها انفسها : أصوات الاقوال وصور الأعمال ، شاهدين لها في الدنيا وعليها في الآخرة ، وليست كتابة الأعمال تلقياً لها ، ولا ان فيها حجة على عاملها ، وإنما هي هي أنفسها بحيث انهم سوف يرونها كما القوها وتلقاها حفظتها : « يومئذ يصدر الناس اشتاتاً ليروا أعمالهم » ( ٩٩ : ٦ ) .

هذا ! ولكننا لسنا في تلك المجالة التي تقصر تلقي الاعمال بامثال الأشرطة



المسجلة لكل كلمة أو حركة أو نبرة ، فانها هزيلة دائرة ، وان كانت هي تقرب لنا تصوراً أكثر وتصديقاً أوفر بانعكاس الاعمال ، فتمثلها يوم تقوم الإشهاد ، فلنكن في يقظة دائبة ، وحذرة دائمة عما يسجل علينا الحفظة بأمر الله ، في سجلات أعضائنا والأرض بجوها ومادتها أم ماذا؟ واقعة رهيبة تعذرنا فتحضرنا ليوم الطامة الواقعة ! .

وانهما « الملتقيان » . عن اليمين « قعيد » وعن الشمال قعيد : كل مرتكن في ركنه ، قاعد في مقعده من الانسان ، قعد او مشى او قام ، فعل القعود هنا ايحاء إلى أنهما لا يقومان عن الانسان ، فهما لزامه أيّاً وأينما كان ، وكما ان لكل طائر في عنقه لزام : « وكل انسان الزمناه طائر في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . إقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » ( ١٧ : ١٤ ) كما وان أرضه وجوها يلزمانه فلا يفلتان ، وهما من مسجلي أعماله وأقواله : « يومئذ تحدث أخبارها بان ربك أوحى لها » ( ٩٩ : ٥ ) فيا لها من شهود رقباء ، هم شهوده هنا وهناك بأمر الله لا يقصرون ، فأنى تؤفكون وتصرفون ؟ ! .

وترى اليمين والشمال هما الجهتان ، فلا حفيظ من بين يديه ومن خلفه ، أو من فوقه وتحتة ؟ و « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » ( ١٣ : ١١ ) ! ثم ومجرد حضور الشهود كاف في تلقي الأعمال دون حاجة إلى جهات ! اذاً فما هما من الجهات وكما هنا ، وانما جانب الخير لقعيد اليمين وجانب الشر لقعيد الشمال ، كما المعقبات تعقبه فيما تعقب من بين يديه : الجانب المستقبل دنياً من الحال - وعقبى ، ومن خلقه : دنيا الماضي إلى الحال ، من خير لقعيد اليمين ، ومن شر لقعيد الشمال ، فهما لديه دون اختصاص بجانب أو حال :

« ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » :

« ما يلفظ » اللافظ « من قول » حسن أو سيء « إلا لديه رقيب » : يراقب حافظاً وهو « عتيد » : معد للزوم الأمر ، فالرقابة هنا هي شهادة تلقي الأعمال ،

والعتاد شهادة إلقاءها يوم يقوم الأشهاد .

فليس الرقيب العتيد - فقط - الملائكان ، أو أن قعيداً منهما رقيب والآخر عتيد ، حيث النص « رقيب عتيد » لا « رقيب وعتيد » إذا فكل منهما رقيب عتيد : كما هو يتلقى الأعمال في الأولى ، كذلك يلقيها في الأخرى ، كما الله رقيب عتيد كأول وآخر وأفضل رقيب عتيد : « إن الله كان عليكم رقيباً » ( ٤ : ١ ) « وارتقبوا إنني معكم رقيب » ( ١١ : ٩٣ ) كما وأنبياء الله رقباء شهداء : .. وكنتم عليهم شهداء ما دمت فيهم فلم توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد » ( ١١٧ : ٦ ) كذلك والأرض بأجواءها ، والإنسان بأعضائه ، كل رقب عتيد ، رقباء ، عتداء أربع ، هي « معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » : صادرين في حفاظهم من أمر الله ، وهو رقيب الرقباء وعتيد العتداء .

إذا ف « رقيب عتيد » يشمل كل شهيد على الأعمال من الله وخلق ، رقابة : شهادة التلقي ، وعتادة : شهادة الإلقاء ، للأعمال والأقوال أم ماذا ؟ إجماعاً إلى كمال العدل في الشهادة : أن المتلقي هو الملقى بعلم وعدل ، فالشاهد الذي يلقي الشهادة دون تلق ، أو يتلقاها دون إلقاء ، ليست شهادته شهادة ، وهي مردودة دون هوادة ! فمن يفسر « رقيب » بأحد المتلقين و « عتيد » بالآخر ، فقد أتى بتفسير عجيب ، خارج عن أدب اللفظ ، حيث لا عطف : يثنى ك « او » ، وعن أدب المعنى ، فكهذا تلق لا يفني ، ثم ولا معنى أن يتلقى قعيد الخير ثم يلقيه قعيد الشر ، أو يتلقى قعيد الشر ثم يلقيه قعيد الخير : مثلث الإنحراف عن التفسير الحق ! ثم و : « ما يلفظ » هنا كنموذج ساذج عن الأفعال ، لا أنه - فقط - المراقب عليه المعتاد ، فإذا لا تفضل لفظة قول ، فكيف تفضل أية فعل ، فلا لفظة ولا لحظة ولا فعلة بل ولا نية تفضل عن رقيب عتيد .

وهكذا يعيش المكلف في رقابة شديدة عتيدة حتى ينقضي عالم التكليف :

« وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » :

إن واقعة الموت راحة للمؤمنين ، وسكرة وزعجة للفاسقين ، الذين عاشوا حياتهم سكرات : « لعمر ك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » ( ١٥ : ٧٢ ) سكرة فردية لفرادى الأموات ، وجماعية للجماعات كما في النفع الأول : « وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » ( ٢ : ٢٢ ) .

وترى كيف يصبح الموت للفاقلين سكرة وهو قفزة إلى حياة أخرى ؟ إنه سكرة لانشغال سكراته بنفسه عما سواه ، في رجفة مفاجئة فاجعة تدب في الأوصال ، تفصله عن حياة انيسة بين شغل وأهل ومال ، إلى حياة بثينة تعيسة في أهوال وأوحال ، فهل هناك صيغة أدل من « سكرة » على هذه الحال ؟ ! . « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت » ( ٩٣ : ٦ ) غمرات في سكرات ! : الكروب التي تتغشى المحتضر عند الموت فيفقد تمييزه ، ويفارق معه معقوله وكأنه سكران الخمر ! إلا أن هذه منعمة منعشة وتلك مؤلمة موحشة ! .

وإنها « جاءت » دون حاجة لأن تجيئها أنت ، فإنك في الموت مختار لا مختار ، وحتى الموت الذي أنت تختار ، فالله هو المميت لا أنت ، مهما قدمت نفسك لأسبابه ، ولست بمقدمها - ف « ذلك ما كنت منه تحيد » !

وإنها « سكرة الموت بالحق » : بسبب القضاء الحق فإنه من قضاء الله ، وإرادة الحق ، فإنه من فعل الله ، وهي تصاحب إرادة الحق : « لقد كنت في غفلة من هذا .. » ومن ثم الجزاء الحق في رحاب الحق ! (١) !

و « ذلك » : البعيد عن رغبتك ، الشديد في رحلتك « ما كنت » طول حياتك الميتة « منه » - فقط - لا سواء (٢) « تحيد » حيد الفرار .

(١) فالباء في « بالحق » لكلا السببية والمصاحبة - ثم الأولى اعم من العلة الموجدة والعلة

الغائية - فان الغاية من الموت ايضاً حق : تأمل .

(٢) يستفاد الحصر من تقديم الظرف « منه » على فعله « تحيد » .

فلا يجيد الحائد عن الحق إلا عن الموت وبواعثه ، لأنه ختام شهواته ، أو بداية عقوباته ، وأما المؤمن ، فالموت أنسه ، وهذه الحياة وحشته ، وعلى حد قول الإمام علي عليه السلام : « والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بشدي أمه » فإنه يأنس بالموت أنسه بالحياة ، حيث بعده حياة انيسة رفيقة إذ ينتقل إلى الرفيق الأعلى .

ثم ومن سكرة الموت ورحلته ، إلى رحلة الحشر وهولته :

« ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد » علّما هي النفخة الثانية الإحياء ، أم هي والأولى الإماتة ، وقد يعبر عن نفخة الإحياء بنقر الناقور : « فإذا نقر في الناقور .. » ( ٨ : ٧٤ ) فالصور بوق لا كالأبواق ، كما ونفختها لا تشبه النفخات (١) فإنها صيحة الحق والصيحة بالحق في نداء من مكان قريب ، كما وتأتي من قريب : « واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج » ( ٥ : ٤٢ ) « ذلك يوم الوعيد » : وعيد العذاب على الكافرين ، كما هو وعد الثواب للمؤمنين .

« وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » : إنه لا بد لكل نفس هناك من سائق وشهيد ، إلا من هو شهيد على كل نفس ، سائق يسوقها إلى محشرها ، وشاهد يشهد عليها بعملها ، فإما إلى جنة أو إلى نار : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً .. » ( ٣٩ : ٧١ ) « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً .. » ( ٧٠ ) . وأياً كان فـ « إلى ربك يومئذ المساق » ( ٧٥ : ٣٠ ) سوقاً إلى جزاءه العدل أو الفضل بربوبيته ، إلا أن آية « كل نفس » سيقت لأهل النار .

وليس الشهيد إلا عند سوقهم فرادى ، للشهادة والحكم « وجاءت كل نفس .. » ومن ثم السائق ولا شهيد في سوقهم الجماعي زمراً : « وسيق .. زمراً » .

(١) راجع سورة النبأ ج ٣٠ ص ٣٤ .

هنا سائق واحد يسوق للمحاكمة عند الواحد الجبار ، فهل الشهيد أيضاً واحد وهناك شهود من شهاديه القعدين ، ومن نبيته .. ومن أرضه وقضاءها !  
علتها تعني هنا شاهد الشمال ، لأنها تعني أصحاب الشمال ، فليس لهم يمين حتى يشهد لهم قعيد اليمين أو شاهد اليمين ، فليس لأصحاب اليمين شمال حتى يشهد عليهم قعيد الشمال .

أو أن « شهيد » هنا تعني جنس الشهيد ، الشامل لسائر الشهداء ، كما يشمل قعيد المتوسطين بين أصحاب الشمال وأصحاب اليمين ، فكل يتلقى ما يلقي من صالح وطالح .

ترى وبعد 'لقيا الشهادة لأصحاب الشمال ، ماذا يرون ، وماذا يسمعون ؟  
إنها كلمة النبوة القارعة :

« لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد »

آية فريدة 'غرة' تنبه الغافلين الشاردين الذين هم كانوا في غرة ، فما هو هذا الذي كانوا منه في غفلة ، فكشف الله عنهم يومذاك غطاء الغفلة ؟ .

في الحياة الدنيا أغطية تغفل الإنسان عن الآخرة ، وعن ملكوت أعماله وحقائقها ، وعن شهادات الشهود الذين يتلقون تلك الأعمال ، فطوع الهوى ، والإعراض عن الهدى تغطي عنهم وتغطيهم عن الحقائق الغيب ، الواقعة يوم الدنيا ، الظاهرة لمن أبصر بها ، الخفية لمن أبصر اليها : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » ( ٣٠ : ٧ ) .

إن مثلث الغطاء في الحياة الدنيا ، ليس إلا عن الواقع فيها ، وإلا فلا غفلة ولا غطاء عن غير الواقع فيها ، مهما وقع بعدها ، فليكن واقعاً فيها حتى تصدق الغطاء ، وترى الواقعة الآخرة واقعة في الدنيا ، حتى تصدق فيها الغطاء والغفلة عنها ؟ حقاً إنها واقعة بإحياء الموتى فيها فتصبح أحياء ترى كما مضى : « وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » : واقعة بآياتها الشواهد .

وأما شهادات الشهود يوم الدنيا وإقامتها في الأخرى ، فهي من الغيب ، والمتقون يؤمنون بالغيب ، فيؤمنون بأخبار الغيب ، وهناك الشاشات التلفزيونية وسائر المصورات ومسجلات الأصوات ، هي شهود صدق تصدق الشهود الإلهية وأخرى .

وهناك حقائق الأعمال كائنة ظاهرة للبصائر ، مهما خفيت عن الأبصار ، بصائر مشرقة نافذة جديدة بنور اليقين ، تدرك ما أخبر به الله : « الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً » ، فإن لا ترى هنا إلا بنور ، ثم يراه هناك من لم يجعل الله له من نور .

إن المهم هنا ألا يصبح الإنسان غافلاً عن الأخرى وشهودها ، وحقيقة الأعمال المشهود بها ، فلا يكون في غطاء الغفلة عن « هذا » المثلث ؛ لا سيما الزاوية « الأخرى » كـ « الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً » ( ١٨ : ١٠١ ) ذلك ! وإن لم يكونوا في غطاء الكفر والتكذيب والنكران ، فما فائدة التصديق علماً ما لم تعتقد ؟ أو العقيدة ما لم تتذكر ، وإن كان مصب آية الغطاء غطاء النكران .

وكما الغطاء دركات أسفلها الجحود ، كذلك الكشف درجات أعلاها الشهود ، ولحد : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » كما عن علي أمير المؤمنين ( ع ) !

فهناك في الأخرى تكشف أغطية الكفر ، فالكافر يرى الحق كما المؤمن ، فتزول عنه اعتراضات الشكوك ، ومشبهات الأمور ، فيصدق بما كذب ، ويقر بما جحد ، ويصبح كأنه نفذ بصره بعد وقوف ، وأحده بعد كلال ، ولكنها له حسرة ونكسة ، والمؤمن جرة ورحمة ، كشف يشمل أهل الحشر أجمع إلا من لم تكن له أية غطاء :

وتكشف أغطية حق اليقين وعين اليقين ، لمن كان في غطاء عنهما ، وعلم اليقين لمن كان في شك ، فلا تبقى أية غطاء ، إلا غطاء ذات الله .

إن الأبصار البصائر هنا عليه كليله إلا من هدى الله فهي لهم نافذة حديدة ترى الحقائق الغيب ، ومن ثم في الأخرى تصبح الأبصار كلها حديدة نافذة ، لا تخفى عنها خافية « فبصرك اليوم حديد » ولكننا المؤمن يحشر ببصر حديد فلا جديد ! ومهما جدّد له بصر فهو أنفذ وأقوى ، رحمة له ، إلا أن حديد الكافر في الأخرى له عذاب شديد ! إذ كان عنها أعمى ، مهما يحشر أعمى : « من أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى » ( ٢٠ : ١٢٤ ) : أعمى البصر وحديد البصيرة .

فالغطاء المكشوف هنا هي عن البصيرة لا البصر ، كيف وهو فيه أعمى ؟ . إن هناك غطاء عام ، ليس للإنسان في تحصيله سبيل ، ولا هو مكلف في كشفه كسائر التكاليف ، هي غطاء الحياة الدنيوية ، مهما كان الإنسان مؤمناً صالحاً إلا من أخاذه الله ، وهي غطاء عن الذكر والمعرفة التامة ، وعن رؤية الحقائق كما هي ، فهي تكشف بالموت شيئاً ما ، ثم تكشف في الآخرة تماماً ، فتصبح الحقائق له مكشوفة الحجب اللهم إلا حجاب الذات الألوهية . ومن ثم أغطية خاصة من كفر وذكران نتيجة التكذيب والعصيان وهي أسفل دركاتهما ، كما آية الغطاء تعنيها ، ومن غفلة ونسيان فعصيان على دركاتهما ، وهي سوى الأسفل ، والكل تكشف يوم يكشف عن ساق فيدعون إلى السجود فلا يستطيعون .

فكشف الغطاء للمؤمن نور وبهاء ، وبشرى وجلاء ، ولغير المؤمن نذارة وحسرة فابتلاء ، فأين كشف على كشف ؟ وأين غطاء من غطاء ؟ .

« وقال قرينه هذا ما لدي عتيد » : هو قرينه الشهيد الفعيد عن شاله إذ لم يكن له بين ، دون سائقه إذ ما هو له قرين ، ولا شيطانه إذ هو يلقي معه في النار ، فكيف يؤمر أن يلقيه في النار ، وهو العتيد : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » : فعقيد الشمال رقيب عتيد كما رقيب اليمين رقيب عتيد ،

فقرين الشال يقول يوم الحشر المحاكمة : « هذا » الذي أشهد به من طالحات « ما لدي عتيد » حاضر مهيب ، دون حاجة إلى إحضار واعتاد : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .. » ( ٣ : ٣٠ ) .

ومن ثم يصدر أمر الجبار بإلقاء المجرمين في النار ، جهنم يصلونها وبئس القرار :

« ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب » : وترى من هما الملقيان هنا ؟ أهما الشاهدان ؟ ولا شغل هنا لشاهد اليمين ! أم هما ملكان من زبانية النار ؟ ولا شاهد له ولا سابقة ذكر ! أم شاهدان من غير الملائكة من نبي وولي ؟ فكذلك الأمر ! أم هما قعيد اليسار : السائق والشهيد ، : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » عليها هما ، حيث الصيغة اللفظية ، والصياغة المعنوية ، تؤيدانه ، وقد يكون السائق هو شاهد اليمين وإن لم يكن له يمين ، كشاهد عدل لسلب اليمين ، ثم يؤمر هو وشاهد اليسار : « ألقيا ... » ! أو أن السائق مؤمر للسوق غير شهيد .

ولأن الشهيد - في وجهة عامة - تشمل كل شهيد ، فأحسرى أن يكون الرسول ﷺ شهيداً ومن يحذو حذوه ، إذا كان الملك الذين دونهم شهداء ، فليشمل « شهيد » - هنا - رسول الله ﷺ ومن ينحو منحاه ، وأما أعضاء الشهود ، وفضاء الشهيد ، فيها له حاضر عتيد ، لا حاجة إلى مجيئها ، والأعضاء بأصحابها تلقى في العذاب الشديد ولا تلقي ، فإنما دور الشهادة ثم الإلقاء في النار لشهيد ملائكي وبشري .

« ألقيا .. كل كفار » . كثير الكفر والكفران « عنيد » كأنها العناد لزامه ، فلا حق إلا وهو له عنيد « مناع للخير » : معنويماً في هدي الناس ، ومادياً في ( الفرقان - ١٩ )



إمدادهم بما أم ماذا ؟ « معتد » : على الله ، إذ جعل معه إلهاً آخر ، وعلى خلق الله ، إذ هو بعد منعهم الخير يوجه لهم كل شر « مريب » بأقواله وأعماله ، يجعل الغافلين حيارى فضلاً ، يسلك بهم غياً وضلالاً .

« الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد » : فأم البلاء والضلالة لكل كفار عنيد هو الشرك بالله ، الذي يخلف ثلوث : « مناع للخير . معتد . مريب » .

« قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد » قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد » وهنا الكفار العنيد يتهم قريناً له أطفاه : حمده على الطغوى ، ومنعه عن التقوى ، وطبعاً ليس هو قرينه الأول القعيد عن يساره الشهيد ، فإنه شهيد عدل كريم ومن عمال رب العالمين ، يؤمر بإلقاء الشهادة ، ثم ومن معه من سائق ، بإلقاء المشهود عليه في النار ، إذا فقرينه الثاني شيطان يقابل قرينه الأول : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ . حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشركون » ( ٤٣ : ٢٩ ) : من شياطين الجن والإنس : « قال قائل منهم إني كان لي قرين . يقول إنك لمن المصدقين . إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمدينون . قال هل أنتم مطلعون . فاطلع فرآه في سواء الجحيم » ( ٣٧ : ٥٥ ) فهذا القرين يقرنه بعد يوم الدنيا في يوم الدين : إنه يدافع عن نفسه ويدفع تهمة الإطغاء : « ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد » ولقد صدق الكاذب هنا بعض الصدق ، أن عملية الإطغاء ليست منه فقط ، فلو لم يجد المضلل ظرفاً صالحاً للتضليل لم يحصل ضلال ، فالضلال البعيد عن الهدى ظرف صالح للمزيد ، وليس لأصل الضلال ! : « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم

من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ، ( ١٤ : ٢٢ ) .

« ما أطفيت » تعني : ما حملته على الطغوى إلزاماً وتسييراً ، وإنها دعوته إليها تزييناً وتخيراً ، فهما إذاً يختصمان ، فيرد أمر الجبار : « لا تختصموا لدي » ، إذ لا يجوز الخصام عند الملك العلام - حال : « وقد قدمت إليكم بالوعيد » : للمضلين ألا يضلوا ، وللمضلين ألا يستضلوا ، فإذا أضل أولاء وضل هؤلاء فهما في العذاب مشتركان : « وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين . فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون . فأغويناكم إنا كنا غاوين . فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون » ( ٣٧ : ٣٣ ) .

ما يبدل القول لدي وما أنا بظالم للعبيد ، والقول هنا يعني - فيما يعني - : كلمة العذاب : « وقد قدمت إليكم بالوعيد » .

إن تبدل قول العذاب من الله - أيأ كان - هو كثير ، فإن العبيد كثير ، والله هو العلي العلام الكبير ، فاليسير منه كثير ، إن ظلماً وليس منه ، أو عدلاً وفضلاً وهما منه ، فلا يعني - إذاً - نفي الظلم الكثير وما أنا بظلام ، هنا - إثبات اليسير .

فلو لم يقدم الله قولاً بالوعيد ثم عذب ، كان فيه ظلم كثير ، فإنه إغراء بالجهل ، فأخذ على غرة وجهالة ! ولو لم يعذب بعدما لا يقدم فهو ظلم كثير ، بالنسبة للعبيد الذين عاشوا التقوى بحرمان شهوات الهوى ، فالتسوية بين الأبرار والفجار ظلم كثير ! ولو قدم قول الوعيد العدل ثم خالفه إلى مزيد فهو ظلم كثير ! أم لو عذب الضالين دون المضلين ، أو المضلين دون الضالين فهو ظلم كثير ! أم لو خالف قول الوعيد العدل إلى الجزاء غير الوفاق - أيأ كان - فإنه ظلم كثير : « وما أنا بظلام للعبيد » لا في تقديم القول بالوعيد ، ولا في تحقيق الوعيد ، فهو قول عدل

ووعيد عدل ، دونما ظلم لا كثير ولا يسير ! .

ومن القول المقدم بالوعيد : « فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » ( ٣٨ : ٨٥ ) فما يبدل هذا القول لدى الله ، فإنه يدخل كثيرًا من الجن والإنس في الجحيم ، فما نصيب الجنة إلا قليل : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس » ( ١٧٩ : ٧ ) فالجحيم ثملًا بهذا الكثير ثم تقول : « هل من مزيد » ؟ :

« يوم نقول لجهنم هل امتأذت وتقول هل من مزيد » : حوار تحير العقول ، تمثل لنا تحقيق حق الوعيد ، لحدّ كان جهنم تتحدث بما تكدر من أجساد المجرمين فوق بعضهم ركامًا ، وبإله من مشهد رهيب !  
فليس ملؤ جهنم أن يجتمع فيها أهلها ماشين أو جالسين وقائمين أو نائمين ، وإنما « هل من مزيد » حتى تكدرهم على بعض وتركهم مع بعض بما يركم الله : « ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم » . ( ٣٧ : ٨ ) .  
فهم - إذا - ركام في النار ، في دركاتها كلها ، ليس لهم في سجن الجحيم مجال التجوال ، ولا أي مجال ، فإنها لا تزال « تقول : هل من مزيد » ؟ وما مزيد المليء إلا ركامًا هو الملؤ الأكثر ، فهنا التجارب بين آيات المليء وآية المزيد ، إذا تفسرهما آيات الركام ! .

ومن ثم نرى هناك على الضفة الأخرى جنة مزدلفة لأهلها المزدلفين إليها غير بعيد :

« وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد » : وقرّبت الجنة للمتقين حال أنها غير بعيد ، فهي على قربها لهم نزلف لهم تقرب التكريم التعظيم ، كيلا يتكلفوا طي مسافة إليها على قربها ، إذ تكلفوها يوم الدنيا فاقتربوا إليها بما يقربهم إلى الله زلفى .

« هذا ما توعدون لكل اواب حفيظ » : وعد حنون لكل اثم الأوبة :

الرجوع الى الله ، دائب التوبة عن معاصي الله ، يدأب في الحفاظ على حرمات الله فهو يخشى الله في غيبه ، ويأتيه بقلب أواب منيب :

« من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » : فمن مواصفات الحفيظ خشية الرحمن بالغيب : بغيب الرحمان وهو دائب الغيب - فالمتقون يؤمنون بالغيب - وبغيب عباد الرحمان ، فليست خشيتهم منهم حتى يخشوه - فقط - بحضرم ، وانما يخشونه في غيبهم ، ففي حضورهم اولى واحرى ! .

كما « وجاء بقلب منيب » من مواصفات الأواب ، فلا يتقلب بقلبه إلا في مفازات الانابة إلى الله ، فحياته - إذا - خشية الرحمن بالغيب بقلب منيب ، حتى « جاء » إلى دار كرامة الله ، للقاء الله « بقلب منيب » إلى الله ، عاقبة حسنى بعد حسنى الاولى ! .

ثم ويستقبل هكذا جاثين بذلك المجيء قوله كريمة رحيمة من الرحمن الرحيم :

« ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » : ادخلوا الجنة « ب » سبب « سلام » قدمتموه لانفسكم « ب » مصاحبة « سلام » مدخر موعود لكم - « ب » : في « سلام » خالد ليس له انقضاء في دار السلام والله هو السلام ، فـ « ذلك » البعيد المدى ، العظيم المدى هو « يوم الخلود » !

« لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » وترى ما هو « مزيد » بعد المشيئة غير المحددة التي - طبعاً - ليست لها نهاية ؟ بل انه فوق اللانهاية ، فكل لا محدود عند خلق الله ، محدود في حساب الله ، وان لدى الله للمتقين ما يناسب كرامة الله ، وهو « مزيد » عن « ما يشاءون » فالله عنده كرامة « مزيد » يؤتيهم رغبة وادراك « مزيد » عما هم يشاءون .

وترى ان « مزيد » يختص باصناف ما يشاءون ، فليست العطية على حد المشية ؟ وهو تحديد بلا دليل ، واطلاق المزيد يحلله عن هذا التحديد !

ام انه يعمه وما لا يشامون بما لا يعرفون ، لانه من كمال او قمة معرفية فوق ما يعرفون ، فكيف يعرفون؟ بما لا يعرفون؟ إن المزيد يعم ما لا تتعلق به مشيئتهم ، فيؤتيهم مزيداً بعد ما يعرفهم ، وهذا هو الحق الذي يصدقه اطلاق « مزيد » وتصدق كرامة الله التي لا تعد ولا تحدد « والله يرزق من يشاء بغير حساب » .  
فهنأ في الجنة للمتقين مزيد ، حيث يجدون الله في رحمته فوق ما يشامون وكأنه يقول لهم « هل من مزيد ؟ » .. وهناك في النار « هل من مزيد ؟ » فإن مُزاد من مزاد ، وابن مزيد من مزيد ؟ !

« وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم اشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيى »

ذكرى سريعة خاطفة إلى اعماق من تاريخ الغابرين المستكبرين ، تهين بطشة الحاضرين ، ولقد كانوا اشد منهم بطشاً على الحق واهله ، وبتطشاً على الشعوب الضعيفة وطيشاً في الباطل واهله ، فهم لبطشهم وطيشهم « فنقبوا في البلاد » ، تغلباً في البلاد « لا يفرنك تغلب الذين كفروا في البلاد » ( ٣ : ١٩٦ ) وتغلباً فيها عن اسباب الحياة ، في توسعية ظالمة فاتكة ، استضعافاً لمن في البلاد ، واستهانة لهم فاستعماراً واستثماراً ، بفرعونية جبارة ، وقارونية غدارة ! .

فكم اهلكنا منهم بصنوف الهلاك - فـ « هل من محيى » ؟ لهم او لكم من هلاك في الاخرى ، ولا محيى - احياناً - في الأولى ، و « هل محيى » لكم ؟ وليس لهم وهم اشد منكم بطشاً ، كلا ! انه لا حيصة عن عذاب الله ، ولا هيصة في حكم الله ، ولا جزع ينجيهم عن قضاء الله : « سواء علينا أجزعنا ام صبرنا ما لنا من محيى » ( ١٤ : ٢١ ) « اولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيى » ( ٤ : ١٢١ ) .

« ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب اولقى السمع وهو شهيد »

انه القلب الحي ، قلب الإنسان كإنسان ، القلب البصير ، او السمع الملقى

الى القلب دفناً من سماعها وميلاً إلى قائلها ، العائش كل مسموع فيه الذكرى ،  
الذي يتذكر من « ذلك » : الذكريات ، من مصارع الغابرين ، وبرهانات آفاقية  
وانفسية ام ماذا ، الآيات الذكريات المشهودة « لمن كان له قلب او القى السمع  
وهو شهيد » فالذكرى لا تفعل فعلها في النفوس الا بقلوب حية واعية ، او آذان  
باسماع صاغية ، فمن يتركها او يتغافل عنها فانه من اصحاب السعير : « وقالوا  
لو كنا نسمع او نعقل ما كنا من اصحاب السعير » ( ٩٧ : ١٠ ) .

ان السير النابه الهادف المقصود في آيات الله ، في الأرض بما فيها من آيات :  
تاريخية غابرة وجغرافية حاضرة ، إنه لما يكون قلباً عاقلاً واذناً سامعاً : « افلم  
يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى  
الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ( ٢٢ : ٤٦ ) والقلوب العميانية  
المطبوع عليها لا تسمح للأذان بالسمع : « ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون »  
( ١٠٠ : ٧ ) ولكننا القلوب الضعيفة ، غير القادرة على العقل الكافي ، هي تتمدد بالسمع  
الملبس الى كلمات الحق ، واما القلوب الواعية فقلما تحتاج الى إلقاء السمع الا الى  
ملقيات الذكر الوحي .

في « سورة الملك » يتقدم السمع ، لانه الأقدم للبسطاء الساذجين ، والمتحجرين  
عن الحق الناضجين <sup>(١)</sup> ، وهنا يتقدم القلب - وهو قلب الروح المنتهي اليه لباب  
العقل - لانه الاقوم في تلقي الذكرى ، ومن ثم السمع ، ولكن لا كل سمع ، انما  
السمع الملقى بحرية وانطلاق ، ولكي يتلقى ما يسمعه بلباق ، سمعٌ يلقي الى  
نبرات الذكريات بانصات ووعي ، كأن صاحبه السمع كله ، او انه لا يشغل  
سمعه بشاغل غيره ، ثم يستخلص ما يسمعه بعقله النابه الى قلبه فيجيب بحياة  
طيبة .

(١) راجع ج ٢٩ ص ٣٠ ففيه تفصيل البحث عن السمع والعقل .

فمن كان له قلب ولكنه مقلوب ، أو سمع ولكنه لا يلقى الى المسموع ، بل يلقى ، أو يشغل بما يلميه ، إنه هو الميت بعينه ، فلا يتذكر بآية ذكرى ، ولا يكون شهيداً لآية ذكرى ، والدنيا كلها ذكرى ، يعيشها كما الأموات ، فلا تعيشه فإنه من اصحاب القبور : و « ان الله يسمع من يشاء وما انت بمسمع من في القبور » ( ٢٢:٣٥ ) « فالملقيات ذكراً » ( ٧٧ : ٥ ) - : ملائكية وبشرية ام كونية - تطلب إلقاء السمع بقلوب واعية ، فاما المفلون السمع : الذين « يلقون السمع واكثرهم كاذبون » ( ٢٢٣ : ٢٦ ) او المعزولون عن السمع : « انهم عن السمع معزولون » ( ٢١٢:٢٧ ) فهم موتى لا يتذكرون ! ( أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ) ( ٢٥:٤٤ ) : و « ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » : ينبض بحياة الذكرى والعقل « او » وعلى اقل تقدير ، وإعتاداً لحياة قلب منير « القى السمع » الواعي « وهو » بروحه وقلبه « شهيد » حاضر عتيد : لتلقني ما يسمع ، فتحويله الى قلبه ليستزيد هدى ونوراً !

« ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة ايام وما مسنا من لغوب » فترى - اذاً - يسنا من خلقهم الاول من لغوب : تعب ونصب - فنعمى به عن خلقهم الثاني ؟ « افعينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد » ؟ وما خلقهم يحنب السماوات والأرض الا كقطرة في فلاة في : « لخلق السماوات والأرض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون » ( ٤٠ : ٥٧ ) .

كان ناكري الخلق الثاني المسعاد ينكرون الخلق الأول فهم في ريبهم يترددون ؟ « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فاني يؤفكون » ( ٢٩ : ٦١ ) او انه لغب من الخلق الأول عاجزاً ؟ ولم يمه في خلق السماوات والأرض وهو اكبر من خلق الناس ، فهل يمه - اذاً - من خلق الناس من لغوب ، ولكي يعي لاغياً عن الخلق الثاني ؟

وهناك في التورات نجد فرية اللغوب في خلق السماوات والأرض في ستة ايام ، فأية اللغوب ، بضمن ما هي تنديد بالمشركين في زعم اللغوب ، وما سمعناهم

هكذا زاعمين . انها تندد بالذين حرفوا التورات فاختلقوا فرية اللغوب : « ...  
ثم استراح في اليوم السابع »

\*\*\*

« فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع  
الشمس وقبل الغروب - ٣٩ . ومن الليل فسبحه وأدبار  
السجود - ٤٠ . واستمع يوم ينادي المناد من مكان  
قريب - ٤١ . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم  
الخروج - ٤٢ . إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير - ٤٣ .  
يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير - ٤٤ .  
نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر  
بالقرآن من يخاف وعيد - ٤٥ .

\*\*\*

« فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل  
الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » :  
« فاصبر .. » : بعد تمام الحجاج عليهم ، وتمام اللجاج منهم ، إذا فلا حياة  
لن تنادي ! « فاصبر على ما يقولون » والى متى ؟ « يوم ينادي المناد .. » إذ  
تبراهم الى محشرهم يعذبون ، « فاصبر » دون جبر عليهم « فما أنت عليهم بجبار »  
و « اصبر » تركاً لذكراهم بعد التي ذكرتهم « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »



وأما ذكرى الذي لا يخاف وهو عنيد ، فلا عليك إلا إتماماً للحجة إيضاحاً للمهجة ، ثم لا حجة ولا مهجة .. « فاصبر » واستعن لصبرك بتسبيح الحمد لربك ، فمهما جرحوا قلبك المنير ، وهرجوا خاطرك الخطير ، فطمئن قلبك بذكر الله العلي الكبير : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

ولا راحة عن التعب ، ولا ازاحة للنصب إلا راحة ذكر الله ، وكما الرسول ﷺ كان إذا غمه شيء استراح الى الصلاة ، وكان يقول : « وقرة عيني الصلاة » !

هنا تسبيح بالحمد ، وليس الحمد فقط ، فإن فيه شائبة التعميد والتشبيه ، ولا التسبيح فقط ، فعماداً يسبح وينزه لولا اثبات صفات ؟ ! فليكن تسبيح بالحمد ، ان تحمده كما يليق بذاته ، فبحمده تسبحة ، كما بتسبيحه تحمده ، نقياً مع اثبات ، واثباتاً مع نفي ، فاذا تحمده بعلمه فلتسبحه عن علم من سواه ، عالم لا كسواه ، بعلم لا كسواه ، كما في قدرته وحياته كصفات ثلاث للذات ، كذلك وسائر الأفعال والصفات .

ولأن الصلاة هي خير موضوع للتسبيح بحمد الرب ، وان لها كفريضة أوقات خصوص ، فلتكن الاوقات الثلاثة « قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل » هي أوقاتها المفروضة لها وكما في آية اخرى : « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل » ( ١١ : ١١٤ ) :

وعليه بداية فرض الصلاة انها كانت ثلاث<sup>(١)</sup> ومن ثم الاشارة الى فرض الظهر في آية اخرى : « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آتاء الليل فسبح واطراف النهار لعلك ترضى » ( ٢٠ : ١٣٠ ) فأطراف النهار تشمل الطرف الوسط « الظهر » كما تشمل طرفي قبل الطلوع

(١) الدر المنثور : اخرج الطبراني في الاوسط وابن عساكر عن جرير بن عبد الله عن النبي (ص) في قوله « وسبح .. » قبل طلوع الشمس صلاة الصبح وقبل الغروب صلاة العصر .

وقبل الغروب ، وإلا فلماذا « اطراف النهار » وهما طرفان ؟ كما في آية الطرفين ، وهما المذكوران نصاً قبل الأطراف ، كما و « آناء الليل » قد تعني - فيما تعني - العشائين .

ومن ثم التصريح بفريضة الظهر والعشاء ايضاً : « أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً » (٧٨: ١٧) فالظهر هنا هي فريضة الدلوك ، والعشاء هي فريضة غسق الليل ، ثم قرآن الفجر هنا وقبل طلوع الشمس هناك هي فريضة الفجر ، وقبل الغروب هي العصر ، و « من آناء الليل » تشمل فريضة المغرب : تدرجاً في بيان الفرائض اليومية وكما في سائر الفرائض (١) .

إن طلوع الشمس وغروبها تحوّل ، وإن ظلام الليل بغسقه ثم فجره تحوّل ، فلتتحرك أنت بتسبيح الحمد مع تحول الكون ، فليشرق قلبك قبل اشراقه الشمس بتسبيح الحمد ، ولتجدد فيه اشراقه بعد غروبها ، ثم ومن الليل الى غسقه أم ماذا ؟ تماشياً مع الكون في تسبيح الحمد ، وعند مظاهر التحول « وادبار السجود » دبر كل صلاة ، وعلته لتكميل ما نقص منها تطوعاً ، من تعقيبات تحمل التسبيح بحمد ربك ، او نوافل ركعات (٢) .

(١) تجدد تفصيل البحث عند آية الفسق واضرابها انشاء الله .

(٢) الدر المنثور ٦ : اخرج مسند في مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن علي بن ابي طالب قال : سألت رسول الله (ص) عن ادبار النجوم والسجود فقال : ادبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وادبار النجوم الركعتان قبل الفداة .

وفي الكافي بإسناده عن حريز عن زرارة عن ابي جعفر الباقر (ع) قال : قلت : وادبار السجود ؟ قال : ركعات بعد المغرب . ورواه القمي في تفسيره بإسناده عن ابن ابي نصر عن الرضا (ع) قال : اربع ركعات بعد المغرب .

وفي قرب الاسناد للحميري بإسناده الى اسماعيل بن عبد الخالق قال سمعت ابا عبد الله (ع) يقول ركعتين اللتين بعد المغرب هما ادبار السجود .

اقول : عل الجمع بين الركعتين والاربع ، ان الاوليين هما الافضل ، ومن ثم الاخيرين .

٣٠٠ ..... الجزء السادس والعشرون

وبصيفة جامعة فهنا جوٌّ للصبر والتسبيح بالحمد موصولاً بصفحة الكون في مختلف مظاهره نظرة الاستماع للمناد من مكان قريب ، بعدما سمعتم ينكرونها من بعيد ومن قريب ! :

« واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب » إنه منادي الصيحة الصارخة ، حيث ينفخ في الصور وينقر في الناقور ! نداء « من مكان قريب » إلى أهل الحشر أجمع ! فللكل منها نصيب على حد سواء ، فإنها بمقربة من الكل ، قد تنفخ في الأحياء لإماتتهم ، ومرة أخرى لإحيائهم ، والمنادي النافخ في الصور هو الله : « ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » ( ٣٠ : ٢٥ ) وإن كانت هناك عامل أو عمال للنداء من ملائكة الله أمئن ذا ؟ وهي نداء الدعوة للخروج :

« يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج » فهناك سماع جماعي لصيحة الخروج الإحياء يفرع لها أهل الحشر إلا من شاء الله : « ويوم ينفخ في الصور ففرع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين » ( ٢٧ : ٨٧ ) وكما الأولى تشملهم إلا من شاء الله في صيحة الامانة : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله .. » ( ٣٩ : ٦٨ ) وممن شاء الله وأحرامهم رسول الله ﷺ فإنه لا يسمع الصيحة المفزعة المصعقة إلا أن يستمع كما وتوحي به « واستمع .. » إستماع لا فزع فيه ، و« يوم يسمعون » لا « تسمعون » لكي لا تشمل « من شاء الله » حيث هم هنالك آمنون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » ( ٢٢ : ١٠٣ ) « .. وهم من فزع يومئذ آمنون » ( ٢٧ : ٨٩ ) .

ثم وهذه الصيحة « بالحق » هي : بإرادة الحق ، مصاحبة حق الدعوة ، ويهدف الحق من الجزاء الحساب ، فلا ظلم هناك ولا فوضى ، فصيحته المفزعة المصعقة حق لهم ، إلا من شاء الله ، بفضل الله ورحمته .

« إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير » : إحياء مرتان وإماتة مرتان :  
 « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » ( ٤٠ : ١١ ) : إحياء للحياة الدنيا  
 ثم إماتة عنها ، فهو حي في البرزخ ، ثم إماتة أخرى هي عن الحياة البرزخية <sup>(١)</sup>  
 ومن ثم إحياء للحياة الثالثة الأخرى ، فالبرزخية الوسطى لا تحتاج إلى إحياء ،  
 فإنها تَجْرُدُ عن الحياة الدنيا فانتقال إلى الوسطى ، وعلمه هو السر في تقديم الإحياء  
 ونحيي ونميت « هنا ، فلو عنى الإحياء - فقط - في الأخرى لكانت الإماتة هي  
 الأولى كما في اضرابها : « وإنه هو أمت وأحيا » ( ٥٣ : ٤٤ ) .

كما « وإلينا المصير » هو المرحلة النهائية بعد اثنتين واثنتين ، بعد الإحياء  
 للأخرى ، وكما تشهد لها آياتها الأخرى : « والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون »  
 ( ٦ : ٣٦ ) .

وترى متى الإحياء مرة أخرى ومن ثم المصير ؟ :

« يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير » !

يوم تشقق الأرض - الدافنة لهم - عنهم ، وتكشف عن أجسادهم الرفات ،  
 وعظامهم الذرات ، التي قادت في سارب الأرض ، تشقق عنهم حشراً لهم كما  
 خلقوا أول مرة ، سراعاً إلى الداع دون بطاء : « يومئذ يتبعون الداعي لا  
 عوج له وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همساً » ( ٢٠ : ١٠٨ ) « يوم  
 يدع الداع إلى شيء نكر . خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد  
 منتشر . مطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر » ( ٥٤ : ٨ )  
 و « ذلك » البعيد البعيد في ميزانكم « حشر علينا يسير » : غير عسير ، وكل  
 خلق علينا يسير !

(١) فالاماتة الأولى تزهق الروح عن البدن الدنيوي ثم هي مستمرة في البدن البرزخي ،  
 والاماتة الثانية تزهقها عن البرزخي أيضاً وتضعها في نفسها كذلك ، فالإحياء للأخرى إحياء  
 تام عن الصعقة إلى الحياة الخالدة الأخرى .

« نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ».

لا أنت - فحسب - تعلم ما يقولون فـ « نحن أعلم بما يقولون » « فاصبر على ما يقولون » ثم « وما أنت عليهم بجبار » إذا - وأنا الجبار - لا أجبرهم على ترك ما يقولون ، « فـ » لا عليك إلا أمر واحد أن « ذكر بالقرآن من يخاف وعيد » مواصلاً في ذكره ، وأما من لا يخاف ، فإنما هي ذكرى الحجاج ، ثم تقطعها وتعرض عنهم عند اللجاج ! : « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بغفرة وأجر كريم » ( ٣٦ : ١١ ) .



مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي

\*\*\*

( سورة الذاريات - مكية - وآياتها ستون )

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا - ١ .  
فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا - ٢ . فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا - ٣ . فَالْمُقَسَّمَاتِ  
أَمْرًا - ٤ . إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ - ٥ . وَإِنَّ الدِّينَ  
لَوَاقِعٌ - ٦ . وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ - ٧ . إِنَّا كُمْ لَفِي قَوْلٍ  
مُخْتَلِفٍ - ٨ . يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ - ٩ . قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ - ١٠ .  
الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ - ١١ . يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ  
الدِّينِ - ١٢ . يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ - ١٣ . ذُوقُوا  
فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ - ١٤ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ  
فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ - ١٥ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ  
كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُخْسِنِينَ - ١٦ . كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ  
مَا يَبْهَجُونَ - ١٧ . وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ - ١٨ .  
وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ - ١٩ . وَفِي الْأَرْضِ  
آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ - ٢٠ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ - ٢١ .

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ - ٢٢ . فَوَرَبُّ السَّمَاءِ  
وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ - ٢٣ .

\*\*\*

سورة الذاريات تزامن النازعات في آياتها الاولى، إذ تحمل أقساماً بقوات  
ذاريات فحاملات فجاريات فمقسّمات امراً ، توطئة وتوطيداً لصدق مواعيد الرب  
يوم الدين الواقع ، فما هذه القوات الأربع ؟ ثم ما هي الصلة الوطيدة بينها وبين  
صدق الوعد في الدين الواقع ؟

« والذاريات ذروا » : إطارة وإثارة ، من الرياح الذارية لقراب او هشيمها ؛  
« كدما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فاصبح هشيماً تذرره الرياح »  
( ١٨ : ٤٥ ) او المطيرة المثيرة للسحاب باذن الله : « الله الذي يرسل الرياح فتثير  
سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء » ( ٣٠ : ٤٨ ) « ... فسقناه الى بلد ميت »  
( ٣٥ : ٩ )

ومن الرياح اللواقح ، اللاقطة النطف من فحولة النبات ، فالمطيرة لهاوالمثيرة  
بها بين أنثاها ، ولكي تحمل جنينات الثمار ، او اللاقحة أجزاء السحاب المنبثة  
لتحمل ماء : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه » ( ١٥ : ٢٢ )  
« حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء » ( ٧ : ٥٧ ) فمن  
وظائف الرياح الذاريات إزجاء السحاب وقلمها من البحار والأنهار ، ومن مختلف  
أكناف السماء ، ثم تأليفها وجعلها ركناً لكي تحبل بالأمطار : « ألم تر ان الله  
يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله .. »  
( ٢٤ : ٤٣ ) .. ثم ومنها المطيرة للسفن الحاملات الجاريات .

هذه ، ومن ثم قوات ذاريات أخرى لمختلف الذاريات والعناصر والجزئيات  
كامنة في أصولها أو سواها بما كمنها الله فيها وأمكنها من مختلف التصرفات ، أو

كائنة في سائر كائنات العالم ملائكية وبشرية ام ماذا ؟ صادرة عن الله وبأمره دون فسق ولا نشوز ... فلا تختص الذاريات - إذأ - بالرياح ، طالما ورد تفسيرها بها عن الرسول ﷺ وعن باب مدينة علمه ، تفسيراً بأظهر مصاديقها ، دون المفهوم الواسع الذي تسعه اللفظة ، مهما لم تسعه افهام الناس الا الخواص ، وعلمه هو السبب فيما فعله الخليفة عمر من تهديد وتثديد بمن سأله عن تفسيرها (١) ولكن ترى هل يستحق المستفسر عن معاني آي من الذكر الحكيم هكذا إهانة ومهانة ؟ بل الترغيب والتبجيل ! وكما فعله الرسول ﷺ فيما يرويه عنه عمر نفسه من تفسير الذاريات (٢) !

(١) عن السائب بن يزيد قال : أتى عمر بن الخطاب فقبل يا أمير المؤمنين ! : « انا لقينار جلا يسأل عن تأويل شكل القرآن فقال عمر : اللهم مكني منه ، فبينما عمر ذات يوم جالساً يغدي الناس اذ جاء الرجل وعليه ثياب وعمامة صفدي حتى إذا فرغ قال : يا أمير المؤمنين ! «الذاريات ذروا فالحاملات وقرأ » فقال عمر : أنت هو ؟ فقام إليه وحسر عن ذراعيه فلم يزل يحلده حتى سقطت عمامته فقال : والذي نفس عمر بيده لو وجدت لك محلوفاً لضربت رأسك ، البسوه ثياباً واحواوه على قتب واخرجوه حتى تقدموا به بلاده ثم ليقيم خطيب ثم يقول : ان صبيفاً ابتغى العلم فأخطاه ، فلم يزل وضيعاً في قومه حتى هلك وكان سيد قومه » .

تجده في : سنن الدارمي ١ : ٥٤ - ٥٥ - تاريخ ابن عساكر ٦ : ٣٨٤ - سيرة عمر لابن الجوزي ١٠٩ - تفسير ابن كثير ٤ : ٢٣٢ - اتقان السيوطي ٢ : ٥ - كنز العمال ٦ : ٢٣٨ نقلا عن الدارمي ونصر المقدسي والاصمهاني وابن الانباري والالكائي وابن عساكر - فتح الباري ٨ : ١٧ - الفتوحات الإسلامية ٢ : ٤٤٥ .

(٢) الدر المنثور ٦ : ١١١ - اخرج البزاز والدارقطني في الافراد وابن مردويه وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال : جاء صبيغ التميمي الى عمر بن الخطاب فقال : اخبرني عن «الذاريات ذروا » قال : هي الرياح ، ولولا اني سمعت رسول الله (ص) يقوله ما قلته ، قال : فاخبرني عن «الحاملات وقرأ » قال : هي السحاب ولولا اني ( يكرر روايته عنه ص ) قال : فاخبرني عن الجاريات يسراً قال هي السفن ولولا اني... قال عن المقسمات أمراً قال هن الملائكة ولولا أني... ثم أمر به فضرب مائة وجعل في بيت فلما برأ دعاه فضرب مائة أخرى وحمله على قتب وكتب الى أبي موسى الأشعري امنع الناس من مجالسته فلم يزالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فعلاف له بالإيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً فكتب في ذلك إلى عمر فكتب عمر ما اخاله الا قد صدق فخل بينه وبين مجالسة الناس .



وتبعه خليفته علي (ع) (١).

« فالحاملات وقرأ » : ثقلًا على ظهر أو بطن أو صدر ، من الرياح الحاملات ؛ ثقلًا على ظهرها من السحاب اللاقحات ، الحاملات وقرأ من النطف النباتية للتلقيح ، ومن السحاب الحاملات وقرأ من الماء في بطونها ، يسوقها الله به حيث يشاء ، والملائكة الحاملة وقرأ من أوامر الله ، ورجالات الوحي الحاملين وقرأ من شريعة الله في صدورهم ، وكافة الحاملات وقرأ ، صадرات من الله ومنفذات بأمر الله . وفي تفريع الحاملات على الذاريات إشارة إلى تفرع الحمل على الذرّو كما هو الواقع ، فالذرّو أياً كان هو كبذرة للحمل وكما في النساء الحاملات .

« فالجاريات يسراً » : من الأمور والأوامر الجارية في مجاريها ، بما ذرته الذاريات ، وحملته الحاملات ، ومن السفن الجوّاري كالأعلام في يسر على سطح الماء بإرادة الله ، وبما أودع الله الماء والهواء والرياح والسفن من خصائص تسمح بهكذا جري يسير : « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام . فبأي آلاء ربكما تكذبان » (٥٥: ٢٥) .

« فالقسمات أمراً » : الطاقات المقسمات بين الكائنات أمراً من الأمور أو الأوامر ، تكويناً وتشريعاً ، دنياً وعقبى ، مقسمات كونية بما أودع الله فيها من طاقات ، وملائكية أو بشرية أم ماذا ؟ التي تقسم أمر الله كما أمر الله دون نشوز ولا شذوذ ، كما الملائكة « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » من تقسيم لأمر الأرواح والأجساد دنياً وعقبى ، وتقسيم لها كما تحقق كذلك ، ومن نزول بالوحي على أنبياء الله ، وبالإلهام على عباد الله المخلصين ومن .. كما لغير الملائكة فيما حملوا من أمر وتقسيم لأمر .

(١) وفي الدر أيضاً أخرج عبد الرزاق والغرياني وسعيد بن منصور والحارث بن أبي أسامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان من طرق عن علي بن أبي طالب (ع) وذكر مثل ما رواه الخليفة عمر عن النبي (ص) .

فما تعني المقسمات خصوص الملائكة، لمكان التانيث الحقيقي فيها دون الملائكة الذين هم لا ذكران ولا اناث، فالراجع اليهم بين ضمير مذكر او مؤنث مجازي .

هذا - ولان تقسيم الأمر لا يختص بهم ، فله عمال منهم الملائكة ومنهم غيرهم وكثير ما هم ! .

« انما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع » ترى ما هي الصلة بين هذه الاربعة وبين صدق الوعد ووقوع الدين ؟ فهل هي أقسام بدلاً عن الدليل اذ لا دليل ؟ سبحان الرب الجليل عن هكذا دليل عليل ! او هي ادلة لصدق الوعد ووقوع الدين وكيف هي ؟

إن مشكلة المعاد فالجزاء بعد العود، هي عائدة اولاً وأخيراً إلى استحالة الحياة الجديدة او إمكانية، فثبتت إمكانية إثبات لوقوعها، فإن الحوار والمشاورة حول المعاد ليس إلا مع المقرين بوجود الله معها كانوا به مشركين - فامكانية الحياة بعد الموت - الثابتة بامثال ما يقسم به هنا وهناك ، اضافة الى قدرة الله تعالى ، ثم علمه الشامل وعدله الكامل، إنها تنتج ضرورة : « انما توعدون » : من الحياة الأخرى « لصادق » ومن ثم « وإن الدين » : الجزاء « لواقع » فإن علم الله وحيطته بما يصدر عن الظالمين وما يلقاه المظلومون ، وبما يطيعه المطيعون ويعصيه العاصون ، ثم قدرته على الجزاء الوفاق ، ثم عدم واقع الجزاء هنا إلا شذراً قليلاً ، مع قدرته تعالى على إعادة الحياة ليجزي الذين اساءوا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى ، إنها تثبت ضرورة صدق الوعد ووقوع الدين ، فإن نكرانها نكران لوجود الله وهم مصدقوه ، او نكران لعلمه وقدرته وعدله وهم عارفوه ، او إحالة للحياة بعد الموت وهي تكذيبه أنه يحيى الموتى ، ونكران لما يلحقونه ليل نهار من ذاريات حاملات جاريات مقسمات ... ومن أضرابها : تلكم البراهين الحسية التي يعيشونها طوال حياتهم .

فكما ان الذاريات ذرواً، فالحاملات وقرأ، فالجاريات يسراً، فالمدبرات امراً،

تبرز لنا دوماً تغييراً وتحويراً ، من موت الى حياة ومن حياة الى موت : قوات 'تطير وتثير وتغير' ، ناقلة مواد الحياة الى الاموات فتحياها يوم الدنيا باذن الله ، كذلك هي هي في الأخرى - وبأخرى - تنفذ مشيئة الله العليم القدير العدل البصير . فالله يسوق السحاب الى بلد ميت فيحييه بأمطارها الغزيرة لإفاقة الحياة الدنيا وهي الأدنى ، كذلك الله هو السائق لسحاب رحمته الى أراضى الأبدان لتحيا مرة أخرى ، فتجزي كل نفس بما تسعى ، وهي أهون عليه وأخرى : : وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه « ( ٣٠ : ٢٧ ) أهون بحساب الخلق ، وأما في حساب الله فالكل له حين على سواء .

ومن جهة أخرى ، فهذا النظام الدقيق الأنيق الخبير للعقول ، غير حقيق أن يحصر في دنيا الحياة الدائرة فيصبح عبثاً ، وإنما هو بصورة أدق وآنق يتجلى يوم الدين « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاهبين » .

« إنما توعدون لصادق » من وعد الحياة بعد الموت ، والجزاء بما عملتموه قبل الموت ، « وإن الدين : الطاعة » لواقع ، فالدين طاعة في الدنيا ، وظهور للطاعة بحقيقتها يوم الدين ، فليس الجزاء إلا نفس العمل صالحاً وطالحاً ، طالما الطاعة يزيد ما فضل من الله ورحمة .

وهل هذه الأربع المقسم بها واحدة في حالات أربع بتأويل ان الفاء لترتيب الأفعال والذات واحدة ؟ أم أربع ، لان الفاء لترتيب الفواعل في مختلف الأفعال ؟ أم متداخلات بعضاً ومستقلات في بعض ؟ إن تفاسيرها المسبقة تشير الى الأخير ، وان كانت الفاء في الثلاثة الأخيرة تفرعها على الأولى ، فليس لزامه الوحدة ، كما ليس الكثرة ، فترتب الأفعال يناسبها معاً وتتبع القرائن للتمييز . « والسما ذات الحبك » : جمع الحبكة ، وهي الطريقة الحسنة<sup>(١)</sup> المتينة

(١) لقد جاء في النظم هذا المعنى عن عمرو بن مرة يمدح النبي (ص) : لأصبحت خبير الناس نفساً ووالداً «رسول ملوك الناس فوق الجبائك» وفي اللغة كل شيء أحكمته وأحسنيت عمله فقد احتبكته .

الشديدة ، يقال : بعير محبوك القرى : محكمه ، والاحتباك شد الإزار ، كما الحبك هو الشد .

فالسما هي ذات طرائق سبع : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » ( ٢٣ : ١٧ ) طرائق حسنة ومن حسنها أنها شداد : « وبنينا فوقكم سبعاً شداداً » ( ٧٨ : ١٢ )<sup>(١)</sup> : سما منسقة محكمة التركيب ، حسنة الهيئة ، كتتنسيق الزرد المتشابك المتداخل الحلقات ، المحبوكة المشدودة رغم طباقها السبع ، المتفاصلة الأجواء ، تحكمها وحدة الحكمة الناصعة الناسقة رغم حبكها العديدة ، ولكنها حسنة شديدة متناسقة .

فها طرائق محسوسة للأبصار مجردة ومسلحة ، وهناك طرائق معقولة للبصائر ، حبك قلبية وقالبية ، وهي فيها مثلثة متناصرة ، فمنتهية إلى توحيد المحبك المسطرّق الجبار القهار : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » ( ٦٧ : ٣ ) مهما رأيت فيه من مختلف الخواص والآثار والأشكال .

وكما أن السماء المادية لها حبك وطرائق ، كذلك السماء المعرفية ، فانها الرسول الأقدس ﷺ الذي يتلقى الوحي كله ، ثم له حبك : طرائق وأبواب ، يصعدون عنه ويدلون عليه ، فهم كثير لا يقولون الا واحداً دون اختلاف ، اثني عشر إماماً هم استمرار لرسالة الرسول ﷺ ، فاتّباعهم إذاً ينتج قولاً واحداً ، ولكنكم لنكرانكم سموات المعرفة الرسالية والرسولية « إنكم لفي قول مختلف » ولتخلفكم عن مدرسة السماء الحسية والمعرفية .

فقسما بهذه السماء المحبوكة ، ذات الطرائق الحسنة الشداد :

« إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك » رغم أن هذه الطرائق بمتناولكم حسيّاً وعقليّاً وعلمياً ، فأنتم أنتم الأوغاد ، غارقون في قول مختلف ، كمن

(١) راجع ج ١ ص ٢٥ من الفرقان تستوضح السبع الطرائق الشداد .

(٢) نور الثقلين ٥ : ١٢١ عن تفسير القمي بإسناده الى أبي حمزة قلت : سمعت أبا جعفر

(ع) يقصر في قول الله « والسماء ذات الحبك » : السماء رسول الله (ص) وعلى ذات الحبك .

ينظرون إلى الشمس في رابعة النهار بمنظارات عدة ، ثم يختلفون في نورها وظهورها ، وفي كيانها !.

« إنكم » أنتم المشركين الناكرين ليوم الدين « لفي قول » : فيه « مختلف » : عن الواقع ، ومتناقض متهافت مع بعض ، رغم أن السماء ذات الحبك حسيباً ومعرفياً ، والذاريات الحاملات الجاريات المقسمات أمراً ، والكائنات كل الكائنات ، إنها تدلكنم بقول واحد على إمكانية الحشر الحساب وضرورته .

فقولكنم : إن الله قدير عدل حكيم ، يفرض التصديق بصدق الوعد ووقوع الدين ، وتقوثلكنم : « إنا لفي خلق جديد ؟ يختلف تماماً عما تصدقون أولاً ، فهل إن الله عاجز ؟ أم جاهل بما تحصل من ظلمات ؟ أم ظالم ؟ أو إن الإحياء بعد الموت محال ! رغم أن الكون كله بتنقلات الموت والحياة ليل نهار ، وبها بدأ الله به من حياة ، إنه يقول عن المكون الأول : « إنا نحن نحيي الموتى » « أفعمينا بالخلق الأول » ؟ !.

فرغم أن الكائنات تقول في محراب الحس والعقل والعدل « إنهما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع » ، فأنتم أنتم العميان الضيَّار ، الموتى القلوب ، عائشون « في قول مختلف » غارقون في أوهام وأحلام ، تقولون أقوالاً وأقارب متناقضة ، ولكي تتحرروا عن أسر الشريعة الإلهية !

« إنكم لفي قول مختلف » : مختلف بعضه مع بعض تناقضاً ، ومختلف بعضكم مع بعض فيه ، ومختلف عن الحق الواقع ، المؤيد بالآيات الآفاقية والأنفسية ، وبالعقل والفطرة ، والمصدق بوحي السماء على رجالات الوحي ، فهم فيه يختلفون لأنه مضطرب ، لا قوام له ولا إستقرار ، وهكذا يكون الباطل دوماً مرجحاً مهتزاً ، لا نور فيه إلا الظلام ، فلا يجتمع عليه أهل إلا لغايات وحاجات ، فإذا قضيت تفرقوا عنه ، ودب الخلاف بين أهليه وظهر ، طالما كان خفياً ، أو ظاهراً لا يعرفه الجاهلون .

إن القول المختلف المتزعزع الضنين هو من أشر القول وأخسئه ، ثم القول

الكذب الذي يثبت عليه صاحبه ، ثم أحسن القول هو الصدق الواحد غير المتفاوت مع بعضه ومع واقع العقيدة وواقع الكون .

« إنكم لفي قول مختلف » في الله ، ومختلف في رسالات الله ، ومختلف في كتابات وحي الله وأخيراً في القرآن : إنه سحر أو كهانة أو شعر أو عبارات جنونية أو سحر يؤثر ، فإذا كانت سحراً فكيف يؤثر ؟ ومن آثار السحر أنه لا يؤثر وإنما يغنى ويُدثر ! فقد تراهم - على طول الخط - في أمر مريج : « قول مختلف » :

« يؤفك عنه من أفك » : والإفك هو الصرف عن وجه الحق ، ويقال للرياح المعادلة من المهاب مؤتفكة ، إذا فالتؤفك عنه ليس إلا الحق ، وإليه يرجع ضمير الغائب « عنه » لا إلى قول مختلف ، فالصرف عن هكذا قول ليس إفكاً ، وإنما يرجع إلى حق مختلف فيه ومختلف عنه : حق التوحيد والرسالة والمعاد والقرآن « عم يتساءلون . عن النبأ العظيم . الذي هم فيه مختلفون » ( ٣: ٧٨ ) . وقد يحتمل رجوعه إلى قول مختلف بتجريد الإفك عن الكذب أن يعني مطلق الصرف وإن كان عن الباطل ، يصرف عنه من صرف ، بتفكيره وبتأييد الله ، أو يقال أنه يشمل إفك الحق وإفك الباطل وعلته أوجه وإن كان إفك الباطل أظهر وأنسب لغوياً .

( إنكم لفي قول مختلف ) أنتم فيه ومختلف هو فيكم ، ومختلف هو عن الحق : ( يؤفك عنه ) عن الحق « من أفك » عنه ، فالوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ، يأفك النسناس عن سيرة الناس ، عن الحق الذي فطرهم عليه إله الناس ، وعمّا سن لهم بما شرعه وأنزل على الرسل ، حراساً لهم ومتراساً عن الإفك ووسواسه ، ونبراساً ينير لهم الدرب إلى صراط مستقيم .

إن الوسواس لا يستطيع أن يأفك عن الحق إلا من أفك في نفسه ، دون العباد الصالحين ( إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ) فما لم يكن الإنسان في نفسه شيطاناً أو مائلاً إلى شيطان ، فلا سبيل لسائر

الشياطين أن يأفكوه عن الحق ويصرفوه عن وجهه، وإنما «يؤفك عنه من أفك»: «قتل الخراصون» والخرص أصله من خرص الثار وهو تقديرها دون وزن ولا عدّ، فهو الخدس والتخمين، دون سناد إلى برهان متين، فلا يعدو الوهم والظن «إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون» (١٠ : ٦٦) «ما لهم به من علم إن هم إلا يخرصون» (٤٣ : ٢٠) والخرص فائك وقاتل أيا كان، وإن اتفق وفقه للواقع أحياناً، والعلم هو المستود إلى برهان حق وإن خالف الواقع أحياناً.

«الذين هم في غمرة ساهون»: أصل الغمر إزالة أثر الشيء، ومنه قيل الماء الكثير الذي يزيل أثر سيله: غمر وغامر، فالغمرة هنا تمثل للجهالة والانحلال عن العقل والفطرة الإنسانية، إذ زالت آثارها، فأصبح صاحبها مغموراً في السهو، دونما يقين أو تصميم فهو - إذا - كمتفسير لنتائج التخريص:

إنهم غارقون في غمرة الأضاليل والأباطيل، لا يشعرون بشيء مما حولهم ولا يستشعرون، وهي حياة الحيوان المجنون مهما كان في قالب الإنسان، فقد قتلت إنسانيته إذ فقد حكم العقل والفطرة وهما حياة الإنسان كإنسان.

«قتل الخراصون» إخبار بحساب الله أنهم مقتولون بما قتلوا عقولهم، مهما كان دعاء بحساب الخلق - دون الله فإنه لا يدعو - إذ يحق لهم الدعاء عليهم بالقتل، أن يزيدهم الله عمى ويذرهم في طغيانهم يعمهون، ثم ويقتلهم في أجسادهم كذلك لإراحة المجتمع الإنساني من خرصهم وغمرتهم في سهوهم، وأما الله فمهم يدعو ويلتمس أن يقتل الخراصين؟

والخراصون: المبالغون في خرصهم، حياتهم غمرات السهو والخطأ، لا يصدر عن مصدر العقل والشعور، وإنما هم فوضى في حركاتهم وتصرفاتهم وأحكامهم، وإذا سألون عن حقيقة، فليس للتعري عنها، وإنما للتجري عليها والإستمزاء منها، كما:

«يسألون أيا ن يوم الدين» ترى لو أجيبوا عن أيتانه وزمانه هل كانوا

يؤمنون به وهم كافرون بأصله ؟ كلا ! ثم ولا صلة بمعرفة الزمان لإثبات ما يحصل في الزمان ! إذا فسؤا لهم هذا تعنت واستهزاء وهراء .

ولأنهم كانوا على علم من عدم التعيين ليوم الدين ، يسألون عن زمنه تعجيزاً ، ولكي يستدلوا بجهله على بطلانه في أصله ، وتُرى ما هي الصلة بين الأمرين ؟ فلو علمت انني كائن ولم تعلم متى كوّنت ، هل لك أن ترتاب في أنني الآن كائن ؟ .

إذا فكهذا سؤال متعنت هراء جاهل لا جواب عنه إلا الإرجاع إلى العقل وحجج المعاد المسبقة ، وإلا - أخيراً - الإخبار بما يحصل لهم يوم الدين من فتنة النار كما هم الآن يفتنون :

« يوم هم على النار يفتنون » وكما كانوا يوم الدنيا على نار الشهوات يفتنون : وهذا إعراض عن جوابهم ، وإخبار للرسول ﷺ بما يفتنون فيها فتنوا ، وأصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودتها من رداءتها ، وإدخال خليطها إياها لتخلص عن خليطها ، وإدخال ما تتظاهر بكونها ذهباً النار لتحرق وتفضح : فتنة خير وفتنة شر « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » ( ٣٥ : ٢١ ) فتنة الأولياء لظهور وازدياد الولاء بالحق : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب » ( ٣٨ : ٣٤ ) على درجاتهم في فتنهم الخيرة ، وفتنة الكفار لازدياد الشر والبوار ولكي يعرفوا هم أنهم أهل النار ، ففتنتهم على النار هي حرقهم عن آخرهم تدليلاً على أن ليس في ذواتهم وصفاتهم ذهب ، إلا كل عطب ونكب ، وإلا حصباً لا يستحق إلا الحرق : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » والكافر كله خبث وحطب فليحرق كله ، وإن كانت فتنة الكفار دركات ، كما أن فتنة المؤمنين درجات .

وإضافة إلى حرقهم في فتنة النار ، يسمعون من الجبار في هذا الموقف العصيب ، نارا على نار :

« فوقوا فتنكم هذا الذي كنتم تستعجلون » علاجاً لتساءلهم المتعنت الهراء ، وهو من قتلهم الذي أخبر الله به مسبقاً : ( قتل الخراصون .. يوم هم على النار



يفتنون ) وكما قتلوا قتلات عدة على طول الخط في الأولى والبرزخ والأخرى .  
وبما يلوح من سؤالكم عن وقت يوم الدين أنكم له مستمعون ، وإن كان  
تعنتاً واستهزاءً ، فهذا هو الذي كنتم به تستمعون ، وكما كانت أعمالكم تعجل  
بكم إليه ، عجلة سير الشر إلى قراره .

وحتى الآن كانت الآيات تتكسد فتحدث عن الضفة اليسارية الكافرة ،  
ومن الآن تركز على الضفة اليمينية المؤمنة ، فريق مستيقن لا يخرص ، وليس  
في قول مختلف آفك ، وإنما مؤتلف سالك ، وليس في غمرة السهو والإرتباك ،  
وإنما تحت رحمة الفطرة والعقل والإدراك ، مستنيراً بوحى السماء ، وهؤلاء  
الطيبون هم المتقون :

« إن المتقين في جنات وعيون » لا فحسب في يوم الدين ، بل وفي يوم الدنيا  
كذلك هم في جنات عقول الوحي ، تجهم عن حرق الشهوات ، وعن الوسواس  
الخناس من الجنة والناس ، وفي عيون المعرفة والحنكة ، تعينهم على نزوات  
الشیطنات ، ومن ثم فهم في الآخرة - من البرزخ والقيامة - هم في جنات  
وعيون ، بما اتقوا دوافع الهلاك ، وابتغوا رضوان الله ، وترى ماذا يأخذون  
هناك وماذا يرون ويسمعون ؟ ولماذا ؟ :

« آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » : هم في عيون  
في الأخرى ، حال أنهم آخذون ما آتاهم ربهم ، آتاهم بما وعدهم واستحقوا فضلاً  
من ربك ، وأخذوه دون مماسكة أو مماكسة ، راضين عن إحسانه ، ماضين  
في رضوانه ، غير متهميه بانتقاص ، وهذا الإيتاء الإحسان ، والأخذ الرضى ،  
لأنهم كانوا قبل ذلك : - في حياة التكليف - محسنين : فيما يجب فيه الإحسان ،  
ويحسن ، ومن إحسانهم النفل زائداً على الفرض أنهم :

« كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » : فقد كان قيام أكثر الليل على النبي  
فرضاً ، وعلى غيره ندباً ، فالرعيل الأعلى من المتقين لم يرضوا إلا متابعة الرسول

مَشَاهِدَةً و مشاهدته ، فداوموا على ما داوم ~~عليه~~ من قيام الليل ، فالهجوم هو النوم ليلاً ، وهم كانوا ينامون قليلاً من الليل ، أيقاظاً في جنح الليل والناس نيام قاشمين في عبادة ربهم .

والليل هنا قد يكون جنسه ايضاً فالمعني أنهم قليلاً ما يتفق نومهم طول الليل ، وكثيراً ما يستيقظون بعض الليل في العبادة <sup>(١)</sup> وقد تنافيه « وبالأسحار هم يستغفرون » لمكان الجمع المحلى باللام ، الدال على كل الليالي ، اللهم إلا جمعاً بين المعنيين : كانوا قليلاً من الليالي ينامون ، او قليلاً من كل ليلة ينامون ، مهما اختص بكل قلة فريق ، فهم كلهم متقون على درجاتهم .

« وبالأسحار هم يستغفرون » فهل من ذنب وخطيئة يستغفرون؟ وهم قبلها قيام عابدون ! ام من قصورهم فيها يحق لله دون تقصير ولا تقدير؟ وهذا استغفار السابقين واصحاب اليمين ! ام دفعاً عما يعتور الإنسان - اي انسان - من خطيئة او نسيان ؟ فهذه عصمة إلهية ! ام ومن ذنوب لا يخلو عنها إلا المخلصون المعصومون ؟ فقد تحصل لبعضهم وهم متقون ، فان التقوى درجات كما الطفوى دركات .

ثم ترى ماذا في تخصيص الاستغفار بالأسحار ، اللهم إلا خيراً ليس في غير الأسحار ، ولان اكثرية النفوس الشريرة عندها نائمة والمتقون ساهرون ، مما يخلق جواً روحانياً تتجلى فيه الدعاء اكثر من غيره ، وان أفضل الأعمال أحجزها واشقها ، وهم يحرمون انفسهم بالأسحار لذة النوم والاستقرار ، مستغفرين الرب الجبار ، عليه يختصهم برحمة منه ورضوان وهو الرحيم .

« وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » : وكما كانت أحوالهم مكرسة في خدمة الله وعبادته ، كذلك أموالهم ، ففيها حق لأهله ، معلوم وغير معلوم :

(١) نور الثقلين ٥ : ١٢٢ عن تفسير القمي عن محمد بن مسلم قال سألت أبا عبد الله (ع) عن هذه الآية - قال : كانوا أقل الليالي تقومهم لا يقومون فيها .

معلوم كالضرائب المستقيمة المعلومة بما فرض الله : « والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم » ( ٧٠ : ٢٥ ) وغير معلوم كالضرائب غير المستقيمة من الإنفاقات الهامشية في مجالها المقررة في مجالها<sup>(١)</sup> للسائل وان لم يكن محروماً ، والمحروم وإن لم يكن سائلاً ، فلكل حق سؤالاً او حرماناً ، فهم متطوعون بفرض هذا الحق ، غير المحدود في أموالهم ، طالما لا حد للسؤال والحرمان اللهم إلا حسب المستطاع ، فهم يعتبرون انفسهم في أموالهم كأنفس الباقين .

« وفي الأرض آيات للموقنين . وفي انفسكم افلا تبصرون . وفي السماء رزقكم وما توعدون » : لفظة الى آيات كونية : آفاقية كالسما والارض ، وأنفسية تتوسطها ، ففي الأرض آيات تدل على وحدانية الله وأنه يحي الموتى : « ومن آياته أنك ترى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير » ( ٢٢ : ٥ ) « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون .. » ( ٣٦ : ٣٣ )

وهذه الآيات الأرضية حية لمن يسلكون مسالك اليقين ، وميتة للميتين ، لذلك ينتقل الى آيات الانفس قبل آيات السماء ، ولأن الأنفس الحية الموقنة هي التي تستفيد من هذه وتلك ، فـ « من أبصر بها بصرقه ومن أبصر إليها أعتمه ، - « وفي انفسكم افلا تبصرون »

ثم وفي تتابع الآيات الثلاث ايجاء ان هناك علاقة بين الأرض وانفسنا ورزقنا السهاري الصادرة منها لنا في الآخرة والأولى ، وفي تخصيص آيات الارض بالذكر بين سائر الآيات في الكائنات ايجاء بأهميتها من جهة ، وأنها أقرب الآيات وألمسها لسكنة الأرض لظهورها لمن على ظهورها ، فالسالكون سبيل الإيقان بتوحيد الله

(١) راجع ص ١٣٢ ج ٢٨ - الفرقان في ضوء الآية « والذين في أموالهم حسق معلوم . للسائل والمحروم » .

لهم مجالات واسعة في فسيحات الآيات الأرضية ، مها عمي عنها الواقفون ،  
المخلدون الى الأرض ، التابعون أهواءهم ، فهم في فرط من امرهم .  
إن أرضنا هذه معرض لآيات إلهية لم نتعرف حق الآن إلا الى القليل منها ،  
وعلى ضوء تقدم العلم نكشف على طول الخط جدها منها ، كما وأن أنفسنا معارض  
لآيات أخرى ، مثلاً عن الكون أجمع ، وعلى حد المروي عن امير المؤمنين علي  
( ع ) : ( أتزعم أنك جرم صغير . وفيك انطوى العالم الاكبر ، وانت الكتاب  
المبين الذي بأحرفه يظهر المضمهر ) : أسرار خفية تضم أسرار الكون كله ، لا  
أسرار الأرض وحدها ! .

إن كتابي التدوين والتكوين الإلهيين يدفعان الانسان - متضامنين - الى اللانهاية  
من تقدم المعرفة والبصيرة ، فالقرآن التدوين يحرك الانسان الى التفتيش  
عن خفيات الآيات الكونية ، باستعمال العقل والتدبر ، وكل ما يملكه من وسائل  
الكشف والاختراع ، دون ان تبرز له النتائج بلا سعي وعمل ، إلا أمهات من  
مفاتيح العلوم ، ولكي يعيش الانسان حياته كدحا الى الله ، ولا يصبح عاطلاً  
باطلاً .

هنا في أرضنا آلاف الموافقات ، معروفة ومجهولة ، تتحكم في صلاحيتها  
لاستقبال هذه الحياة ، لو نقصت او ازدادت او ضعفت او تخلفت واحدة منها  
اختلفت او استحالت هذه الحياة عليها ، لكنها تتدفق وفق تدبير العليم الحكيم  
الذي خلق هذا المحضن لهذا النوع من الحياة ، نباتية وحيوانية وإنسانية ام  
ماذا ؟ .

لو قضت البشرية اعمارها ، ومضت في التأمل او مجرد الإشارة الى ما  
في الارض من آيات ، ما انتهى لها قولة ولا إشارة ، فضلاً عن ان تسبح طويلاً في  
بحار القوانين المتعكمة عليها ، واخيراً ينتهي هذا السبح والسبح الى يقين ،  
طالما له درجات حسب مختلف المساعي ، وفي الأرض آيات للموقنين ، !: مشاهد

حية لمن يبصر بها فيتبصر ، وهي ميتة جوفاء لمن يبصر اليها كحيوان ، لا يدرك ما وراءها من تدبير وإبداع ، وكثير هؤلاء الذين يمدون بالمعارض الالهية مغمضي الأبصار والبصائر ( وكأين من آية في السماوات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون ) ( ١٢ : ١٠٥ ) « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » ( ٣٠ : ٧ ) فهم منها كانوا علماء ، لا يفقهون من آيات الكون لغة إلا ما تدبر لهم وتدبر حياة الحيونة بطناً وفرجاً ، لأن لمسة اليقين لم تحي قلوبهم ، ولم تثبت الحياة فيها حولهم .

ثم آية أخرى تدب على الأرض هي الآية الأنفسية « وفي أنفسكم أفلاتتبصرون » : إلى آيات الأرض وبها ، لتنفذوا منها إلى معرفة إله الانفس والآفاق ، الذي فطركم على معرفته ، وبصركم فيها « أفلاتتبصرون » ؟ ! وإن كان الإبصار بالأنفس أقرب :

« إن الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » ، إلا اذ حجبت بصيرته بغشاوات الأهوام ، فلو تعاوتت بصيرة الإنسان وما يريه الرحمان من الآيات الآفاقية والأنفسية ، لكان في ذلك نبوءاً للانسان عال : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ( ٤١ : ٥٣ ) فالأنفس هي الذوات الإنسانية قلباً وقالماً ، لا المقابلة للجساد فحسب .

لقد أرانا الله تعالى آيات هنا وهناك قبل نزول القرآن ، وعنده ، وبه ، ثم يعدنا خيراً منذ نزول القرآن إلى يوم القيامة انه : سيرينا آيات آفاقية وانفسية اخرى وصلاً دون فصال ، ما عشنا على هذه البسيطة ، حتى يتبين لنا انها الحق ، اضافة إلى المسبقة من آيات ، ما يدل على مواصلة الرحمة الالهية إلينا لو كنا فاهمين ! ففي تقدم العقل والعلم البشري تقدم ملموس للحصول على آيات جديدة قدلنا إلى الحق أكثر مما مضى « أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ؟

إن آية النفس الإنسانية - روحاً وجسماً ، قلباً وقالباً - هي الآية الكبرى اذ لا اكبر منها مهما كانت لها زملاء ، لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ، : « و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » ! اذ تتجاوب الآيتان ان للانسان زملاء في « احسن تقويم » .

إذا فمعرفة النفس هي من اعظم ابواب المعرفة الإلهية لحد من عرف نفسه فقد عرف ربه ، فمن لم يعرف نفسه لم يعرف ربه : - « وفي انفسكم أفلا تبصرون » . فهنا في النفس الانسانية آيات الموقنين كما في الأرض آيات ، وابن آيات من آيات ؟ ! .

آيات متواجدة فيها منذ خلقتها الأولى ، الى الأجنة ، الى الولادة ، والى ميادين الحياة وحتى الموت ، ما تتطلب مؤلفات عدة ضخمة معمقة ، لكي تشمل طرفاً من أطرافها العديدة المديدة .

ان الخلية الأولى الانسانية تحمل كل رصيد الجنس الانساني من خصائص ، وكذلك ما ورثته من الجذود ، ترى كيف تكمن هذه وتلك ؟ وكيف تهتدي الى طريقها الطويل ، فتتمثلها أدق تمثيل ، وتنتهي الى اعادة هذا الكائن الانساني العجيب ! .

ثم ترى اعجوبات تحير العقول ، وتفرق العلماء في بحور من الإحتيار ، تراها في التحورات التي تتبدل فيها هذه الخلية حتى تصبح جنيناً كاملاً ، فتبارك الله احسن الخالقين ، !

ثم في هذا المتحف الإلهي العظيم الذي يضم بلايين ، كل فرد منها نموذج خاص يختلف عن غيره من أفراد في شكله وملامحه ، في روحه ومشاعره ، في عقله ومداركه ، وفي كل جزء من أعضائه حتى وفي بنائه التي تختلف بصماتها مع بعض ، وبصمات كل مع الآخرين : ( بلى قادرين على أن نسوي بنانه ) !

ثم ترى اعجب من الاختلافات الشكلية والعضوية ، اختلافات عقلية وفطرية رغم اشتراك الكل في اصل العقل والفطرة ، كما وفي اصل البنية الإنسانية .

( وفي السماء رزقكم وما توعدون ) رزقكم الحالي ليوم الدنيا ، مادياً بالأمطار والرياح وإشراق الشمس ، ومعنوياً بما ينزل من وحي وإلهام ، ثم رزقكم المستقبل : ( وما توعدون ) من جنة عرضها كعرض السماء والأرض ، وما فيها من رحمت ، ومن رضوان من الله وهو اكبر : جنة معنوية بعد المادية (ولمن خاف مقام ربه جنتان ) .

فالسما هنا لا تعني جهة العلو المادية فحسب لكي يختص رزقها بها حالاً أو استقبالياً ، بل والمعنوية ايضاً وأخرى ، فهي - ككل - سما خزائن الله عند الله ، التي تضم كل الكائنات : ( وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ) ( ١٥ : ٢٥ ) سواء أكان نزولاً من الغضاء العالي كالأمطار والأنوار أم نزولاً معنوياً من سماء الربوبية دون أن تختص بجهة مكانية ، سماوية أو أرضية كالوحي والإلهام .

ومما نوعده هي الجنة التي عند سدرة المنتهى ، فوق السماء السابعة ، بما يدل على أن السماء المادية تشمل السبع وما فوقها من الجنة الماوى .

فكما ان الرزق منه مادي ومنه معنوي ، ثم منهما حالي واستقبالي ، كذلك السماء تشملها كلها وتشمل كل ما ينزله الله اليها : من ذوات الجهات وسواها ، الماديات وسواها .

لا نقول : إن السماء حيثما تذكر تشملهما ، فان الآيات في خلق السماوات تختص بالمادية ، وانما استيحاء من عموم الرزق ، وظاهر اختصاصه هنا ككل بالسماء ، نقول هنا إنها تشملهما .

وترى ماذا يعني رفع اليدين بالدعاء الى السماء وليس الله ساكن السماء وما كنتها ؟ ذلك .. لانها موضع الرزق ، إن مادياً فأصله نازل من السماء وإن

(١) علل الشرايع بإسناده الى أبي بصير عن أبي عبد الله (ع) عن جده أمير المؤمنين علي (ع) قال ابن سبأ يا أمير المؤمنين ! ليس الله عز وجل في كل مكان ؟ قال : بلى - قال فلم يرفع يديه الى السماء ؟ فقال : أو ما تقرأ « وفي السماء رزقكم وما توعدون » فمن ابن تطلب الرزق الا من موضع الرزق وما وعد الله عز وجل السماء ( نور الثقلين ٥ : ١٢٤ ) .

معنوياً فهو ينزل من سوء الربوبية، من مكانة عاليه وإن لم يكن من مكان عال؛ اللهم ( واجعل ما صرحت به من عدتك في وحيك ، وأتبعته من قسمك في كتابك ، قاطعاً اهتمامنا بالرزق الذي تكفلت به ، وحسماً للإشتغال بما ضمنت الكفاية له ، فقلت وقولك الحق ووعدك الصدق ، وأقسمت وقسمك الأبرُّ الأوفى « وفي السماء رزقكم وما توعدون » ثم قلت : « فو رب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون » (١).

تري اذا كان رزقنا في السماء ، أليس علينا ابتغائه بالكدح والسعي ؟ أن تبقى مكتوفي الأيدي عن كل شغل ، او ان نكتفي بالتماس الدعاء ؟ !  
كلا ! فـ « يا أيها الإنسان انك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » حياة السعي والكدح في ابتغاء الأرزاق المادية ، وبأحرى المعنوية ! إعتباراً أنه من أسباب إدراك الرزق على قدر معلوم « وما ننزله إلا بقدر معلوم » : معلوم حسب الحكمة البالغة « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير » ( ٢٣ : ٢٧ ) . فليست سعة الرزق للبغاة المحتكرين ، مصاصي دماء المظلومين ، ليست هي من عند الله تشريعاً أو تقديرأ منه من عنده ، وإنما بما طغوا وبغوا فامتلكوا أموال الشعوب واستغلوا طاقاتهم واستثمروهم ، وإنما الله لا يمنعهم تكويناً بعد منهم تشريعاً ، اذ « لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين » . . فالرزق ينزل من عند الله بقدر معلوم حسب الحكمة ، ومعلوم قدر السعي ، متكلين على الله في ابتغاء ما عنده ، دون استقلال للإتكال فنبقى دون سعي ، ولا استقلال للسعي فنبقى دون اتكال ، وإنما أمر بين أمرين : لا اتكالية ولا استقلالية .

ثم وليس في إلغاء النظر الى رزق السماء إهمال الأرض وأسبابها ، وإنما مزج

( ١ ) الصحيفة السجادية عن الامام علي بن الحسين السجاد ( ع ) .



أسباب الأرض بأسباب السماء ، دون أن يثأقل الى الأرض أو يتخذ اليها منقطعاً عن أسباب السماء ، ولا أن ينقطع إلى أسباب السماء ويهمل أسباب الأرض ، سواء في ذلك سماء الأرزاق المادية ، أو المعنوية السامية ، متسبباً بها الى خالق الأرض والسماء ، متطلعاً إلى الرزق المقسوم والحظ المرسوم ، فليكدح في الأرض ويعمل متطلعاً الى السماء ، وبذلك ينطلق قلبه من إसार أسباب الأرض ، ويرفأ بأجنحته الى ملكوت السماء ، فعيش موصولاً قلبه بالسماء ، وقالبه على الأرض ، وهذا هو الايقان المنوّه في تلكم الآيات و « إن اليقين أن لا ترضي أحداً على سخط الله ، ولا تحمدن أحداً على ما آتاك الله ، ولا تذمن أحداً على ما لم يأتك الله ، فإن الرزق لا يحره حرص حريص ولا يصرفه كره كاره »<sup>(١)</sup> ف « اطلبوا الرزق فانه مضمون لطالبه »<sup>(٢)</sup> فالرزق داخل في القضاء الإلهي دخولاً أولياً ذاتياً ، لا هامشياً ، فإن المخلوق أياً كان لا بد وأنه مرزوق لضرورة بقاء الحياة ، والرزق أياً كان - وهو ما يمد شيئاً آخر - لا بد له من رازق ومرزوق ، معنوياً كان أو مادياً : هواءً أو ماءً أو غذاءً ، زوجاً أو لباساً أو مكاناً ، أو أياً كان ، مما يمد الحياة وتمتد به الحياة ، وإن كانت لها درجات ، حسب المساعي والتقدير . ثم الربوبية الظاهرة في هذه الثلاث بآياتها ، الزاهرة على علائها ، إنها برهنة بيّنة ملموسة أنها حق مثل ما أنكم تنطقون :

« فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما انكم تنطقون » : ان ربوبية رب السماء والأرض ، وربكم أنتم ، تبرهن على « إنه » : الوعد والدين ، بما قدل عليهما من آيات الأرض والأنفس « إنه لحق » ، لا مريّة فيه « مثل ما انكم تنطقون » .

فكما أن كونكم تنطقون ، هو حقيقة ، دون مريّة ولا جدال ، كذلك

(١) نور الثقلين عن ارشاد المفيد عن علي (ع) .

(٢) المصدر عن توحيد الصدوق عن علي (ع) عن النبي (ص) انه قال : يا علي ! ...

أمر الوعد الصادق ، والدين الواقع ، إذ يملك من البراهين في الأرض وفي أنفسكم وفي السماء ، ما لا ينكره من يحترم عقله أو حسه ، إلا أن يتنزل عن كونه إنساناً ، بل وحيواناً ! .

\*\*\*

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ - ٢٤ .  
 إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ - ٢٥ .  
 فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ - ٢٦ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ فَقَالَ  
 أَلَا تَأْكُلُونَ - ٢٧ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ  
 وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ - ٢٨ . فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صُرَّةٍ فَصَكَتْ  
 وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ - ٢٩ . قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ  
 إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ - ٣٠ . قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا  
 الْمُرْسَلُونَ - ٣١ . قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ - ٣٢ .  
 لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ - ٣٣ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ  
 لِلْمُسْرِفِينَ - ٣٤ . فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ - ٣٥ .  
 فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - ٣٦ . وَتَرَكْنَا فِيهَا  
 آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٣٧ . »

\*\*\*

تسليات وتثبيتات لخاطر النبي الأقدس ﷺ باستعراض أحاديث عن النبيين مع أقوامهم ، وما لا قوة من أذى ولاقت أقوامهم من لظى ، ابتداءً بحديث إبراهيم لأنه شيخ المرسلين :

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين » ملائكة دخلوا عليه كأناسي فاعتبرهم ضيفاً آدميين ، فقال عنهم الله ضيفاً كما حسبهم إبراهيم (ع) أو أنهم كانوا ضيفاً حقيقيين وإن كانوا ملائكة اعتباراً أن الداخل على الإنسان ضيف وإن لم يأكل أو ليس ممن يأكل ، توسيعاً في معنى الضيف .

و « هل أتاك » كاستفهام بشأن تفخيم أمر القصة ، فإن هذا الحديث يضم من فخائم الأمور عظامهم ، و ( المكرمين ) : عند الله إذ أرسلهم إلى خليله : ( ولقد جاءت رسلنا إبراهيم قالوا سلاماً قال سلام ... ) ( ١١ : ٦٩ ) ومكرمين عند إبراهيم إذ أكرمهم قبل أن يعرفهم ، تدليلاً على مدى حقوق الضيف وإن كانوا منكورين لا يعرفهم المضيف .

( إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ) : يرد عليهم تحيتهم بأحسن منها كما توحى به الجملة الإسمية : ( قال سلام ) بخبرها المحذوف ، الدالة على الدوام ، بعدما أوجت جملتهم الفعلية « قالوا سلاماً » بسلام غير دائم . ثم يضيف إلى اضافتهم في هذه التحية الحسنى ، إضافة لهم عملية ، وهو ينكرهم ولا يعرفهم :

( فواغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ) دون أن ينتظر تعريفهم بأنفسهم أو ينظر في أمرهم : فقد أدى واجبه الأول أن رد تحيتهم بالحسنى ، والثاني تقديم أدب من آداب اللقاء الإيماني : التعارف بين المتلاقين ، أن يعرف كل نفسه ويتعرف إلى الآخر ، فضيفه المكرمون كانوا يعرفونه وهو لا يعرفهم ، ولكنه عاملهم كمن يعرفهم .

والثالث المبادرة إلى إحضار الطعام قبل أن يعرفوا أنفسهم ، في مثلث

الإضافة المحترمة أخيراً أن ( راغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ) ( فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ) ( ١١ : ٦٩ ) عجل - سمين - حنيذ ! وهو يروغ للمجيء به إلى أهله ! .

فالروغ طلب بضرب من الإحتيال والتخفي ، مما يوحي بأنه لم يكن لدى أهله إلا عجل واحد ، أو إلا سمين واحد لا يرضون بذبحه بسهولة ، ولضيف غير معروف ! يحيى به حنيذاً : مشوياً بين حجرين نظيفين ، يقربه كله إليهم ، وهو طعام عشرات ، وهم كانوا ثلاثة فيما يقال ، يكفيهم كتف من هذا العجل ! .  
فإلى هنا لا يظهر منه مخلفات من نكرانه لهم إلا في البداية في قوله : ( قوم منكرون ) اللهم إلا كل تجليل وتبجيل يستحقه كل ضيف عزيز معروف جليل ، إلى أن :

« فقربه إليهم فقال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة » ( فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ... ) ( ١١ : ٧٠ ) فالوجس هو الصوت الخفي ، والإيجاس إخفاء الصوت في النفس ، مما يدل أنه كان خَوْفاً خفياً أو مشارفاً كما تعنيه الوجل ، وإنما استشعر منهم الخوف ، إما لأن عدم الأكل من طعام المضيف ، ولحد لا تصل أيديهم إليه ، ينبىء عن نية شر وخيانة ، أو يلدح فيهم شيئاً غريباً في نوعه ، فحتى لو كانوا شعبانين ، عليهم أن يمدوا أيديهم ليأكلوا ولو قليلاً ، أو يسفروا عن عذرهم بعد تقريب الطعام إليهم ، فإذا لم تصل أيديهم إليه ، ولم يعتذروا ، إذاً فعق لإبراهيم - وهو يعيش بين أعداء له كثير - أن يخافهم ، ولكنه أوجس منهم خيفته ، رعاية لهم ، إلا أن ملامح الوجه بطبيعة الحال تسفر عن الخيفة الموجسة ، مما حاول الخائف في إيجاسه ، فلما عرف أنهم عرفوا ما أوجسه ، بادر باظهاره ، ولكي لا ينافقهم في واقعه ، وليظهره على أمرهم ، حتى يعرف واجبه تجاههم بعدما قام به من واجبه ، ف ( قال إنا منكم وجيلون ) ( ١٥ : ٥٢ ) مصارحة بالحق مما أحلاها ، دون

مسايرة بايجاس الخيفة ، التي قد تخلف آثاراً سيئة ، حتى خبروه عن حالهم بما يحمل له بشارتين :

( فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ) : - قال إنا منكم وجلون قالوا لا تؤجل إنا نبشرك بغلام عليم ( ١٥ : ٥٢ ) ( نكرم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ) ( ١١ : ٧٠ ) .

هنا وهناك نرى شيخ المرسلين صكيف يضيف ضيفه المنكرين قبل أن يعرفهم ، لحد يكرمهم كما يرضى الله ، أذ يعبر عنهم بـ ( ضيف إبراهيم المكرمين ) .

ثم لما يرى منهم ما يخيفه يخفيه عنهم مغبة تكريمهم ، وألا يتأثروا بما يعرف من عجيب أمرهم ، ثم لما عرفوا الخيفة الموجسة في نفسه من ملاحه ، أبرزها لهم ( قال إنا منكم وجلون ) : نستشعر منكم الخوف فإن أمركم مربب ، فهذه الخيفة الموجسة لم تكن خوفاً ثابتاً ، وإنما استشماراً يعنيه الوجل ، وما أعدل إبراهيم إذ لم يحصل له من أمرهم المريب واقع الخوف ، وإنما مشارفته المسائلة ، لا عداة لهم وامتهاناً ، وإنما بغية ظهور الحال وعلاجها ، وقد عولجت بالبشارتين ، أن عرفهم رسل ربه المكرمين ، فاستبشر بغلام عليم ، والقضاء على قوم لوط الجرمين .

« وبشروه بغلام عليم » : بشارة بإسحاق من زوجه المعجوز العقيم سارة ، بعد أن بشره ربه قبل ذلك بغلام حليم ( فبشرناه بغلام حليم ) ( ١٠١ : ٣٧ ) من هاجر وهو اسماعيل ، ( قال أبشروني على أن مسني الكبير فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ) ( ١٥ : ٥٦ ) .

« فأقبلت امراته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم » : - ( وامراته قائمة فضحكك فبشرناها بإسحاق

ومن وراء اسحاق يعقوب . قالت ويلتسى ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » ( ١١ : ٧٣ ) .

ان دور ابراهيم في هذه البشارة كان استبشاراً حملاً على استفسار بشأنه خاصة ( على أن مسنى الكبر ) دون زوجه العجوز العقيم ، ولم يكن سؤاله ( أبشرتموني ) إنكاراً لقدرة الله ، قنوطاً من رحمة الله ، إذ حكم هو بضلال القانطين ، وإنما استعظاما للبشارة ، وهل إنها حقاً من الله ؟ وهؤلاء هم رسل الله ؟ فلما ( قالوا بشركناك بالحق فلا تكن من القانطين ) إطمئن قائلًا ( ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ) .

وأما زوجه فقد استغربت هذه البشارة وتعجبت منها في مثلث الاستبعاد : ( عجوز عقيم .. وهذا بعلي شيخاً ) ؟ قالت لما سمعت البشارة : « فاقبلت امرأته في صرة » : في صباح شديد « فصكت وجهها » : لطمت وجهها « وقالت عجوز عقيم » ؟ فأنها بغتت وفوجئت بهذه البشارة « فندأت منها صيحة الدهشة ، وصكت وجهها صكة الوحشة » ، إذ لم تكن تتوقع هكذا بشارة ١ .

« قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم » بما يحكم « العليم » بما يريد ( رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد ) ولقد نفذت رحمة الله الخاصة هنا في ثالث الاستعالة بحساب الإنسان ، فلم ينزع عقمها المزدوج : ( عجوز عقيم ) ولا شيخوخة بعلمها الخليل عن نفاذ امر الجليل .

هذه البشارة كانت بحق اسحق وفي مثلث الاستغراب ، وأما التي كانت بحق اسماعيل قبل اسحاق فلم تحمل خارقة للعادة ، إذ لم تكن زوجه لا عجوزاً ولا عقيماً ، ولا هو شيخاً لحد الإياس ، ولذلك نراه يبتدء هو بالطلب : ( رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم .. ) ( ٣٧ : ١٠١ ) .

« قال فما خطبكم ايها المرسلون » توحى هذه المقالة أن ابراهيم لم يعد بشارته

في عداد خطب المرسلين، فانه الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب، ما يوحى بانهم اكلثوا معه الحوار ليهيئوا الجو لبيان أمرهم العظيم: (وبشروه بغلام عليم) وعلته بداية الحوار، فلتستكن نفس الخليل بما اوسل به الرسولون عن الجليل.

فقد زال عنه روع أوّل، ثم ابتلي بروع ثان أروع هي قصة العذاب على قوم لوط ( فلما ذهب عن ابراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط . إن ابراهيم خليم أوّاه منيب ) ( ١١ : ٧٥ ) مما يدل أنهم بدؤوا بتعريف انفسهم ، ثم البشارة ، ثم الحوار مقدمة الخطب ، ثم التصريح بالخطب اذ سألهم :

« قال فما خطبكم أيها الرسولون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » : وهم قوم لوط ، ترى ما هو الدافع لإطلاع ابراهيم بهذا الخطب ، ورسالة العذاب كانت على قوم لوط ؟ ! لان ابراهيم كان رسولا على لوط والنبين معه وبعده الى موسى ، فحفاظا على كرامة القيادة العليا الرسالية ، لا بد وان يبدء له بما يراد للقيادات الجزئية ، وعلى الأقدام.

« لترسل عليهم حجارة من طين . مدمومة عند ربك للمسرفين » :

ترى ما هو دور ابراهيم في هذا الإنذار بعد الاستبشار ؟ هل يسكت راضيا عن تعذيبهم بها كانوا مجرمين ، وبعد ان رضي الله واراد ؟ ام يغتنم الإلتماس، لعلّ الله يستجيب له لانه ليست ارادة حتم ؟ . . إنه يجادل ربه فيهم بالحسنى التماس العفو وتأخير العذاب : ( يجادلنا في قوم لوط ان ابراهيم خليم أوّاه منيب ) فحلّمه يدفعه الى الجدال ، ولكنه بعد ان يعرف حتم الارادة الالهية فاوّاه منيب ، حلّم عن المجرمين ما دام الأمل ، أوّاب منيب الى الله إذا زال الأمل : ( يا ابراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود ) ( ١١ : ٧٦ ) كما ونجد نفس الحلم في لوط : ( ولما جاءت رسلنا لوطا سيئ بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب ) ( ٧٧ ) إلا بعدما تبين له كما تبين لابراهيم من قبل ، وهكذا يكون دور الرسالات مع الأمم المتخلفة، حنونة

حليمة إلا إذا خاب الأمل وجاء أمر الرب وخسر هنالك المبطلون .

« حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين . وهي منضود »

إنها حجاره تخلق من تحجر الطين ، المعبر عنها بصيغة آخر ب . سجيل : « فجعلنا

عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » ( ١٥ : ٧٤ ) « ... منضود .

مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيد » ( ١١ : ٨٢ ) .

وكما أرسلت على أصحاب الفيل « ترميهم بحجارة من سجيل » ( ١٠٥ : ٤ )

وهو معرب ( سنك كل ) الفارسية : حجر الطين ، فهل ان حجر الطين اصلب

واقوى من سائر الحجر وكيف ؟ !

وبما أنه متحجر عن طين في ضغوط جوية أو تحت الأرضية ، وفي حرارة

خارقة ، إذا فلا بد وأنه أصلب من سائر الحجر ، دون الطين الذي يتحجر بمرور

الزمن ، ويتعامل الموافقات فانه أوهن من الحجر الأصل ولا شك .

والسجيل هذا قد يُرسل على المجرمين من الفضاء ، من مقاذف الكواكب التي

ترمي إلى الشياطين ، فالحترقة منها في الأجواء هي الشهب والنيازك النارية ،

والواصلة منها إلى الأرض هي الأحجار السماوية التي قد ترمى إلى المجرمين ، فهي

باحتراقها في الجو ، وتبدل قسم من سطوحها الخارجية إلى الرماد ، ومرورها

على المياه والرطوبات ، ثم رجوعها إلى الحالة الصلبة الحجرية تحت عامل الحرارة

والسرعة ، بعد ذلك تتصلب ، وعليها أكثر مما كانت ، حين انفصالها عن

مقاذفها ، وهذه صورة من صور لصطناع حجارة من طين .

وقد يكون مرسلًا من باطن الأرض ، حجارة بركان ثائر يقذف بالحجم الطيني

من جوف الأرض ، ترسل من قاذفات البراكين ، إلى جماعة من المجرمين .

وقد يكون مصطنعاً من غبارات منتشرة بين الأرض والسماء ، من الأرض أو

السماء ، تتحجر تحت ضغوط جوية وموافقات ومنها الحركة والحرارة والرطوبة

والرياح .



وأياً كان سجل الجرمين ، فليكن أصلب حجر وأقواء وأشد إيقاعاً وكما في قصة أبابيل ، الرسالة على أصحاب الفيل (ترميمهم بحجارة من سجل . فجعلهم كعصف ما كول ) ترى كأنها قنابل ذرية لا تبقي ولا تذر .

ثم السجل «مسومة عند ربك للمسرفين» كما هنا ، «وما هي من الظالمين ببعيد» كما في هود ١١ : فلتكن محضرة قرب الظالمين ، ومعلمة للمسرفين ، دون فوضى فيها ولا في إرسارها ، ولا المرسل بهم ، والمرسل إليهم ، وزمان الإرسال ومكانه ، وقدر الظلم والإسراف : مسومة : معلمة عند ربك للمسرفين : المجاوزين الفطرة والعقل والدين ، ومعلمة للظالمين : المنتقصين ، عل كل طائفة منها لها علامة تخص طائفة من الظالمين المسرفين ، أو أن كل واحدة منها تحمل علامة لكل منهم ، فهي مسومات ، كما أن المسرفين دركات ، لكل ما يستحقه من سجل وأصل التسويم هو في تسويم الخيل للحرب ، أي تعليمها بما تتميز بها من خيل العدو ، شبت بها هذه الحجارة لأنها معلمة بعلامات تدل على مكروه المصابين ، وإرسال هذه للهلاك كإرسال تلك للعراك .

وهي كذلك منضودة : ركاًماً بعضها فوق بعض ، إن في السماء أو في باطن الأرض ... جنود ربانية تصدر عن مصدر العزة فتذل المسرفين الظالمين . ولقد كان أمطار السجيل تنمة التدمير بعد الصيحة : « فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن في ذلك لآيات للمتوسمين » ( ١٥ : ٧٥ ) وترى كيف ابتداء العذاب ؟ :

« فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين » : وهم آل لوط إلا امرأته ، فقومه تأمروا في إخراجهم تخلصاً منهم : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون » ( ٢٧ : ٥٦ ) : إخراج مهانة ، ولكن الله تكفل لهم إخراج كرامة : « فأنجينا وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين » ( ٢٧ : ٥٨ ) .. كانت من الغابرين ، ( ٧ : ٨٣ ) أجل - أهله - آله فحسب ، كانوا من المؤمنين الذين وجدهم الله :

« فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » : هم آل لوط أنفسهم وكان الخروج ليلاً ... فأمر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » ( ١١ : ٨١ ) « وامضوا حيث تؤمرون » ( ١٥ : ٦٥ ) .

« وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » والآية هي تدميرها التي تضم آيات ، والخائفون العذاب الأليم هم المؤمنون : ( فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم . إن في ذلك لآية للمؤمنين ) ( ١٥ : ٧٧ ) . فالمتوسمون وهم المتأثرون يستفيقون من آيات سدوم ، فالمؤمن يزداد إيماناً ، ومن غير المؤمنين من هم يؤمنون ، ومنهم من يتأملون .



« وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلطانٍ مبين - ٣٨ . فتولى برُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ - ٣٩ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ - ٤٠ . وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم - ٤١ . ما تذر من شيء إلا أتت عليه إلا جعلته كالرَّمِيمِ - ٤٢ . وفي ثمود إذ قيل لهم تمسّعوا حتى يحين - ٤٣ . فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون - ٤٤ . فما استطاعوا من قيام وما كانوا مُنتَصِرِينَ - ٤٥ . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين - ٤٦ . وَالسَّمَاءُ

بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ - ٤٧ . وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا  
 فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ - ٤٨ . وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ  
 لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ - ٤٩ . فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ  
 نَذِيرٌ مُبِينٌ - ٥٠ . وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي  
 لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ - ٥١ . كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ  
 قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُونٌ - ٥٢ .  
 أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُونَ - ٥٣ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا  
 أَنْتَ بِمَلُومٍ - ٥٤ . وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ  
 الْمُؤْمِنِينَ - ٥٥ . وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ - ٥٦ .  
 مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ - ٥٧ .  
 إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ - ٥٨ . فَإِنَّ لِلَّذِينَ  
 ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ - ٥٩ .  
 فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ - ٦٠ .

\* \* \*

« وفي موسى إذا أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين : »

كما تركنا في قرية لوط آية للمؤمنين ، كذلك تركنا في موسى وعاد وثمود  
 آيات لهم عليهم يتذكرون ، وسلطاناه المبين هو مجموعة السلطنة الروحية ببرهانه

القاطع القويم ، وآياته الخارقة الحسية بعصاه التي تبدلت العثبان العظيم ، وسواها من آيات ، ترى ما كان دور فرعون الطاغية أمام هذا السلطان المبين ، الذي أبان الحق بكافة جلواته ؟ .

« فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون » : تولى عن الحجة والسلطان المبين ، والرسول الأمين ، ترى بأي سناد ؟ بسناد ركنه ، وهو جانب الشيء الذي يسكن اليه ويعتمد عليه ، من عقله الغارب وعقله حزبه ! ولم تكن حجبتهم إلا فريتهم انه ( ساحر أو مجنون ) اعتذار كل عاجز مرتكس العقل ، منتكس القلب ، لاحجة لهم إلا الخناء والفرية ، وإلا الضرب بالقوة إذ لا يفهمون لغة الإنسان . إنه « تولى بركنه » بنفسه وحزبه الذي يركن إليهم ، لا إعراضاً عن حجة الحق فحسب ، بل وملاحقة لأصحاب الحجة أيضاً قتلاً وتدميراً أو تسفيراً ، حتى جاء أمر الله وخسر هنالك المبطون : ( فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون . واترك البحر رهواً إنهم جنود مقرقون ) ( ٤٤ : ٢٤ ) .

« فآخذناه وجنوده فنبهناهم في اليم وهو مليم » نفسه : إذ آلام نفسه حين أدركه الفرق : ( وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الفرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين ) فهذه الامة نفسه ، ثم يلومه ربه ( آلتن وقد عصيت قبل و كنت من المفسدين ) ( ١٠ : ٩١ ) فالمليم هو الآتي بما يلام عليه ، فمن قبل لامة ربه بما طغى ، وهنا هو يلوم نفسه إذ يتوب ، ثم يلومه ربه أنها لاتنفعه عند رؤية البأس ، وهذا مثلث اللوم ابتلي به فرعون الملیم ! ثم نرى الآية الباقية هنا الذين يخافون العذاب الأليم ، أنها جسد فرعون الباقي حتى الآن : ( فالיום ننجيك ببदनك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون )

(٩٢) «<sup>(١)</sup> وإنها كذلك آية للطاغين ، وإن كان لا يتذكر بها من غرب عقله وعزب ضميره .

« وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم : وآية ثالثة في عاد إذ ... (ريح عذاب لا تلقح شيئاً من الأرحام ولا شيئاً من النبات وما خرجت إلا على قسوم عاد ) (٢) : عقيم لا تحمل الأمطار ، ولا تلقح الأشجار ، ولا تعود بخير ، ولا تنكشف عن عواقب نفع ، فهي كالمرأة التي لا يرجى ولدها ، ولا ينمى عددها : ( سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ففترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ) ( ٦٩ : ٨ ) .

ريح عقيم تعقم عن الحياة ، وترجع بذوي الحياة وكذا الأموات الى الرميم : « ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » : «<sup>(٣)</sup> ري كأنها ريح الجحيم ! لا تحمل ماء ولا حياة ، وإنما مماتاً ، ترم ما تأتي عليه وتحوله فتاة (جند من جنود الله) (٣) تمشي وتمضي كما أراد الله ، الى تنفيذ نقمة الموت او رحمة الحياة ، وكما أن ريح الرحمة من الآيات كذلك ريح العذاب التي اعتبرت في عاد من الآيات : « وفي عاد .. آية للمتوسمين ، مؤمنين ام قاسقين .

« وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين » : وآية رابعة في ثمود إذ : قال لهم صالح بعدما عقروا الناقة : « تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، ( ١١ : ٦٥ ) ومن مستعهم المنوحة فيها ، محاولة التوبة في هذه الفرصة ، وهي من الهداية الألهية : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » ( ١٧ : ٤١ ) : « فعتوا عن امر ربهم فأخذتهم الساعة وهم ينظرون » : إذ أمرهم ربهم

(١) ولقد رأيته أنا في متحف الآثار المصرية بقسم الموميا وقرأت هذه الآية بمجمع كبير من السواح واحتاروا من هذا التصادق العجيب بمن فيهم من مختلف الطوائف والاديان .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٠١ عن روضة الكافي عن الامام الباقر ( ع ) راجع ج ٢٩ : ٨٥ الفرقان ، وج ٣٠ : ٣٠٩ تجد تفاصيل عن عاد .

(٣) نور الثقلين ٥ : ١٢٨ عن الامام الباقر ( ع ) : ان الله عز وجل جنوداً من الريح يعذب بها من عصاه .. وفيه عن علي ( ع ) : الرياح خمسة منها الريح العقيم فتعودوا بالهمن شرها .

بعد طغواهم بالتقوى في هذه المهلة ، توبة الى الله ليتوب عليهم ، لكنهم عتوا  
بعد ما طغوا : نشزوا ونبوا ، رغم انهم ندموا بعد عقربهم « فعقروها فاصبحوا  
فادمين » ( ٢٦ : ١٥٧ ) ولكنهم لم يتوبوا ويستغفروا رغم ما امروا وامهلوا !  
« لولا تستغفرون الله لعلكم ترحون » ( ٢٧ : ٤٦ ) « فاخذتهم الصاعقة » -  
« فاهلكوا بالطاغية » ( ٦٩ : ٥ ) « وهم ينظرون » الى الصاعقة الطاغية كيف  
تأخذهم بطغواهم ، فيا لهم من طغواهم !

« فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين » : من قيام : لا عن مواضعهم  
من وطأة الواقعة ، ولا عن قريتهم فراراً عن الصاعقة ، ولا قياماً في مكافحة  
الصاعقة ، ولا فيما يردها على اعقابها بتوبة ؛ اذ مضى وقتها ، « وما كانوا » في  
حالتهم الطاغية « منتصرين » من الريح والصاعقة الطاغية ولا على طغواهم بالتوبة  
و « ذلك بما قدمت ايديهم وان الله ليس بظلام للعبيد » .

« وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوماً فاسقين » : وأهلكنا قوم نوح ، اذكر  
قوم نوح ، من قبل هؤلاء الأقوام . أهلكناهم لانهم كانوا قوماً فاسقين : خارجين  
عن طاعة الله ، فإهلكهم كذلك آية وكما بقيت على شيء من أنقاض السفينة  
حتى الآن : « فأنجيناها وأصعاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » ( ٢٩ : ١٥ )<sup>(١)</sup> .

« والسماء بنيناها بإيد وانا لموسعون » السماء منصوباً بالمفعولية معطوف  
على الآيات المسبقة ، الآفاقية والأنفسية « وفي الارض .. وفي انفسكم » ففي  
بناءها وتوسيعها آيتان من آي القدرة والرحمة الإلهية ، تتأيدان بتقديم العلم ، ولا  
سيا الثانية : ان المملكة السماوية في توسع دائم ، فاسم الفاعل ( موسعون ) و  
لا سيما بتأكيديه : ( تا ) ( ل ) يوحى بدوام التوسيع : ( نظرية التوسعة ) ا .

تري إن اتساع مملكة السماء يعم طباقها السبع ايضاً ، كما يعم أجواءها وكراتها ،  
ولتصبح ثاني او اكثر ؟ وقد لا تنافيه الآيات المستعرضة لخلقها سبعة لانها في عرض

(١) راجع ج ٢٩ : ٩٠ تجد فيها بشارة محمدية باللغة الآرامية على لوحة من سفينة نوح .

يدأيتها! إلا أن الحاكبة عن كونها سبعة عند نزول القرآن : ( تسبح له السماوات السبع والارض ومن فيهن ٠٠ ) ( ١٧ : ٤٤ ) متجاوبة مع المصراحة بمنتهى المعراج وهو الأفق الاعلى ( عند سدره المنتهى . عندها جنة المأوى ) قد تنافي ازديادها على السبع كمنقضاتها ، اللهم إلا في توسيع جنة المأوى ، المحيطة بالسابعة ، الواقعة على صرحها ، وهي من ضمن السماء .

ثم ترى إن اتساعها هو منذ سبعها ؟ أم منذ خلقها ؟ إن أفراد السماء هنا يوحى بأنه منذ خلق الدخان ( الغاز ) السايوي ، الثائر من تفجر المادة الأم ( الماء ) فمن توسيعها جعلها سبعة ، ثم خلق أنجمها : ( ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً او كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل نهار امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ) ( ٤١ : ١٢ ) .

ثم السبع بجنتها المأوى ، وبأجوائها وانجمها مستمرة في التوسع الى قيامتها ، والعلم حتى اليوم لم يكشف النقاب إلا عن شيء من توسعها في انجمها واجوائها .

إن آخر ما أنتجته التحقيقات الفلكية ان ( قطر كل سلسلة سحابية من الجزائر السماوية اربعون الف سنة ضوئية ، والقسم المركزي منها كتلة نارية الكترونية ذرية ، تدور عليها السلسلة السحابية ، ونتيجة للدوران تفتتح وتنتشر القطر السحابي الحلزوني لحد ما ، وتصبح كقطع سحابية مضيئة ، أو مجموعة كواكب ، وبعد آلاف الملايين من السنين ينمحي الحل الأصل للسلاسل الحلزونية ، وبدلاً عن القطع المضيئة التي هي مراكز الكواكب وأصولها ، تظهر في صحنه الفضاء كواكب منفردة ، وهكذا يكون دوران المجموعات السحابية مولدة للكواكب وسائر النقط النورانية في الفضاء ) .

كما وان بعض الكواكب تقوم قيامتها قبل القيامة الكبرى ، إلا أن المواليـد

منها أكثر من الأموات ، وإلا لم يكن لتوسع المملكة السماوية من معنسى ! .  
ثم الأيدي الإلهية المبنية بها السماء ، والموسعة بها ، هي أيدي العلم والقدرة  
والرحمة والحكمة ، كما أن ( نا ) هنا وهناك ، توحى بأن الله جمع في هذه السماء ،  
كما في الأرض وأنفسكم ، جمع كافة أيديه ورحماته ، الممكن جمعها في الخلق ،  
فما هو بالخلق وعلى الخلق بضنين ! .

« والارض فرشناها فنعم الماهدون » : توحى بأن الأرض لم تكن مفروشة  
ممهدة لأهلها منذ خلقت ولفترة لا نعلم عنها شيئاً ، ثم شاءت إرادة الرحمة  
الإلهية أن تفرشها وتمهد لها للأهلين ، ولا سيما لنا كما جعلت كذلك ذلولاً : ( هو  
الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور )  
( ١٥ ) ( ١ ) أعددها الله مهدياً ذلولاً ، وهما يوحيان باليسر والراحة ( فنعم  
الماهدون ) بما خلقنا مهدياً ناعماً ومحضناً رفيقاً .

« ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله اني لكم  
منه نذير مبين »

آية عديمة النظير في كيفية البرهنة على وجود الله وتوحيده ، تحمل أعمق  
الأدلة الواقعية والعقلية الدالة على الله : « ظاهرة التركيب في كل شيء » ! ما يدل  
دلالة قاطعة لا يحيد عنها على الحاجة الذاتية في كل شيء ، في أعماق ذاته ، إلى ما  
وراءه ، الذي يباينه في كيانه « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » ؟

هذه الآية تتطلب في ايضاح ماتعنيه دراسة واسعة عميقة فصلناها في  
( حوار ) ( ٢ ) ونستعرض هنا ما يناسب موسوعتنا ، صادرين عن آيات الله  
البيّنات .

إنها تحكم على كل شيء بكونه زوجين ، بغية التذكر : أن الكسل فقراء

( ١ ) راجع الفرقان ج ٢٩ ص ٣٧ حول آية الذلول .

( ٢ ) راجع كتابنا : ( حوار بين الإلهيين والماديّين ) ص ٢١١ - ٢٢٨ .

( الفرقان - م ٢٢ )



إلى الله، فالفرار عن الكون الفقير للشيء، إلى المكون الغني الذي خلق كل شيء .  
 « من كل شيء » : ما كنا نعرفه ، وما عرفناه بالجهود العلمية ، وما نحن في  
 سبيل معرفته ، وما لن نعرفه لاختصاص معرفته بمكونه : « سبحانه الذي خلق  
 الأزواج كلها مما قنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » ( ٣٦ : ٣٦ ) : ما  
 لا يعلمونه حالاً، أو ولا استقبلاً ، لاستحالة أن يعلمه إلا الله كالمادة الأم : المادة  
 الأولية الفردية التي خلقت لا من شيء ، ومنها يخلق كل شيء ، فلا يعلمها إلا  
 الخلاق العليم ، منها علم الخلق عن مواليدها شيئاً .

فالشئ - أياً كان - كيانه أنه زوجان ، في أقل تقدير ، شريكان في  
 كونه وكيانه ، لولاهما أو أحدهما ، لم يكن هو شيئاً قط ، وليس هو  
 ذلك الشيء .

إن الشيء المادة كسائر المواد ، أو المادي كسائر الأرواح ، إنه ككلٍ  
 ودون استثناء ، محكوم بازدواجية الكون والكيان ، كيفما كان وأياً كان ، فلا  
 تجد ، ومحال أن تجد : خلقاً هو فرد كائن واقع دون قرين ، وإن كان في المادة  
 الأم نفسها ، كما وأن الزوجية والتركيب والأبعاد لزام الكيان المادي ما دامت  
 كائنة ، فإذا زالت عن الوجود زالت الزوجية كما تزول المادة نفسها ، وكما أنها  
 توجد لأوّل وحلة مركبة الكيان .

إن ازدواجية كيان المادة قد قتبنتى كونها كأصل ، ولأوّل ظاهرة من  
 مظاهرها كالمادة الأم ، وقد تتبناها كحالات غير أولية ، كالحالة الشخصية :  
 موجبة أو سالبة ، كأجزاء للذرات ، ثم الذرية ، ثم الجزيئية ، ثم العنصرية ، ثم  
 العناصرية ، ولا بسيط مستحيل التجزء فيزيائياً هنا وهناك ، اللهم إلا المادة  
 الأم بزوجيتها ، فإن تجزئتها هي إعدامها ، كما أن إيجادها هو خلقها زوجين  
 توأمين ، ثم وليس لكلٍ من زوجية زوجان ، كما لا يمكن كون كلٍ منهما  
 بكيان مستقل عن زميله .

لقد كانت البشرية تزعم أن العناصر الأربعة بسائط ، إلى أن كشفت النقاب عما دونها من جزئيات ، ثم عن ذرات انتهت حتى الآن إلى زهاء ١٠٦ ذرة ، زاعمة أنها بسيطة : أجزاء لا تتجزى ، وأقل تراكيبيها هما الشحنتان : الموجبة البروتونية ، والسالبة الإلكترونية ، ثم ظهرت على أجزاء أخرى لها كالنيوترون والبوزيترون ، واستطاعت أن تفتح القلاع الذرية بمدفعية جبارة علمية ، فتجزئتها إلى شيء من أجزائها ، وتبدل عناصر إلى أخرى بقذف القلاع الذرية في نواتها ، وقد سماها العلماء بالكيمياء النووية .

فالبشرية على ضوء العلم والجهود الجبارة استطاعت حتى الآن أن تعرف راكيب وأزواجاً فيما لم يكن بحسبان : « مما لا يعلمون » ولكن هل للإنسان أياً كان ، وكيفما تقدم في العلوم ، أن يعرف حقيقة المادة الأم فضلاً عن زوجيها ؟ من المؤكد أنها « مما لا يعلمون » نهائياً ، فإن المادة الأم هي ملكوت المادة ، مما يختص علمه بالخلق العليم .

إن الذي يستحق اسم الشيء ، المحكوم عليه بأزواجية الكيان ، ليس إلا "المادة الأم" ، وبأحرى مواليدها الذرات بأجزائها ، والجزئيات ، وسائر العناصر ، وأما الزوجان للمادة الأم ، فهما معاً شيء "وأم الأشياء" ، وأما كل واحد منهما مستقلاً عن الآخر في واقعه فليس شيئاً حتى يحمل زوجين أم سواء ، اللهم إلا "في تصور مبهم في أعلى صروح العقل" ، أما في الواقع الخارجي فليس بالإمكان كونه ولا كيانه إلا مع زميله التوأم ، كما يخلقان معاً هوية وزماناً ، ويعدمان كذلك مع بعض .

وإذا سئلتنا : ما هي حقيقة كل "منفصل" عن الآخر ؟ فالجواب أن لا حقيقة إلا الخيال ! .. وإذا كان عدماً ، فكيف بالإمكان أن يتحصل من توأمين عادمين كائن مادي يحمل زوجين كائنين ؟ فالجواب : أنهما معاً خلقا لا من شيء ، لا من شيء كان قبلهما ، لا من اللا شيء ، وإنما : لا من شيء ، فكل منهما إذاً

قبل الإنضمام ، إنه قبل الوجود ، كسائر الأعدام الممكنة الوجود ، وهما حال الإنضمام موجود واحد ، وكل منهما مستقلاً عن الآخر مستحيل الوجود ، ومع حال الآخر مندغم الكيان معه كالعكس ، فالمجموع - إذاً - مادة فردة هي أم المواد ، وكل منهما مادي ، لا مادة ولا لا مادة ، ليس مادة لعدم تركيبه والمادة مركبة أياً كانت ، ولا لا مادة تعني العدم المطلق لأنه موجود ضمن المادة الأم ، أم بصيغة أخرى ، هما موجودان معاً بعد خلقهما كمادة واحدة أم ، وهما معدومان معاً قبل خلقهما ، ثم لا برزخ بين حالتي الوجود والعدم ، إلا فرض انفصال كل عن توأمه ، فرضاً غير واقع مع الحفاظ على كيان الأم ، وفيما يكون واقعاً فليس إلا بإعدامهما بإعدام الأم .

ومن ناحية أخرى إن القول باللانهاية في أجزاء المادة ممكنة التجزئة أم مستحيلته ، أنه قول بجمع الأجزاء المادية اللامحدودة في المواد المحدودة ، جمعاً بين المتناقضين ، وهو يحيل الكيان المادي على أية حال .

وفيما إذا سئلنا : هل يمكن تجزئة المادة الأم ، وإن كانت بالقدرة الإلهية ؟ فالجواب : إن التجزئة هنا بمعنى انفصال الزوجين وبقاءهما أو أحدهما منفصلاً عن الآخر ، إنها مستحيلة وليس للمحال جواب ! وهي بمعنى انفصالهما عن الوجود ، وانعدام المادة الأم جذرياً ، إنها بهذا المعنى ممكن ، إذ القادر على الإيجاد قادر على الإعدام ، لو صبح التعبير عن إعدام المادة الأم بتجزئتها ! ولكنه إعدام لها كما أوجدت ، أوجدت زوجين مع بعض ، وتعدم كذلك زوجين مع بعض ، وليس لأحدهما كيان مستقل عن توأمه واقعاً على أية حال .

وفيما إذا سئلنا: ترى كيف بالإمكان أن تكون المادة الأم ذات زوجين فقط ، والكيان المادي لزامه - أياً كان - أبعاد ثلاثة ، وكيف يحمل زوجان بسيطان أقل من ثلاثة أبعاد .

فالجواب : أن الثلاثة لزام مواليد الأم ، الزائدة في تراكيبها عنها ، وأما

هي فيكفيها بُعدان ، وهما أقل تقدير للكيان المادي ، بُعدان فيزيائيان ، أم هندسيان ! وقد يعنينا الإمام علي عليه السلام في قوله : ( .. دالة بتفريقها على مفرقها وبتأليفها على مؤلفها وذلك قوله عز وجل : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ففرق بينها وبين قبل وبعده ليُعلم أن لا قبل له ولا بعد ... ) (١) . والإمام الرضا (ع) في قوله : « فرق الله بالأشياء بين قبل وبعده ليُعلم أن لا قبل له ولا بعد » ، إذ يفسران الزوجين بقبل وبعده : بُعدان هما لزام المادة في كيانهما الذاتي الأولي ، سواء أكانا زمنيين ، فلكل كائن قبل - إذ لم يكن - وبعده فسوف لا يكون ، والله تعالى قبل القبل أزلياً وبعده البعد أبدياً ، أو كانا ماهويين داخل الذات وهما البُعدان فيزيائياً ، أم هندسياً ، بُعدان مكانيان قبل وبعده ، والله تعالى خارج عن المكان وعن الأبعاد أيّاً كان . وأخيراً ما هي الصلة بين الزوجين هذين وبين تذكر الألوهية وراءهما والفرار إلى الله منها ؟

أقول : إنه تذكر للغاقلين عن الحبيطة الربوبية بالأشياء ، إن الفقر والحاجة مندغمان في أصول كيان المادة ، ولتأخذ المادة الأم - وهي أغنى المواد وأولاهها - مثلاً لهذه الذكرى .

هذان الزوجان كما عرفناهما ، كل منهما ليس في ذاته إلا ( لا ) لا يملك كوناً ولا كيانه فضلاً عن تكوين زميله ، وكل منهما متوقف في كونه على الآخر كالعكس ، لا توقف المعلول على علته ، إذ لا تتصور العلية لما ليس له نصيب من الوجود ، ولا المعلولية لما لا يمكن أن يوجد مستقلاً عن زوج ، إذ أفكل منهما بحاجة إلى زميله في إمكانية إفاضة الوجود عليه ، فلا تجد هنا وهناك إلا فقراً ،

(١) التوحيد للصدوق بإسناده عن الإمام الصادق (ع) قال : بينا أمير المؤمنين يخطب على منبر الكوفة إذ قام رجل ... فقال : يا أمير المؤمنين ! هل رأيت ربك ؟ فقال ... وهي خطبة توحيدية عظيمة .. ( راجع كتابنا « حوار » في شرح الخطبة ) .

فإمّا أن يُحرما عن الوجود ، أو يفيض لهما الوجود خلاق الوجود ، أفليست هذه الزوجية في كل شيء ، هي التي دلتنا على الحاجة الذاتية في كل شيء ؟ الى م ؟ هل كل إلى مثيله ؟ والفقر مع الفقر لا يزداد إلا فقراً ! أم إلى غير مثيله ؟ فهو الله تعالى شأنه الذي ليس كمثله شيء ، اذ ففروا إلى الله إني لكم نذير مبين : فرار العاقل المتذكر ، من اللاشيء إلى مَن خلق كل شيء لا من شيء ، من الفقر المحض إلى الغنى المطلقة ، من الكائنات - كل الكائنات - التي هي أزواج ، ولا أقل من زوجين ، إلى الواحد الأحد الفرد الصمد ممن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياتا ولا نشورا ، إلى من بيده ناصية كل شيء .

تُرى هل توجد غنى ذاتية في أي شيء ، والزوجية آية الحاجة في كل شيء ؟ سواء أكانت في المادة الأم حيث الزوجان هما كيانهما كأم في أصل كونها ! وإذا لم يكن إفاضة الوجود من كل للآخر لمكان استحالتين فهي بحاجة ماهوية إلى ما ورامها من كائن ليس زوجين وهو الله الفرد الأحد .

هنالك استحالة أولى هي عليّة اللاشيء ، فإن كلا من الزوجين مستقلا عن الآخر ليس شيئا ، واستحالة ثانية هي لزوم تقدم الشيء على نفسه لو اعتبرنا كلا منهما شيئا ، أن يكون الشيء علة لما هو معلول له ، فحال كون أحد الجزئين علة للآخر يجب تقدمه عليه ، وحال كونه معلولا له يجب تأخره عنه ، ولزامه تقدم وتأخر شيء عن آخر ، والنتيجة تقدم الشيء على نفسه وتأخره عنه ! هذا هو الفقر الذاتي في المادة الأم ، وبأحرى في مواليدها ، فالشحنة في كيانه الخاص بحاجة إلى ازدواجية مّا ، وكذلك الذرة ، والجزئي ، ومختلف العناصر .

فأي باب ندق من كائنات العالم نسمع صرخات الفقر والعدم من ذواتها ، فإلى من هي مفتقرة إلا إلى الغني المطلق ؟ وففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ؟

وهنا التعبير بالفرار لطيف جداً ، وعجيب حقاً ، فهو يوحى بالانقصال والأغلال التي تثقل وتغل النفوس البشرية إلى هذه الكائنات الحقة الفقيرة ، فتأسرها عن الإنطلاق ، ونحصرها في عقال الأوهاق ، وتنسي أخيراً أن لها رباً !

فلا بد - لكي نتحلل عن أسرها وحصرها - أن نعرفها أولاً بالفقر والعدم الذاتي ، ثم نفر بكل ما نملك من سرعة وجلادة ، إلى الله الذي خلقها ويفيض لها دائماً ، نفر بأجنحة العقل والشب والعلم ، مستخدمين كافة الطاقات ، ولكي لا نرجع مغلولين لو تباطأنا في السير ، أو أخطأنا المسير ، والله هو الولي القدير ، « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير ... » :

ثم الفرار إلى الله درجات ، كما الفرار عنه دركات ، فأولى درجات الفرار إلى الله رفض الشركاء والأنداد عنه ، وأشرفها وأولها الفرار عما سوى الله ، وعن نفسك أيضاً ، إلى الله ، وإلى حد الدنو والتدلي « ثم دنى فتدلى » أن يصبح كله معرفة لله ، وعبادة لله ، ناسياً نفسه إلا تذرعاً بهما إلى ابتغاء مرضاة الله ، ومن صح قراره إلى الله صح قراره مع الله ، فلا نجد فيه حالة مع من سوى الله إلا الفرار ، ومع الله إلا القرار .

« ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين » : فتعدد الآلهة يزيف مكانة الألوهية ، ويجعل كلاماً من الشركاء قريناً وزوجاً للآخر ، فيعود الكل محتاجين كالخلق ، نتيجة الزوجية والتعدد : « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا » : الآلهة إلا الله ، كما فسدنا الأرض والسماء ، فكيف يكون التركيب وازدواجية الكيان دليلاً على الفقر والحدوث في غير الآلهة ، وليس فيهم أنفسهم ؟ ! .

« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » :  
قولة كافرة ساخرة ماثرة من مكذبي الرسل طوال التاريخ ، كأنهم تواصلوا بها

وتواظبوا عليها ! : « ساحر أو مجنون ، بحق الرسل والرسالات الإلهية ، ولكي يتخلصوا بهذه الرمية الجنونية عن أسر التشايع وحصرها إلى حريات الإباحيات اللا محدودة ، التي تجعل من الإنسان حيواناً وحشياً وأشرس وأطغى ! .

« أتواصوا به بل هم قوم طاغون » : كأنما تواصوا بهذا الاستقبال لرسل الله على مدار الزمن ، ولكنهم أينما كانوا مجتمعين ؟ وهناك مفرقات الزمن ! فلا تواصي واقعياً ، وإنما هي طبيعة الطغيان تجمع بينهم في فريتهم هذه ، طبيعة النشوز عن الحق ، متجاوبة مع العجز عن رد الحجج البالغة ، تخلفان على مدى القرون رفض الرسالات بتهمة السحر أو الجنون ، فالسحر خلو عن أية حقيقة ، والجنون لا يعرف الحقيقة - كيف والعقل أحياناً يشذ عنها فضلاً عن الجنون ، مما أجمعت البشرية على رفضها ، وهكذا يشوه للطفاة سمعة الحق ، فيضللون الجهال « فهناك استحوذ الشيطان على أوليائه ونجى الذين سبق لهم من الله الحسنى » .

وحينما يصل أمر الطغيان والتعامي عن الحق إلى هذه الدركات والدمدمات :

« فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين »

تول عن تذكر هؤلاء الأوغاد الطفساء ، الذين لا تزدادهم الذكرى إلا اعتوا ونشوزاً « فما انت » إذا « بملوم » حيث اللوم ليس إلا على من قصر فيما ذكر وما أندر ، وأما انت فقد بلغت من الذكر الانذار مبلغه الأخير ، فمسموح لك حينئذ أن تتولى عنهم ، وتواصل في تذكر من سواهم غربة لهم علمهم يتذكرون « فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » : الذين يؤمنون بالحق إن وجدوه ، فلا يدفعك اليأس عن الطاغين ، ان تتوانى في تذكر الباقيين ، وهكذا تكون الذكرى دوماً ، ان تكون الإيمان الفعلي لمن يتحرى الحق فتذكره ، وتزيد في إيمان الماضين في الإيمان ، الماشين على صراطه ، وتظهر طغوى العاقين المتواصين على الحق ، مثلث النفع للمؤمنين : فالذكرى نفاع للمؤمنين - أياً كانوا - في انفسهم ، وتنفعهم

ضد الكافرين اذ تظهر المستور من غيهم العامد ، وكل ما ينفع المؤمنين فهو يضر الكافرين .

ان مهمة رسل الله هي التذكير والإنذار والتبشير لتحقيق الغاية القصوى من خلق المرسل إليهم :

« وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون »

إن الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لحكمة وعائدة ، راجعة اليه ان كان مستكملاً لنفسه كسائر الخلق ، ام الى غيره ان كان مكتملاً له دون ان يعود اليه ، لكماله وغناه كما الله وهكذا تكون أفعال الله تعالى فانه الغني المفيض ، والخلق فقراء يفاض عليهم .

وعباداة الجن والانس لله تعالى ، فائدة عائدة اليهم لا إلى الله ، وان كانت غرضاً لخلقهم مقصوداً ، وكما توحى به « ليعبدون » : أن لخلقهم غرضاً هو أن يعبدوا ، فالخلق منه تعالى ، والعبادة منهم ، فمائدة اليهم ، فلم يقل « لأعبد » كيلا يظن أنه هو المقصود من خلقهم ، أن يصبح معبوداً لهم كما كان معبوداً لسواهم ، فليس لله تعالى نصيب من عبادتهم ، ولا يريد : « ما أريد منهم من رزق » : معنوي « وما اريد ان يطعمون » من رزق مادي ، ومن المعنوي استكمال له سبحانه بأن يعبد ، فهو لا يريد إلا استكمال الخلق بأن يعبدوه ، لا استكمال له بأن يُعبد ، فقد كان ولا يزال معبود الملائكة المقربين ، الذين لا كيان لهم إلا عبادة رب العالمين ، فما هي عبادة الجن والانس يحجبها إلا هزيلة قليلة ، اللهم إلا المعصومين منهم وهم الأقلون .

وعبادة الله لخلق لا تعني إلا اتقاءهم - على ضوئها - عما يضرهم او يصددهم عن الكمال والإستكمال ، فهي لا تقى إلا صاحبها دون سواه : ( يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ) ( ٢ : ٢١ ) :



اعبدوه لعلكم تتقون - خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، ولا ذريعة للتقوى إلا العبادة ، ترى أن تقوى العابدين عما هم يحذرون ، هي راجعة الى رب العالمين ؟ !

فالعبادة ، والتقوى الناتجة عنها ، هي الهدف الرئيسي من خلق الجن والإنس ، وهي الرحمة المقصودة من خلقهم : ( ولا يزالون ، مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ) ( ١١ : ١١٩ ) خلقوا للرحمة ، لا للعذاب ومنه الاختلاف ، وان كان الكثير منهم يميلون للعذاب بما قدمت ايديهم ، وكأنهم 'ذرثوا' لجهنم : ( ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ) لا ذرة وخلقاً هادفاً للعذاب ، وانما للرحمة ، ولكنهم - ( لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ) ( ٧ : ١٧٩ ) . انه ليس من الله إلا ان يعبدوه ويتقوا فيرحموا ويثابوا ، وكما فطرهم على معرفته وعبادته ( فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) ( ٣٠ : ٣٠ ) وكما زادهم هدى بجملة الرسالات ومختلف ألوان الدلالات ، ولكن أكثرهم عموا وصموا واستحبوا العمى على الهدى .

فخلقهم للعبادة والتقوى ، ودلالتهم لها ، عمل إلهي أصيل ، ورحمة إلهية أصيلة ، ثم ذرثهم لجهنم ليس اصلاً في خلقهم ، وانما كنتيجة لطفواهم ، فلم يخلقهم إلا لتقواهم ، لا كالأنعام او أضل ، وانما في أحسن تقويم ( لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ) كاصل إلهي ( ثم رددناه أسفل سافلين ) كجزاء لما قدمت ايديهم ، وان الله ليس بظلام للعبيد .

ترى لو أجمع الجن والإنس على الكفر بالله هل يضرونه في ذاته او صفاته ؟ ام لو أجمعوا على عبادته هل ينفعونه شيئاً ؟ كلا ! ( وقال موسى إن تكفروا انتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ) ( ١٤ : ٨ ) ان تكفروا فإن الله غني

عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم .. ( ٣٩ : ٧ )  
فكفركم عليكم لا عليه ، وشكركم لكم وليس له .

إذا فالعبادة والتقوى هي الغاية الوحيدة المعنية من خلقه الجن والانس ، تتمثل في عقائد وأعمال وأقوال واحوال ، مَن قام بها وأداها فقد حقق غاية خلقه ، قدر القيام والأداء ، ومن قصر فيها او نكل عنها فقد أبطل معنى خلقه وظلت حياته فارغة بما اراده الله ، خاوية عما هياه الله .

ولا تحصر العبادة بالعلاقات الفردية : ذكراً وصلاة - بين العابد والمعبود ، فانها تشمل سائر جوانب الحياة وزواياها ، ان يخضع لأمر الله ونهيه في كافة شؤونه ، لحد تصبح أعماله وأقواله وحركاته وسكناته كلها عبادة لله في مختلف المحاريب ، : محراب المسجد ومحراب الحرب ، محراب السياسة والاقتصاد ، محراب الثقافة والاجتهاد ، محراب الاعمال الفردية والجماعية ، المادية والمعنوية ، لتصبح كلها محاريب يعبد ويطاع فيها الله ، ومحارب فيها الشيطان ويعصى ، منها اختلفت اشكال هذه المحاريب وصور العبادة فيها .

إذا فليست عبادة الله وتقواه إلا لصالح العابد المتقي ، كما لا تعني سبيل الله إلا سبيل صالح الإنسان ، التي لا يمكن سلوكها سليماً إلا على ضوء هداية الله وعبادته .

ان عبادة الله تتوسط بين معرفته وتقواه ، فالعبادة دون اية معرفة - لو امكنت - فهي غباوة ، والعبادة المتخلفة عن نتاج التقوى ليست إلا طفوى في صورة العبادة ، فكما ازدادت المعرفة بالله ازداد العارف عبادة لله فتقوى ، وكما ازدادت العبادة فالتقوى ، ازدادت المعرفة ، لذلك فقد تفسر العبادة هنا بالمعرفة تفسيراً بالمقدمة والنتيجة ، وقد تجعل الغاية من الخلقة المعرفة ، وكما يروى عن الحسين بن علي ( ع ) : « ايها الناس ان الله عز وجل ذكره ما خلق العباد إلا

ليعرفوه ، فإذا عرفوه عبدوه ، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه ... » .

ثم ترى هل العبادة المقصودة من الخلق هي الاختيارية التكوينية ! وهي لا تخص الجن والانس ! فـ « ان كل ما في السماوات والأرض الا آتي الرحمان عبداً » ( ٩٣ : ١٩ ) أم هي الاختيارية التشريعية ؟ وهي قليلة قليلة ، بجذب الكثير من العصيان والطغيان ! « وقليل من عبادي الشكور » ( ١٣ : ٣٤ ) فكيف تعتبر غاية وحيدة للخلقة ؟ .

نقول : ان التكوينية منها كائنة لا محالة فليست هي الغاية ، والتشريعية هي المقصودة تخيراً لا تسييراً ، فعلينا العمل إذ يسرنا الله لما له خلقنا ، وكما يروى عن الرسول ﷺ : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وحصول هذه الغاية المجيدة في الأقلين كالمرسلين وسائر المعصومين ، وكالصالحين ، يكفي حكمة لخلق الجنة والناس أجمعين ، مهما انفلت الكثيرون من تحقيق هذه الغاية وتذرعوا للجحيم وكأنما ذرعوها لها ! تحقيق تكاميل علوم رباني

فالعبادة هي غرض إختياري للخلق ، يحصل ممن يختارها ، ثم الفالت عن هذا الغرض لا يجعل خلق نفسه عبثاً كفعل الله ، وانما عبثاً كفعله نفسه ، ثم وهناك غايات اخرى من خلقه .

فهنا الغرض العبادي من خلق الجن والانس حاصل كتشريع واختيار ، وغير حاصل كتكوين وإجبار ، فلم تكن العبادة المسيرة المجبر عليها غرضاً لكبي يكون الخلق إذا عبثاً ! حيث المستثنى منه في الآية ليس كل شيء ، وإنما دلشيء من الأفعال المختارة « استيعاء من المستثنى : « ما خلقت الجن والانس » لشيء من الأفعال الاختيارية « إلا ليعبدون » فالعبادة - وهي عمل تشريعي اختياري - لا تستثنى إلا عن أضرارها من الامور الاختيارية : طاعة ومعصية وسواهما ، فقد استثنيت الطاعة عن هذا المثلث ، ثم ولا يعني هذا

الإستثناء حصر الغاية من الخلقة في العبادة ، حتى يخلو خلق غير العابدين عن أية غاية ، وإنما هي أشرف الغايات ، فالتخلف عنها ينزل بنفسه عن درجات معنية إلى دركات .

« ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » : فالرزق يعم رزق الروح والجسم ، فما أريد الإلتذاذ من عبادتهم فلست بمستكمل ، ولا أن يطعمون ، فانا مجرد عن الجسم وحاجياته .

« ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » : هو الرزاق لا سواء ، وله القوة لا سواء ، وهو المتين لا سواء ، فانهم مرزوقون ضعفاء هزلاء .

« اللهم اني أخلصت بانقطاعي إليك ، وأقبلت بكلي عليك ، ورأيت ان طلب المحتاج إلى المحتاج سفه من رأيه ، وضلة من عقله ، فكم قد رأيت يا إلهي من أناس طلبوا العز بغيرك فذلوا ، وراموا الثروة من سواك فافتقروا ، وحاولوا الإرتفاع فأتضعوا .. فأنت يا مولاي دون كل مسؤول موضع مسألتي ، ودون كل مطلوب إليه ولي حاجتي » (١)

وفي حديث قدسي يرويه الرسول ﷺ : « يا بن آدم ؟ تفرغ لعبادتي امتلاً صدرك غنىً وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك » (٢) . وترى ما هي الحكمة في تقدم الجن هنا - وفي موقف العبادة - على الإنس ، والإنس أحسن منه تقويماً وأفضل تقييماً ، وقد اختصت الرسائل الأصلية بهم دونهم وهم فروع ؟ .

علّ من الحكيم في تقدمهم ذكراً تقدم خلقهم : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم » (٢٧: ١٥) وأنهم أكثر من الإنس : « يا معشر الجن قد استكثرتم

(١) من صحيفة الامام علي بن الحسين السجاد عليه السلام .

(٢) الدر المنثور ٦ : ١١٦ - اخرج احمد والترمذي وحسنه وابن ماجه عن ابي هريرة عنه (ص) .

من الإنس» (٣٣: ٥٥) وعصيانهم كذلك أكثر كثرة التغلف والعدد، فليتقدموا في موضع التأنيب ، حيث الآية هي آخر رمية على العاتين هنا ، أن في انفلاتهم عن عبادة الله انفلات عن الهدف الأصيل من خلقهم ، وكما نرى الجن تتقدم في أمثالها: «يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ..» (٦ : ١٣) وسوف يتقدمون في النار : «قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار» (٧ : ٣٨) .

ومن ثم يتفرع على هذه الحجج الدامغة أن يتذكر الظالمون ولو شيئاً ما فلا يستعجلون :

«فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ، فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون» .

لقد عرفوا ذنوب أصحابهم المسبقين بذنوبهم : ذنوبهم الطويل تبعة لذنوبهم ، أن أقام العذاب باستعجالهم قبل يومهم الذي يوعدون ، وليعرفوا من هذه الحجج الباهرة أن العذاب الموعود يستقبلهم لأجله ، إذا «فلا يستعجلون» كما استعجل أصحابهم بقولهم «أيتان يوم الدين» ؟ ولِمَ يستعجلون ؟ بعد الذي سمعوه من تبعة الاستعجال للسابقين ، وبعد الذي عليهم أن يتأكدوه من العذاب الحتم يوم الدين ! «فلا يستعجلون» نهى أن يستعجلوا الله في العذاب (١) .

«فويل» كل تأوه وتحسر مما عملوا «للذين كفروا» من قبل وفي هذا ومن بعد : «من يومهم الذي يوعدون» يوم الدين - يوم هم على النار يفتنون .

(١) كسر النون هنا دليل على حذف ياء المتكلم ونون الجمع محذوف بجزم النهي .

( سورة الطور - مكية - وآياتها تسع واربعون )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالطُّورِ - ١ . وَكِتَابٍ  
مَسْطُورٍ - ٢ . فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ - ٣ . وَالْبَيْتِ الْمَغْمُورِ - ٤ .  
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ - ٥ . وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ - ٦ . إِنَّ عَذَابَ  
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ - ٧ . مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ - ٨ . يَوْمَ تَمُورُ  
السَّمَاءُ مَوْرَأً - ٩ . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا - ١٠ . فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ  
لِّلْمُكَذِّبِينَ - ١١ . الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ - ١٢ .  
يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاءً - ١٣ . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ  
بِهَا تُكَذِّبُونَ - ١٤ . أَفَسِخَرُوا هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ - ١٥ .  
أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ  
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ - ١٦ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ - ١٧ .  
فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ - ١٨ .  
كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ - ١٩ . مُتَكِثِينَ  
عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ - ٢٠ .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ  
وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ  
رَهِينٌ - ٢١ . وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِقَاكِهٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ - ٢٢ .  
يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ - ٢٣ . وَيَطُوفُ  
عَلَيْهِمْ غُلَمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ - ٢٤ . وَأَقْبَلَ  
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ - ٢٥ . قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ  
فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ - ٢٦ . فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ  
السَّمُومِ - ٢٧ . إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ  
الرَّحِيمُ - ٢٨ .

مركز تحقيق كامبوتر علوم إسلامي

\*\*\*

« والطور » قسماً بالطور ، وحق له أن يقسم به ، وكما يذكر في القرآن  
اثني عشر مرة : « الطور الايمن .. طور سيناء .. طور سينين » فانه مهبط الوحي  
ومحطه على موسى الرسول عليه السلام وعلى حذ المروي عن الرسول الاقدس عليه السلام :  
« الطور من جبال الجنة »<sup>(١)</sup> ولا يعني إلا تطوره - كانه - الى جبال الجنة ،  
لنزول الكتاب المسطور فيه على نبي محبوب .

« وكتاب مسطور . في رق منشور » : هو التوراة التي انزلت على موسى  
إذ ناداه ربه في الواد المقدس طوى ، مسطوراً بقلم القدرة والرحمة الإلهية :

(١) الدر المنثور ٦ : ١١٧ - أخرج ابن مردويه عن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده  
عنه (ص) .

« وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة .. »  
( ٧ : ١٤٥ ) واللوح هو اللائح الواضح وهو الرق المنشور ، الراح هي رق منشور  
نزلت على موسى في جبل طور .

فالرق ما يكتب فيه شبه الكاغذ ، لكنه يختلف عنه إسمًا ورسمًا لأنه إلهي  
وذاك بشري ، كما المسطور فيه يختلف عن المسطور فيه ، والمنشور من الرق ما  
ليس فيه لف وخباء ، وإنما نشر بجلاء ، فكله نور .

وخير ما يعبر عن الطور ورقه المنشور ، بعد القرآن ، هو ما يروى عن نبي  
القرآن : « الحمد لله الذي خلق النور ، وانزل النور على الطور ، في كتاب مسطور ،  
في رق منشور ، بقدر مقدور ، على نبي محبوب » (١) .

وإنما يقسم هنا بالطور وكتابه النور ، وقبله كتب نزلت على أنبياء عظام  
كنوح وإبراهيم عليهما السلام لأن التورات هي أول كتاب مفصل سهاوي ، يحمل  
من شرائع الله ما لم يحمله كتب قبله ، اللهم إلا ضوابط عامة .

« والبيت المعمور » : مركز تحقيق تراثنا علوم إسلامي

ثم ويقسم ثانيًا وأخيرًا بالبيت المعمور ، على البيت العتيق المعمور قبل كل بيت  
« إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، بما في حياله من بيت  
معمور في السماء السابعة .

وكما نزل وحي القرآن على البيت المعمور على حمد المروي عن الإمام الصادق (٢)  
فلا يمنع أن يكون في السماء أيضاً بيت معمور بحيال الكعبة ، تعمده الملائكة بما  
يكون منها فيه من العبادة (٣) فالرسول ﷺ هو أول العابدين ؟ ، أو هو بفناء

(١) نور الثقلين عن مهج الدعوات لابن طاووس عن قاطمة الزهراء (ع) عن أبيها (ص) :

(٢) نور الثقلين ٥ : ٦٢٤ عن الكافي عن صفص بن غياث عنه (ع) قال : نزل القرآن

جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور ..

(٣) نور الثقلين ٥ : ١٣٦ عن أمير المؤمنين (ع) :



البيت الحرام لو سقط لسقط عليه <sup>(١)</sup> في السماء السابعة <sup>(٢)</sup> أو إيا كان ، فموجب هذا الكعبة <sup>(٣)</sup> وإن شرف الكعبة بها في حياها من بيت السماء وشرف البيت المعمور السماوي انه كله حاصل في بيت الرسالة المحمدية ، المعمور فوق كل معمور وقبل كل معمور ، فانه نور على نور ، وما البيوت المعمورة الاخرى إلا تقدمات وتبقيات لهذا البيت الطاهر الذي لا يدانيه اي بيت ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً ، ! .

ومن ثم بيت الرسالة القدسية المحمدية الذي هو أعمار البيوت في بيوتات الرسالات الإلهية ، أرضية وسماوية ، بشرية وملائكية ام ماذا !

هذا البيت المعمور الذي يضم في جنبه كافة بيوتات الوحي وزيادة تجعلها خاتمة الرسالات وافضلها .. ثم لا يقسم بالوحي الانجيلي بين الطور والبيت المعمور لانه لا يستقل عن وحي التورات إلا بتوجيهات أخلاقية دون أية تشريعات زائدة عليه أو مختلفة عنه ، إلا شذاذاً هامشية تحمل رفع عقوبات فرضت على المتخلفين من بني اسرائيل !

« والسقف المرفوع » : هو السماء المرفوع فوقناه وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ، وهو السماء المحمدي ايضاً ، مرفوعة فوق سماوات الرسالات وأراضيها ، الرسل والمرسل اليهم ، ولقد انزل الذكر الرسول علينا من على ارفع سماوات الوحي « قد

(١) الدر المنثور ٦ : ١١٧ - اخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر رفعه اليه (ص) ان البيت المعمور بعيال الكعبة لو سقط شيء منه لسقط عليها ، يصلي فيه كل يوم سبعون الف ملك ، والحرم حرم بعياله الى العرش ..

(٢) الدر : في شعب الايمان عن النبي (ص) « قال : البيت المعمور في السماء السابعة » أقول : وأحاديث الفريقين مجمعة على كونه في السماء السابعة فوق العرش ، الا رواية يتيمة رواها في المجمع عن ابي هريرة عن النبي (ص) قال : البيت المعمور في السماء الدنيا .. وعن ابن عباس عنه (ص) يقال له الضراح وهو بفناء البيت الحرام .

(٣) الدر المنثور ٦ : ١١٨ - اخرج جماعة من الحفاظ وارباب المسانيد عن علي (ع) انه السماء وقرء الآية ،

انزل الله اليكم ذكراً . رسولا يتلو عليكم .. ( ٦٥ : ١٠ )  
 « والبحر المسجور » : والتسجير هو تهيج النار وتسجيرها ، او إضرامها  
 بتكثيرها على من فيها : « إذا الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ، في الحميم  
 ثم في النار يسجرون » ( ٤٠ : ٧٢ ) .

فهل انه بحر واحد كما توحيه « البحر » الواحد! وهو بحر النار في الاخرى؟  
 ام انه بحر الدنيا إذ تسجر عند قيامتها « وإذا البحار سجرت » ( ٨١ : ٦ )  
 بأن تصبح بحراً واحداً بالزلزال والبراكين التي تنزىل الحواجز؟ وقد يوحى به ظرف  
 العذاب الواقع : « يوم تمور السماء موراً .. » فانه يوم قيامة التدمير ، وفيه بالذات  
 ( اذا البحار سجرت ) عذاباً لأهل كبدية ، ثم في قيامة التدمير العذاب  
 الاصيل .

عل الجمع أجمل ، بعد ان كلا محتمل ، فالقسم هنا يشمل البحرين المسجورين  
 كعذاب شامل عند القيامة وبعدها .

ومهما كانت الآية الطور وكتاب مسطور .. والبيت المعمور والسماء المرفوع .  
 مهما كانت لها روعتها بعظمتها مغنوهاً ووقعا في القلوب ، فلاية البحر المسجور  
 هيبتها ودلائها على المقسم لاجله لتاركى الوحي المعمور :

« ان عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع » أمر داهم قاصم ، ماله من دافع ولا  
 عاصم ، فانه واقع لا محالة بأمر الله على الذين قدموه بأعمالهم ، لا مرد له من الله  
 فضلاً عن سواه .

« يوم تمور السماء موراً » :

المور هو التردد في عرض ، والتكفؤ ، والموج ، والسرعة ، والاضطراب ،  
 والجريان ، والدور ، والحركة (١) .

إذا فالسماء يوم قيامة التدمير تصبح مائرة دائرة ، متكفئة مترددة ، مائجة

(١) لسان العرب لابن منظور الافريقي .

جارية مضطربة متحركة سريعة ، فانها على اثر انشقاقها ترتخي فتصبح واهية :  
( وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ) ( ٦٩ : ١٦ ) لحد وردة كالدهان  
( . . فكانت وردة كالدهان ) ( ٥٥ : ٣٧ ) والمهل ( يوم تكون السماء  
كالمهل ) ( ٧٠ : ٨ )<sup>(١)</sup> .

وان مور السماء هو من رجمها إذ كانت دخاناً حينما ولدت ، ثم تمور مور  
الدخان : الغاز - بحرق وحرارة زائدة الوصف حال احتضارها ، ولأنها غلبت  
في حربها الأخيرة فرجعت كما كانت ، وإنه لمشهد مروع مهيب كيف تضطرب  
السماء كامواج البحر وهي سبع شداد ! .

« وتصير الجبال ميراً » : تجعلها كالسراب : ( وسيرت الجبال فكانت سراباً )  
( ٧٨ : ٢٠ ) والأرض بارزة : ( ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة )  
( ١٨ : ٤٧ ) وهذا السير على اثر الزلزال الدكداك : ( وحملت الأرض والجبال  
فدكتا دكة واحدة ) ( ٦٩ : ١٤ ) فالنسف : ( ويسألونك عن الجبال فقل  
ينسفها ربى نسفاً فينذرهما قاعاً صافصفاً . لا ترى فيها عوجاً ولا ممتاً ) ( ٢٠ : ١٠٧ ) .  
هكذا ( تذلل الشم الشوامخ ، وألصم الرواسخ ، فيصير صلداً سراباً رقيقاً ،  
ومعهدها قائماً سلقاً )<sup>(١)</sup> فكيف بهذا الانسان الهزيل الضعيف ، في هذا الهول  
المذهل الخفيف ، وهو يذهل من كل حادث خفيف طفيف ! .

( فويل يومئذ للمكذابين ، الذين هم في خوض يلعبون )

إنه لهم ويل وتأوه عظيم ، على قدر تكذيبهم ، إذ كانوا في خوض لهم يلعبون  
بآيات الله ويتلاعبون ، فالخوض هنا هو الغور فيها بقصد التزييف والتشكيك  
والإبطال ، ثم يتخذونها لعباً وهزواً ! فـ ( إذا سمعت آيات الله يكفر بها ويستهزئ  
بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ) ( ٤ : ١٤٠ ) ( فذرهم  
يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ) ( ٤٢ : ٨٢ ) .

(١) راجع تفسير سور : الحاقة ١٦ والمعارج ٨ والمرسلات ٩ والتنبأ ١٩ والتكوير ١١  
والانفطار ١ في الجزء ٣٠ من الفرقان .

« يوم يدعون الى نار جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون »  
يدعون اليها كما كانوا يدعونها ويكذبونها بخوضهم ولعبهم ، فليخوضوها  
دعاً : دفعاً - ولتلاعب بهم نارها ، اذ دفعوا الى ما كذبوا فالدع هو الدفع الشديد :  
ان تغل ايديهم الى اعناقهم ، وتجمع نواصيهم الى اقدامهم ، ثم يدفعون الى جهنم  
دفعاً على وجوههم صماً وعمياناً ، وكما توحيه آيات متجاوبة بهذا الصدد .  
ولقد كانوا يتقولون على القرآن أنه سحر ، وعلى رسول القرآن أنه ساحر أو  
مجنون ، فحين اذ يدخلون النار يسألون هزء :

« أفسحر هذا ام انتم لا تبصرون » فقد كنتم تقولون عن القرآن : إنه  
سحر ! فهل هذه النار التي تحرقكم كذلك سحر ؟ أم هي حق ملموس منه  
تصرخون ، كما كان القرآن حقاً ، ولكنكم كنتم لا تبصرون . فقد كنتم  
تقولون : « إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » ( ١٥ : ١٥ ) فهل  
سكرت عن النار الخبر عنها أيضاً كما سكرت عن الخبر ، فذوقوا فتنتكم ، هذه  
النار التي كنتم بها تكذبون !  
توحي الآية أن حجة القرآن باهرة للبصائر كأنها مبصرة ، فإذا نكروها  
وسخروا منها فلتمسهم النار : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا  
بالحق » ( ٤٦ : ٣٤ ) .

ولو أن صبروا على حرها ناظرين إلى رحمة الله أن يخفف عنهم أو يخرجهم  
فهل ينفعهم صبرهم فيأملون ؟ كلا ! :

« اسلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون »  
دون ما أنتم تأملون ! فالعذاب واقع لا محالة ، ما له من دافع بأية حالة ،  
فالصبر وعدمه سواء ، فإنه الجزاء العدل « إنما تجزون ما كنتم تعملون » ليس  
من الله هناك شيء انتقاماً أو سواء ، وإنما الجزاء النار صورة حقيقية عما علمته  
الكفار ، فالخوض في آيات الله دعاً لها ، حقيقته الخوض في النار دعاً اليها ، فهم

بذنواهم الشريرة يوقدون ناراً : « اصلوها » فما الصلي إلا الإيقاد ، فلا وقود لها إلا أنفسهم : « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » ( ٢١ : ٩٨ ) فالكافر وهو في الدنيا يخلق وقود النار بما يحتمل ، ومهما كان غافلاً عنه فسوف ينتبه : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ( ٥٠ : ٢٢ ) ١ .

إلى هنا سمعنا إلى سيرة أهل النار ، وعرفنا مصيرتهم ، تقدموا على المتقين ، لتقدم الطغوى على التقوى من حيث الدافع فالواقع ، ثم نسمع ما للمتقين :

« ان المتقين في جنات ونعيم » كما كانوا يوم الدنيا في جنات العقائد والأعمال ، فهم كذلك يوم الدين في جنات ونعيم ، إنما يجزون ما كانوا يعملون عدلاً وإحساناً ، مهما كان جزاء الفاسقين عدلاً وليس إحساناً .

« فأكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » : نعمتان اثنتان ، ايجابية : « فأكهين » من الفكاهة : حديث ذوي الانس : مستأنسين « بما آتاهم ربهم » وسلبية : « ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » بما اتقوها بتقواهم . وينضاف إلى نعمتهم هاتين كل تبجيل وتجليل ، وتهنئة وتكريم :

« كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » فالتنعم الناتج عن العمل مهنيء ، بالذات ، وقد أضيف إليه أمر المضيف فازداد رحمة على رحمة .

وفياً إذا سألنا : ما هو الفرق بين جزاء الكافر والمؤمن - ان جزاء المؤمن « بما كنتم تعملون » لا نفس العمل ، وجزاء الكافر « إنما تجزون ما كنتم تعملون » .

فالجواب : ان المؤمن كذلك يجزي نفس عمله الصالح ، ولكنه بزيادة عما عمل وبفضل الله وإحسانه ، فليس جزائه إذن قد عمله ، ولكن الكافر لا يجزي إلا قدر ما عمل : وهذا عدل من الله هنا ، فضل منه هناك .

« متكئين على سرر مصفوفة » هذه النعم الثلاث مزودة برابعة هي اتكائهم على سرر مصفوفة : منسقة هي فمنسقة جموعاً من أهل الجنة ، متمتعين بلذة

التجمع باخوان على سرر متقابلين، ومصفوفة كذلك : مرمولة : مزينة بالجواهر والذهب والفضة .

وخامسة بعد اكتمال هذه النعم روحية وجسدية ، تجعلهم غريقين في بحر النعم :

« وزوجناهم بحور عين » : كما تمتع ما يتمتع به الانسان جسدياً ، إضافة إلى أزواجهم المؤمنات ، اللاتي يدخلن معهن الجنة أزواجاً لهم فيجعلهن الله كحور عين كما توحى آية المشية <sup>(١)</sup> وروايتها <sup>(٢)</sup> .

« والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين »

آية فريدة في نوعها تضم أهم المباحث في باب الجزاء العدل والفضل ، تتطلب بحثاً وتقديراً مفصلاً ، فانها ضابطة شاملة ترجع اليها فروع عدة وتجاوبها دعاء الملائكة حملة العرش ومن حوله .. ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم » ( ٤٠ : ٨ ) فلو أن الآباء والأزواج والذريات كانوا على درجات الذين آمنوا وتابوا واتبعوا سبيل الله ، لم يكن لفصلهم عنهم ورجاء لحوقهم من معنى .

ثم وآية الذرية تلك تقول : ذراري المؤمنين ، التابعون لهم بايمان ، يلحقون بهم دون ألت ونقص من أعمالهم ، والنفوس كلها رهينة أعمالها ، فمن هم هؤلاء الذراري ؟ وما هو اتباعهم بايمان ؟ وأين الأخاق ؟ وما هو مداه ؟ ولماذا مظنة

(١) « لهم فيها ما يشاؤون ولدينا مزيد » ومن أفضل ما تشاءه النساء أن يصبحن كحور عين فأزواجاً لأزواجهن .

(٢) روضة الكافي عن ابي حمزة قال سمعت ابا عبد الله (ع) يقول لرجل من الشيعة انتم الطيبون ونسائكم الطيبات كل مؤمنة حوراء عينا ..

الألت : النقص - من أعمالهم وليس من جزائهم ؟ وما هو دور « كل امرئ بما كسب رهين » هنا ؟ .

الذرية في الأصل من الذر: الصغير ومنهم صغار الأولاد والأهل ، فهم الأتباع - أيأ كانوا ، بطبيعة الحال - لمن يعولهم ويربهم ويدير شؤونهم ، فيتبعونه فيها ، وكذلك في الإيمان أو الكفر ، وإذا نتوسع في معناها نعممها لكافة الأتباع : من بنين وأهلين وآباء وأمهات وسواهم ، أقارب وشعوباً ما هم أتباع ، وكما يعبر عنهم الرسول ﷺ بالرعية : « ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته » .

فالذرية مضمّن فيها معنى الضعف والقصور ، ولو أحياناً : « أو تقولوا إنما أشرك آباءنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم » ( ٧ : ١٧٣ ) مهما كانوا كبار في الأعمار ، أو لم يكونوا من أولاد رعائهم ، وأخرى تتحلل عن ذلك متمحضة في التنسل فحسب ، فقد تفوق الآباء والجدود ، كما النبيون على آبائهم غير النبيين ، أو من هم دونهم في النبوة ، وكخاتم النبيين على بني الإنسان كافة ، إلا أن ذلك بدليل ، كما وأن الضعف والقصور في المكانة والاستعداد يعرف بدليل كما هنا .

فالذرية هنا من القبيل الأخير ، بدليل اتباعهم رعائهم الأصول بإيمان ، فهنا مؤمنون متفوقون في الايمان ، وآخرون يتبعونهم من ذريتهم بإيمان ، فلو كانوا كأبائهم أو فوقهم لم يكن لاتباعهم لهم من معنى ! كما وأن في الحاقهم بهم في ثواب الايمان ، أو حكمه ، أو درجاته : مكاناً أو مكانة ، ان في ذلك دلالة ثانية على قصورهم عنهم ، وإلا فلماذا الحاق ؟ لو أنهم كأبائهم أصلاء في الإيمان ، فليكونوا في ثواب الايمان ودرجاته أيضاً أصلاء .

ثم اتباعهم بإيمان ، إنه - ولا بد - من فعلهم ، مهما ساعدته توجيهات من المتبوعين ، كما يوحيه الإتياع ، فهنا شروط مثلثة تتجاوب في إيمان الذرية الأتباع : توجيهات من الأصول تهيب ، ظُروف الإتياع وأجواءها ، ومحاولات من الفروع استجابة لأصولها ، وتوفيقات من الله تربط بين الضلعين ليكمل مثلث

## الهداية الايمانية .

ولماذا « بايمان » منكرآ ، وليس « بالايمن » معرفآ ؟ لأن الايمان في أية درجة كان يبرر ذلك الإلحاق ، فالمعرف منه يوحي أنه كإيمان الأصول ، إذا فلا معنى للإلحاق لأنهما على سواء ، فإيمان مصيره الجنة ، مهما خالطه ما يُستحق به النار ، إنه يلحق صاحبه بالأصول على أية حال ، رأى صاحبه النار أم ما رآها .

ثم الاتباع الايماني ينفي ما عداه من الإتباعات والإنطباعات ، أية انطباعات وأية اتباعات ، اللهم إلا الايمانية فحسب .

إذا فهؤلاء الذرية هم المكلفون المؤمنون ، دون القصر ولا الكافرون ، إذ لا اتباع لهؤلاء ولا هؤلاء بإيمان ، فالقصر غير مكلفين ، فلا يطلب منهم إيمان ، ولا يتأتى منهم اتباع بإيمان ، الذي هو فعل اختياري من الذرية : « واتبعتهم ذريتهم بإيمان » وأما الايمان الفطري والتشريعي فهما من فعل الخالق المشرع دون المخلوق المتشرع ، فماذا تكون إذا حال القصر من أولاد المؤمنين وأولاد الكافرين ؟ انتظر الجواب في اخريات البحث .

وأما الإلحاق ، فهل يشمل الآخرة والأولى جزاء في الآخرة وحكما في الأولى ؟ علته يشمل حيث تتعمله الآية ، ولا سيما بإيجاء الماضية : « الحقنسا » ولكننا الاخرى هي الأولى ، إستيعاء من رهانة النفوس بأعمالها ، إذ لا تظهر تماما في الدنيا .

وأما عن مدى ذلك الإلحاق في الآخرة ؟ فقد يتحقق بكافة الدرجات في جنات المعرفة والرضوان بسائر المكائنات ، فضلا عن الأمكنة والماديات ، وهذا بخصوص بالآباء والذريات القريبي الدرجات كما بين الرسول الأقدس محمد ﷺ وذريته الأئمة الأوصياء<sup>(١)</sup> فلأنهم قلوب واحدة بقوالب عدة ، دون اختلاف في الدرجات ،

(١) الكافي عن أبي عبد الله (ع) في الآية قال : الذين آمنوا النبي (ص) وأمير المؤمنين (ع) وذريته الأئمة الأوصياء (ع) « الحقن بهم » ولم تنقص ذريتهم الحجة التي جاء بهم محمد (ص) في



اللهم إلا في كرامة الوحي الخاصة به ﷺ دونهم (ع) ، وإلا فـ أولنا محمد - آخرنا محمد - أو سطنا محمد؛ وكلنا محمد ، وكما توحى آية التطهير واضرابها ، وفيما تكون الدرجات بين الآباء والذريات شاسعة بعيدة ، فالمتيقن من هذا اللاحق ، هو الحظوظ المادية ، او ومعنوية أحياناً حسب متطلبات الآباء ، فاللحق إذا يشمل قسميه ، طالما التسوية المطلقة بمفردها لا تناسبه فانها ليست لحوقاً ، وانما بمناسبة الجمع ، الذي تبرره الاكثية الساحقة من غير المسوين تماماً .

وكيف تلحق الذريات بالآباء وهم أتباعهم ودونهم في الايمان ، أليس يقتضي ذلك اللاحق نقصاً من اعمال الآباء ليزيد في اعمال الذرية حتى يستحقوا التسوية باللاحق ؟ وهذا ظلم بالآباء ! وزيادة للذرية دون عمل ! حتى ولو زيد في أعمالهم دون نقص عن الآباء ، ومظنة الألت هذا يقتضي سلباً وإيجاباً في الجواب : فلباً « وما التناهم من عملهم من شيء » : نلحق بهم ذريتهم دون ان ننقص من اعمالهم شيئاً ، وكما عن النبي ﷺ قوله : « وما نقصنا الآباء بما اعطينا البنين »<sup>(١)</sup> وإيجاباً : « كل امرئ بما كسب رهين » فقد تختص رهانة النفوس بطالحات الاعمال دون

⇒

علي (ع) وحجتهم واحدة وطاعتهم واحدة .  
البرهان ٤ : ٢٤١ محمد بن العباس مسنداً الى علي بن زيد قال عبد الله بن عمر كنا نفاضل فنقول عمر وابو بكر وعثمان ، ويقول قائلهم فلان وفلان ، فقال رجل يا أبا عبد الرحمن فعلي (ع) فقال : على من أهل بيت لا يقاس بهم احد من الناس على مع النبي في درجته ثم استدل بهذه الآية وفيه عنه بإسناده المتصل عن ابن عباس في الآية قال : نزلت في النبي (ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع) .

وفيه الشيعة في أماليه بسند متصل عن محمد بن مسلم قال سمعت ابا جعفر وجعفر بسن محمد (ع) يقولان : ان الله اعرض الحسين (ع) من قتلته ان جعل الامامة في ذريته والشفاء في تربته واجابة الدعاء عند قبره ولا تعد ايام زائريه جائياً وراجعاً من عمره ، قال قلت لأبسي عبد الله (ع) : هذه الحلال ينال بالحسين فيما له في نفسه؟ قال : ان الله تعالى الحقه بالنبي (ص) فكان معه في درجته ومنزلته ثم تلى (ع) هذه الآية .

(١) الدر المنثور ٦ : ١١٩ - أخرجه البزار وابن مردويه عن ابن عباس رفعه إلى النبي (ص) .

صالحاتها ، كما توحىه الرهانة نفسها فانها القيد والحصر ، وكذلك آيتها الأخرى : « كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين » ( ٣٨ : ٧٤ ) فانهم لا يرهنون ان لم تبق لهم سيئات ، بين ما لم يقرّفوها وما كفروا عنها ، فنفوسهم ليست رهينة طالحات وسجينتها .

وقد تدل رهانة النفوس بأعمالها انها باقية معها ، وكما تدل عليه « وما التناهم من عملهم » دون « من ثوابهم » فامكانية النقص من العمل ليست الا ببقاء العمل ، اذا فالمستفاد من هذه الضابطة : ان السيئات هي الرهانة لأصحابها ، تقدر عقوبتها بقدرها ، او ويعفى عن بعضها في ظروفها ، واما الحسنات فهي لا ترهن وتفيد أصحابها بقدرها ، فان الثواب دوماً يزيد على الطاعة ، في اصلها إذ لا تحقق جزاء إلا بفضل من الله ، وفي قدرها فـ « من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها » ( ٦ : ١٦٠ ) ثم هناك مزيد عند الله بغير حساب « ولدينا مزيد » ان الله يرزق من يشاء بغير حساب !

فآية الرهانة حين ترهن وتأسر السيئات بقدرها في العقوبات عدلاً او باقل منها فضلاً ، فهي تحرر الحسنات عن حدودها في الثواب ، كما في كافة المؤمنين ، بل وتحرر الثواب كذلك عن قيد الحسنات فيما لم تكن سيئات ولا حسنات كاطفال المؤمنين والكفار ، وكذلك فيما كانت سيئات مكفرة وحسنات لا تستحق إلا قدرها من الثواب الفضل ، كدخول الذرية التابعين بإيمان ، الجنة ، ثم الحاقهم بآبائهم في درجاتهم او بعضها فانهم يستحقونها اذ لم يعملوا لها ولكن الله يلحقهم بالآباء تقريراً لعيونهم<sup>(١)</sup> ، رغم ان الذرية انفسهم لا يستحقونها لا عدلاً ولا فضلاً ، فاذا يلحقهم الله بآباءهم ، ليس ذلك إلا اكراماً للآباء حيث تقرر عيونهم ، فتقدر

(١) الدر المنثور ٦ : ١١٩ — اخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس ان النبي (ص) قال : اذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وذريته وولده فيقال : انهم لم يبلغوا درجاتك وعملك فيقول : يا رب ! قد عملت لي ولهم فيؤمر بالحاقهم وقرء الآية . وفي معناه ، رواد في الكافي عن أبي عبد الله (ع) في الآية قال : قصرت الأبناء عن عمل الآباء فالحقوا الأبناء بالآباء لتقر بذلك أعينهم .

— اذاً — درجات الالحاق هذا بما تقر به عيونهم ، دون ان يألئهم وينقصهم من اعمالهم من شيء ، فكما زاد في ثوابهم ان رفعهم درجات فوق اعمالهم ، كذلك يزيدهم ان يقر عيونهم بالحاق ذرياتهم المؤمنين بهم ، وهذا لا يتنافى والجزاء العدل ، فانه طرف من تكريم الآباء .

ومن وجهة اخرى ان الذريات التي اقرت عيون الآباء ، أن اتبعتم بايمان ، كذلك تقر عيونهم بهذا الالحاق ، فضلاً من الله واحساناً ، دون قوضى لا في العدل ولا في الفضل ، فانه نتيجة عمل ثنائي : منهم اذ بيعضوا باتباعهم الآباء عيونهم وبآبائهم إذ انهم من عملهم ولادة وتربية ، وأن ذلك مما يشاؤنه والجنة : « لهم فيها ما يشاءون ولدينامزيد » .

صحيح ان الذرية ما عملوا كما عمل الآباء ، إلا ان في حقوقهم جزاء على عمل الآباء ، فلا ظلم على الآباء في ذلك بل هو فضل ، ولا فوضى في الفضل على الذرية إذ ليس إلا مغبة تقرير عيون الآباء ، طالما القوضى وخلاف العدل في إلحاق غير الذرية الى هؤلاء في درجاتهم او بعضها ، فانهم لا يستحقونها ولا فضلاً ، وهذه التسوية خلاف العدل اذ لا تقرير لعيون المسوى بهم .

لذلك — وفي توسع من معنى الذرية او حكمها — بإمكاننا أن نتخطى الأولاد والأهلين الى كل التابعين لرعاتهم بايمان ، ما كان في إلحاقهم بهم تقرير لأعينهم ، وإن كانوا آباءهم التابعين لهم بايمان وامثالهم من الأقارب غير الأولاد وكما يروى عن الرسول ﷺ (١) ام وغير الأقارب كما في كل مأموم لإمامه ، هذا ، وكما يتضمنهم دعاء الملائكة للمؤمنين الأصول : « ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم انك انت العزيز الحكيم » ( ٤٠ : ٨ ) .

(١) الدر المنثور ٦ : ١١٩ وقد سبق قوله (ص) هنا : اذا دخل الرجل الجنة سأل عمن ابويه وذريته وولده فيقال : انهم لم يبلقوا درجاتك وعملك ، فيقول يا رب قد عملت لي ولهم فيؤمر بالعاقم به وقرء الآية .

ثم وفي وجه آخر لآية الرهانة : ان يشمل الرهن فيها صالح الاعمال ايضاً .  
نقول ان الذرية وان لم تعمل ما يؤهلها لهذا الإلحاق ، إلا انهم في اتباع الايمان  
من مكاسب الآباء ولو في زاوية من مثلث الإهتمام ، وان الآباء عملوا لهم كما  
عملوا لأنفسهم ، وعلى حد المروي عن الرسول الاقدس ﷺ (١) فكما للانسان  
ان يعمل لنفسه ، كذلك له ان يعمل لمن هو كنفه ان ساعدت ظروفه ، واتبعه  
بايمان كما تقدم حسنات للأموات مها كانوا غير مخصوصين بالعاملين ، وإن لا  
يصلهم الا بعض ما يقدم لهم ، فكذلك وبإحدى للذريات ، وإن لا يصلون  
بذلك درجة الآباء ، فهم بحاجة الى الإلحاق ، فضلاً من الله واحساناً ثم ولا  
ينقص من اعمال الآباء شيء لانها باقية معهم دون مزايلة ، وهم مرهونون بها  
دون فكائك ، فكيف ينقص منها ؟ بل ويزاد عليها حسنات فسواء اختصت  
الرهانة بالسيئات ، او عمت الحسنات ، فالتابعون لآبائهم بايمان يلحقون بهم  
باحسان دون نقص من اعمالهم شيئاً ، ودون منافات لرهانة الاعمال ايأ كانت .  
واخيراً ما هو دور القصر من اولاد المسلمين ، صفاراً ومجانين ، وكذلك هما  
من الكافرين ؟ .. نقول : ان الذراري القصر المسلمين ، وان لا يشملهم صدر آية  
الذرية ، إذ اختصت بالمكلفين ، إلا أنهم مشمولون لذيلها : « كل امرئ بما  
كسب رهين » في الوجه الاول ، كما يشمل القصر من الكافرين وان كان بينهما  
فرق بان في ادخال الاولين الجنة تقريراً لعيون آباءهم دون الآخرين ، فالعقاب  
والعقاب فقط لزامة السيئة ، واما الثواب فلا يتطلب حسنة ولا سيما بمن  
لا تتأتى منه ولا تأتي من راعيه ، فاولاد المؤمنين يدخلون الجنة وكما يروى عن  
الرسول ﷺ والأئمة من آله (ع) (١) وعل مصير اولاد الكفار ومجانينهم خطيرة  
بين الجنة والنار اذ لا طاعة لهم ولا عصيان ولا رهانة خيرة لآبائهم حتى يدخلوا  
الجنة تقريراً لعيونهم ولا شريرة لكي تدخلهم النار ، وليس بذلك البعيد من

(١) في المجمع روى زاذان عن علي (ع) قال : قال رسول الله (ص) : ان المؤمنين واولادهم  
في الجنة ، وروى عن الصادق (ع) قال : أطفال المؤمنين يهدون الى آباءهم يوم القيامة.

رحمة الله ان يدخلهم ايضاً الجنة ولكن أدنى من قصر المسلمين.

وهناك رواية يتيمة تؤجج النار للقصار ايا كانوا امتحاناً لهم هل هم مؤمنون فيدخلوا الجنة ، ام كافرون فيدخلوا النار امتحاناً<sup>(١)</sup> ولكنها لا مصير لها إلا النار ! .

فهنأ نتساءل مختلفي هذه اليتيمة المخالفة للكتاب والسنة : أليس من الضروري انقضاء التكليف بالموت ؟ فكيف يتكلف الأطفال بعد الموت وهم قصر بهذا التكليف العضال ، الذي قلما يكلف به المكلفون الأقوياء : أن يدخلوا النار ! . ثم وما بال البعض منهم يعصون ، والقيامة يوم ظهور الحقائق دون استثناء ، ولو للكفار الذين عاشوا حياتهم كفرآ وعصياناً ، فهم يرجون هناك أن لو نفعهم ايمانهم فيؤمنوا : « فلم يك ينفعهم ايمانهم لما راوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده » ( ٤٠ : ٨٥ ) ، فكيف يعصى هؤلاء الصغار وهم أعرف بالحقائق هناك من الكفار ، لصفاتهم وعدم كفرهم ؟ أم وإذا خالفوا أمر دخول النار كيف يستحقون به النار ؟ ألأنهم عصوا الله مشافهة ؟ فهو إلحاد في الله انه يشافه ولا تدركه الابصار ! ام عصوه إذ أغروا يحلهم فهم اذا معذرون ، والاغراء بالجهل واستغاله ظلم سبعان العزيز الجبار ، او انه من المعاصي الصغار ، لو تأتي العصيان من الصغار ، فكيف يحكم عليهم بدخول النار ؟ او يحكم لمن اطاع منهم هناك وآمن بدخول الجنة خلافاً لسنة الله التي قد خلت في عباده : ان الايمان عند رؤية البأس لا ينفع !

إذا فلا مرد لهذه اليتيمة إلا النار ، ولكي نرحل القصر المبطلين بها من النار ،

(١) نور الثقلين ٥ : ١٣٩ عن الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن غير واحد رفعوه انه سئل عن الاطفال فقال : اذا كانت يوم القيامة جمعهم الله وأجج لهم نارا وأمرهم أن يطرحوا أنفسهم فيها فمن كان في علم الله انه سعيد رمي بنفسه فيها وكانت عليه برداً وسلاماً ومن كان في علمه انه شقي امتنع فيأمر الله بهم الى النار ، فيقولون يا ربنا ! تأمر بنا الى النار ولم تجر علينا القلم ؟ فيقول الجبار : قد امرتكم مشافهة فلم تطيعون فكيف لو اوسلت رسولي بالغيب .

كما هو مرد كل ما يخالف الكتاب والسنة منها كثرت روايته وكبرت روايته فضلاً عن هذه الوحيدة الهزيلة ، المرفوعة الشاذة الدليلة ، المتناقضة في نفسها ، رغم انها رائجة في أسواق تجار الإسلام المفترى عليه .

ومثلها يتيمة أخرى تفصل بين اولاد المؤمنين - فالى الجنة وبين اولاد الكفار - فالى النار ! (١) .

وهذا التفسير يتصدى لأمثالها من المخلقات الزور الغرور ، فانه لها بالمرصاد .

« وامددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غمامان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ،

ان المتقين والمؤمنين - بعد هذه المكرمات - يمددهم ربهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، وهما من أفخر وألذ المأكول ، مما يتطلب كأساً مثلها ، وإذا هم يتعاطونها بما فيها من خمر ، لكنها ليست كخمر الدنيا إلا في اسمها اذ لا لغو فيها ولا تأثيم ، لا في الجنة ككل ، ولا في الكأس ، ولا في خمرها ، لغو القول ولا لغو الفعل ، وكذلك التأثيم ، طالما هما في الدنيا وكأسها وخمرها من سكر فعبدة وهذر وهدر وايداء واستئذاء وهتك للحرمت وكل لغو وتأثيم ، ولكنهم في الجنة يتعاطونها ويتجاذبون متلاعبين متفكهين بلا اي لغو او تأثيم ، كمتنازعين وليسوا متنازعين .

وكما انها فيها ليست خمرأ تخمر العقل فتخلف كل لغو وتأثيم ، وانما التنازع

(١) تفسير روح البيان ج ٩ ص ١٩٣ نقلاً عن عين المعاني : سألت خديجة (رض) رسول الله (ص) عن ولدين لها ماتا في الجاهلية ، فقال (ص) هما في النار ، فكرهت فقال (ص) لسو رأيت مكانها لأبغضتها ، قالت : فالذي منك ؟ قال (ص) : في الجنة ، ان المؤمنين واولادهم في الجنة وان المشركين واولادهم في النار .

ومثلها ما في الدر المنثور ٦ : ١١٩ - أخرجها عبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن علي (ع) قال قال رسول الله (ص) : ان المؤمنين واولادهم في الجنة وان المشركين واولادهم في النار ثم قرأ الآية .

هنا تلاعب ، زيادة في الإيناس ولذة النعيم<sup>(١)</sup> ثم ويزيدهم لذة تطواف غلمان لهم ، قد يكونون من ذريتهم القصر الملحقين بهم ، أم سواهم المختصين لهم في الظرافة والصفاة « كأنهم لؤلؤ مكنون » : محفوظ ، فكما اللؤلؤ المكنون في كنه الصدفى أو الذهبى والفضى أم سواها ، باق على نظافته وطراوته ، كذلك هؤلاء الغلمان ، فهم على ما خلقهم الله في اكنان تصونهم عن اي عيب او ظنة ، .. ترى اذا كان الغلمان الخدم كاللؤلؤ المكنون فكيف بالخدم ؟ هنا يحيب الرسول ﷺ : « والذي نفسي بيده ان فضل ما بينها كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم<sup>(٢)</sup> . ولكي يتصارحوا ونسمعهم بوحى القرآن ، لماذا ألحقت بهم ذريتهم وغلمان لهم ؟ واستكمالاً لأنفسهم بأهلهم :

« وأقبل بعضهم على بعض يتسألون ، قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ، يوحى الجواب ان اتساءل لا يخص اسباب دخولهم الجنة ، بل ولحوق ذريتهم بهم وهم يعملوا عملهم ، فمؤلاء المؤمنون الأصول كانوا في مثلث من دوافع هكذا رحمة : « .. كنا .. مشفقين ، و « في أهلنا » و « كنا ندعوه » وهذه هي جذور الايمان .

فالاشفاق من الشفق : اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند الغروب ، فهو عناية مختلطة بخوف ، طامس المعدى منه بمن اظهر في الخوف ، وبفي اظهر في العناية ، وبالباء خاص بالشفقة .

إلا أن « مشفقين » هنا لم يعد بشيء فهو يوحى بحالة لهم بين الخوف والرجاء ، خوفاً من أعمالهم ، ورجاء بآمالهم في رحمة الله ، اشفاقاً من الله « ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون » ( ٢٣ : ٥٧ ) من عذاب الله : « والذين هم من عذاب

(١) راجع ج ٣٠ للفرقان ص ٢٢٦ « بين خمر الدنيا والآخرة » .

(٢) الدر المنثور ٦ : ١١٩ - اخوج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في

الآية قال : بلغني انه قيل يا رسول الله (ص) هذا الخدم مثل اللؤلؤ فكيف بالخدم ؟ قال : ...

ربهم مشفقون ، ( ٧٠ : ٢٧ ) واشفاقاً في رحمة الله واشفاقاً بأهلهم ، اذ كانوا يرعونهم ويحافظون عليهم بشفقة ، فقد كانوا غرقى في مثلث الاشفاق : من الله ، وفي الله ، وبأهلهم وهم فيهم ! .

واذا كان هذا الاشفاق في كافة الحالات وكما تقتضيه « كنا » الدالة على دوام كما ويشكرهم الله على هذا الدوام : « وكانوا مني على كل حال مشفقين » (١) في الخلوات والجلوات ، بين الاغارب والاهلين ، كان - اذاً - كاملاً للمشفق ، ومكماً لمن فيهم يشفق وبهم ، اذ عاشوا كذلك وفي أهلهم ، حيث الأمان الخادع ولكنهم لم ينخدعوا ، وحيث المشغلة الملهمية ، ولكنهم لم يلتفتوا وينشغلوا ، وهم بذلك الصمود في صبغة الايمان احوالوا حول أهلهم بهالة مشرقة من الايمان ، وحوالوا بينهم وبين اللأيمان ، فان حالة الرعاة تؤثر في الرعية على أية حال ، وبذلك فذريتهم اتبعتهم بايمان ، فحق لهم ان يلحق بهم ذريتهم دون ان يؤلت من اعمالهم من شيء ، ف « كل امرئ بما كسب رهين » .

والزاوية الثالثة لمثلث الايمان ، انهم لم يكتفوا باشفاقهم في أهلهم « بل وكانوا يدعون الله ويلتمسون من بره ورحمته : « انا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم » والدعاء « بخ العباد » .

فلم يفدهم إلا ما قدموه من قبل - « كنا قبل » « كنا من قبل » - ، واما بعد فوات الاوان بوفاة الانسان فلا موقع لايمان ، ولات حين مناص ، اذ فات أوان الخلاص .

(١) نور الثقلين ٥ : ١٤٢ في كتاب سعد السعود لابن طاووس نقلاً عن مختصر كتاب محمد ابن العباس بن مروان باسناده الى جعفر بن محمد (ع) عن ابيه عن آبائه عن امين المؤمنين (ع) عن النبي (ص) في حديث طويل يذكر فيه شيعة علي (ع) ودخولهم في الجنة - الى قوله (ص) عن الله - « فمرحباً بعبادى الذين حفظوا وصيتي في اهل بيت نبيي ورعوا حقي وخافوني بالقيس وكانوا مني على كل حال مشفقين » .



هناك يصف أمير المؤمنين علي (ع) حالهم في الله وابتهاهم الى الله : « اما والله لقد عهدت اقواماً على عهد خليلي رسول الله ﷺ وأنهم ليصبحون ويمسون شعناء غبراء خمضاء ، بين اعينهم كركب المعزاء يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، يراوحون بين اقدامهم وجباههم ، يناجون ربهم ويسألونه ، والله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون » (١) .

\*\*\*

« فَذَكَرْتُ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ — ٢٩ .  
أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ — ٣٠ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ — ٣١ . أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَهْلَائِهِمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ — ٣٢ . أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ — ٣٣ . فَلْيَاثُبُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ — ٣٤ . أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ — ٣٥ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ — ٣٦ . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ — ٣٧ . أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ — ٣٨ . أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ — ٣٩ . أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ

(١) نور الثقلين ٥ : ١٤١ عن اصول الكافي بإسناده الى معروف بن خربوذ عن ابي جعفر (ع) قال : صلى امير المؤمنين بالناس الصبح بالعراق فلما انصرف وعظم فبكى وأبكاهاهم من خوف الله عز وجل ثم قال : ...

مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ - ٤٠ . أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ - ٤١ .  
 أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ - ٤٢ .  
 أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ - ٤٣ . وَإِنْ يَرَوْا  
 كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ - ٤٤ .  
 فَذَرُهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ - ٤٥ . يَوْمَ  
 لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ - ٤٦ . وَإِنَّ  
 لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ  
 لَا يَعْلَمُونَ - ٤٧ . وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا  
 وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ مَرَّةً مِّنْ قَبْلِ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ  
 وَإِدْبَارَ النُّجُومِ - ٤٩ .

\*\*\*

هذه الآيات ، سريعة الإيقاعات ، تطارد المتطاولين على أم الرسائل في  
 تحديات قوية ، واحتجاجات عقلية وواقعية ، لا يثبت لها الإنسان أيتا كان ،  
 فلا طريق له الا الإيمان أو يسامح عن عقله .

إنها تستعرض ستة عشر أمراً ، بين ما يرجع إلى النبي ﷺ تشبيهاً له ، أو  
 دفاعاً عنه ، لولاها لانتفت صلاحيته للرسالة<sup>(١)</sup> وما يرجع إلى المكذبين أنفسهم<sup>(٢)</sup>

(١) كتهمة الكهانة والجنون والشعر والتقول على الله وسؤال الاجر على الرسالة .

(٢) ككونهم خالفين أو خلقوا من غير شيء ، ام عندهم الغيب ، ام ان لهم إلها غير الله ام . .

فتزيح كافة أعذار العصيان من البين ، عن الرسول كمتبوع ، وعنهم كأتباع ، ليبقى المكذبون به مدحّضين .

« فذكر فيما أنت بمنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ،

عليك التذكير ما نفع ، وإن كان كحجة قاطعة العذر على الشاردين ، مهما تقولوا عليك بتهمة الكهانة أو الجنون <sup>(١)</sup> فلا يثنيك عن واجب التذكير فريتهم الحمقاء السوء التي ترجع إليهم بكل فضيحة وتبوء .

تري أن نعمة الوحي الرباني المحمدي ، وهي أنعم النعم الروحانية ، اللاتمة من أقواله وأفعاله ، هل إنها تسبب الكهانة أو الجنون ، أو تصاحبها <sup>(٢)</sup> ؟ إذا فنقمة الوحي الشيطاني الواضحة في المفترين هي التي تعارضهما وتفاصلهما ؟ فما أجن وأكهن هؤلاء الحماقى ، فإذا لا يجدون مناصاً عن حجته البالغة ، يتهمونهم بالكهانة والجنون ، اللذين يطاردهما بالوحي الجنون ، وإن العجب ليأخذ كل من درس شيئاً عن سيرة الرسول ﷺ من تقوّلهم هذا ، وهم الذين عرفوه برجاحة العقل والأمانة بينهم حتى لقبوه بمحمد الأمين ، ثم إذ بعث بما لا يلائم شهواتهم وحرّياتهم اتهموه وبهتوه .

والفرق بين الكهانة والجنون ، أن الثاني فقدان العقل فلا تنضبط أفكاره وتصرفاته ، والأول الإخبار بالأخبار الحفية الماضية والمستقبلية بضرب من الظن ، الصادرة عن الشياطين المسترقين السمع المرجومين ويُعرفان بمناقضة كل مع نفسه ، ومع الواقع والعقل ، فأين المناقضة من هذه وتلك في مقالات الرسول ﷺ وأفعاله لكي يستحق تهمة الكهانة أو الجنون ؟!

« أم يقولون شاعر فتربص به ريب المنون » : شاعر لا يخلص منه إلا أن نتربص به اضطراب الموت ، فإنما بموته ، وبموته فقط ، يموت ذكره ، وموت

(١) راجع سورة القلم ص ٥٩ ج ٢٩ من الفرقان .

(٢) الباء هنا محتمل الوجهين : السببية والمصاحبة ، بسبب النعمة أو مصاحبته .

دعوته ، فالمنون من المن : النقص ، يعبر به عن المنية : الموت ، لأنها تنقص العدد وتقطع المدد .

ترى كيف لا يشعرون - وهم من مواليد الشعر - ان الشعر له وزن خاص ، وليس القرآن مثله ، وانه يخلط الغث بالسمين والقرآن كله سمين ، وانه في أزواجية التناقض ، مع نفسه والواقع ، ولا تناقض في القرآن ، وان لكل شعر دوراً ودور القرآن مدار الزمن ما طلعت الشمس وغربت ، فأخسر كيدهم أن يتربصوا به اضطراب الموت ، ولكي يختلقوا لأنفسهم عذراً رديحاً من الزمن ، ولكن ترى من هو الناجح بموت الرسول ﷺ ؟ :

وقد يعني « ريب المنون » حوادث الدهر ، أن يتربصوا به لتأخذه كوارثه القاصمة ، وحوادثه الحاسمة ، لكي يتخلى عن دعواه ، أو تأخذه نكبة دعوته بما تنهافت كل دعوة باطلة ، وتتساقط على مدعيه فاضحة إياه ، أو يلاحقه من يتربص به الدوائر ، بما عندهم من أساليب تسقطه عن مكانته ، وتفضحه في ذرته ، أم ماذا ؟ .

« قل تربصوا » ولكي يفتضحوا هم وهو غالب الحجة « فإنني معكم من المتربصين » ولكي تستبين لكم سبيل المجرمين ، فلا يزدادكم التربص إلا حسرة ، ولا يزداده إلا نمواً وكثرة .

« قل تربصوا فاني معكم من المتربصين » فسوف تعلمون أن بموتي لا تموت دعوتي ، ولا ينتهي دور شعري ! فانما يبقى ما بقي الدهر وكما قال وحيد كسم بعدما فكر وقدر : « انه سحر يؤثر » : يبقى ولا يزول ، مما يدل أنه لا سحر ولا شعر ! ألا فتربصوا ، فستعلمون من تكون له عاقبة الأمور ، ومن ينتهي به التربص إلى النصر والظهور ؟ . هذا هو القرآن اللامع ، والتبيان الصادع ، الذي لا يزداده مرور الدهور إلا زيادة النور والبهور .

« أم تأمرهم أحادهم بهذا أم هم قوم طاغون » : تبكيت لهم وازراء

عليهم ، ماذا الذي يدفعهم إلى هذه الأقاويل الزور : انه كاهن أو مجنون أو شاعر أم ماذا ؟ هل هو أحلامهم ؟ : عقولهم الحكيمة كما يدعون ؟ وقد علموا بعده عنها ومباينته لها ! وأي عاقل يرمي معدن العقل وبحبوحته بالجنون ؟ فما هذا أمر الأحلام ، وإنما أمر الجنون !.

أم أن الأحلام هنا تعني رؤيا المنام ، فأحلام العقل لا تأمرهم بهذا وإنما أضغاث أحلام ، التي يحكم ضعفاء عقول الأحلام.

أم لا هذا ولا ذاك ؟ بل هم قوم طاغون ، : على عقولهم لو كانت لهم عقول ، وطاغون على الله ، وعلى رسالات الله ، ولكي يتحللوا عما يأسرهم عن البريات والحريات في الشهوات ، تساحاً عن عقولهم ، وسماحاً لشهواتهم .

« أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون » : - « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا عنه الوتين . فمما منكم من أحد عنه عاجزين » ( ٦٩ : ٤٧ ) .

والتقول هو تكلف القول الكذب المخلوق ، والقرآن بنفسه في مربع حصين يدل على وحيه الصادق الأمين :

١ - عدم الاختلاف فيه . لا مع بعض في أي من الجهات ، ولا مع العقل أو الواقع ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، ( ٤ : ٨٢ ) .

٢ - وترى لو كان هذا القرآن من عند غير الله ، فمما هي إذا صفة قول الله ، التي يفقدها القرآن ؟ ما هي إلامة الرصانة والمتانة المتواجدة في القرآن !.

٣ - ثم ولو أمكن القول فيه ، فما الله لا يأخذ من عهد باليمين ، ولا يقطع عنه الوتين ، ذوداً عن كرامته ، ودفعاً عن فريته ، بل وزوده فيه وفي قرآنه بأقوى المعجزات وأخدها ! إذا فما هو تقول « بل لا يؤمنون » !.

٤ - وأخيراً لو كان تقولا من كاهن شاعر مجنون ، فأتوا أتمم العقلاء الشعراء النبلاء بمثله :

« فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » - : « أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » ( ١١ : ١٣ ) أو « بسورة مثله » ( ١٠ : ٣٨ ) وأقلها ثلاث آيات كالكوثر ، فكيف بالقرآن كله : « قل لمن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » ( ١٧ : ٨٨ ) .

« لا يأتون بمثله » ، لا صدفه أو لعدم المحاولة ، وانما الاستحالة فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فانتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » ( ٢ : ٢٤ ) .

ان في القرآن سرا إلهياً يدركه كل من يواجه نصوصه بصفاء ورواع، متحللاً عن سلطان التعصب ، ثم يزيده مهما زاد تعمقه وتأنقه ، ميزة في سبك الألفاظ وسكب العبارات وحتى في موسيقاها ، فضلاً عن معانيها وملاعها التي تأخذ من القلوب شغافها ، ومن الألباب أعماقها ، ومن الحواس البابها . وهو يخاطب العقول والفطر بأسلوب لا يعمد بين البشر ( ١١ : ٢١ ) .

فلو كان هذا القرآن من مفتر شاعر كاهن مجنون فأتوا أنتم العقلاء وفيكم الشمرء البلغاء ، والكهنة الأذكياء ، والأدباء الأقوياء فأتوا بمثله ولماذا لا تأتون ! وإذا أنتم عاجزون صاغرون ، فلماذا لا تؤمنون ؟ « فبأي حديث بعده يؤمنون » ( ٧ : ١٨٥ ) « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » ( ٦٨ : ٤٤ ) .

ومن ثم لم يبق مناص الا الإيمان به ، أو تكذيبه ككلام الله ، فالتكذيب باق ، أو نكران توحيد الله أو وجوده ، وإذا كان هذا دائنكم فإليكم دوائكم :

( ١ ) راجع بحث الاعجاز في سورة البقرة تجد فيها قولاً فصلاً عن اعجاز القرآن ، وكذلك سورة الاسراء .

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون »

قد توحي « أم » هنا بحذف شيء مسبق ، هي بديل عنه ودليل عليه ك :  
 — أليسوا هم مخلوقين؟ « أم خلقوا .. » أسئلة تقريعية وتبكيكية هؤلاء الناكرين ،  
 وقد حولت الأجوبة إلى عقولهم حتى ولو ساءحوا عنها ، لأنها من أوضح  
 البديهيات ، وفي قمتها أنه مخلوق ، ولذلك لم يذكر في عداد المحتملات ، إذ لا  
 أحد — حتى ولو كان مجنوناً ، أو أصغر حشرة — ينكر كونه مخلوقاً ، مهما  
 غبي وطفى ! .

فهنا في بساط البحث عن الله يكفى الإنسان نفسه دليلاً ومصدراً ، تتدفق  
 عليه المحتملات المسرودة :

« أم خلقوا من غير شيء » من لا شيء ، مهما تسمى بصدفة عمياء أم ماذا ،  
 أم اللاشيء المطلق عن الاسماء ، فهل هناك شيء غيرك خالقك ؟ فهو الذي نسميه  
 الله ، أم لا شيء هناك إلا أثبت ، وسائر الخلق ، دون أي خالق ؟ : مخلوق بلا  
 خالق ! .

وفيما إذا سئلنا : إذا كان الخلق من غير شيء محالاً ، فكيف خلق الله الأشياء  
 من غير شيء ؟

والجواب : ان هنا خلطاً بين الشيء الخالق — هو شيء الأشياء ، وهو الذي  
 شيئاً الأشياء ، وبين الشيء المخلوق به ، ففرق بين الأشياء لو خلقت من غير شيء :  
 دون خالق ، أو من غير شيء : بخالق دون مخلوق به ، : من لا شيء ، ثم لا  
 نقول ، إنه خلق الأشياء من لا شيء ، بل لا من شيء ، فالمادة الأم خلقت لا من  
 شيء كان قبلها ، وإنما بإرادة الله الذي خلق كل شيء ، ثم وخلق التراكيب  
 التالية للمادة الأم ، خلقها منها ، وهو خلق من شيء .

فقد يكون هنا شيء ليس إلا هو ، وهو الله قبل أن يخلق أي شيء ، وقد

يكون شيئان ، فالشيء الأول الإله خلق الثاني لا من شيء ، لا من لا شيء ، وقد يكون ثالث خلقه الله من الشيء الثاني : المادة الأم ، كسائر التراكيب المخلوقة منها ، فالأشياء كلها مخلوقة من خالق ، خلقها لا من شيء ، أو من شيء ، لا من اللا شيء ، فإنه محال كما المخلوق بلا خالق .

فالله تعالى شيء لا كالأشياء ، خلق المادة الأم لا من شيء ، وخلق سائر الخلق من هذا الشيء ، وهذه كلها تختلف عن خلق الأشياء من غير شيء ، من لا شيء بمعنى ، حيث المخلوق بحاجة دائمة إلى الخالق ، ولا يمكن صدوره من مادة العدم .

« أم هم الخالقون ، بعدما ثبت ان لك خالقاً ، فهل أنت الخالق نفسك ، فلتكن كائنًا قبل كونك حتى تخلقه ، ولتكن غير كائن حين تخلق ، فأنت إذا كائن ولا كائن في حالة واحدة لكي تكون خالق نفسك !

هذه خطوات ثلاث إلى الله ، إنك مخلوق - إن لك خالقاً - إن خالقك غيرك ، ومن ثم إذ تعترف أن لك خالقاً غيرك ، فهل هو الخالق للسموات والأرض أم أنت ؟ :

« أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون » : - ؟ « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون » ( ٢٩ : ٦١ ) .

ثم يبقى أن الخالق للكون أجمع هل هو حكيم لطيف عليم ، أم جاهل غير حكيم ؟ والكون بنظامه البارع الموحد يدل على أن منظمه حكيم عليم : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ( ٦٧ : ١٤ ) : خطوات خمس من نفسك إلى الله تلجئك أن تمشي سوياً على صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات والأرض وإليه ترجعون ، فهل انكم بعد ذلك تكذبون ؟ !

« بل لا يوقنون » : لا يدقون أبواب الايقان ، ولا يحاولون الوصول إلى



الإيمان ، رغم توفر أدلة الإيمان والايقان ، فاليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية ، وهو سكون الفهم بعد ثبات الحكم ، فلقد ثبت الحكم بأدلته القاطعة على وجود الله ، ولكن لما يسكن الفهم بهذا الحكم ، ولما يحتاز العقل إلى القلب واللب ، فإدراك العقل شيء ويقين القلب شيء آخر ، هم بعاد عنه بما يستنفرون من حصوله ، ويعرقلون الطريق دون وصوله .

وإذ يثبت أن هناك ربا ولا بد له من وحي وخزائن رحمة فهم إذاً بسين طريقين ، ثانيهما :

« أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطنون » :

فخزائن الرب معنوية ومادية ، ليست إلا عنده ، دون خلقه وحتى المرسلين : « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله » ( ٥٠ : ٦ ) « والله خزائن السماوات والأرض ولكن المتفقيين لا يفقهون » ( ٦٣ : ٧ ) « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » ( ١٥ : ٢١ ) .

فإذا أنتم تتضايقون من الرسالة المحمدية وتضمنون بها هل أن خزائن رحمة الله عندكم حتى ترزقوا النبوة من تشاؤون ، وتحرموها من تشاؤون ، وتعزلوا عنها من تشاؤون : « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الانفاق » ( ١٧ : ١٠٠ ) « أم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا معيشتهم في الحياة الدنيا » ( ٤٣ : ٣٢ ) فكيف بالرسالة وهي الحياة العليا ؟! فمن ذا الذي يدعي أنه فوق النبيين ، ووكيل أو مثيل لرب العالمين ! ولا يشرك في حكمه أحداً ، إلا أن يدعوا أنهم الغالبون على الله ، يحتلون خزائنه بقوة :

« أم هم المصيطنون » : فهل من أحد تدعي السيطرة على سلطان الله ؟!

أن يصارعه فيصرعه فيأخذ ملكه ويتصرف فيه كما يشاء ! .

ومن ثم لا يبقى لهم الا دعوى الإستقلال في الوحي باستغلاله دون رسول :

« أم هم مسلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين »

هذه الآية تدلنا على إمكانية استماع الوحي عبر السلايم ، فضلاً عن استماع الأصوات البشرية البعيدة في سلايم ، فما هي الصلة بين السلم وبين الاستماع فيه ؟ والمعروف للسلم هو الصعود به إلى السطوح ، أو الاستماع عليه ، وأما التحدث به ، وأما الاستماع فيه ، فلم يك معروفاً مسبقاً ، حتى كشف العلم بعد جهود طائلة عن إمكانية الإذاعة والاستداعة عبر سلايم خاصة ، وكما هي الآن في دور الاذاعات الراديوية والتلفزيونية .

نقول : هذه الآية تحمل ملاحم غيبية كشف العلم عن بعضها اليوم ، وهو الإسماع والاستماع عبر الأثير بواسطة سلايم خاصة ، وعلم مما دفع مخترعي الإذاعات للكشف عنها وقد وفقوا لحد ما .

ومهما يتوصل الإنسان إلى اختراع سلايم يستمع فيها ، الآخذة للأصوات ، وإلى سلايم يُسمع ويذاع بها ، المرسلّة للأصوات ، فهو لن يتوصل إلى سلايم الوحي الرسالي ، النورانية الروحانية ، فإنها بيد الله ، يختص بها من يشاء ، ولا إلى سلايم الوحي غير الرسالي ، وإن كان الجن المؤمنون - وقبل الوحي الأخير - كان لهم مقاعد للسمع ، ولكن « من يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً » فلو كان استماع الوحي غير الرسالي من الملأ الأعلى ، بإمكان الإنسان قبل الآن أن الرسالة المحمدية - فليس هو بالامكان بعد هذا الآن وإلى انقراض الزمان . وهذه الآية تصرّخة التبكيت بنا كربي وحي القرآن ، وإشارة التأكيد بإمكانية اصطناع سلايم تستمع فيها أصوات بشرية أم ماذا ، دون تحميل ولا تأويل ، رغم من يفسرون « في » هنا بـ « على » ، علمهم بوجهون الآية إلى وجه مقبول ، حيث السلم للاستماع يرقى عليه حتى يستمع من على ، لا فيه .

وعلمهم اصطبروا حتى يأتي تفسير الآية علمياً وواقعياً كما أتى بسلايم الإذاعة والاستداعة ، فالقرآن بنفسه وجيه لا يحتاج إلى توجيه العقول والعلوم إلى حقائقه الرقائق « وإن للقرآن آيات متشابهات تفسرها الزمن » متشابهات علمية

كهذه أو عقلية كسواها ، أم ماذا (١) .

فيا لآية السلم - وبعد تطور العلم - من دلالة واضحة : ان القرآن ليس إلا من وحي الرحمان ، اذ لم يخطر بخلد أحد ، قبل اربعة عشر قرناً ، ان من السلايم ما يسمع فيه ويسمع به ، كما ان منها ما يرقى به الى السطوح .

... فاذا ليس عندهم خزائن الله ، فهم بحاجة الى استماع الوحي ، فهل لهم سلم يستذيعوا به ويسمعوا فيه الوحي ؟ « فليأت مستمعهم بسلطان مبين » فان سلطان الوحي مبين ، يظهر انه من الله ، فهل عندهم هكذا وحي كوحي القرآن؟ الذي يملك كل سلطان على أنه من عند الله ! .

ومن ثم يناقش البعض من تقولاتهم التافهة على الله ، اذ يفضلون عليه انفسهم فيما يفكرون :

« أم له البنات ولكم البنون » فرغم انهم كانوا يعتبرون البنات ادنى من البنين ، بل ولا اعتبار لهن عندهم في شيء فهم ينسبون الى الملائكة انهم اناث : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثاً » ( ٤٣ : ١٩ ) ثم جعلوهم بنات الله : « أفأصفاكم ربكم بالبنين وأتخذ من الملائكة اناثاً » ( ١٧ : ٤٠ ) في حين لهم بنون وبنات : « ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون » ( ١٦ : ٥٧ ) فهذه اهانة فوق اهانة : ان الله ولدأ - ايأ كان - وانه يصفي عباده بالبنين ، ويصطفي لنفسه بنات ، كما وان آخرين « خرقوا له بنين وبنات بغير علم » ( ٦ : ١٠٠ ) وان الجن هم البنون « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً » ( ٣٧ : ١٥٨ ) مهيا كان هذا أهون من ذاك ، واقل مهانة .

(١) انني اذكر اول لقاء برئيس الاشراف الديني بالمسجد الحرام وزير القضاء سماحة الشيخ عبد الله بن حميد بمكة المكرمة انه سألني عن شغلي ، فقلت له انا مشغول بالقرآن ، قال : تعني تفسيره ؟ قلت : نعم - قال وعندك جديد من ملاحم غيبه - قلت وكله جديد ، وما اذكر هل هو قرآء آية السلم ام أنا ، ففسرتها كما في المتن ، فطلب مني تكراره واعجب به قائلاً : والله لي اشرف وافضل جلسة اجلسها طول حياتي العلمية مستفيداً ، اشكرك باسماحة الشيخ ، فقدم لي عدداً كثيراً من مختلف الكتب .

ومن ثم وبعد أن خفت وطأة الاعذار في الربوبية والرسالة ، او زالت ، هل هناك ثقل آخر يثقلهم عن تصديق الرسول كسؤال الاجر ؟ :

« أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون » ؟ .

المغرم ما ينوب الانسان في ماله او ماله ، من ضرر لغير جنابة منه او خيانة ، والمغرم مصدر ميمي تعني الغرم نفسه .

فطالما لم يكن هناك غرم فطري ولا فكري ولا عقلي يثقلهم عن تصديقك ، فهل هنالك غرم مادي لأنك تسألهم أجر الرسالة ، فهو يثقلهم فيثاقلوا عنك ؟ ! كلا : « قل لا أسألكم عليه أجراً ان هو الا ذكرى للعالمين » (٦ : ٩٠) فهاقبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » (٣٦ : ٢١) اذ لا عائق معنوياً كالضلال ، ولا مادياً كالأجر ، فبالكم لا تؤمنون ! .

ولئن سئلنا : كيف لم يسأل أجراً وقد سأل أكبر الأجر : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » (٤٢ : ٢٣) وقد يكلف جلب المودة في قربي الانسان أموالاً طائلة ؟ فالجواب : إنه ليس في الواقع أجراً يرجع لصالح المأجور وان أتى بلفظ الأجر ، فانه يرجع لصالح المسؤول دون السائل : « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله » (٣٤ : ٤٧) فان المودة في القربى من السبل الى الله : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلاً » (٢٥ : ٥٧) فهو لاء القربى الذين جعلت مودتهم كأنها أجر الرسالة إنهم يقربونهم الى الله زلفى ، فمودتهم مودة للرسول ومودة لله ، وهم استمرارية للرسالة الإسلامية لأنهم السبل الى الله كخلفاء للرسول ﷺ ، فليس الرسول ممن يدخل مودة قرباه في مصالح رسالته لحد الاجر لأنهم قرباه ، وانما لانهم يمثلونه في رسالته ، فمن شاء أن يتخذ الى ربه سبيلاً هي استمرارية السبيل المحمدية الى الله ، فالرسول ﷺ يسأله المودة في قرباه فحسب ، لهذه الغاية الراجعة لصالح المسلمين .

ان هذا الأجر - بخلاف الاجور المادية المثقلة بالمفرمة - انه يخفف الوطئة عن يتخذ الى ربه سبيلا ، ويسهل له الوصول الى درب الحقيقة ومدينة العلم ، وكما تواتر عن الرسول ﷺ : « أنا مدينة العلم وعلي بابها »

ومن ثم فهل لهم مرجع يرجعون اليه - الى الله - من غير الرسول ؟ :  
« أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ؟ وليس الغيب كله إلا عند الله ، ولا يظهر على غيبه أحداً : إلا من ارتضاه من رسول : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضاه من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » (٢٧: ٧٢) فمن ذا الذي يدعي أن عنده غيب الله كما عند الله ، أو إنه من ارتضاه الله فيظهره الله على غيبه ، فليأت بساطان مبين ؟ .

أوليس هذا ولا ذاك ، فلا حق ولا حقيقة لديهم هنا ولا هناك ، وانما :  
« أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون » : « ولا يحق المكر السيء إلا بأهله » (٤٢ : ٣٥) فالذي يمكر الله ورسول الله وأهل الله ، إنما يمكر بنفسه « وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » (١٢٣ : ٦) « وإن كان مكسرم لتزول منه الجبال » (٤٦ : ١٤) .

فالكافر مكيد بكيده نفسه ، ويكيده الله بما كاد « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (٣٠ : ٨) فمهما كان مكرم عن عجز وطفيان ، فمكر الله ليس إلا جزاء وفاقاً ، فمكره خير وإلى خير ، بخلاف مكرم .

« أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون »

فهم عندما يعملون هذه الأعمال الماكرة الكافرة ، وبعد ما ثبت لهم أن الله هو الحق المبين ، فعلى م يعتمدون ، أم لهم إله غير الله يتولونه فيرد عنهم عذاب الله ؟ : « أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا .. » (٤٣ : ٢١) ؟ ف« سبحانه الله عما يشركون » وكما تسبحه الفطرة والكون كله يسبحه عن أي ند أو شريك . ولقد وصلت عمايتهم عن الحق ، وغوايتهم لحد يعتبرون كسف العذاب سبحانه :

« وان يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحب مركوم ،  
فمثلهم كمثل عاد لما رأوا ريح العذاب : « فلما رأوه عارضاً مستقبلاً  
أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم ريح فيها عذاب أليم »  
( ٤٦ : ٢٤ ) .

فان يروا هؤلاء كسفاً : قطعة - من السماء ساقطاً عليهم يقولوا سحب مركوم :  
متراكب بعضه على بعض ، ملء من الماء يمطرنا ويسقينا ، فهمؤلاء لا دواء لداؤهم  
العضال إلا أن تذرم يخوضوا ويلعبوا :

« فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ،  
فإذا انقطع عنهم كل الآمال ، فاتركهم في غيهم يعمهون ، وقد أديت ما  
عليك ، « فذرهم حتى يلاقوا » يوم الصعقة في قيامة التدمير وقيامه التعمير ، وبعد  
ذلك ما دامت النار ، فإنه كل يوم الصعقة : الهدية الكبيرة ، مهما اختلفت  
درجاتها ، فعند الموت وهو القيامة الصغرى تكون الصعقة الصغرى ، وفي القيامة  
الصعقة الوسطى والكبرى .

« يوم لا يغني عنهم كيدهم ولا هم ينصرون » فكما لم يغن عنهم كيدهم  
يوم الدنيا ، فكذلك يوم الدين ، ثم لا نصير لهم ولا عاذر ، فالكافرون لا مولى  
لهم ولا نصير .

« وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون »  
وهنا يعمم العذاب للظالمين أجمع ، ولكنه دون ذلك العذاب الشديد ، لأشداء  
الكافرين ، وهذا العذاب يعم ما في الدنيا تنبيهاً وتطهيراً ، وما في البرزخ جزاء  
مؤقتاً أو حتمياً ، وما تبقى ففي النار على مختلف درجاتها حسب درجات المظالم ،  
ثم يخرج منها قبل إنجذابها للظالمون دون ذلك ، ويبقى رؤوس الكفر والضلالة  
ما بقيت النار وبشس القرار « ولكن أكثرهم » الظالمين « لا يعلمون » أنهم  
كذلك يعذبون كالكافرين .

وأخيراً يؤمر الرسول بالصبر ويُكرم بضمهان أعظم تكريم، بها ليس له مثيل.  
« واصبر لحكم ربك فانك باعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن  
الليل فسيبحه وإدبار النجوم »

« واصبر » عن جداهم وقتالهم « لحكم ربك » بقتالهم ، وحكمه بعذابهم بعد  
موتهم .

« فانك بأعيننا » . الرقابات الخاصة الإلهية كلها ، فإن كان موسى يصنع  
على عين الله : « ولتصنع على عيني » ( ٢٠ : ٣٩ ) وإن كان نوح يصنع سفينة  
النجاة بأعين الله ووحيه : « أن أصنع الفلك بأعيننا ووحينا » ( ٢٢ : ٢٧ )  
فأنت أنت يا محمد كلك بأعين الله ، لا صنعك فحسب ، ولا بعين واحدة فحسب ،  
وانما أنت ككل : منذ الولادة حتى الممات كمحمد ، ومنذ ابتعائك حتى القيامة  
كرسول ، أنت بأعيننا ، لا على عيني كموسى ! بـ « أعين » كافة الرقابات الإلهية  
« نا » على ضوء كافة الأسماء والصفات الإلهية - فـ « أعيننا » توحى يجمعية  
الرقابات والصفات الإلهية للرسول الأقدس محمد ﷺ لا سواه ، مما يدل على  
مدى الرحمت الخاصة الإلهية لمحمد ﷺ تلکم العناية التي لم تتوفر هكذا  
لأى من القديسين ، من الملائكة والناس أجمعين ! .. فبالله من تعبير عبير ، وبالله  
له من تصوير فيه كل تقدير ، لهذا الرسول البشير النذير ، مما يمسح عن قلبه  
غبار المعرقلين الكافرين ، فيستحجم هو في بحر من النور ، ويأخذه يَمٌّ من  
السرور ! .

ثم وليزيد في نورانيته وانقطاعه إلى ربه ، يأمره فما فرض عليه كنبى خاصة :

« وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسيبحه وإدبار النجوم »

تسبيح بالحمد ، أن ينزه الله في حمده الله ، عما لا يناسب وساحة الربوبية ،  
و « حين تقوم » لا يحن إلى حين خاص ، فما دام قائماً لله نهاراً في الدعوة  
إلى الله : « إن لك في النهار سبعا طويلاً » ليسبح الله في سبحة الطويل نهاراً في

بحر المجتمع المتلاطم ، وكلما هو قائم غير نائم <sup>(١)</sup> ، كذلك « ومن الليل » بعض الليل : قبل منتصفه « وإدبار النجوم » بعد منتصفه ، فإن النجوم تأخذ في إدبار النور منذ نصف الليل ، فالمجموع من « من الليل » و « إدبار النجوم » أكثر من نصف الليل إلى ثلثيه كما قرر له في سورة المزمل ، إلا أن « من الليل » يشمل العشائين بنوافلهما ، كما وان « ادبار النجوم » يشمل صلاة الفجر بنوافلتها ، فقد شملتا فروض الليل والفروض بنوافلهما <sup>(٢)</sup> .



(١) الدر المنثور ٦ : ١٢٠ — أخرج عبد الرزاق في جامعه عن أبي عثمان الفقير أن جبريل علم النبي (ص) إذا قام من مجلسه أن يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك » .

وفيه أخرج جماعة آخرون عنه أنها كان يقولها كفارة لما يكوثر في المجلس .

(٢) القمي عن ابن أبي نصر عن الرضا (ع) « وإدبار النجوم ركعتين قبل صلاة الصبح » ، وهو المروي عن الصادقين (ع) أيضاً أقول وهذا من التفسير ببعض المصاديق المقصود إبرازها وكما رواه القمي : قال صلاة الليل في « وإدبار النجوم » .



( سورة النجم - مكية - وآياتها اثنتان وستون )

- « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى - ١ .  
مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى - ٢ . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى - ٣ .  
إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى - ٤ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى - ٥ .  
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى - ٦ . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى - ٧ . ثُمَّ دَنَا  
فَتَدَلَّى - ٨ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى - ٩ . فَأَوْحَى  
إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى - ١٠ . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى - ١١ .  
أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى - ١٢ . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى - ١٣ .  
عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى - ١٤ . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى - ١٥ .  
إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى - ١٦ . مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى - ١٧ .  
لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى - ١٨ . أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ  
وَالْعُزَّى - ١٩ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى - ٢٠ . أَلَكُمُ  
الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى - ٢١ . تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى - ٢٢ .

إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى - ٢٣ . أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى - ٢٤ . فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى - ٢٥ . وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى - ٢٦ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنْثَى - ٢٧ . وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً - ٢٨ . فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا - ٢٩ . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى - ٣٠ .

\*\*\*

هذه السورة المكية كيانها الرئيسي كسائر المكيات موضوع العقيدة في أصفى أعماقها ، وأهمها موضوع الربوبية والوحي والرسالة ، وإنها نجم في سماء القرآن في عرضها مهمة المعراج بتفاصيل لم تذكر في سائر القرآن ، وهي كمنظومة موسيقية تناسب في نغماتها نغمات الوحي بمعانيها .

« والنجم إذا هوى » أصل النجم هو الكوكب الطالع ، ويستعمل اسماً ، ومصدراً بمعنى الظهور ، يقال : نجم لي أمرٌ : ظهر ولاح ، فقد يقصد بها كل ظاهر باهر ، مادياً كالشهب والنيازك النارية التي تهوي من جانب من السماء إلى آخر ، أم إلى الأرض ، ناحية منحى شياطين السماء أو الأرض ، وكالأجرام النورانية التي قد تهوي إلى الأرض ، وكما في أحاديثنا : أن نجماً هوى في بيت الإمام علي (ع) تدليلاً على خلافته بخبر مسبق (١) .

أو معنوياً كالقرآن المنجم : النازل نجوماً على قلب الرسول الأقدس ﷺ فإنه من أوقع مواقع النجوم ، لحد لا يقسم الله به لمزيد الاحترام : « فلا أقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون » ( ٥٦ : ٧٩ ) .

فنجم القرآن إذا هوى من سماء الوحي يصبح ناجماً لانجماً لأهل الأرض ، فقبل الهوي هو كوكب غير طالع ، غيب في علم الله .  
وكل رسول محمد ﷺ الذي أنزله الله وأهواه إلى أرض البشرية لكي يصاحب الضالين ويهديهم : « فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم

(١) أمالي الصدوق بإسناده إلى ابن عباس قال : صلينا العشاء الآخرة ذات ليلة مع رسول الله (ص) فلما سلم أقبل علينا بوجهه ثم قال : انه سينقض كوكب من السماء مع طلوع الفجر فيسقط في دار احدكم ، فمن سقط ذلك الكوكب في داره فهو وصيي وخليفتي والامام بعدي - فلما كان قرب الفجر جلس كل واحد منا في داره ينتظر سقوط الكوكب في داره ، وكان اطمع القوم في ذلك ابي العباس بن عبد المطلب ، فلما طلع الفجر انقض الكوكب من الهوى فسقط في دار علي بن ابي طالب (ع) فقال رسول الله (ص) لعلي (ع) يا علي ! والذي بعثني بالنبوة لقد وجبت لك الوصية والخلافة والامامة بعدي ، فقال المنافقون : عبد الله بن أبي راضحاه : لقد ضل محمد في محبة ابن عمه وغوى ، وما ينطق في شأنه الا بالهوى ، فأنزل الله تبارك وتعالى « والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم » يعني في محبة علي بن ابي طالب « وما غوى » .  
اقول : وروى ما في معناه الصدوق بإسناده إلى الصادق عن ابيه عن آبائه ومحمد بن العباس بإسناده اليه (ع) قال قال رسول الله (ص) : وذكر مثله .

ذكر أ. رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور .. ( ٦٥ : ١٠ ) فهو نجم نزل وهوى ليرشد الناس إلى الهدى (١) .

وكالرسول ليلة المعراج إذا هوى حاوياً وحياً دون واسطة من الله (٢) .  
فالنجم الهاوي هنا تتحمل كل هذه المصاديق الناجمة عن كلمة النجم دون هوادة ، اللهم إلا الشهب والنيازك النارية التي لا صلة لها بعدم ضلال الرسول أو غوايته ، وأما النجم الهاوي في بيت الإمام علي (ع) فقد يكون من ضمن المعني من النجم هنا وكما في أحاديثنا ، طالما نجم القرآن ونبي القرآن يحتلان القمة في المعني منه ، فيقسم بالقرآن الذي يحمله نبيه ، انه ما ضل وما غوى ، وما ينطق عن الهوى فان كمال الهداية ناجم في هذا النجم الهاوي على قلب الرسول الهادي ﷺ .

« ما ضل صاحبكم وما غوى » . وما ينطق عن الهوى ، :

(١) القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا (ع) قال : النجم رسول الله (ص) وقد ساءد الله في غير موضع فقال : والنجم إذا هوى ، ومثله في روضة الكافي عن أبي جعفر (ع) في الآية قال : أقسم الله بقبض محمد . أقول يعني موته ، فهم النجم وهوى موته .  
(٢) روى ان محمداً (ص) نزل من السماء السابعة ليلة المعراج ولما نزلت السورة أخبر بذلك عتبة بن أبي لهب فجاء الى النبي (ص) وطلق ابنته وتقل في وجهه وقال : كفرت بالنجم ورب النجم فدعا (ص) وقال : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ، فخرج عتبة الى الشام فنزل في بعض الطريق والقي الله عليه الرعب فقال لأصحابه ليلاً : أنيموني بينكم ليلاً ففعلوا فجاء أسد واقتوسه من بين الناس .

أقول : في الدر المنثور ٦ : ١٢١ - أخرجه عبد الرزاق وابن جرير عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عنه (ص) وأبو الفرج الأصبهاني في الأغاني عن عكرمة وأبو نعيم في الدلائل وابن عساكر من طريق عروة عن هبار بن الأسود .

ان النجم المنقض في دار علي (ع) <sup>(١)</sup> دليل على برائته عن مثلث الغرية :  
الضلالة والغواية والهواية ، في هامة الخلافة ، وكما ان نجم ذات الرسول ﷺ  
المقدسة ، الهاوي ليلة المعراج عن الافق الا على بعد صعوده ، دليل على صدقه في  
الأنباء التي هوى بها اليهم بعد هويته ، كما وان نجم قرآنه المبين ، ومعه وبه نجم  
كيانه المتين ، شاهدا صدق على أنه ما ضل في رسالته وما غوى ، وما ينطق عن  
الهوى ، اضافة الى صحبته لكم اميناً عاقلاً طوال سنين : « فقد لبثت فيكم  
عمرأ من قبله افلا تعقلون » (١٦:١٠) : لقد صحبتم سنين ، بعقل رزين ، وحكم  
رصين ، « لحد سميتوني محمد الأمين ، ولم تأخذوا علي مأخذاً من ضلالة او  
غواية او هواية ، ثم بعد إذ جنتكم بما يعجز عن مثله العالمون ، تقولون : انه ضل  
وغوى ، وهو ينطق عن الهوى ؟! »

إن الضلالة مقابل الهداية ، فيها دركات ، كما لهذه درجات ، وتلك في دركات  
كلها بعيدة عن الهدى ، دون سبيل لها إليها ، بجهل أو تجاهل .  
والغواية مقابل الرشيد ، قد تجتمع مع الهداية ، وهي غير الرشيدة منها ،  
فالغاوي قد يكون مهدياً ولكنه غير رشيد ، اذ قد يجد سبيلاً الى الحق ، إذا  
فالغاوي أخف ضللاً من الضال .

والهوى هنا هي الميل عن الحق ، فقد تكون ميلاً بشهوة تميل بالإنسان الى  
خلاف الحق ، وهو الأكثر استعمالاً : « فلا تتبعوا الهدى أن تعدلوا » (١٣٥:٤)  
وقد تكون ميلاً بعقل غير معقول بالوحي ، فقد تخطأ وقد تصيب ، وهو الأقل استعمالاً :

(١) القمي والكليني بإسنادهما الى أبي جعفر (ع) « وما ينطق عن الهوى » ما يتكلم بفضل  
اهل بيته بهواه وفي أمالي الصدوق بإسناده الى أبي عبد الله (ع) انه قال : « ان رضى الناس لا  
يملك وألسنتهم لا تضبط وكيف تسلمون بما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله (ص) الم  
ينسبوه الى انه ينطق عن الهوى في ابن عمه علي (ع) حتى كذبهم الله عز وجل فقال : « وما  
ينطق عن الهوى ، ان هوى إلا وحي يوحى » .

« ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » ( ٢٨ : ٥٠ ) إذ توحى بان اتباعها يهدى من الله هدى خالصة .

فالهوى تعم هوى النفس وهوى العقل ، المنفيتين عن النبي في وحيه - فـ :  
« ما ينطق عن الهوى . ان هو إلا وحي يوحى » :

وانها أهم صيانة واتمها للرسالة المحمدية ، انها بكاملها سبأوية ، لا تأخذ من الأرض إلا بلاغها كذريعة : فـ « ما ينطق عن الهوى » : هوى النفس ، فإنه غلب شيطانه منذ كان فطيماً ، فكيف به إذ بعث نبياً ، وكما قال ﷺ :  
« شيطاني اسلم بيدي » : و : « جزناها وهي خامدة » فلا نجد في أحواله وأقواله وأفعاله ، في حله وترحاله ، في قلبه وقالبه ، لا نجد ، ولا قيد شعرة من هوى النفس .

و « ما ينطق » كذلك عن هوى عقله ، متحلاً عن وحيه ، طالما هو عقل العقول ! فالعقل المتحلل عن الوحي قد يخطئ ، وهو جل عن أن يخطئ ، كيف وهو رسول ربه الأمين .

كذلك و « ما ينطق » عن هوى عقله المتصل بالوحي ، في قرآنه المبين ، فإنه وحي في وحي ، في الفاظه ومعانيه : « ان هو » : نطقه « إلا وحي يوحى » . هذا - وان كان ينطق في سنته بعقل الوحي ، وحيّاً في معانيها ، وعقلاً متصلاً بالوحي في نضد الفاظها ، وهذا هو الفرق الفارق بين الكتاب والسنة القطعية ، إذ يشتركان في وحي المعنى : « ان هو إلا وحي يوحى » ، ويختلفان في اللفظ : ان القرآن كذلك « وحي يوحى » : في لفظه ، كما هو « وحي يوحى » في معناه ؛ ولكن السنة في لفظها - فقط - ليست وحيّاً ، وانما عقلاً من صاحب السنة الرسول الاقدس ﷺ ، ثم هي تشارك القرآن في وحي المعنى . مهما اختلفت درجاتها .

ان الحصر في آية الوحي « ان هو إلا وحي يوحى » ينفي عن النبي أن ينطق عن أية هوى ، لا هوى النفس فقط ، فان هوى العقل ايضاً ليست وحيّاً يوحى ، فنطقه ﷺ

محصور في وحي يوحى : وحيًا خالصًا كما في القرآن ، او وحيًا مزدوجًا كما في السنة ، فان الفاظها ليست إلا منه مهما كانت مقرونة مصونة بالوحي ، مسنودة الى الوحي ، فالرسول الاقدس ﷺ كله - كرَسُول - وحي ، ولا اقول انه في مآربه البشرية غير الرسالية ، ايضاً وحي ، وانما في شئونه الرسالية .

وفيا اذا سئلنا : كيف تعم نطقه سنته بعد قرآنه ، والحصص المستفاد من « إن .. » يحصر نطقه بوحى يوحى ، والسنة ليست وحيًا إلا في معناها ؟ .  
فالجواب : ان آية الوحي تحصر نطقه في وحي يوحى ، لا قرآنه فحسب ، وبما ان هامة الوحي هي المعنى ، فوحي السنة ايضاً وحي يوحى ، وإن كان - فقط - في معناها ، وان كان القرآن افضل منها واعلى ، لانه بلفظه ومعناه - وحي يوحى ، ليس من النبي ﷺ فيه شيء ، وان من عقله المتصل بالوحي ، فطالما يكون نطق النبي ككل : « ان هو الا وحي يوحى » وان لم يكن في لفظ السنة وحيًا ، ولكن قرآنه - بين نطقه - « ان هو الا وحي يوحى » ليس فيه إلا وحي ، جملة وتفصيلاً ، معاني وجمالاً ، فضداً وترتيباً وفي كل شيء .

ترى وما هي النكتة في « يوحى » وفي « ان هو الا وحي » كفاية لتأديده المعنى ؟ اقول : عليها لكي لا يزعم انه وحي ذاتي ، وحي الضمير الصافي ، وحي منه اليه ، وانما : وحي يوحى اليه من خارج الذات ، فوحي الضمير لا يوحى الى صاحب الضمير ، انما هو وحي يتكون فيه نتيجة صفاته .

ومن ثم فمن ميزات هذا الوحي ، ولا سيما في قرآنه المبين ، ان ليس معلمه إلا الله :

« علمه شديد القوى ، علمه الوحي أو علم الوحي إياه شديد القوى : ربه لا جبرئيل .

ترى إذ يراد التعريف بمعلم الوحي الأخير وجاءه كل معارض تكير ، هل يؤتى باسم معلمه الأصيل وهو الله ، أم باسم الوسيط في وحيه جبرئيل ؟ لو صح أنبه علمه ! وليس تعليمه هو موضع بحث بين مثبت وتكير ! لا ريب أن

المقام يقتضي ذكر المعلم الأعلم - - فـ « شديد القوى » هو الله لا جبرئيل .  
ثم جبرئيل ، مها كان وسيطاً في الوحي المفصل أو معلمه فيه ، فلم يكن وسيطاً  
في محكمه ، ولا سياً وحي المعراج ، وقد عرج عنه الرسول ﷺ وحيداً إلى  
سدره المنتهى ، وما فوقها ، « وهو بالأفق الأعلى . فأوحى إلى عبده ما أوحى »  
وهذه الآيات تخص وحي المعراج ضمن ما يعم وحي القرآن كله ، مفصلة ومجملة ،  
فلم يكن هناك جبرئيل حتى يكون معلمه ، إذ تركه ﷺ عند السدره وقبل  
العرش قائلاً : تقدم يا رسول الله ﷺ ! ليس لي أن أجوز هذا المكان ولو دنوت  
أنملة لاحترقنت ، (١) فـ « شديد القوى هو الله وليس جبرئيل .

ولئن كان جبرئيل معلمه ﷺ وحتى في وحي المعراج ، فليس الرسول كمتعلم  
عبداً لجبرئيل ، إذاً فماذا يعنى من : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » ولا مرجع  
مسبق لضمير الغائب هنا إلا « شديد القوى » ، فهل أصبح جبرئيل الوسيط في  
الوحي معبوداً للرسول ﷺ ، وليس هذا الإيحاء إلا ذلك التعليم : فمن  
المستحيل هنا أن يكون شديد القوى هو جبرئيل .

ثم لا نرى تصريحاً في القرآن ولا تلويحاً أن جبرئيل كان معلم الرسول ﷺ .  
وإنما نازل بالوحي إلى قلبه المنير نجوماً طوال البعثة ، بعد الوحي المحكم النازل  
عليه ليلة القدر دون وسيط : « نزل به الروح الأمين على قلبك » ( ٢٦ : ١٩٤ )  
ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه وكما الرسول محمد ﷺ كان أفقه من جبرئيل  
وكما عنه ﷺ : « روح القدس في الجنان الصاغورة قد ذاق من حدائقنا  
الباكورة » ، ثم ولم يكن نزوله بالوحي المفصل لحاجة ذاتية من الرسول إلى الوسيط ،  
وهو أفضل من موسى الذي أنزلت عليه التوراة دون وسيط ، وإنما ليثبت الذين

(١) تفسير روح البيان ج ٩ ص ٢٢٤ في رواية ، ورواها في المناقب ابن عباس قال : فلما  
بلغ إلى سدره المنتهى وانتهى إلى الحجب قال جبرئيل : تقدم يا رسول الله (ص) ! ليس لي أن  
أجوز هذا المكان ولو دنوت أنملة لاحترقنت .



آمنوا: « قل نزل به روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » ( ١٦ : ١٠٢ ) وإنما يحصل بالتنزيل النزول التدريجي: الوحي المفصل ، لا حاجة الرسول إلى الوسيط ، كيف ولم يحتج إليه في الوحي المجمل إذ عُرِج به إلى العرش ! وإنما لتثبيت الذين آمنوا على أنه بشر رسول ، فلا يقولوا فيه ما قيل المسيح (ع) .

تري أن الوسيط في رسالة إلى رسول - وإن كان يعلم شيئاً منها أو يعلمها كلها - هل أنه معلم للرسول ؟ أم رسول إلى الرسول ، ثم لكل كيانه ، فقد يكون الوسيط أدنى من الرسول كجبريل بالنسبة لمحمد ﷺ وقد يكون أعلى ، كالرسول بالنسبة للمرسل اليهم أجمع ، وقد يكونان على سواء ، وكما قد لا يعترف الوسيط شيئاً عما أرسل به ، فليكن شديد القوى هو الله لا جبرئيل . ثم لو كان جبرئيل كمعلم للرسول ﷺ ! شديد القوى ، فهلاً يكون الله أيضاً شديد القوى ؟ وهذه تسوية بين الله وخالقه في القوى ، والكل بجانبه ضعفاء فقراء أخففاء ، اللهم إلا « ذو قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين » سواء أفسرته بمحمد الأمين وهو الحق ، أم فسرته بجبريل الأمين وليس به <sup>(١)</sup> ولو كان ، فكيف هو مرة شديدة القوى كما الله ، وأخرى ذو قوة كعبد الله ، وبينهما من البون ما ترى ! .

٧ - ونرى في أحاديثنا أن الله تعالى يوصف بشديد القوى دون خالقه <sup>(٢)</sup>

(١) راجع ج ٣٠ ص ١٦٧ - الفرقان في تفسير الآيات « انه لقول رسول كريم ذي قوة .. » .  
(٢) علي بن ابراهيم القمي في تفسيره نقلاً عن الامام ( ع ) « علمه شديد القوى » يعني الله عز وجل . وفي نهج البلاغة مثله ، وفي دعاء الندبة « فاعث يا غياث المستغيثين عبيدك المتبلى واره سيده يا شديد القوى » . وفي دعاء آخر « يا شديد القوى ويا شديد الحال » .  
هذا ولم يوجد وصف غير الله - جبرئيل أم سواء - بهذا الوصف في أي حديث إطلاقاً - اللهم إلا في أقاربيل جماعة من المفسرين دون أي برهان .

فكيف خلقه أن يوصف بما وصف به الله ، وهذا من الإلحاد في أسماء الله ، وذو الذين يلحدون في أسمائه .

٨ - ثم الذي دنى إليه الرسول فتدلى ، فكان منه قاب قوسين أو أدنى ، ليس هو جبرئيل حتى يكون هو أيضاً شديد القوى ، إذ لم يكن لجبرئيل في عمق المعراج مجال . ولا أن لدنو الرسول ﷺ إليه كمال ، كما وأن مقام أو أدنى مع غير الله ضلال ومجال ، لأنه فناء ولا يجوز أو لا يمكن الفناء في غير الله ، وإنما هو الله ، المدنو منه والمتدلى به في مجال المعرفة لا المجاورة .

٩ - ثم جبرئيل كان الرسول ﷺ يراه بعينه وهو في الأرض بصورة دحية الكلبي أم سواه ، دون أن يراه بفؤاده فقط وهو بالافق الأعلى « ما كذب الفؤاد ما رأى » ولم يماره أحد في دعوى رؤيته جبرئيل ، فما كان موضوع النبوة بالرؤية حتى يكذبه فيها ، وإنما في ادعاء رؤية الله ببصيرة القلب ونور اليقين « افتتارونه على ما يرى ؟ » ، ثم وماذا يكسب الرسول ﷺ من رؤية جبرئيل ببصره أم بصيرته ، وهو (ع) دوماً كان يتشرف بحضرة ﷺ وينزل بالوحي على قلبه « نزل به الروح الأمين على قلبك » .

١٠ - ثم القسمة الضيزى : الظالمه ، ليست في تكرار رؤية جبرئيل ، في حين أنهم يرون اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، وإنما هي بين ربه وأربابهم ، انهم يرونهم كما يمكن ، وهو لا يرى ربه كما يتمكن ، ولم يكن جبرئيل في وقت من الأوقات موضوع الرسالة ، ومدار النفي والاثبات ، ولا يثبت له كيان إلا بعد ثبات الرسالة ، فماذا يفيد الإصرار في أنه علمه الوحي ، وأنه رآه ! وتلك عشرة كاملة تحيل أن يكون شديد القوى هو جبرئيل .

إذاً فلا موقع لجبرئيل في هذه الآيات المعراجية ، ولا قيد شعرة ، ولا سيما أنها تركز على القرآن المحكم ، الذي كان نزوله عليه ﷺ دون وسيط ، ولا تلمح هذه الآيات إلى جبرئيل أبداً ، إذاً فشديد القوى هو الله .

ثم لا يُعنى من القوى ما تعنيه الفلسفة في صلاحاتها ، أنها قبال الفعليات ، وإغماهي القدرات ، ولام الاستغراق الداخلة على الجمع « القوى » تجعلها تستغرق كافة القدرات الإلهية ، غير المحدودة ، إنها شديدة متينة وليست ضعيفة وهينة ، ومن شدتها لا محدوديتها ، ومنها أزلتها وأبديتها ، ومنها وحدتها في حين كثرتها ، وكثرتها على وحدتها ، فالله تعالى علّم هذا الرسول ﷺ وحيه بكل القوى ، فما أبقى ما يمكن وحيه إلا أوحى ، علّمه ما لم يعلمه أحداً من العالمين ، من الملائكة والجنة والناس أجمعين ، وما لن يعلمه أحداً من العالمين ، فإنه خاتمة الرحي ، الذي بالامكان تعليمه لأفضل الخلق أجمعين .

ففي وحي القرآن من الشدة والقوة الربانية ما ليس في غيره من وحسي ، فالقرآن النازل من شديد القوى ، إنه شديد في كافة القوى ، مشدود بالقدرات الربانية كلها ، متحلل عن كل وهم ووهن ، عزيز بعزة الله ، ومجيد بمجد الله : « وانه لكتاب عزيز » - « بل هو قرآن مجيد » .

فنجم القرآن الهاوي على قلب الرسول ﷺ الهادي الحاوي ما يمكن هديه من سماء الوحي ، إنه فقط ، وبطلانه دليل من أنه كتاب الله ، وان حمله النجم المحمدي رسول الله . ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علّمه شديد القوى :

« ذو مرة فاستوى . وهو بالافق الأعلى ،

المرير والمُمرّ : المقتول ، وذو مرة هو محكم القتل . وصيغته الاخرى « ذو قوة » ولكن المرة مضمّن فيها المرور فهل إنه من أوصاف شديد القوى المعلم ، أو صاحبكم المتعلم ؟ .

ان شديد القوى ، ولو كان جبريلاً ، لا يصح توصيفه مرة ثانية ودون فصل يمثل وصفه ، أو نازلاً عن وصفه : « شديد القوى : ذو قوة » ولكنه هو الله ، لا يوصف بمحكم القتل ، الموحى إلى رخوه المسبق ، ولا أن له فتلاً ، ولا أنه يمر ولا أنه يستوي ، لا في ذاته ولا مكانته .

فليكن « ذو مرة » هو « صاحبكم » رغم الفصل بين الصفة والموصوف ، حيث الفصل هنا هو بقول فصل يذود عنه وصمات ، ثم يزوده بخالص من نسبات وحيه من معلمه شديد القوى ، ثم يبدء بأوصاف له وحالات تخلق له جوّ وحي المعراج ، بعد مقام « قاب قوسين أو أدنى » ، وأولى صفاته هنا أنه : « ذو مرة » : ذو قوة ، وكما وصف بها في نظيرتها : « إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين » ( ٨١ : ٢٤ ) .

إنه لا بد من تدان معرفي بين المعلم والمتعلم حق يتحقق التعليم كما يُرام ، فإذا كان الله المعلم محمد ﷺ شديد القوى ، فليكن هو أيضاً ذا قوة تجعله قريباً إلى شديد القوى علمياً ومعرفياً ، ولكي يتلقى ما يُلقى إليه تماماً دون نقصان . « صاحبكم ... ذو مرة » : ذو قوة في عقله ورأيه ، ذو قوة في مروره إلى الآفاق ، وإلى الأفق المبين الأعلى ، فليكن طائر المعراج هنا مزوداً بجناحين : قوة الطيران ، وقوة العقل والرأي ، وبهاتين القوتين المتينتين :

« فاستوى » : علمه شديد القوى ... « فاستوى » « ذو مرة فاستوى » :

إذاً فاستواء صاحب المعراج يشمل الجانبين : الاستيلاء الروحي العلمي بما علمه شديد القوى ، والاستيلاء في البنية الجسدانية لأنه ذو مرة : فتلة واستقامة في عقله وجسمه ، فمروره الجسداني والروحاني في عمق الفضاء إلى سدرة المنتهى وما فوقها من نتائج هذه الثنائية السامية الربانية الموحاة إليه ، المفاضة عليه ، أنه في رحلته الفضائية ، هذه ، المنقطعة النظير ، كان بين تجاذب : جذبة إلهية ، وانجذاب له ذاتي بما علمه الله ، وبما قتل جسمه كما قتل عقله ، لحدّ لم يصطدم

(١) القمي في تفسيره عن أبيه عن النضر بن سويد عن يحيى الحلبي عن ابن سنان قال قال أبو عبد الله ( ع ) : « أول من سبق إلى (بلى) رسول الله وذلك أنه كان أقرب الخلق إلى الله تعالى وكان بالمكان الذي قال له جبرئيل ( ع ) لما أسري به إلى السماء : تقدم يا محمد لقد وطأت موطناً لم يطأه ملك مقرب ولا نبي مرسل ... »

بتلك السرعة الحارقة التي تخطت سرعة الضوء - عله - بلالين الأضعاف !  
وكما سيمر عليك بحثه بعد قليل .

« وهو بالأفق الأعلى » : ولانه ذو مرة فاستوى ، ولانه علمه شديد القوى  
فاستوى : حال انه بالأفق الاعلى ، فهنا استواء اول ، قد حصل بما علمه شديد  
القوى ، وانه ذو مرة ، واستواء ثان اذ عرج بهذا الاستعداد المطلق الى أعلى الآفاق  
الممكنة لسائر الكائنات : قلباً وقالباً ، ثم ارتقى الى افق أعلى هو مقام « ثم دنى »  
ثم الى اعلى منها وهو مقام « او ادنى » وهو الأفق المبين الذي بان له فيه رب  
العالمين ، اذ رآه بنور اليقين : « واقد رآه بالأفق المبين » فقد « على فاستعلى فجاز  
سدرة المنتهى وكان من ربه قاب قوسين او ادنى » (١) : في مثلث من أعلى الآفاق  
مختلف السياق ، فلم يشاركه في الأعلى الأول أحداً من العالمين ، فأنى لهم بالثاني ،  
ثم الثالث وهو الأفق المبين !

والأفق هو مد البصر في الدائرة المحيطة بالمبصر ، بصر العين او بصيرة اليقين ،  
فالأفق الاعلى هو اعلى الامتدادات للبصائر والأبصار في اعلى الاماكن والمكانات ،  
فقد خطاً في معراجهم ﷺ ثلاث خطوات ، الى الأفق الاعلى قياساً لسائر  
الممكنات ، ثم الى افق « ثم دنى » واخيراً الى افق اعلى منهما : « فتدلى » حيث  
لم يشاركه في تخطيه احد من الروحانيين ، وحتى جبرئيل الأمين .

« ثم دنى فتدلى . فكان قاب قوسين او ادنى » :

- دنواً واقترباً من العلي الأعلى - (٢) ، دنو معرفي الى الله ، وتدل معرفي

(١) الاحتجاج للطبرسي حديث طويل عن الامام زين العابدين علي بن الحسين ( ع ) انا ابن  
من عل ... فالعلو الاول هو الأفق الأعلى الاول ثم واستعلاء هو الثاني في سدره المنتهى ، وجوازه  
سدرة المنتهى هو الأفق الثالث .

(٢) من فقرات دعاء الندبة .

بالله « دنى بالعلم »<sup>(١)</sup> وتدل بالتجاهل عن نفسه « ولولا ان روحه ونفسه كانت من ذلك المكان لما قدر ان يبلغه »<sup>(٢)</sup> فـ « لم يزل عن موضع ولم يتدل ببدن »<sup>(٣)</sup> ( ليس بدنو حد ، وانما دنو النبي ﷺ من ربه وقربه منه ، ابانة عظيم منزلته ، وتشريف رتبته ، واشراق نور معرفته ، ومشاهدة اسرار غيبه وقدرته ، ومن الله له مبرة وتأنيس وبسط واكرام )<sup>(٤)</sup> وكما يروى من صاحب المعراج ايضاً « لما عرج بي الى السماء دنوت من ربي حتى كان بيني وبينه قباب قوسين او ادنى »<sup>(٥)</sup> « قربني ربي حتى كان بيني وبينه كقاب قوسين او ادنى »<sup>(٦)</sup> وفي هذه الحالة التجردية « رفع له حجاب من حجبته »<sup>(٧)</sup> وهو الحجاب الاخير الممكن رفعه ، وهو حجاب ذاته (ص) المقدسة ، وبقي حجاب ذات الله سبحانه وتعالى ، المستحيل رفعه لمن سوى الله .

فهنا لك دنو ، ثم تدل ، ثم وحي ، وأهم من كل ذلك رؤية الله : أقرب القرب اليه معرفياً : دعائم اربع تدعم مكانة صاحب المعراج ، وتبين كيانه الروحي لأعلى الدرجات المعرفية بالله ، حيث لا خبر عنه لا لملك مقرب ، ولا

(١) الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عن آبائه عن الحسين بن علي ( ع ) في حديث قال « دنى بالعلم » .

(٢) تفسير القمي بإسناده عن الصادق ( ع ) اول من سبق الى « بلى » رسول الله (ص) وذلك انه اقرب الخلق الى الله وكان بالمكان الذي قال له جبرئيل لما أسرى به الى السماء : تقدم يا محمد ! فقد وطئت موطناً لم يطأه ملك مقرب ولا نبي مرسل ولولا ان روحه ...

(٣) الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر ( ع ) في آية التدلي .

(٤) تفسير روح البيان ج ٩ : ٢٢٠ رواه عن الامام الصادق ( ع ) .

(٥) أمالي الطوسي بإسناده الى ابن عباس قال رسول الله (ص) :

(٦) روح البيان ج ٩ : ٢١٩ عنه (ص) .

(٧) عمل الشرايع عن الامام موسى بن جعفر في حديث طويل : فلما أسري بالنبي وكان من ربه كقاب قوسين أو أدنى رفع له حجاب من حجبته .

نبي مرسل ، فإنها من خصائص صاحب المعراج ! ، وكما تتبنى سفرته الفضائية لمنتهاتها حيث رأى من آيات ربه الكبرى :

« ثم دنى » ان خرق كافة الحجب الظلمانية والنورانية ، بينه وبين ربه ، وخرق حجاب الصلابة بما سوى الله ، اذ عرج عنها بقلبه كما كان عارجاً بقلبه ، فلم يبق هنالك أي حجاب اللهم الا حجاب نور الانوار : نفسه المقدسة ، متحللاً عما سواها واقعياً وباختياره ، حيث لا مجال لصلابة غير الله ، والانس بما سوى الله ، ومثاله في دنوه هذا :

« فكان قاب قوسين » فان الحليفين من العرب كانا اذا ارادا عقد الصفاء الخالصة خرجا بقوسيهما فالصقا بينهما ، يعنىان بذلك أن لا شيء هنا يفصل بينهما ، فهما متحدان في كل مقصد ومرمى .

وكما ان القوسين المتلاصقين يشكلان قاباً وملتقى واحداً ، كذلك الرسول ﷺ في دنوه هذا الى الله لصق قاب قوسه بقاب قوس ربه ، فتلاصق القوسان : قوس الوجوب وقوس الامكان في قاب واحد ، لا يحول بينها حائل من جانب الامكان إلا عجزه عن اكتناه ذات الواجب ، ولا حائل من جانب الوجوب إلا حجاب ذات الألوهية الذي لن يرتفع ابداً ، حجابان في قاب واحد ، فهما اذاً حجاب واحد ، ولم يبق هناك اي حجاب إلا هذا الذي لن يرتفع ، اللهم وإلا حجاب ذات النبي ﷺ وقد ارتفع ايضاً إذ تدلى :

« فتدلى » : بيني وبينك إني ينازعني فإرفع بلطفك إني من البين إنه بعد أن دنى هكذا الى الله ، تدلى ايضاً بالله فكان مثاله من القوسين :

« او ادنى » فقد انمى قوس الامكان ، وتدلى بقوس الرحمان ، فاصبح : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » (١) .

(١) ان الآية من الالف والنشر المرتب ، فكان قاب قوسين اذ دنى ، او ادنى اذ تدلى ، فـ « او » هذه للترتيب ، لا الابهام او التشكيك .

وكما يروى عنه عليه السلام : « قربني ربي حتى كان بيني وبينه كقاب قوسين أو أدنى » (١) .

فالتدلي هو التعلق ، فقد يكون مشوباً وقد يكون محضاً خالصاً ، وصاحب المعراج بعد أن دنى الى الله خالصاً ، كذلك تدلى بالله خالصاً ، متناسياً ما سوى الله وحتى نفسه ، متحللاً متخلياً عن الكائنات الى رب الكائنات ، وهذا هو الفناء في الله ، أن يصبح العبد كأنه لا شيء ، او انه لا شيء ويرى ربه انه الشيء وليس سواه شيء ، هذا ! لا الذي يدعيه من يتسمون ارباب الكشف والشهود ، ان الفناء في الله هو ان يصبح العبد لها من شدة قربيه او خلطه بربه ، كما يصبح الفحم ناراً اذ تشمل كيانه كله ، وهذا الجهاد في الله ، ترفيعاً للعبد الى درجة الالهية ، وتنزيلاً للرب الى منزلة العبودية !

وإنما الحق شعور العبد في سيره الى الله انه لا شيء ، ثم التدلي بالله وهو مقام او أدنى ، فكما الله أدنى الينا علماً وقيوماً ، فلنكن نحن اقرب اليه منا الى انفسنا ، وهذه المرحلة من المعرفة لا تيسر إلا لصاحب المعراج محمد عليه السلام .

لقد كان الرسول عليه السلام - وقبل معراجه - اقرب المقربين الى الله ، لا يحجب بينه وبينه حجاب وهو في الأرض ، إلا أن طبيعة الحال تقتضي في معراج هكذا ، والى الأفق الأعلى ، واضعاً قدميه على كاهل الكون ، تاركاً ما سوى الله تحت قدميه وبقلبه ، بعد أن كان تاركاً لها بقلبه ، منعزلاً وحتى عن ارسل اليهم ، إن هذه الحالة التجردية تقتضي أن يكون هناك من ربه قاب قوسين او أدنى ، دون أن يبقى أي حجاب وحتى حجب النور : من صحبته المرسل اليهم ، ومن ممارسته حاجيات الأرض ، ومن نفسه المقدسة ، حيث خرقها كلها متناسياً لها ، فاتصل بمعدن العظمة فرأى ما رأى ، ومن آيات

(١) تفسير روح البيان لاسماعيل حقي ج ٩ : ٢١٩ .



ربه الكبرى<sup>(١)</sup> ولو ان بقيت هذه الحالة التجردية في مقام «او أدنى» او وحتى في «دنى» لاشتغل عن الكون وعن رسالته وعن نفسه وقضى نحبه، وهذا باب من المعرفة الإلهية لن يعرفها إلا صاحب المعراج، وهي التي استدعاها موسى (ع) فاجيب «لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني» لم يكن في وسعه الخروج الى الأفق الاعلى وهو موسى، كما لا يتسع الجبل فوق ما يتحمل. وفي هذه المرحلة النهائية من الزلفى الى الله، اوحى اليه الله ما اوحى :

«فاوحى الى عبده ما اوحى» : وحي خاص في وقت خاص وكما يروى عنه عليه السلام : «لي وقت مع الله لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل»<sup>(٢)</sup> «أوحى الى عبده ما اوحى بلا واسطة فيما بينه وبينه سرّاً الى قلبه لا يعلم به أحد سواه»<sup>(٣)</sup>. سر مستسر عن سوى الله وسواه، لم يوح الى أحد من المرسلين، ولا الكروبيين، اللهم إلا الى صاحب المعراج، الى قلب محمد عليه السلام ومن ثم الى قلب محمدي، الى قلوب الظاهرين من عترته، الذين رباهم بتربيته، وطهرهم الله كطهارته، وأذهب عنهم الرجس اهل البيت كما أذهب عنه عليه السلام.

ان هناك وحيّاً نطق به، في قرآنه وسنته، يحمله «ما ينطق عن الهوى». ان

(١) علل الشرايع عن زين العابدين علي بن الحسين (ع) سئل عن الله جل جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال: تعالى عن ذلك، قيل: فلم أسرى بفضله (ص) الى السماء؟ قال: ليريه ملكوت السماوات وما فيها من عجائب صنعته وبدائع خلقه، قيل: فقول الله عز وجل: «ثم دنى فتدلى..» قال: ذلك رسول الله (ص) دنى من حجب النور فرأى من ملكوت السماوات ثم تدلى فنظر من تحته الى ملكوت الارض حتى ظن انه في القرب من الارض كقارب قوسين او أدنى. اقول: ذيل الحديث مردود الى راويه او يؤول الى ما يناسب الدنو الى الله والتدلي بالله، وعمل منه ان ذلك الدنو والتدلي كشف له ملكوت السماوات والارض كما كشف له عن المحجوب من غيب معرفة الله، الممكن كشفه - تأمل.

(٢) تفسير روح البيان ج ٩ : ٢٢٠ عن الامام جعفر الصادق (ع).

(٣) تفسير روح البيان ج ٩ : ٢٢١ عن الامام جعفر الصادق (ع).

## سورة النجم آية ١٠ ..... ٤٠٣

هو الا وحي يوحى . علمه شديد القوى ، ثم وحي ثان ، علمه نطق ببعضه واعرض عن بعض ، يحمله « فأوحى الى عبده ما اوحى » وعل الأول يشمل الثاني في رموزه بغموضه ، أسرار تختص بصاحب المعراج ، ثم ومن نحا منحاه .

« إلى عبده » كأنه هو فحسب عبده لا سواه ، اذ وصل الى اعلى درجات المعرفة بربه وعبوديته ، وكما كان اول العابدين : « قل ان كان للرحمان ولد فأنا اول العابدين » ( ٤٣ : ٨١ ) .

ترى ماذا الذي اوحى الى عبده ؟ هل هو القرآن المفصل ؟ ولم ينزل كله ليلة المعراج وانما طوال البعثة ! او القرآن المجمل ؟ وقد نزل ليلة القدر وقبل المعراج ! او علمه القرآن المحكم مع رموز غيبية ، وبرقيات رمزية ، وعل منها مفاتيح كنوز القرآن ، تأويل الحروف المقطعة ، الذي اختص به محمد ﷺ دون سواه ، اللهم إلا من حذى محذاه من عترته المعصومين المحمديين ، ولقد كان من ملحقات هذا الوحي انتصاب علي ( ع ) بإمرة المؤمنين <sup>(١)</sup> كما وان منها آيات مفصلات

( ١ ) امالي الشيخ الطوسي قال قال رسول الله ( ص ) : لما أسري بي الى السماء كنت من ربي كقاب قوسين او أدنى فأوحى إلي ربي ما أوحى ثم قال : يا محمد اقرأ : علي بن ابي طالب امير المؤمنين ، فما سميت بهذا احداً قبله ولا أسمى بها احداً بعده .

اقول : قوله ( ص ) ثم قال يوحى انه لم يكن من اصل « ما اوحى » وانما من ملحقاته . وفي اصول السكافي العدة باسناد متصل عن علي بن ابي حمزة قال : سأل ابو بصير ابا عبد الله ( ع ) وانا حاضر فقال جعلت فداك كم عرج برسول الله ( ص ) ؟ فقال : مرتين فأوقفه جبرئيل ( ع ) موقفاً فقال له مكانك يا محمد ! فلقد وقفت موقفاً ما وقفه ملك ولا نبي - الى قوله - فنظر في سم الابرة الى ما شاء الله من نور العظمة فقال تعالى : يا محمد ! قال : لبيك ربي - قال : من لأمتك بعدك ؟ قال : الله اعلم ، قال : علي بن ابي طالب امير المؤمنين وسيد المسلمين وقائد الفر المحجلين ، ثم قال ابو عبد الله ( ع ) لأبي بصير : يا ابا محمد والله ما جاءت ولاية علي من الارض ، ولكن جاءت من السماء مشافهة .

من قرآنه المبين<sup>(١)</sup> أم وماذا بعد ؟ لا يعلمه الا من اوحى اليه ، ولا توحى آيته بشيء منه إلا : « فأوحى الى عبده ما اوحى » ، وقد تلمح انه اوحى اليه كل ما اوحاه طوال بعثته ، من قرآنه وسنته ، ولكنه بصورة مجملة فيها كل التفاصيل . ومن ملحقات هذا الوحي تكشفه ﷺ عن اسماء اهل الجنة والنار<sup>(٢)</sup> فهذا واشباهه من مخلفات انكشاف ملكوت السماوات والأرض له ، حين تصفّى عن كل كدر عارضى وان كان من حجب النور ، فأصبح يرى بعين الله ، ويسمع باذن الله ، منكشفاً له كل خلق الله اللهم إلا ما اختص بعلمه الله .

ولقد كان في معراجہ ﷺ تشريف له ان يخترق حجب النور الى معدن العظمة ، وكما « اراد ان يشرف ملائكته وسكان سماواته بمشاهدته ، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه »<sup>(٣)</sup> .

(١) القمي عن ابيه عن ابن ابي عمير عن هشام عن ابي عبد الله ( ع ) ان قوله تعالى : « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه . . . » مشافهة لله لنبيه ( ص ) لما أسري به الى السماء . وفي احتجاج الطبرسي عن الحسين بن علي ( ع ) في الآية : « فكان فيما اوحى اليه » الآية التي في سورة البقرة : « الله ما في السماوات وما في الارض ان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه بحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير » وكانت الآية قد عرضت على الانبياء من لدن آدم ( ع ) الى ان بعث الله تبارك اسمه محمداً ( ص ) وعرضت على الامم فأبوا أن يقبلوها من ثقلها وقبلها رسول الله ( ص ) وعرضها على امته فقبلوها .

(٢) بصائر الدرجات عن الصادق ( ع ) في إسراء النبي ( ص ) حتى انتهى الى سدرة المنتهى ، فقال السدره : ما جازني مخلوق قبل . قال : ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين او ادنى فأوحى الى عبده ما اوحى ، قال : فدفع اليه كتاب اصحاب اليمين واصحاب الشمال ، فأخذ كتاب اصحاب اليمين بيمينه وفتح فنظر اليه فاذا فيه اسماء اهل الجنة واسماء آبائهم ، ثم طوى الصحيفة فأمسكها بيمينه وفتح صحيفة اصحاب الشمال فاذا فيها اسماء اهل النار واسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم نزل ومعه الصحيفةتان فدفعهما الى علي بن ابي طالب ( ع ) .

(٣) التوحيد للصدوق عن موسى بن جعفر في هلال المعراج .

ولأن هذا الدنو وهذا التدلي ثم ذلك الوحي ، هذا المثلث النوراني المعرفي كان من عمل الفؤاد ، من رؤية البصيرة لا البصر ، وقد كان محمد ﷺ حينه في مثلث الرؤية النورانية المعرفية لربه ، وهذا ما لا يسع فهمه العالمون فكيف بالجاهلين ، لذلك كذبوه فصدق الله تعالى في رؤية الدنو والتدلي والوحي :

« ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زأغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

فلولا أن الدنو فالتدلي والوحي هنالك ، لولا أنها رؤية الفؤاد والبصيرة ، لا رؤية البصر ، لم يكن لهذا الاستدراك من معنى « ما كذب الفؤاد ما رأى » ومهما رأى ببصره أيضاً « من آيات ربه الكبرى » فلقد زوّد برؤية البصر لآيات الله ، وبرؤية البصيرة لله . !

فإن ذلك التدلي ووحيه لزامها الرؤية المعرفية القمة ، مهما كانت هناك رؤية أخرى حين النزلة عن الأولى ، عنده سدرة المنتهى ، أو كان في هذه الأخرى وحي آخر علته أدنى من الأول ، أم ماذا ؟ ..

ولماذا الفؤاد هنا في موقف أعلى مدارج المعرفة ، لا القلب ، أو الصدر ، أو الروح ، فما هو الفؤاد ؟ .

الفؤاد هو القلب المتفند : المتوقد ، وهو وسط القلب ولبّه ، ولأنه ﷻ رأى ربه في مقام التدلي : بقلب متوقد بوقود المعرفة ، ملتهب بلهب الشوق والايان ، ولببابه ، لذلك يذكر هنا الفؤاد ، انه ما كذب ما رآه ، فمهما أخطأ البصر في مبصره ، أو بصيرة الاحساس والفهم والعقل والصدر والقلب في مبصراتها المناسبة لها ، ولكننا الباب من القلب الملهب الحمدي ، الهائم الشغيف في الوصال ، إنه لا يكذب ، فهذه الرؤية لا تقبل الممارات والمعالجة :

« أفتمارونه على ما يرى » هل لكم أن تحاجوه فيما يرى ببصره ؟ فكذلك

وأخرى لا تماروه فيما يرى ببصيرته ، بلب قلبه الملهب <sup>(١)</sup> « ولقد رآه » : ربه هكذا أو أدنى « نزلة أخرى » ..

ومما نستوحي من « رأى » مرتين و « يرى » أنه حصلت له الرؤية المعراجية مرتان في معراجيه ، ثم هو كان يرى ربه طوال رسالته ، فإن « يرى » توحى بالاستمرار دون « رأى » والفرق بين الرؤيتين : المعرفيتين ، أن المعراجية منهما مزودة بزاد التبدلي ، وليست الدائمة هكذا ، فإن الحياة الرسالية وفي الأرض وبين الناس ، تتنافى والتبدلي ، الذي هو تحلل عن كل شيء ، وتقافل حتى عن نفسه فضلاً عن سواه ، إلا الله والله فقط .

إن صاحب المعراج رأى ربه هناك بنور اليقين ، وعلى حدّ المروي عنه عليه السلام : « لم أره بعيني ورأيت به بفؤادي مرتين » جواباً عن سؤال : هل رأيت ربك ؟ ثم تلاه ثم دنى فتدلى <sup>(٢)</sup> وقال : « نوراني أراه » <sup>(٣)</sup> : أن « خرق له في الحجب مثل سم الإبرة فرأى من نور العظمة ما شاء الله أن يرى » على حدّ المروي عن الإمام الرضا عليه السلام <sup>(٤)</sup> وما نور العظمة بعد خرق الحجب إلا نور المعرفة النهائية ، الممكنة لمن سوى الله .

« ولقد رآه نزلة أخرى » : وقد توحى أن الرؤية الأولى كانت عند النزلة الأولى ، وبعدما وصل إلى عمق من المعراج : سدرة المنتهى ، وأنه عليه السلام عرج

(١) التوحيد للصدوق بإسناده إلى محمد بن الفضيل قال : سألت أبا الحسن (ع) هل رأى رسول الله (ص) ربه عز وجل ؟ فقال : نعم بقلبه رآه ، أما سمعت الله عز وجل يقول : ما كذب الفؤاد ما رأى ، لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد .

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٢٤ - أخرجه جماعة عن كعب القرظي عن بعض الأصحاب عنه (ص) ..

(٣) الدر المنثور أخرجه مسلم والترمذي وابن مردويه عن أبي ذر قال سألت رسول الله (ص) هل رأيت ربك ؟ قال : ..

(٤) القمي بإسناد متصل عن علي بن موسى الرضا (ع) في حديث .

هكذا مرتين : (١) فلكل نزلة عروج ، وعلى الرؤية هنا وهناك كانت بين النزلة والعروج ، حينما كانت المعرفة بالغة الذروة ، والتدلي إلى النهاية ، .. ولماذا عند النزلة ؟ إذ هي النهاية في سير المعراج فهي أعلى المعراج ، ولأن النزلة قد تعني نزوله عن كافة الإنبيات ، وخروجه عن جميع الحجابات ، ولحد الصفر واللاشيء ، إذ يترك وراءه كل شيء ، فلا يرى أي شيء ، وإنما يرى خالق كل شيء ، وقد أصبح بتمامه عيناً وبصيرة ، فرآه في هذه النزلة وبين منتهى المعراج ومبتدئه النزول ، رآه كما يمكن أن يراه .

وترى أين رآه ؟ - لو صح هنا - « أين » ؟ وهل إن الرؤيتين هما في مقام واحد ؟ ... إنه رآه « عند سدره المنتهى » عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدره ما يغشى .

فهناك أفق أعلى ، ثم دنو ، ثم تدل ، ثم وحي ، وبهذا الأخير تتم الرؤية عند سدره المنتهى وما فوقها ، فما هي السدره ؟ وما هو منتهىها ؟ وما هي غشائها ؟ .

قد توحى « عندها جنة المأوى » ان سدره المنتهى فوقها ، أو تحيط بها ، وإلا فلماذا لم يقل « عند الجنة المأوى » ؟ .. فهذه العندية توحى تماماً بما استوحيناه .

فقد وصل الرسول ﷺ وهو حي لم يميت ، وصل إلى أشرف وأعلى من الجنة المأوى ، وهنالك ليس إلا مقام صاحب المعراج ، إذ تركه صاحبه جبرئيل عند سدره المنتهى قائلاً : « يا محمد ! إن هذا موقفى الذي وضعني الله عز وجل فيه ، ولن أقدر على أن أتقدمه ، ولكن امض أنت أمامك إلى السدره فقف عندها ،

(١) كما في أحاديث عدة، مثل ما مضى عن الصادق (ع) في جواب أبي بصير عن قوله : كم عرج برسول الله (ص) ؟ فقال : مرتين .

فتقدم رسول الله ﷺ وتخلف جبرئيل عليه السلام<sup>(١)</sup> وقال : « تقدم يا رسول الله ﷺ ! ليس لي أن أجوز هذا المكان ولو دنوت أنملة لاحتقرت »<sup>(٢)</sup> .

وقد تلمح « رآه نزلة أخرى » ان هناك مقاماً فوق السدرة عله العرش ، أو حجب النور ، أو هما واحد<sup>(٣)</sup> فالرؤية الثانية كانت عند السدرة حين النزلة ، فهي إذا منزل هذه الرؤية ، فليكن فوقها مقام أعلى حق ينزل منها إلى السدرة ، ولكي تتحقق الرؤية الثانية في النزلة عند السدرة ، وكما يروى عن صاحب السدرة : « فلما جاوزت السدرة انتهيت إلى عرش رب العالمين جل جلاله »<sup>(٤)</sup>

(١) علل الشرايع بإسناده إلى حبيب السجستاني قال قال أبو جعفر (ع) : يا حبيب « ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى » يعني عندها وافى به جبرئيل حين صعد إلى السماء فلما انتهى إلى محل السدرة وقف جبرئيل دونها وقال : يا محمد ! ... وفي بصائر الدرجات عن الصادق (ع) حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فقالت السدرة : ماجازني مخلوق قبل .

وفي تفسير القمي إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر (ع) قال : فلما انتهى به إلى سدرة المنتهى تخلف عنه جبرئيل (ع) فقال رسول الله (ص) في هذا الموضع تخذاني ؟ فقال : تقدم أمامك ، فوالله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه خلق من خلق الله قبلك فرأيت من نور ربي وحال بيني وبين السبعة ، قلت : وما السبعة جعلت فداك ؟ فأومى بوجهه إلى الأرض وأومى بيده إلى السماء وهو يقول : جلال ربي ثلاث مرات .

أقول : عل السبعة هي تنزهه تعالى عن المكان . فاللامكان حال بينه وبين ربه ، أي لم يبق فصل وحجاب الإحجاب الذات اللامكان .

(٢) المناقب عن ابن عباس في حديث المعراج : فلما بلغ إلى سدرة المنتهى وانتهى إلى الحجب ...

(٣) نور الثقلين ٣ : ٩٩ عن توحيد الصدوق عن الإمام موسى بن جعفر (ع) سئل : لأي علة عرج الله عز وجل نبيه إلى السماء ومنها إلى سدرة المنتهى ومنها إلى حجب النور وخاطبه وناجاه هناك ؟ أقول فالعرش في حديث آخر لغير عرش المعرفة ومنتهاها لغير الله .

(٤) الخصال للصدوق عن علي (ع) أن الرسول (ص) قال في وصيته له (ع) : يا علي : اني رأيت اسمك مقروناً باسمي في أربعة مواطن فأنتست بالنظر إليه - إلى قوله - فلما انتهيت إلى

فقد « على فاستعلى فجاز سدره المنتهى وكان من ربه قاب قوسين أو أدنى »<sup>(١)</sup> .  
هذا ، ولكننا الأعلى هذا قد لا يتطلب وحياً ورؤية أعلى ، فإنها معرفية وفي  
المكانة ، لا لشرف المكان فقط ، أو أن تلقى الوحي وإدراك الرؤية ، إنما كان  
عند النزلة ، إذ إنه ﷺ قبل النزلة كان في واقع الرؤية ولمّا يدركها ، لأنه  
انمحي عن كونه وكيانه بما تدلى في مقام أو أدنى ، ثم عند النزلة رأى الرؤية ،  
وتلقى الوحي أم أوحى إليه فيها ، وكما أوحى في سائر السماوات<sup>(٢)</sup> .

ثم ما هي سدره المنتهى ؟ هل هي فقط المكان الأعلى فوق السماء السابعة  
العليا ؟ فبمجرد أنه مكان لماذا لم يسمح لجبرئيل ولا لأحد ممن سوى رسول الله  
ﷺ أن يدنو منها ! فلا بد أن تكون مكانة عليا ، وإن كانت في مكان أعلى  
فإن عندها جنة المأوى ، فلن تصل أهل الجنة إليها مكاناً ولا مكانة .

ولأن الرؤية المعرفية لاحت عندها ، وليس لهذه الرؤية مكان ، فلتكن  
مكانة فيها تتكشف الحجب ، فيتحقق مقام « دنى فتدلى » لكي يوحى إلى عبده  
ما أوحى ! .

مركز تحقيق كتاب نور علوم رسول الله ﷺ

نجد هنا تجاوباً تاماً بين ما يتطلب موقف السدره ، وما تعنيه لغة السدره .  
فالسدره واحدة السدر ، أو هيئة خاصة منه ، من سدر البصر : لم يكدر  
يبصر ، والبصر تحير من شدة الحر ، والصادر المتحير ، والسدر : اسدوار البصر  
وتحيره ، وكل هذه تجمعها صيغة واحدة : الستر والظل ، سميت بها شجرة السدر

⇒

سدره المنتهى وجدت مكتوباً عليها : اني انا الله لا إله إلا أنا وحدي ، محمد صفوتي من  
خليقي ، أيده بوزيره ونصرته بوزيره ، فقلت لجبرئيل : من وزيري؟ فقال : علي بن أبي  
طالب ( ) فلما تجاوزت السدره انتهيت الى عرش رب العالمين جل جلاله .

(١) الاحتجاج للطبرسي حديث طويل عن الامام زين العابدين علي بن الحسين (ع) : أنسا  
ابن من على ..

(٢) كما يدل عليه الحديث رقم (١) « ومنها الى حجب النور وخاطبه وتاجاه هناك » .



لكثرة غناها في الاستظلال بسعة اوراقها ، فهي من شجر الجنة : « واصحاب اليمين ما اصحاب اليمين . في سدر مخضود » ( ٥٦ : ٢٨ ) .

وبما ان ورقها تظل ظلاً واسعاً، وتنظف عن الدرن، عبر عن مقام التدلي بسدره المنتهى: منتهى السدره: منتهى السترة والحجاب عما سوى الله، وغاية النزاهة عن أدرائها ، وانما سميت المنتهى لذلك ، ولانها منتهى علم الخلائق ، ثم ليس لأحد ورائها علم ، فانه من الغيب المخصوص بالله ، فلما تستر وتحجب في ذلك المقام عن سوى الله ، رأى الله ببصيرة صافية دون حجاب ، اللهم الا حجاب الذات ، وبما ان السدره - كذلك - هي الحيرة، اصبح الرسول ﷺ في منتهى الحيرة لما وصل الى منتهى المعرفة الالهية الممكنة له دون من سواه ، فاحتجب عن سوى الله ، فاخرق الحجب بينه وبين الله : احتجب حتى عن نفسه فتدلى ، بعدما احتجب عن غيره إذ دنى « فكان قاب قوسين او ادنى » . فاوحى الى عبده ما اوحى ، وعلى حد المروي عن صاحب السدره : « انتهيت الى سدره المنتهى واذا الورقة منها تظل امة من الأمم فكنت من ربي كقاب قوسين او ادنى » (١) إذا فأوراقها تظل وتحجب كافة الأمم من كائنات العالم ، وقد استظل صاحب السدره في ظلها واحتجب عن الكائنات كلها ، واخرى منها ما في رواية اخرى : « ان الورقة منها تظل الدنيا » . (٢) فاذا ورقة منها تظل الدنيا ، فأوراقها كلها تظل الآخرة والدنيا ، دون ان تبقي ظلاً الا ظل الذات المقدسة : !

و « عند هاجنة المأوى » تصريحه على كونها فوق السماء السابعة ، محيطتها، فتجاوب الآيتين الصريحتين ان سعة الجنة سعة السماوات والارض : « وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والارض » ( ٣ : ١٣٣ ) . . . كعرض

(١) القمي : حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن هشام عن أبي عبد الله (ع) قال قال النبي (ص) :

(٢) قرب الاسناد للحميري بإسناده الى أبي عبد الله (ع) عن أبيه عن جده قال قال رسول الله (ص) : ..

السماء والأرض » ( ٥٧ : ٢١ ) فيسقط سؤال : اذا كان عرض الجنة السماوات والارض فابن النار ؟ وبما ان الجنة الآن موجودة فلتكن السماوات والارض الآن كلاهما الجنة ؟ فان آية السدرة تجيب عنها : ان الجنة المأوى هي عند سدرة المنتهى ، فوق السماء السابعة وتحت العرش ، فلتكن النار تحتها ، ثم لاجنة الآن في هذه السماوات والارض ! الا البرزخية لأهل البرزخ ، وليست هي جنة المأوى .

« اذ يغشى السدرة ما يغشى » : فهناك السدرة مغشية كما هي غاشية ، مغشية بحجاب الذات المقدسة الإلهية ، وغاشية كل ما سوى الذات المقدسة وعلى الكل ، فكما السدرة خرقت كل الحجب بينه وبين الله ، كذلك لم تبق مكشوفة دون حجاب ، وانما غشيتها ما يغشى : الذات المقدسة الإلهية التي تغشى دوماً إلا دون ذاتها ، فهناك في مقام التدلي لم يبق أي حجاب إلا خرقتها السدرة ، اللهم إلا حجاب الذات ، الدائبة دوماً أمام العارفين « اذ يغشى السدرة ما يغشى » (١) ونعم ما ينشد الشاعر الفارسي عن هذه الحالة المعراجية :

|                              |                              |
|------------------------------|------------------------------|
| خيمه برون زد زحدود وجهات     | پردۀ او شد قشوق نور ذات      |
| تیرگی هستی از او دور گشت     | پردگی پردۀ آن نور گشت        |
| کیست کز آن پرده شود پرده ساز | زمزمه ای گوید از آن پرده باز |

ويقول آخر :

در آن دیدن که حیرت حاصلش بود دلش در چشم و چشمش در دلش بود  
فلقد أصبح كله بصرأ روحياً دون زيغ ولا غواية فيما رأى :

في هذا المقام حصل له من الزلفى ما لم يحصل لأحد من الخلق ، ولا لجبرائيل واسرافيل ، إذ « إن بينها وبين الله أربعة حجب : حجاب من نور وحجاب من

(١) القمي في تفسيره قال (ع) : لما رفع الحجاب بينه وبين رسول الله (ص) غشي نور السدرة.

ظلمة وحجاب من الغمامة وحجاب من الماء » (١)

« ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

إلى هنا كانت الرؤية المعراجية نصيب البصيرة والفؤاد ، و « ما كذب الفؤاد ما رأى » ثم نصيب البصر أنه رأى من آيات ربه الكبرى .

فالبصر ما زاغ : لم يمل عن جهة المبصر إلى غيره ميلاً يدخل عليه به الاشتباه ، حتى يشك فيما رآه ، وما طغى : أن يجاوز المبصر ويرتفع عنه ، فيكون مخطئاً لإدراكه ، ومتجاوزاً لمحاذاته ، فلم يقصر البصر عن المرئي فيقع دونه ، ولم يزد عليه فيقع وراءه ، ولم يتجاوز الحد المحدود في عمله : أن يبصر الرب أو يحاول في إبصاره ، أو أن يتعدى بعض الآيات الكبرى إلى كلها ، وإنما « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ف « من » توحى بالتبويض ، كما وأن « ربه » يلمح بأنها الآيات الكبرى الربانية ، فالصيغة الجامعة هنا « فرأى محمد ﷺ ببصره من آيات ربه الكبرى » (٢) كما رأى ببصيرته ربه سبحانه وتعالى .

وإذا كانت الآيات الآفاقية الكبرى مشمولة لما رآه صاحب المعراج ، فأحرى بالآيات الأنفسية : الكروبيين الكرام ، وأنبياء الله العظام وأوليائه : أن يكونوا ممن رآهم في المعراج ، وكما وردت بذلك كله أحاديثنا (٣) .

(١) تفسير القمي بسند عن الصادق (ع) حديث المعراج الطويل ، فعجاب النور هو حجاب ذات الألوهية ، وحجاب الظلمة ظلمة المحدودية والإمكان فيها كما في الكائنات كلها ، إلا من دنى فتدلى ، وحجاب الماء والغمامة ، عليهما حاجيات الحياة ، التي تناسها صاحب المعراج كما تناسى نفسه .

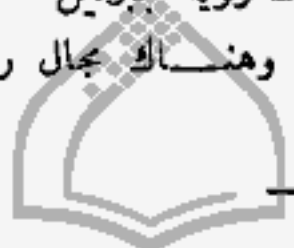
(٢) علل الشرايع للصدوق بإسناده إلى حبيب السجستاني عن أبي جعفر (ع) في حديث طويل . . .

(٣) المصدر بإسناده إلى حفص بن غياث أو غيره قال سألت أبا عبد الله (ع) عن هذه الآية - قال : رأى جبرئيل على ساقه الدر مثل القطر على البقل ، له ستائة جناح قد ملأ ما بين السماء والأرض ، واخرج مثله أبو الشيخ عن ابن مسعود ( الدر النثور ٦ : ١٢٥ ) . أقول وهذه

« أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى ، ألكم الذكرو له الانثى .  
تلك اذا قسمة ضيزى »

فما اظلمها قسمة بينهم وبين الله ، أن أربابهم المزيفة الثلاثة ترى ، ولكن الله تعالى لا يرى ، مما اختلفت الرؤيتان بصراً وبصيرة ، أو أن لهم الذكر وله الأنثى ، إذ يجعلون لله ما يكرهون ، ولهم ما يحبون « تلك » : القسمة في الرؤية وفي الذكورة والأنوثة « اذا قسمة ضيزى » : ظالمة جائرة ، فان ضاز بمعنى جار وظلم .

فاذ قد ترون انتم آلهتكم ، فلماذا تمارون الرسول اذ يقول : رايت ربي بقلبي ، ولو ان الرؤية الممارى فيها كانت رؤية جبرئيل ، انتفت الصلة بينها وبين رؤيتهم اربابهم ، فالجهال هنا وهناك مجال رؤية الارباب ، دون الملائكة واضرابهم ! .



صورته الحقيقية الملكوتية .  
وفي التوحيد للصدوق عن علي (ع) في الآية : « رأى جبرئيل في صورته مرتين هذه المرة ومرة أخرى ، وذلك أن خلق جبرئيل عظيم فهو من الروحانيين الذين لا يدرك خلقهم إلا رب العالمين .

وفي أحاديث عدة أنه (ص) أرى النبيين (ع) أجمع فصل بهم وسأهم عن أشياء كما قال الله : « واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » كما رواه فيمن رواه القمي في تفسيره بسنده عن ابي عبد الله (ع) .

وفي تفسير القمي بإسناده الى ابي بردة الأسلمي قال : سمعت رسول الله (ص) يقول لعلي يا علي ! إن الله اشهدك معي في سبع مواطن ، اما اول ذلك فليلة اسري بي إلى السماء قال لي جبرئيل : ابن اخوك ؟ فقلت : خلفته ورائي ، قال : ادع الله فليأتك به ، فدعوت الله وإذا بمثلك معي ، الى قوله : واما السادس لما أسري بي الى السماء جمع الله لي النبيين فصليت بهم ومثالك خلفي ، وفي أصول الكافي بسند متصل عن ابي جعفر (ع) قال : كان أمير المؤمنين (ع) يقول : ما لله عز وجل آية هي اكبر مني ، اقول : يعني بعهد النبي (ص) فعين راى من آيات ربه الكبرى فعلي (ع) من اكبر آيات الله ، فليكن مثاله الحقيقي مما رآه (ص) مع امثلة سائر النبيين وسائر المكروبين ، واحاديثنا متظافرة أن علياً (ع) كان ممن رآه النبي ليلة المعراج .

وهذه الارباب : الاصنام الثلاثة ، كانت كأن لها الزعامة بين معبوداتهم ،  
وعليها - كما يقال - كانت تمائيل عن ملائكة ثلاث ، اعتبروهم بنات الله واخذوا  
يعبدون تمائيلهم ، وكما توحى به « ألكم الذكر وله الانثى » إذ لا صلة لها باللات  
والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، إلا إذا كانت تمائيل لها يعبدونها ، إذا فلها صلة  
باسطورة انوثة الملائكة ، وكما يلح من انوثة هذه الأصنام ايضاً .

ثم الاخرى في مناة الثالثة الأخرى ، عليها صفة ذم كما في أمثالها ، اي : مناة الآلهة  
: الثالثة الذليلة المتاخرة في المعبودية ، اذ كانت الاصنام طبقات كما كانواهم طبقات  
طبعية عارمة في العابدين والمعبودين .

« إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن  
يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى »  
إن هذه الأسماء ، ليس تحتها من معاني الألوهية شيء ، لا أصالة : أن تكون  
آلهة مستقلين ، ولا وكالة أن ينزل الله بها من سلطان ، فتكون آلهة موكلين ،  
وهم لا يتبعون في هذه التسميات إلا الظن : كل وهم أسطوري لا يملك أي برهان ،  
« ولقد جاءهم من ربهم الهدى » وهم يرفضونها إلى الهوى ، وإنما تقودهم ظنونهم  
وماتهوى الأنفس .

### أسئلة مطروحة حول :

الغزوة المعراجية المحمدية ومركبتها العجيبة

الرحلة الفضائية في نطاق العلم : في عمق الزمان والمكان :

ترى هل كانت الرحلة بالروح القدسية المحمدية دون جسم ؟ كما تقوّلها بعض !  
أو جسمياً دون روح ؟ كما تخرصها آخرون ! أو بكللا الجسم والروح كما يقول الله :  
« سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى التي باركنا  
حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » في الاسراء ، و « ما زاعج البصر » و  
« صاحبكم .. هو .. فأوحى إلى عبده » كما هنا في النجم ، فيا ترى إن الرسول

صاحبنا ببعضه ؟ أم بروحه وجسمه ؟ أو أن « عبده » هو روجه فقط  
أو جسمه ؟ فلماذا لم يقل : بروح عبده ! أو جسمه ؟ وإنما « بعبده » الشامل  
كليهما ، أو أن البصر المنفي عنه الزينغ والطغيان في السدرة ، هو بصر الروح ؟  
وليس إلا بصيرة ! أو بصر الجسم بلا روح ؟ وهو ميت لا يبصر ! أم كيف رأى  
ربه بنور اليقين عند السدرة التي عندها الجنة ، يحسم بلا روح ، أو روح بلا جسم !  
وهي دوماً في سدرة المعرفة وقد رأى هناك من آيات ربه الكبرى ببصره وهو  
في جسمه كما رآه هو ببصيرته وهي قلبه ، فانها المعراج بكلا الروح والجسم .

فما يروى عن عائشة رضي الله عنها ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله أسرى  
بروحه <sup>(١)</sup> يعارض هذه الآيات من عدة جهات ، وانه صلى الله عليه وسلم بنى بها بعد الهجرة  
بزمان ، وكان الإسراء بمكة قبل الهجرة بزمان من المسجد الحرام ، .. كلا لا ذا ولا  
ذاك ، وإنما عرج النبي بكاه ، وكما كان في الأرض ، أسري به من المسجد الحرام  
الى المسجد الأقصى ، ثم عرج به من الأقصى الى أقصى السماوات والى سدرة المنتهى  
وما فوقها ! لو لم تقصد من الأقصى نفسها <sup>(٢)</sup> .

وعلى ما يروى لم يشغل المعراج ذهاباً وإياباً ووقفة هناك إلا زهاء ثلث الليل ولنفرضه  
أربع ساعات ، فإن البليارات البليارات من السنين الضوئية لا اجتياز قطر السماوات  
واين أربع ساعات ، فهل إن العلم يتحمل تصويره فضلاً عن تصديقه ؟ !

(١) الدر المنثور : أخرجه ابن اسحاق وابن جرير عن عائشة قالت : ..

(٢) بحار الانوار ج ١٨ الطبعة الحديثة ص ٣٣٩ من الاحتجاج للطبرسي عن علي (ع) قال :  
« لقد أسري برسول الله من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى في أقل من ثلث ليلة » أقول :  
لا يعني انه وقت المعراج الأرضي فحسب ، وإنما المدة التي شغلته حتى رجع الى مكة ، وقد  
يعنى من المسجد الأقصى - وهو أقصى المساجد وأبعد ما الى المسجد الحرام - قد يعنى المسجد  
الذي هو في سدرة المنتهى ، فليس الذي في القدس هو الأقصى وإنما مسجد الكوفة ، وإن سمي  
أقصى فعلمها لكونه مراجعاً للأقصى الذي في السدرة .

اقول : المعراج ، حسب المستفاد من آيات الإسراء والنجم في وجهه (١) ، له رحلتان : الرحلة الأرضية ، والرحلة الفضائية في العمق ، فالأولى هي سري النبي ﷺ من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، والثانية عروجه من المسجد الأقصى الى أقصى الآفاق ، وكما يوحى بها ايضاً « نبوءت هيتلد » في النص الانقلاوسي : « وأرُيِّل كِسْها » .. ان محمداً سوف يذهب ويطير ، فذهابه سريه ، وطيرانه عروجه .

ثم لا ريب ان الرحلة الفضائية المعراجية بمقدماتها وخلفياتها ، إنها من المعجزات ، ورغم عجز العلم عن تحقيق عملية الإعجاز وعن تفهمها ايضاً ، فمن الثابت أن المعجزة لا تنافي العلم ، فقد يفسرها العلم ، وقد يعجز عن تفسيرها ، إلا انه لا يحيلها ، فان الآية المعجزة ليست لتخرق وتبطل القوانين الكونية - ما وصل العلم اليها وما لم يصل - وانما تخترق - مطلة عليها - اسبابها الخفية ، ومدى تأثيراتها ، وزمن الحصول على مفعولاتها ، لحد يعجز عنها سوى الله ، إلا من يجرى الله على يديه او لسانه ام ماذا . . . كآية تدل على انه رسول من الله .

فالآية المعجزة ليست بلا أسباب ، او بما تقصر عن التسبب ، وانما باسباب خفية عن العلم ، او ظاهرة له بعيدة عن القدرة غير الإلهية ، او انها بارادة مسبب الاسباب ، دون اسباب تعودناها ، فليس اذاً بإمكاننا تحليل عواملها ، مهما تمكنا من تحليل كيفية وقوعها ، او امكانيتها علمياً ، وقد لانتمكن من الحصول على الإمكانية العلمية ، ولكنه ليس ليدل على عدم الإمكانية الواقعية او العقلية .

لقد كانت الهيئة البطليموسية تحيل المعراج الجسماني لاستلزامه الخرق والإلتيام ، اذ كانت تعتبر الارض مركزاً للكون ، والفضاء الخارجي أفلاكاً زجاجية مركبة من طبقات تسع ، سبعة منها مدارات خاصة للسيارات السبع التي تنزلق داخلها كما تنزلق الكرة على صفحة الزجاج ، واما الفلك الثامن فكان مسرحاً للنجوم الثوابت ، بينما كان الفلك التاسع خالياً عن النجوم .

(١) أن يكون المسجد الأقصى هو الذي في القدس .

فبحساب هذه الهيئة ، تكون الافلاك التسعة على الشكلية البصلية كالزجاج : لا تقبل الحرق والإلتيام .

ولقد نسفت هذه الهيئة بأسطوراتها منذ زمن بعيد ، بالناسقات القرآنية والعلمية معاً ، ثم خلفتها بعض النظريات في غزو الفضاء ، اذ ما كانت تعرف سرعة اكثر من مائة ك . م في الساعة ، وغزو انفضاء يتطلب - لاقل حدوده - ١١ ك . م في الثانية ، حتى نفسها اختراع الاغلفة المختلفة التي يحافظ على طائرات وصواريخ تسير بسرعة ٢١ ك . م في الثانية .

ثم بقيت هناك في السرعة المعراجية مشاكل تحول دون تصديقها علمياً ، كمشكلة السرعة والحرارة ، فالسرعة - ولا سيما الحارقة المعراجية - تخلق حرارة تناسبها ، لحد تصبح المركبة كأنها الحرارة نفسها ، وفي القمة التي لا يبقى اي عنصر كنفسه ، وكذلك تصطدم بالشهب والنيازك النارية ، وبنيازك الهواء نفسها ، فالمركمة المعراجية اضافة الى تبدها بحرارة فوق التصور ، تقصف ببليارات من قاذفات النيازك الشهابية ، والهوائية ، مما تقلل عن حركتها وتعرقل دون سرعتها وتفجرها في طريقها ، فهذه من ناحية .

ومن جهة اخرى ، فان النظرية النسبية لأينشتين تفيد : أن اقصى سرعة ممكنة في الكون هي سرعة الضوء : ٣٠٠ . ٠٠٠ ك . م في الثانية <sup>(١)</sup> ويبرهن هو

(١) يقول اينشتين : « ان كتلة تصور مجموعة من الأجسام يمكن ان يعتبر دليلاً على مقدار طاقتها ، وعلى ذلك يصبح قانون بقاء كتلة مجموعة ما مطابقاً لقانون بقاء الطاقة للمجموعة نفسها » ( النظرية النسبية الخاصة والعامة لألبرت اينشتين - ترجمة دكتور رمسيس شحاته ص ٤٨ ) .

ويقول : « ان طاقة الحركة هو لنقطة مادية تتحرك لم يحددها المقدار المعروف ك ع / ٧ / ٧ بل يعبر عنها بالتعبير ك ع / ٣ / ٣ ع / ٣ ح / ٣ وهذا المقدار يقترب مما لا نهاية كلما اقتربت السرعة - ع - من سرعة الضوء - ح - وعلى ذلك يجب ان تظل السرعة دائماً أقل من - ح - مهما كبرت العجلة » ( المصدر ص ٤٦ ) والنتيجة ان : اي جسم مادي لا يمكن ان يساوي في سرعته سرعة الضوء .

( الفرقان - م ٢٧ )



وغيره على ذلك ببراهين علمية : أن أي جسم لا يستطيع ان يبلغ في سرعته سرعة الضوء ، الا ان يتبدل ضوء <sup>(١)</sup> .

فلنفرض ان جسم النبي في السرعة المعراجية أصبح ضوء ، إلا أن اربع ساعات : التي قدرت للسفرة المعراجية ، لا تكفي إلا لاجتياز ... ٧٣٢ كم.م التي لا توصله الى آخر الكواكب من المنظومة الأدنى ( الشمسية ) للمجرة الأدنى ، وهو ( بلوتون ) حيث تفصل عن الارض ٥٥ ساعات ضوئية ، في حين أن قطر البعض من ملايين المجرات في السماء الاولى - فقط - ملايين من السنين الضوئية ! ، وبعض نجومها تبعد عنا اكثر من مأتي الف مليون سنة ضوئية ! فقطر السماء الاولى - سماء الانجم - بليارات بليارات من السنين الضوئية ، فكيف بالسموات الست الاخرى ! .

إلا أن النظرية الضوئية ما لبثت كثيراً إلا وقد نسفت ، أولاً : بما يأتي من امكانية تحقق هذه السرعة واكثر دون تبدل بالضوء ، على ضوء تقدم الطاقات في المركبات الفضائية ، كما يقول بعض العلماء ، وأن الفواصل بين النجوم ليس فيها الهواء او يقل ، فانها خلأ لا تمنع وتعرقل السير هناك ، فلا تخلق حرارة زائدة كذلك .

وثانياً بأمواج الجاذبية ، اذ يعتقد بعض العلماء ان باستطاعة امواج الجاذبية ان تقطع المسافات من دون ان تستغرق أي وقت من الزمان .

يقول « كيوركيو » : بإمكان امواج الجاذبية قطع المسافات التي تقاس بالآلاف الملايين من السنين الضوئية في لحظة واحدة ، فلو ان مجرة في آخر الكون تبدلت الى أمواج ، فان الجاذبيات المتعادلة في الكون تغير من مواقعها فوراً ، وهكذا

---

(١) يقول لينكلن بارنت « ان أي جسم يبدو انه يفقد طوله كلما اقتربت سرعته من سرعة الضوء فانه يفقد طوله بمقدار ٩٠ ٪ / ثم يزداد للنقص بشكل أسرع حتى اذا وصل الجسم الى سرعة الضوء فانه لن يبق له جسم طولى بتاتاً .

يكون رد الفعل للجاذبية بلا زمان ، ولو أن رد الفعل الجاذبي كان يحتاج في قطع المسافات الى الزمان ، لكانت نتيجة تبدل المجرة - السابقة الذكر - الى امواج يؤدي الى تفجر كافة المجرات ايضاً ، والتبدل الى امواج ، وذلك بفعل المصادمات العنيفة التي تقع في الكون بين المجرات <sup>(١)</sup> .

فهذه السرعة - اذاً - تنسف السرعة القصوى الضوئية ، واذا كانت امواج الجاذبية تتحمل هذه السرعة دون زمان ، فهل الجاذبية المحمدية - وفي معجزة إلهية - لا تتحمل سرعة أقل منها ، أن يتم معراجه مرجعاً في أربع ساعات ؟ ! .

ومع الغض عن ذلك ايضاً ، لنفرض أن سير المعراج يتطلب أشهراً ، أن يتباطأ النبي في سيره أقل من الجاذبية بكثير ، حتى يتطلب زماناً طويلاً ، إلا أن الثابت قرآنياً ، ومن ثم علمياً لحد ما : ان الزمان خارج منظومتنا يختلف تماماً عن زماننا ، فقد يكون شهر من الزمان نقضيه خارج المنظومة ، لا يساوي إلا ثانية بالنسبة لتوقيت أرضنا ، وذلك لاختلاف الأوضاع والقوانين في مختلف المنظومات والمجرات ، كما وأن لكل من كرات منظومتنا أيضاً قوانين خاصة . إذا فمشكلة السرعة والزمان ، وهما أم<sup>٢</sup> المشاكل في هذه الرحلة الفضائية ، إنها نسفتا بأيدي العلم ، فضلاً عن مشاكل أخرى هي دونها فأكثر نسفاً ! .

### مشكلة الحرارة :

اختلاف درجات الحرارة في مختلف طبقات الجو ، إضافة إلى حرارة فوق التصور ، تختلفها السرعة المعراجية <sup>(٢)</sup> بين الضوء والجاذبية ، إنها تشكل خطراً

(١) محمد نبي يجب معرفته من جديد ( ويعتقد العلماء ان سرعة الابتعاد تتناسب طردياً مع مقدار بعدها عنا ، فكلما كانت المجرة أبعد كانت سرعة ابتعادها أكثر .

(٢) فإن السرعة من أهم العوامل لايحاد الحرارة ، لحد تجمع من الجسم أبسط الذرات ( ثيودورجين ) لكي تعمل الحرارة الزائدة .

على حياة صاحب المعراج ، لا فحسب ، بل فليتحول طاقة بين النور والجاذبية حتى يتمكن من هذه السفرة الفضائية .

وأول ما يحمد هذه الحرارة الخارقة هو القدرة الإلهية التي تجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، إضافة إلى أن محمداً ﷺ ركب مركبة مغلقة فيها كل المعدات لتلك السفرة العجيبة - علة : البراق ، على حد ما سماها ، وقد تدل أوصافها المروية على هذه الإعدادات ، التي لا تيسر لمن سوى الله ، ولأنها معجزة الله وكما أشرنا مسبقاً : أن أهم ما يزيد في درجة حرارة المركبة هو الإصطدام بالفضاء ، فوجود الخلاء في مسيرها بإرادة الله ، يزيل مشكلة الحرارة ، وكما يزيل مشكلة السرعة الخارقة التي تتطلبها الرحلة المعراجية ، فعلى فرض الخلاء في مسيرها ، وانها تنجذب يجذب القدرة الإلهية ، ومعدة بمحازات مكافحة ، تُنسف كافة العراقيل العشر ، المتصورة ، دون الرحلة المعراجية .

إن المسير الخلاء يساعد بآلاف الأضعاف على سرعة المركبة ، والحفاظ على موقعها الحراري ، وهذا الخلاء موجود فعلاً بين الكواكب ، وكما يقول بعض العلماء بأن المركبات الجوية وصواريخها سوف تتمكن أن تسرع زهاء سرعة النور وما فوقها ، لحدّ نتمكن أن نجول عمق الفضاء الشاسعة .. (١) .

فإذ يتمكن الإنسان الضعيف الضعيف أن يصنع مركبات هكذا ، فماذا تظن بخالق الإنسان القوي القوي !

(١) ماذا أعلم - تأليف Jean Pelandini ص ١٣١ : يقول : وان الفكر الاخصائي الشهير الالماني ( دكتور اوجن ساكر ) هكذا يتنبأ ، ان مكانيك الطيران لصواريخ ( يوني ) او ( فوتوني ) مما يشهد لتغيير مفهوم المسافة والزمان والفضاء والسرعة .

ثم يستمر المؤلف قائلاً : ان نظرية النسبية بالنسبة للصواريخ التي سوف تحرق الجو بسرعة الضوء او ما فوق الضوء ، انها تجعلنا نفكر في تسخير عوالم جدد ، فبموجب هذه النظرية نتأكد اننا سوف نجتاز مسافات بعيدة هي بالقياس الى أرضنا لا نهاية : بأن نعد الصاروخ بقدر خاص من المواد المحترقة المحركة ، المناسبة للصاروخ ، فنصل الى حدود الكون .

ولا بأس هنا باستعراض بقية المشاكل العشر بصورة وجيزة كالتالي :

### مشكلة الجاذبية :

هذه المشكلة إنما هي بالنسبة لما يسرع أقل من ثمانية ك. م في الثانية : سرعة دوران الأرض حول محورها ، وإذ تتخطا المركبات البشرية هذه المشكلة ، بما تسرع أكثر من ٨ ك. م - فماذا على المركبة الإلهية التي تسرع كأمواج الجاذبية أو دونها ؟ إضافة إلى تجاذب آخر بين صاحب المعراج وربه سبحانه وتعالى . كما وأن مشاكل : انعدام الوزن <sup>(١)</sup> وتخطي الغلاف الجوي <sup>(٢)</sup> والتخلص من الشهب <sup>(٣)</sup> وانعدام الأوكسجين <sup>(٤)</sup> والأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية <sup>(٥)</sup> والأشعة الكونية <sup>(٦)</sup> - هذه المشاكل كلها تندحر وتفسف ، بعدما عرفنا المركبة

(١) حيث الوزن هنا ليس الا نتيجة الجاذبية الأرضية ، فالبعد الكثير عنها يفقد الوزن ، ولكن المركبة المعراجية تحل هذه المشكلة وأخرى مما حلتها (ابولو) وغيرها .

(٢) يتشكل الغلاف الجوي من خليط من الغازات المحيطة بالأرض ، ويحدث فيه خلط مستمر للهواء نتيجة التيارات الصاعدة والهابطة ، ويمتد غلاف الأرض فيما وراء ٩٦٥ ك.م ، ويعتبر هذا الغلاف الجوي للأرض المركب من عدة عناصر ، بمنزلة مظلة واقية للأرض من الشهب والنيازك النارية وسواها ، كما أنه من موانع الرحلات الفضائية ، لأنه يؤدي الى الاحتراق لو لم تكن سرعة المركبة متوازنة مكافئة ، ولكن مركبة المعراج ، فيها كافة المعدات والمكافعات ! .

(٣) وكما تكافح هذه المركبة بصلابة غلافها الشهب وما فوقها .

(٤) والأوكسجين الضروري لصاحب المركبة موفرة في داخلها ، وحينما يخرج صاحب المعراج فليس من الصعب أن يختصه الله بما يبقي حياته خارجاً عن المركبة ، كما وأن المركبة ليست ضرورية لهذه وتلك كما قدمناه .

(٥) وأما الأشعة فوق البنفسجية وهي الاجزاء غير المرئية من أشعة الشمس ، البالغة الخطورة ، وكذلك الأشعة السينية (x) النابعة من الشمس أيضاً ، هاتان الأشعتان مهما كانت أخطارهما ، فليستا شيئاً يجنب المركبة المعراجية ، بعد أن تكافحها المراكب الفضائية البشرية .

(٦) وهي لم نعرف مصدرها ، وتكافح في أخطارها بما كافحتها المركبة المعراجية ، فكل هذه المشاكل الست تجعل بعدما عرفنا مركبة المعراج وراكبها وجاذبها ومدى سيرها - والله أعلم .

المعراجية وراكبها ، وجاذبها ، وحركتها ، وفوق كل ذلك القدرة اللانهائية الإلهية .

ومن ثم فننظر هل إن المركبة المعراجية هي الجاذبة الإلهية ، دون أية وسائط؟ كما قد توحى بها آية الإسراء : « أسرى بعبدته » وآيات النجم خلوة عن التلميح بآية مركبة تحملها ، وإن لم تعارض ما يدل على مركبة أخرى .

أو أنه جبرئيل أو ميكائيل وإسرافيل <sup>(١)</sup> الحديما ، إلى سدرة المنتهى ، ثم منها إلى ما فوقها لم تكن إلا جاذبة واصبة إلهية ، كما لم يكن بينه وبين الله أحد حتى نفسه في مقام التدلي ؟ \*

أو أنه أمواج الجاذبية بما قدر الله كما قد يشير إليها الحديثان : « فأتى بالمعراج ... فعرج به إلى السماوات سماء سماء » <sup>(٢)</sup> « فوضع له مرقاة من ذهب و مرقاة من فضة وهو المعراج حتى عرج جبرئيل والنبي ﷺ إلى السماء » <sup>(٣)</sup> فلعل المرقاة الذهبية والفضية هي أمواج الجاذبية أو باب المعراج السماوى : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون » ( ١٥ : ١٥ ) : الباب التي عرج فيها الرسول ﷺ بالجاذبية التي عرج بها ومعه جبرئيل ، فهي مرقاة جبرئيل وأمثاله من عارجي السماء دوماً ، لا تفتح لغيرهم من العارجين .

(١) نور الثقلين ٣ : ٩٨ - ح ٦ - احتجاج الطبرسي عن ابن عباس عنه (ص) : وحملت على جناح جبرئيل .. وفيه عن الصادق ( ع ) ان جبرئيل احتمل رسول الله (ص) حتى أتى به الى مكان من السماء .. وفي تفسير العياشي عن أبي عبد الله ( ع ) لما أسري بالنبي (ص) أتى بالبراق ومعه جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ... وفي تفسير القمي عنه ( ع ) جاء جبرئيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق الى رسول الله (ص) ... اقول : والأحاديث في حمل جبرائيل آياه أكثر .

(٢) الدر المنثور ٢ : ١٥٦ - أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن الواقدي عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي سبرة وغيره من رجاله عن رسول الله (ص) ..

(٣) الدر المنثور ٤ : ١٥٧ - أخرج الواسطي في فضائل بيت المقدس عن كعب عن النبي (ص) .

أو أنه « البراق » في الرحلة الأولى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم بغيرها إلى السماوات <sup>(١)</sup> أو أنه الحامل في رحلته <sup>(٢)</sup> إلى موقف جبرئيل في السماء ، ثم عرج الرسول وحده بما عرج .

ثم ترى ما هي مواصفات البراق ، الذي تحمله عشرات الأحاديث ؟ ولكي نتسلف بها مشاكل المعراج نسفة أخرى :

( براق ) اسم لم نعده لأي حيوان أو أية مركبة من صنع الإنسان ؟ مما يلح أنه مركبة سماوية ومن صنع السماء ، و « قد أتى بها جبرئيل من السماء » <sup>(٣)</sup> « خلقت لأجله عليه السلام ولها في جنة عدن ألف سنة » <sup>(٤)</sup> .

كما ويشير أنه من البرق ، تدليلاً على كونه في لمعانه وسرعته كالرعد والبرق . ومن مواصفاتها التي تقربها إلى أمواج الجاذبية أنه : « أضاء له عليه السلام كما تضيء الشمس » <sup>(٥)</sup> فكان « لها شعاع كشعاع الشمس » <sup>(٦)</sup> و « لو أن الله تعالى أذن لجالت الدنيا والآخرة في جرية واحدة » <sup>(٧)</sup> أو « كلمح البصر » <sup>(٨)</sup> كما مكانية

مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

- (١) كالجاذبة الإلهية والمحمدية بما مياها الله لها أم ماذا ؟ .
- (٢) الدر المنثور ٤ : ١٤٠ عنه (ص) « ثم أوتيت بدابة .. فحملت عليه فانطلق بي حتي أتى بي السماء .. » وفي تفسير البرهان ٢ : ٤٠٢ عن الصادق (ع) عنه (ص) فلما صرت عليه ( البراق ) صعدت إلى السماء .. ورويت الجنة .
- (٣) الدر المنثور ٤ : ١٤٠ عنه (ص) : « فأنا في جبرئيل بدابة بيضاء ... » .
- (٤) تفسير البرهان ج ٤ : ٤٠٥ عنه (ص) .
- (٥) الدر المنثور ٤ : ١٥٧ عنه (ص) ...
- (٦) تفسير البرهان ٤ : ٤٠٤ - ابن الفارسي عنه (ص) ...
- (٧) تفسير البرهان ٢ : ٤٠٤ في صحيفة الرضا (ع) قال رسول الله (ص) ..
- (٨) في ٤٠٥ البرسي عن ابن عباس عنه (ص) سأل جبرئيل ما سير هذه الدابة فقال : إن شئت أن تجوز بها السموات السبع والأرضين السبع فتقطع سبعين ألف عام وسبعين ألف مدة كلمح البصر .

السرعة القصوى لهذه المركبة المعراجية ، وإن « كانت خطاه بمدّ بصره »<sup>(١)</sup> فإذا كان مد بصر الانسان بالعيون العادية وهو الأنجم التي ترى في السماء الدنيا ، آلافاً من السنين الضوئية ، فما هو إذاً مد بصر هذه المركبة العجيبة ، التي كان « له عينان في أسفلها »<sup>(٢)</sup> « يمكن رؤية الأرض منها واضحة جلية »<sup>(٣)</sup> .

كما وأنها كانت مزودة بآليات موجية وضوئية مختلفة الألوان والكيان : إذ « كانت فيها أربعون نوعاً من النور »<sup>(٤)</sup> « وكانت مزودة بسبعين ألف زمام »<sup>(٥)</sup> : عليها الأزمّة الموجية والضوئية أم ماذا ! دون الأزمّة الأخرى التي تزم بها الحيوان ! فإن « حجمها كان بين حجم البغل والمحار » فلو أن براق كان حيواناً ، فليكن سبعين ألف ضعف حيوان ، ويحتاج إلى زمام واحد ؟ . ثم هو « يحمل له ألف ألف لون من نور »<sup>(٦)</sup> و « عليه ألف ألف محفة من نور »<sup>(٧)</sup> .

و « كانت له مثل وكر الطير »<sup>(٨)</sup> مما يشير إلى أن النبي دخل فيها ولم يركب عليها ، ف « ركبها » في جملة من أحاديثنا ، تفسر بالدخول فيها ، وهكذا

(١) روضة الكافي عن الباقر (ع) خطاه مد بصره — وفي ذلك روايات كثيرة .

(٢) تفسير البرهان ٢ : ٤٠٠ عن العياشي عن الباقر (ع) .

(٣) البحار ج ١٨ ص ٣٥٧ نقلاً عن علل الشرائع .

(٤) البحار ج ١٨ ص ٣٥٥ .

(٥) البحار ج ١٨ ص ٣٧٨ نقلاً عن كتاب الخرائج وعن روضة الكافي عن الباقر (ع) .

(٦) العياشي عن عبد الصمد بن شيبه قال ذكر عند أبي عبد الله (ع) بدو الاذان — الى

أن قال في قصة المعراج — : ثم وضع في يحمل له ألف ألف لون من نور ثم صعد به حتى انتهى الى أبواب السماء...

(٧) العياشي عن عبد الصمد.. سمعت أبا عبد الله (ع) يقول جاء جبرئيل رسول الله بالبراق..

عليه ألف ألف محفة من نور...

(٨) سعد السمود ص ١٠٠ - ١٠١ وبحار الانوار ج ١٨ ص ٣١٧ .





طلما كانت الرحلة المعراجية مدّة بصرها .

وإننا لنقضي عجباً من معداتها وآلياتها الموجية والضوئية ! ترى أن شعاعاً كشعاع الشمس، وأربعون نوعاً من النور، ومليون لون ومحفة من نور، وسبعون ألف زمناً ، هذه المعدات العجيبة التي نجعلها ، أليس بالامكان أن يعرج بمركبته صاحب المعراج ؟ وهو يملك أقوى من هذه الأنوار ! وهو يعرج بإرادة الله ! أليس هذا بالحق ؟ وهذا الإنسان الضعيف الهزيل يعد لنفسه سرعة أقوى من سرعة الضوء ! .

ثم لو أغمضنا النظر عن هذه المركبة ومواصفاتها ، فهذه الرحلة الفضائية ، لو أغمضت على العلم تحليلاً ، فاعُدرة اللاتناهية الإلهية تحللها ، ما دامت خارجة عن الإستحالة الذاتية ، وكما أن القرآن يذكر طرفاً من السرعات الخارقة للعادة وغيرها من الآيات المعجزات ، التي قد يعجز العلم عن تحليلها ، دون أن يحيلها ، فقد يحللها وقد لا يحيلها إذا لا يحللها :

من ذلك عرش بلقيس ، إذ أحضره الذي عنده علم من الكتاب : « قال يا أيها الملأ أياكم ياتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين .. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي » ( ٢٧ : ٤٠ ) وبما أن ارتداد الطرف يتحقق بأقل من ثانية ، فقبل ارتداده قد يكون أقل منها بكثير .

فإذا كان بإمكان الذي عنده علم من الكتاب أن يسرع هكذا ، فكيف للذي عنده علم الكتاب كله ! .

ثم وأهم من سير العرش ، سير اليوم الربوبي في المعارج ، كما شرحناه فيها ، فواحد الزمان عند الله يحمل مسيرة خمسين ألف سنة ، وهذا الواحد حسب الأرض هو المناسب للحركة الأولى للمادة الأم ، ولعلها أقل من ثانية بمئات المآت ، ثم الملايين الملايين من هذه الوحدات في بعض العوالم الأخرى ، قد تكون بمقدار

الواحد الأرضي ، أن تمضي أنت في سفرك عمق الفضاء أشهراً ، ولا يكون حسب الأرض إلا ثانية أو أقل ، فالرحلة المعراجية التي كانت زهاء أربع ساعات حسب الأرض وهي ١٤٤٠٠ ثانية إنها قد تكون ١٤٤٠٠ شهراً أو يزيد حسب السماوات ، فإذا تسير المركبة المعراجية في كل آن من هذه الأشهر قدر خمسين ألف سنة ، يصبح المعراج أبطأ من سرعة أمواج الجاذبية ، بلالين أضعاف ما تتطلبه هذه المسافة .

فالإختلاف بين الزمن الأرضي وبين سواها من العوالم السماوية شيء ثابت ، قدر اختلاف موازين الحركات والأوضاع والقوانين المتحركة فيها .

وكما أن هناك بين الزمن الأرضي ، أو الدنيوي عامة ، اختلافاً عكسياً مع الزمن البرزخي ، فقد يساوي عمر الحياة الإنسانية هنا ساعة من نهار أو بعض يوم أو يوماً أو عشرة أيام ، حسب الزمن البرزخي ، كما نستوحيه من آيات عدة (١) .

وبعد كل ذلك ، إذا كانت المركبات الفضائية والصواريخ ، تهتدي بقيادات بشرية ، من دواخلها أو مركبات أخرى ، أو من الأرض (٢) ، فالمركبة تستمر في رحلتها الجوية كما يهدها قائدها في الأرض ، وهي مصيبة في أهدافها المخططة المرسومة لها في القيادات الأرضية ، إذاً فما ظنك بالمركبة المعراجية التي تقودها قدرة الله ، خالق السماوات والأرض ، التي تقود البلايين البلايين من المركبات الكوكبية ، بمجراتها السماوية وبسرعات تفوق الزمان والمكان ، كما في أمواج الجاذبية ، ترى أن جاذبية الخالق ، وجاذبية وانجذاب محمد ﷺ أقل من الجاذبية التي تخلق على الزمان والمكان ؟!

(١) راجع ج ٣٠ ص ١٠٣ « زمن لبث البرزخ » .

(٢) كالصاروخ الانكليزي الحربي « جيند بويك » Jindivick فانها طائرة دون قائد ، وهي سرعتها ٨٠٠ كم. في الساعة .

### خلاصة عن الرحلة المعراجية :

هذه المركبة المعراجية مزودة بما يكافح عراقيل السرعة والحرارة والزمان وسواها ، إضافة إلى أن مسيرها بإرادة الله ، وبالطبع في البعض من أجزائه - هذا المسير خلو من الأجزاء الهوائية ، فالمصادمة الهوائية التي تقلل من حركة المركبة وتزيد في حرارتها ، هي عديدة في مسير هذه المركبة ، وقد يكون سيرها بسرعة زهاء سرعة أمواج الجاذبية ، إضافة إلى اختلاف مقاييس الزمان بين الأرض والعوالم الأخرى ، التي قد تجعل شهراً من الزمان السماوي ثانية أرضية أو أقل .

فهذه هي مركبة المعراج ، وعلى مسيره كذلك يختلف عن سائر المسير بقدرة الخبير البصير ، فقد يكون باباً من السماء يخص هكذا عروج فلا تفتح لغير صاحب المعراج ، وقد توحى له : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » ( ١٥ : ١٥ ) فإنها الباب التي يفتحها الله « ففتحنها » دون الإنسان مهما بلغ من العلم ! فالعروج فيه يحير عقول الناكرين فيلجأون إلى خرافة السحر إن اجتازوا واقعهم . إذاً فلم تبق مشكلة علمية أم سواها ، تمرقل الرحلة المعراجية ، فتشكك دون تصديقها ، أو تكون حجة لغيره في تكذيبها .

### القرآن وتسخير الفضاء .

عشرات من آيات الله البينات توحى بإمكانية الرحلات الجوية وواقعها ، بين أمرة بها بغية الإستطاع على المملكة السماوية لازدياد المعرفة بالله ، وبين مبشرة بانها سوف تتحقق أو مضت ، بحثنا عنها في طيات آياتها التي تتحدث عنها ، بما أضاءت للبشرية بريقات الآمال في تسخير الفضاء ، فاصبحت تجاهد للتوصل إلى هذه البغية منذ مآت من السنين فاخذت تستوحي منها ، ومن مختلف انواع الطير

دروساً ، تتابع على أضواءها في محاولة بعيدة المدى ، للرحلات المختلفة الى أعماق الفضاء ، وقد وفقت حتى الآن لشيء ما ، عبر الطائرات ، فالصواريخ ، والمركبات والأقمار الصناعية التي نزلت على سطح القمر ، وتحاول الوصول الى الكرات الأبعد فالأبعد ، واحدة تلو الأخرى .

فغزو الفضاء بشاره سماوية قبل أن تكون فكرة او محاولة أرضية او واقعاً منها ، وكما نستبشرها من الآيات التالية :

« ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيها من دابة وهو على جميعهم إذا يشاء قدير » (١٠:٣١) يعني جمع الدواب المنبثة في الأرض والسماوات ، اذا يشاء الله ، و « هم » توحى على اقل تقدير بان مجموعة من هذه الدواب عقلاء من هنا وهناك ، فسوف يتحقق الجمع بين انسان الارض وانسان السماء ، وطبعاً بالغزو المتقابل .

وكما نؤمر في آيات بغزو الفضاء : « قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » . (١٠:١٠١) . وليس مجال النظر المأمور به هو السماوات من بُعد فقط ، حيث النظر اليها من قربها هو البالغ الاهمية في مجال المعرفة واستحكام الايمان ، مهما كان للنظر من بعيد علمياً كذلك نصيبه .

وقد تدل آية المرور ، على غزو الفضاء في أعماقها : « وكأين من آية في السماوات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون » (١٠٥:١٢) ، فالمرور - ولا سيما بصيغة المضارعة : « يرون » ما يوحي تماماً ان البشرية تستقبل المرور على الأجواء البعيدة ، وآيات عظيمة في السماوات ، كما في الأرض ، مهما كان واقس المرور حين نزول الآية هو المرور البصري والنظري من بُعد ، ولكننا - حسب تَسَنُّبِ الآيات - وصلنا لحدّ المرور على القمر ، ثم سوف نمر على سائر الآيات والكرات السماوية .

وقد مرت وتمرّ عليكم آيات غزو الفضاء في مجالاتها الأنسب والأحرى تفصيلاً.

« أم للانسان ما تمنى . فله الآخرة والأولى . وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . »  
 تمنيات مسبقة في آيات من المشركين ، من فرية الهوى على رسول الهدى وتكذيبه أنه رأى ما رأى ، وأوحى إليه ربه ما أوحى ، في حين أنهم يرون اللات والعزى ومنات الثالثة الأخرى ، وإن لهم الذكر وله الأنثى أم ماذا ، تجرفها كلها بعد انجرافها بما مضى :

« أم للانسان ما تمنى » : هل للانسان ما تمنى ؟ إن للانسان امنيات صادقة قد يتوصل اليها بما يتوصل بوسائلها إن ارادها الله وقد لا يتوصل ، وأخرى كاذبة ، فإذا كانت تلك حالة الصادقة ، فإذا نظن بالكاذبة ، فليس الإنسان هو المحور الرئيسي للكون حتى يكون له ما تمنى ، مهما يصل في حقه لعمقه إلى حد يتمنى ما لله لنفسه ، وما لنفسه لله ! ملجداً في الله محاداً له كأنه الله .

ثم مهما ملك الإنسان من تمنياته الصادقة بحجة أو سعي ، فهو لا يملك أي تمن بمجرد التمني دون حجة أو سعي ، والتمنيات المسبقة ونظائرها للمشركين لا تملك أية حجة أو إمكانية سعي ، أسعياً للتغلب على الألوهية ، أو فرض أمر أو حالة على الله ، أو فرض تحويل أو تحوير في رسالة الله ، التي تجمعها صيغة واحدة : تمنى المحال أو ما لا يجوز على الله !

هذا - وإن تمنيات رسل الله التي كلها حقة وبوحى من الله ، إنها لا تتحقق ككل رغبة منهم على الحق والحجج البالغة التي يملكونها ، والمساعي التي يبذلونها ، إلا بتوفيق من الله : « وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » ( ٢٢ : ٥٢ ) والآيات التي يحكمها الله هنا هي تمنيات الرسل التي قد تعرقل باللقاءات

الشیطان - وطبعاً لا في قلوبهم - وإنما في قلوب غیرهم : « لیجعل ما یلقى الشیطان فتنة للذین فی قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمین لفی شقاق بعید . ولیعلم الذین أوتوا العلم انه الحق من ربك فیؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهاد الذین آمنوا إلى صراط مستقیم » ( ٥٣ : ٥٤ ) .

وإذا كانت هذه حالة تمنیات المرسلین - الحققة - فكیف بمن دونهم ، ثم کیف للكافرین ؟!.. فـ « إذا تمنى أحدکم فلینظر ما تمنى فإنه لا یدری ما یکتب له من أمنیته » <sup>(١)</sup> فإن هوی النفس ومناها لا تحوّلان الواقع ، ولا تخلفان غیر الواقع ، فلتحصر أمنیات الإنسان فی الحقائق وبتوفیق الله ، فإن الأمر كله لله :

« فله الآخرة والأولى » : مها كنا نخبرین فی الأولى بعض الشيء ، فإن هذا الاختیار لا یملکنا کلّ ما نتمنى ، وفي تقديم الآخرة علی الأولى هنا رعاية لموسیقی اللفظ علی هامش المعنى ، حیث السيطرة الإلهیة ظاهرة واقعة فی الآخرة تماماً ، مها خفیت فی الأولى أو خفست بإرادة الله ، ولواقع الاختیار فیها دونها . وهذا شيء ملموس من الأسلوب القرآنی : انه یجمع بین تنغیم اللفظ وتنغیم المعنى ، دون اخلال بأحدهما علی حساب الآخر ، إذ لا تضیق الألفاظ والمعانی علی الله ، فلیس تجرید التجمیلات اللفظیة عن جمال المعانی - أحياناً - إلاّ من مرطقات القاصرین ، كأن القرآن فی أنظارهم کتاب شعر أو موسیقی قبل أن یشکل کتاب حقيقة أو معنى !.

ونسفاً لأهم تمنیات المشرکین فی الآخرة - عن معبودیهم : بنات الله الملائكة : أنهم شفعاؤهم عند الله ، تمنّ عاطل فوق تمنیات باطلة - تأتي التصریحة :

« وکم من ملک فی السماوات لا تغنی شفاعتهم شیئاً إلا من بعد أن یأذن الله لمن یشاء ویرضی » .. فكیف بتأئیل ملائكة فی الأرض ؟!

(١) الدر المنثور ٦ : ١٢٧ - اخرج احمد والبخاری والبیهقی عن أبی هريرة قال قال رسول الله (ص) :

فلنفرض ان الملائكة بنات الله ! وانهم معبودون من دون الله ! ولكنهم - لو صدقت تمنياتهم فيهم - ليسوا بشفعاء عند الله ، إلا لمن ارتضاه الله ، دون فوضى رغم تقولهم « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ( ١٠ : ١٨ ) فإنما الشفاعة كلها لله ، وبإذن الله « لمن يشاء ويرضى » من الشافعين والمشفّعين لهم سواء ، دون فوضى هنا أو هناك .

« إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا » :

#### كلام في العلم والظن :

مما لا بد منه أن تكون كل حالة نفسية أمام الواقع ، مسنودة الى برهان مبين ، سواء أكانت قطعاً أو علماً أو ظناً أو شكاً أو وهماً<sup>(١)</sup> وإن كان البرهان هو عدم وجود الدليل أو عدم وجدانه ، فالظن غير المسنود إلى دليل وثيق مرفوض ، فإنه ظن الهوى وليس ظن الهدى .

وهنا يندد بظن الهوى مرة أخرى بعدما مضى : « ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .

فالظن ظنان : ظن من هوى وهو مردول ، وظن عن هدى وإليها وهو

(١) من الملاحظ ان القرآن قد يصف الشك بأنه مريب ، مما يدل على أن من الشك ما لا يريب ، فالشك المريب هو المسنود إلى برهان متين يسببه ، وغير المريب ليس الا شك الهوى ، وكما ان من العلم واليقين ما هو تابع عن الهوى ، ومهما لم يمكن ردع هذا القاطع عن قطعه ما دام قاطعاً ، الا ان بالامكان تنبيهه على خطأ الطريق ، وبذلك يزول قطعه ، وهكذا قطع ليس بحجة لأن مقدماته الحاطئة اختيارية ، مهما لم تكن ازالة القطع دون نظر ثانوي ثاقب الى المقدمات خارجة عن الاختيار .

وقد يسمى القطع والعلم الحاصل عن الهوى ظناً ويراد به الوهم ، كما يراد من الظن في الآيات الرادعة عن الظن والعمل به .

مقبول ، فهما تحرضنا الآيات على التمسك بالعلم ، ولكنه ليس ليحصل دوماً وفي كل شيء ، فليكتفَ بالظن المسنود إلى العلم ، والنابع عنه ، فانه اتباع للعلم ، كالأدلة والأصول ، غير المفيدة للعلم ، الاستفادة من العلم : عقلاً ونقلاً : كتاباً وسنة ، فهي داخلة في اتباع العلم ، خارجة عن الظن المرفوض .

ففي ساحات الحجاج لإبرام أمر أو نقضه : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » ( ٦ : ١٤٨ ) تنديداً باتباع ظن الهوى ، وإن كان اعتقاداً راجحاً ، فضلاً عن الشك والوهم ، بل وكذلك العلم الحاصل عن الهوى دون أصل وثيق أو هدى أو كتاب منير : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » ( ٣١ : ٢٠ ) . « انتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » ( ٤٦ : ٤ ) . « أن تطهروهم فتصيبكم معرفة بغير علم » ( ٤٨ : ٢٥ ) . « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » ( ٦ : ١٤٨ ) . « نبئوني بعلم إن كنتم صادقين » ( ٦ : ١٤٣ ) . « إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم » ( ٢٤ : ١٥ ) .

فإنما المغني من الحق هو علم أو أثارة منه ، أو هدى أو كتاب منير - ليس إلا . فالعلم هنا ، لكونه قرن كتاب منير أو هدى ، هو الحاصل عن غير وحي ، علم وجداني أو عقلي أو حسّي ، ومن ثم فـ « هدى » هذه ، هي وحي يوحى إلى صاحبه ، فـ « كتاب منير » كتاب يحمل وحي الله ، فالأخير علم رواية صادقة قاطعة ، والأولان علم دراية ذاتية ، أو من وحي وهو أعلى منها ، وأثارة من علم هي رواية تحمل أثراً من العلم ، مهما حصل منها علم أو دونه ، وهو ظن مسنود إلى علم أو كتاب منير .

فإنما الظن المرفوض ، الذي لا يغني عن الحق شيئاً ، هو ظن الهوى كما مضى ، وظن الجاهلية : « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » ( ٣ : ١٥٤ ) ظن



لا يستند إلى علمٍ أو أثارة منه ولا هدى ولا كتاب منير ، وإنما إلى هوى جاهلية ، مهما كانت دركاته ودركاتها ، فقد يكون علماً كما يخيل ، أو اعتقاداً راجحاً أو شكاً أو وهماً ، وتشملها كلها صيغة الظن ، تعني الوهم ، إذ لا سناد لها كلها إلا هوى جاهلية ، مهما زينتها بما يخيل إلى صاحبها أنها علم ! ولكنها بدركاتها لا تغني من الحق شيئاً <sup>(١)</sup> .

كما وإن للأربعة المسبقة من منابع العلم والظن الحق ، درجات ، فمنها ما تغني من الحق كل شيء ، كالعلم الخالص المصيب ، وهدى الوحي ، ثم نصوص الكتاب المنير ، الحامل للوحي ، وظواهرها المناهضة للنص ، فإنها تصيب ولا تخطأ ، فهي تغني من الحق كل شيء .

ومنها ما تغني من الحق بعض الشيء ، كالظن الحاصل من أثارة من علم ، من رواية تحمل الوحي وعليها أثره ، وهو موافقتها له وعدم مخالفتها إياه ، كأخبار الآحاد ، التي لا تنافي الكتاب والسنة القطعية ، وتوافقهما إجمالاً .

وكظواهر الكتاب ، والسنة القطعية ، فيما تختلف فيها الأنظار ، وبعد تثبت شامل ، واجتهاد كامل ، فإنها قد تفيد العلم ، وقد لا تفيد إلا الظن ، ومن هنا يأتي اختلاف الفتاوى ، مهما كانت الأنظار ثابتة ، والأفكار صائبة ، فإنها ليست وحي مباشرة ، أو نصاً قاطعاً .

فهذه الظنون النابعة عن ظاهر علم ، أو أثارة من علم ، إنها ليست مرفوضة ، لأنها تنبع عن هدى ، دون جهل أو هوى ، والآيات المنددة باتباع الظن ، الآمرة باقتفاء العلم ، الناهية عن اقتفاء غير العلم ، لا تغني إلا التحرز عما يحصل عن جهل أو هوى ، فالظن الحاصل عن علم أو هدى ، هو علم وفي حساب العلم :

(١) كمن يقولون « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » - فيرد عليهم « ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » ( ٤٥ : ٢٤ ) حيث اعتبر علمهم المدعى ظناً ووهماً - مهما كان علماً عندهم - إذ لا يستند إلا إلى الوهم .

« ولا تقف ما ليس لك به علمٌ ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولاً » ( ١٧ : ٣٦ ) .

ثم الظن قد يكون ظن القلب ، النابع عن علم من العقل ، المتجاوب مع العمل ، فهذا الظن أفضل من العلم غير المتجاوب مع العمل ، غير الواصل الى القلب : « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون » ( ٢ : ٤٦ ) ، فترى كثيراً من العالمين بمقولههم غير خاشعين ، فالحشوع حالة قلبية لا تحصل إلا بعلم عقلي ممارس عملياً ، ولكي يتجاوبا في اعتقاد راجح قلبي .

ومنه : « إني ظننت أنني ملأ من قبلي حسابي » ( ٦٩ : ٢٠ ) « وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه مريباً » ( ٧٢ : ١٢ ) « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » ( ٢ : ٢٤٩ ) ، فإنها علم كلتها .

وأما الظن ، بمعنى الاعتقاد الراجح العقلي - كما مضى - فهو ممدوح إذا لم يكن عن جهل أو هوى ، مهما لم يقن عن الحق كل شيء في أصول الدين وما ضاهاها ، إلا أنه في طريق الحق ، فممدوح في هذه السبيل حتى يتحقق العلم فيغني من الحق كل شيء ، حيث الحق لا يحصل ، أو قليلاً ما يحصل ، دون تدرج من اعتقاد راجح إلى أرجح وإلى جزم .

وأما الأحكام ، فلا سبيل للجزم بها إلا قليلاً من سبيل علم أو إثارة من علم أو كتاب منير ، وكثيراً ما يحصل الظن كما في معظم الأدلة والامارات ، من رواية أو ظاهر أم ماذا ، وكثيراً ما لا يحصل حتى الظن كالأصول ، المضاهية للامارات وسواها (١) .

(١) كالأستصحاب وقاعدة الاشتغال والفراغ ، فانها لا تفيد الظن الا قليلاً وان كانت تشبه الامارات ، وكقاعدة الطهارة وامثالها التي وضعت للخروج من موارد الشك بحجة وضابطة ،

فلو انحصرت السبيل إلى تحصيل الأحكام بالعلم ، حصرت الأحكام في قليل من الضروريات الثابتة قطعياً ، ورفضت الأثرية الساحقة منها عن ميادين العمل ، وبطلت الشريعة في قسم كبير من فروعها ، وليس في سماح العمل بهذه الظنون تخصيص في عمومات الآيات الناهية عن العمل بالظنون ، فإنها آية عن التخصيص ، وآتية إلى ظنون الجمل والهوى فلا حاجة إلى تخصيص .

ومن وصمات الظنون المرفوضة أنها لمن تولى عن ذكر الله ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، فهم يرفضون الهدى إلى الردى ، والعلم إلى الظن ، وقد جاءهم من ربهم الهدى : « فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » .

« ذلك » : - الظن البعيد البعيد - « مبلغهم من العلم » ، يحسبونه علماً ، وليس إلا « وهما لا يملك برهاناً ، فلا يغني عن الحق شيئاً » ، فإذا أصبحت الدنيا مبلغ العلم ، وأكبر الهم ، أصبح طالبها كالأنعام وأضل سبيلها ، اللهم « لا تجعل الدنيا أكبر همماً ومبلغ علمنا » (١) .

⇒

فإنها لا تفيد الظن إطلاقاً ، فإذا كنت على ظن من نجاسة شيء من دون حالة مسبقة ، تجري هنا قاعدة الطهارة وتحكم بها ، وفي اعتقادك الراجع أنه غير طاهر ، وقد تمر عليك تفاصيل عن الحجج الشرعية في مجالاتها الأنسب والأوسع .

وأما الآراء الناتجة عن القياسات والاستحسانات وسواها مما لا أثر له في الدين ، فكلها باطلة ، ومن لطيف ما يروى ممن رأى آراء في الدين من هذا القبيل ما أخرجه ابن أبي حاكم عن عمر بن الخطاب قال : أحذروا هذا الرأي على الدين فإنها كان الرأي من رسول الله (ص) مصيباً لأن الله كان يريه وإنما هو هاهنا تكلف وظن ، وإن الظن لا يغني عن الحق شيئاً ( الدر المنثور ١ : ١٢٧ ) .

(١) الدر المنثور ٦ : ١٢٧ - إخراج الترمذي وحسنه عن ابن عمر قال : قلنا كان رسول الله (ص) يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه : « اللهم أقسم من خشيتك ما يحول

فأهل الدنيا ، الراكنون إليها ، المطمئنون بها ، المريدون لها ، الواقفون عندها ، ليس لهم بالنسبة للآخرى وحقائقها ، وللحق هامة ، إلا ظنوناً جاهلة هاوية ، مهما كانوا علماء في علوم الدنيا ، بشهواتها ولهواتها ، فلا يليق لك منهم ، إلا الإعراض عنهم ، بعدما تولوا عن ذكر الله ، عن كتاب الله وسائر حجج الله ، التي تذكروهم الله .

إن أصحاب المذاهب المادية ، والمآرب الحيوانية ، لا سبيل فيهم إلا الإعراض عنهم ، حيث لا يفهمون لغة الإنسان « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » . والإعراض هنا على سبيل صيانة الاهتمام أن يبدل في غير محله ، وعلى سبيل التهوين والاحتقار لمن هذا مبلغ علمه ومنتهى عقله « إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » .



« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى - ٣١ . الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ

⇒

بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون علينا مصيبات الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا ، وقونا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا .

يَمَنْ اتَّقَى - ٣٢ . أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى - ٣٣ . وَأَنْعَطَى قَلِيلًا  
وَأَكْدَى - ٣٤ . أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى - ٣٥ . أَمْ لَمْ  
يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى - ٣٦ . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى - ٣٧ .  
أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى - ٣٨ . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ  
إِلَّا مَا سَعَى - ٣٩ . وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى - ٤٠ . ثُمَّ  
يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى - ٤١ . وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى - ٤٢ .  
وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى - ٤٣ . وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا - ٤٤ .  
وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى - ٤٥ . مِنْ نُطْفَةٍ  
إِذَا تُمْنَى - ٤٦ . وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْآخِرَى - ٤٧ . وَأَنَّهُ  
هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى - ٤٨ . وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى - ٤٩ .  
وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى - ٥٠ . وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى - ٥١ .  
وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى - ٥٢ .  
وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى - ٥٣ . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى - ٥٤ . فَبِأَيِّ  
آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى - ٥٥ . هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ  
الْأُولَى - ٥٦ . أَرِفْتَ الْآزِقَةَ - ٥٧ . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ  
اللَّهِ كَاشِفَةٌ - ٥٨ . أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ - ٥٩ .

وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونُ — ٦٠ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ — ٦١ .  
فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا — ٦٢ .

\*\*\*

« والله ما في السماوات والأرض ليعجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » :

توحي « ليعجزى » هنا ، المفرعة - كفاية - على « الله ما في .. » أن الجزاء على السيئة والحسنة في العقبي من غايات ونتائج الملكية المطلقة الإلهية لما في السماوات والأرض ، ترى ان الذي يملك الأولى ، ألا يملك الأخرى ؟ نعم وبأحرى ، كما وان الجزاء من غايات ونتائج علمه تعالى بالغيوب كلها : « .. عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين . ليعجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا في آياتنا معاجزين اولئك لهم عذاب من رجز اليم » ( ٣٤ : ٥٠ ) . ومن ناحية أخرى إن من الأهداف الرئيسية في خلق السماوات والأرض ومن فيها ان يُعبد الله : « ما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » ومن ثم الجزاء : السيئة بمثلها والحسنة بالحسنى ، فملكية السماوات والأرض في الأولى ، دليل على الملك في الأخرى على الجزاء ، وعلمه بالأعمال كلها وخلق الخلق ، ولكي يُعبد الله ، دليل على لزوم تحقيق الجزاء : عدلاً للذين أساءوا إذ يُجزون بما عملوا ، وفضلاً للذين أحسنوا إذ يُجزون بالحسنى : وهي الأحسن مما عملوا وأقلها عشر : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » ( ٦ : ١٦ ) ، وإذا كانت الحسنة كبيرة سلباً أو إيجاباً <sup>(١)</sup> فهي تكفر السيئات اللتم ، إضافة إلى جزاءها بالحسنى ، ثم وهناك زيادة على الحسنى المرسومة : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة اولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون »

(١) سلباً يعني ترك كباثر السيئات وإيجاباً : فعل كباثر الحسنات .

٤٤٠ ..... الجزء السابع والعشرون

( ١٠ : ٢٦ ) زيادة على الحسنى التي وعدّها كلّ المحسنين : « وكلاّ وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير » ( ٥٧ : ١٠ ) وترى من هم المحسنون ؟ :

« الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللّمّ إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تتركوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى »

فمن لا يجتنب كبائر الإثم والفواحش ، وإن أتى بصغائر الحسنات ، أو ترك صغائر من السيئات ، وإن ترك بعض الكبائر من الإثم وبعض الفواحش ، إنه لا يُعد من المحسنين هنا ، فليس جزاءه الحسنى ، اللهم إلاّ الأضعاف العشر ، وأما أن تعفى عنه اللّمّ ، أو يكفر عن سيئاته ، أو يبدّل سيئاته بحسنات ، فلا ، فإنها من الحسنى الخاصة بمن يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللّمّ فـ « أولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » ( ٢٥ : ٧٠ ) بعد « إن الحسنات يذهبن السيئات » ( ١١ : ١١٤ ) . ترى ما هي كبائر الإثم ، والفواحش ، وما هي اللّمّ المكفر عنها بتركها ؟ . إن الإثم هو الفعل المبطل عن الثواب ، فمنه صغير ، ومنه كبير كالخمر والميسر : « قل فيها إثم كبير » ( ٢ : ٢١٩ ) والشرك بالله وهو أكبر الكبائر « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ( ٤ : ٤٨ ) ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » ( ٤ : ٤٨ ) والافتراء على الله « انظر كيف يفترون على الله وكفى به إثماً مبيناً » ( ٤ : ٥٠ ) ورمي البريء بما فعل الرامي من خطيئة أو إثم وإن كان صغيراً « ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » ( ٤ : ١١٢ ) وبما لم يفعله الرامي ايضاً « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً » ( ٣٣ : ٥٨ ) والقتال في الشهر الحرام عند المسجد الحرام إلاّ دفاعاً « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل .. » ( ٢ : ٢١٧ ) فالصد عن سبيل الله ، والفتنة بين المؤمنين وعليهم ، وإخراج أهل المسجد الحرام ، أنها كذلك من كبائر الإثم .

وبصيغة شاملة « كل شيء وعد الله عليه النار » <sup>(١)</sup> كالشرك بالله واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس المحترمة ، وقذف المحصنات ، واكل مال اليتيم ظلماً ، والفرار من الزحف ، واكل الربا ، والسحر ، والزنا ، واليمين الغموس ، ومنع الزكاة المفروضة ، وشهادة الزور ، وكتمان الشهادة ، وشرب الخمر ، وترك الصلاة متعمداً ، ونقض العهد ، وقطيعة الرحم ، والركون الى الظالمين ومعاونتهم ، والسرقة ، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والبخس في المكيال والميزان وحبس الحقوق من غير عسر ، والكذب والكبر والإسراف والتبذير والخيانة والاستخفاف بالحج ، والمحاربة لأولياء الله ، والإصرار على الذنوب وكتمان ما أنزل الله ، وإيذاء رسول الله ، وامثال ذلك مما عده الله كبيراً كالمسبقة ، أو شدة عليه التكبير وندد بفعله كثيراً <sup>(٢)</sup> فانها

(١) نور الثقلين (٥ : ١٦٤) عن ثواب الاعمال للصدوق بإسناده الى عباد بن كثير قال سألت

أبا جعفر (ع) عن الكبائر فقال : كل شيء وعد الله عليه النار .

(٢) من لا يحضره الفقيه روى عبد العظيم بن عبد الله الحسيني عن أبي جعفر (ع) محمد بن علي الرضا (ع) عن أبيه قال سمعت ابي موسى بن جعفر (ع) يقول : دخل عمرو بن عبيد البصري على أبي عبد الله (ع) فلما سلم وجلس تلا هذه الآية : « الذين يمتنعون كبائر الاثم » ثم أمسك ، فقال أبو عبد الله (ع) : ما أمسكك ؟ فقال : احب ان أعرف الكبائر من كتاب الله عز وجل ، فقال : يا عمرو ! اكبر الكبائر الشرك بالله يقول الله تبارك وتعالى « ان الله لا يفر ان يشرك به » ويقول « انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار » وبعده اليأس من روح الله لأن الله عز وجل يقول « ولا تياسوا من روح الله انه لا يياس من روح الله الا القوم الكافرون » ثم الامن من مكر الله لان الله عز وجل يقول : ولا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون ، ومنهسا عقوق الوالدين لان الله عز وجل جعل العاق جباراً شقيماً ، في قوله تعالى : « وبرا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيماً » ، وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق لان الله عز وجل يقول : ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاءه جهنم خالداً فيها ، وقذف المحصنات لأن الله عز وجل يقول : ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . وأكل مال اليتيم ظلماً لقول الله عز وجل : ان



من كبائر الاثم والفواحش ، طالما تختلف هذه الكبائر والفواحش في دركاتها وعقوباتها دنيوية وأخرية .

⇒

الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً . والفرار من الزحف لأن الله عز وجل يقول : ومن يولسهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، وأكل الربا لأن الله يقول : ان الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ويقول : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ، والسحر لأن الله عز وجل يقول : ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق . والزنا لأن الله عز وجل يقول : ومن يفعل ذلك يلق أفعماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب . واليمين الغموس ( وهي الكاذبة الفاجرة ) لأن الله عز وجل يقول : ان الذين يشتركون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة . والغلول ( السرقة والحيانة ) قال الله : ومن يغلول يأت بما غل يوم القيامة . ومنع الزكاة المفروضة لأن الله عز وجل يقول : يوم يحصى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكذبون . وشهادة الزور وكتاب الشهادة لأن الله عز وجل يقول : ومن يكتسبها فإنه آثم قلبه . وشرب الخمر لأن الله عز وجل عدل بها عبادة الأوثان : ( انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام .. ) وترك الصلاة متمعداً لأن رسول الله (ص) قال : من ترك الصلاة متمعداً فقد برىء من ذمة الله وذمة رسوله . ونقض العهد وقطيعة الرحم ، لأن الله عز وجل يقول : أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار . قال : فخرج عمرو بن عبيد وله صراخ من بكائه وهو يقول : هل من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم .

وفي عيون أخبار الرضا في باب ما كتبه الرضا ( ع ) من محض الاسلام وشرايع الدين قال ( ع ) : ( في عد الكبائر ) ... وزاد « وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به . والميسر وهو القمار ، والبغس في المكيال ، واللواط ، ومعونة الظالمين والركون اليهم ، وحبس الحقوق من غير عسر ، والكذب والكبر والاسراف والتبذير والحيانة والاستخفاف بالحج والمعاربة لأولياء الله والاشتغال بالمناهي والاصرار على الذنوب .

اقول : ومن الكبائر كتابان ما انزل الله « ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » ( ٢ : ١٥٢ ) وايذاء الرسول : « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » ( ٩ : ٦١ ) .

واما الفواحش بصورة خاصة فهي المتجاوزة من المعاصي ، تجاوزاً الى غير المعاصي ، او تجاوزاً حد العبودية كانه خارج عنها ، ويجمعها : ما عظم قبحه من الأفعال والأحوال والأقوال ، ظاهرة وباطنة : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ... » ( ٧ : ٣٣ )

والفاحشة المتجاوزة الى الغير أفحش من غيرها : « والذين إذا فعلوا فاحشة او ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » ( ٣ : ١٣٥ ) فقرن ظلم النفس بفعل الفاحشة يوحي أنها هنا ظلم الغير ، فردياً او جماعياً : كالزنا واللواط اللذين يندسان المجتمع ، ويعملان الفوضى في الأنساب فالزنا : « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » ( ٤ : ٢٢ ) واللواط : « ولوطاً اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وانتم تبصرون » ( ٢٧ : ٥٤ ) .

وفي « يجنبون » ايجاء الى طبيعة الاجتناب ، ان المحسنين يعيشونها كاصل في القمة من أصول الحياة فلا ينساقون الى شئ من كبائر الاثم والفواحش ، مالم يصبح طبيعة ثانية لهم ، فاللغو من قذات أخذها نازلة الفاحشة والكبيرة وجنونها<sup>(١)</sup> ولكنه ما يلبث إلا أن يستغفر الله وكما يقول الله في أوصاف المحسنين « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » ( ٣ : ١٣٥ ) ففعل الفاحشة للمؤمن من اللوم ، ومن معانيها النازلة والجنون الغفلة ، اللتان قد تنزلان به . كما وأن قضية الاستثناء هنا « إلا اللوم » الظاهر في الاتصال ، أن اللوم ، او ان منها - كبائر الاثم والفواحش ، النازلة به احياناً يجنون الغفلة وفنون الغفوة ، وقد اتته عليه السلام امرأة فشكت اليه لما باينتها - وهي طرف من الجنون ، وعلى حد المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اللوم هو الذي يلم بالخطرة من الزنا ثم لا يعود ويلم بالخطرة

(١) اللوم النزول ، والملمة النازلة الشديدة ، واللوم الطائف من الجن والجنون مساً ، فمقارفة الكبيرة للمؤمن حالة من الجنون واللاوعي التي قد تعثره ثم تزول .

من شرب الخمر ثم لا يعود ويلم بالسرقة ثم لا يعود ، <sup>(١)</sup> قاللمم « هو الإمام بالذنب أحياناً دون ان يكون من سليقته وطبعه <sup>(٢)</sup> لان المؤمن مطبوع بترك الكبائر والفواحش .

واذا كان اقتراف الكبائر دون تكرار من اللمم ، فاحرى ان يكون منها اقتراف الصفائر دون اصرار ، واحرى منها اقتراب اي منها دون عمل وإقرار ، فمن معاني اللمم الاقتراب والمشاركة <sup>(٣)</sup> والجمع الإصلاح ، فمن يجمع : يعزم - على ذنب ، ثم ينصرف ، مقارباً له مقارباً إياه ، فقد أخذته اللمم ، ومقاربة الذنب هي الدخول في معداته ومقدماته وكما عن النبي ﷺ <sup>(٤)</sup> .

(١) الدر المنثور ٦ : ١٢٨ - اخرج ابن مردويه عن الحسن قال قال رسول الله (ص) : أتدرون ما اللمم قالوا الله ورسوله اعلم قال : هو الذي ... وعن أئمة اهل البيت مستفيضاً ان اللمم الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه كما في الكافي عن ابي عبد الله (ع) بأسانيد عدة .  
(٢) رواه القمي في تفسيره عن ابي عبد الله (ع) قال : ما من ذنب الا وقد طبع عليه عبد مؤمن يهجره الزمان ثم يلم به وقول الله عز وجل « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم » قال الإمام العبد الذي يلم بالذنب بعد الذنب ليس من سليقته اي من طبعه .

(٣) تقول العرب : ما تزورنا الا لما اي أحياناً وضربته ما لم القتل اي قاربه ، ولم يفعل كذا : قارب ، ومنذ شهرين او لمها - منذ شهر او لمه اي قراب شهر ، وفي حديثه (ص) وان مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً او يلم : يقارب وفي صفة الجنة : فلولا انه شيء قضاه الله لأ لم ان يذهب بصره ، وفي حديث الافك : وان كنت الممت بذنب فاستغفري الله اللمم ، ونخلة ملعة : قاربت الارطاب ، وغلام ملثم قارب البلوغ والاحتلام ( لسان العرب ) .

(٤) الدر المنثور ٦ : ١٢٧ عن ابن عباس قال ما رأيت شيئاً اشبه باللمم مما قال ابو هريرة عن النبي (ص) قال (ص) : ان الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنا ادرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه . ويقربه ما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الايمان عن ابن مسعود في قوله الا اللمم قال : زنا العينين النظر وزنا الشفتين التقييل وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين المشي ويصدق ذلك الفرع أو يكذبه فان تقدم بفرجه كان زانياً والا فهو اللمم ، اقول نصدق ذلك الا حصر اللمم في المقدمات ، فان الزنا أحياناً أيضاً من اللمم كما سبق .

إذا فمقاربة الكبيرة وإن كانت بتكرار ، أو مقارقتها دون تكرار ، أو الصغيرة دون إصرار ، هذه كلها مما تعنيه اللطم المستثناة ، معاني تتجاوب مع بعض ، كما وتتجاوبه الأدلة : كتاباً وسنة ولغة واعتباراً ، فالسمي هنا هو المدمن للفاحشة والكبيرة ، إذ أصبحتا من طبعه وسليقته ، وما سوى الأدمان ، لم فمفنا اقتراف صفائرها المعدة لها ، وقد لا يخلو منها أي عبد وكما يروى عن النبي ﷺ « أن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما »<sup>(١)</sup> .

وأخيراً في « إن ربك واسع المغفرة .. » إجماء واضح بكون اللطم ذنباً - لا اهتمامه فحسب - وإلا ففم المغفرة ؟ فلتكن من اقتراف كبيرة ، أو اقتراها بصغيرة ، فالذين أحسنوا هم الذين يمتنعون كبائر الإثم والفواحش كطبيعة لهم إيمانية ، إلا أن يقعوا في شيء منها أو دونها ، ثم يعودوا سراعاً دون إصرار ولا تكرار ، فـ « إن ربك واسع المغفرة » والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون : يعلمون أنه فاحشة ، ويعلمون : أن يكونوا في حالة عادية ذاكرين عامدين ، وأما التكرار والإصرار دون علم بالفاحشة ، أو في غفلة وجنون الغفوة فلا يخرجهم عن الإيمان .

---

(١) قاله أمية وتمثل بها النبي (ص) فلنه ما كان ينشد اشعاراً « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » وفي الدر المنثور ٦ : ١٢٧ أخرجه سعيد بن منصور والترمذي وصححه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الأيمان عن ابن عباس في قوله إلا اللطم قال هو الرجل يلطم بالفاحشة ثم يتوب منها قال قال رسول الله (ص) أن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما أقول وقوله (ص) هذا لا يدل على أنه من انشاده لما دل عليه القرآن .

« هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم .. »  
 « هو » الله « أعلم بكم » منكم ومن سواكم من العالمين في ملأ العالمين ، « أعلم بكم » : بذواتكم وصفاتكم وأفعالكم وطوياتكم وكل\* كياناتكم إسراراً وإعلاناً .  
 « أعلم بكم » ، إذ لم تكونوا شيئاً مذكوراً : « إذ أنشأكم من الأرض » كما أنشأ آدم الأول من طين لازب ، ثم أنشأ ذريته - كذلك - من أجزاء الأرض إذ خلق منها نطفته ، ورباها في الأرحام وقواها بمواد الأرض ، و « أعلم بكم » كذلك إذ كنتم شيئاً مذكوراً : « إذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم » إذ لم تكونوا لتعلموا شيئاً ، وإلى ان أخرجكم : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » ( ١٦ : ٧٨ ) .

ترى كيف تصح صفة التفضيل في العلم : « هو أعلم بكم » حين إذ لا علم للمفضل عليه : « إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم » ١٩ .  
 عاينه لأن « أعلم » لا تختص بالجاهلتين الجاهلتين ، فإنها شاملة للحالات كلها ، وإلى أعلى درجات العلم ، كما تشمل أدنى دركات الجهل ، وقد توحي به « كم » فأحرى أن تشمل حالة الشعور العلم ، لكي يصلح للخطاب ، وإنما ذكر حالتنا الجهل اللا شعور : « أنشأكم .. أجنة » ذكرنا دون حالة العلم ؟ إذ لا ممارسة في جهلها المطلق : حين الإنشاء والأجنة ، إضافة إلى أنها تحملان حجة للأفضلية : « هو أعلم بكم » فان المنشئ للشيء لا يعزب عن علمه منه شيء ، والجنين المستور عن كل فاعل ومحاول ، العاجز عن تدبير أمره ، لا يعلم من نفسه وسواه شيئاً ، كما لا يعلمون عنه شيئاً ، والله المنشئ الباري للجنين هو الذي يعلم منه كل شيء ، فهذا إذاً حجتان للأعلوية الشاملة الإلهية بنا (١) ، وفيما نعلم الكثير

(١) ف « إذ » هنا وهناك تحمل معنى الزمان والتعليل ، هو أعلم بكم حين أنشأكم و .. ولأنه أنشأكم - فان المنشئ أعلم من المنشأ وان كان هو أيضاً عالماً ، أفضلية الخالق من المخلوق .

الكثير في زعمنا ! ولكن أين علم من علم ! علم سابق شامل ، وعلم لاحق جاهل ، فمهما علمنا أشياء ، نجعل آلاف الأضعاف أشياء ! علم ذاتي جوهري ، وعلم عارضي ، علم لا يخالطه جهل ، وعلم أكثره جهل ، علم حادث يزول ، وعلم أزلي لا يزول ؛ ما يحق أن يقال : علم مطلق وجاء جهل مطلق ! ولكن الله يمن علينا إذ يصفنا بصفة العلم ، ثم يفضل نفسه علينا فيه كما في سواه ، رغم التباين الكلي بين صفاته وصفاتنا ، كما وبين ذاته وذواتنا !

« فلا تزكوا أنفسكم هو اعلم بمن اتقى »

« هو أعلم بمن اتقى » توحى أن التقوى هي السبب الوحيد للتزكية الحقيقية ، والإنسان المنشأ من الأرض بطبعه يميل ويشاقق إليها إلا من هداه الله واهتدى وسلك سبيل التقوى ، وجانب وييل الطغوى فلأنه « هو أعلم بكم » بكونكم وكيانكم كما أنتم « فلا تزكوا أنفسكم » : ادعاء أنني بريء من وصمات الطغوى ، ومليء بسمات التقوى .

والتزكية ، وهي التحري عما فيه التطهير عن الأدناس الخلقية والعقائدية والعملية ، إنها كما تنسب إلى العبد ، كذلك إلى الله وإلى رسل الله الحاملين رسالات الله ببلاغات التزكية لمرسل اليهم ، وسواء في ذلك القول أو العمل والسعي ، إن كان في الدنيا أم في الآخرة .

فالتزكية العملية في نطاق التأييد والتوفيق ديناً ، وفي التكفير عن السيئات ديناً وعقبى ، إنها خاصة بالله تعالى شأنه ، وكما أن القولية منها شهادة على النزاهة الصادقة ، ولا تعتبر إلا منه أو بوحي منه ، فإن المكلف قد يجهل أخطاءه العامة منها أو الساهية ، فلا يحق له اعتبار نفسه مزكياً إلا بشهادة الله : « ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون شيئاً » ( ٤ : ٤٩ ) .

والتزكية البلاغية بالوحي قولياً وعملياً خاصة برسل الله : « يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم » ( ٢ : ١٥١ ) : وساطة في بلاغ الوحي دون أن تملك هداية المهتدين : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » ( ٢٨ : ٥٦ ) .  
وتزكية السعي في التزكية خاصة بالمكلفين ، وهي لا تكفي في الحصول على النتيجة إلا بفضل من الله ورحمته تأييداً وتوفيقاً : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم » ( ٢٤ : ٢١ ) .

فعلى المكلف السعي الكادح في تزكية نفسه متوكلاً على الله ، بدلالات رسل الله : « قد أفلح من زكاهما » ( ٩١ : ٩ ) « قد أفلح من تزكى » ( ٨٧ : ١٤ ) .  
وليعرف أن تزكية التوفيق في الدنيا إنما هي بيد الله ، كما وهي في تكفير السيئات دنياً وعقبى بيد الله : « ولكن الله يزكي من يشاء » ( ٢٤ : ٢١ ) ولا يزكي هنا وهناك إلا من يتزكى هنا ، وأما من لا يتزكى فلا : « ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » ( ٢ : ١٧٢ ) « ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم » ( ٣ : ٧٧ ) .

فتزكياتنا العملية بتوفيق الله ودلالات رسل الله ، إنها واجبات محتومات ، والقولية منها تنزيهاً لأنفسنا قد تجوز فيما إذا كانت حقاً ، وقد تجب إذا كانت في مقام دفع فرية أو تهمة ، أو إثبات عدالة أو فضيلة وجاء الناكرين أو الغاصبين حقوق العدل والفضل أو أية ضرورة<sup>(١)</sup> كما كان يفعل النبيون وسائر المعصومين

(١) في تفسير العياشي قال سفيان لابي عبد الله (ع) : ما يجوز ان يزكي المرء نفسه ؟ قال : نعم اذا اضطر اليه اما سمعت قول يوسف ، اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم ، وقول العبد الصالح : واني لكم ناصح امين .

والعلماء الربانيون (٢) .

ومن التزكيات القولية ما تحرم كالمداعاة في غير حق ، من فضيلة منفية قدعنى ، أو متواجدة يدعي واجدها أنها من سعيه متعللاً عن توفيق الله ، أو دلالة رسل الله فـ « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » تنحون نحو الأولى ، و « ولكن الله يزكي من يشاء » ( ٢٤ : ٢١ ) نحو الثانية ، كما أن « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون شيئاً » ( ٤ : ٤٩ ) تشمل الآخرة والأولى ، تزكية التقوى في الأولى ، وتزكية عن الطغوى في الأخرى .

ومهما يكن من شيء في التزكية الحققة منا لأنفسنا ، فإنها مرجوحة إلا عند الضرورة ، وبسناد الوحي أو شبهه ، متنبهاً منبهاً أن تزكية المرء لنفسه

(١) الاحتجاج للطبرسي عن معمر بن راشد قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : أتى يهودي إلى رسول الله (ص) فقام بين يديه يحمد النظر إليه فقال ، يا يهودي ، ما حاجتك ؟ فقال : أنت أفضل أم موسى بن عمران النبي الذي كلمه الله عز وجل وأنزل عليه التوراة والعصا وقلق له البحر واطلعه بالنيام ؟ فقال له النبي (ص) إنه يكره العبد أن يزكي نفسه ولكفي أقول : إن آدم لما أصاب الخطيئة كانت توبته أنه قال : اللهم اني أسألك بحق محمد وآل محمد لما غفرت لي فغفر الله له ، وإن نوحاً لما ركب السفينة وخاف الغرق قال : اللهم اني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني من الغرق فنجاه الله عز وجل ، وإن إبراهيم (ع) لما القي في النار قال : اللهم اني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني منها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وإن موسى (ع) لما القي عصاه وأوجس في نفسه خيفة قال : اللهم اني أسألك بحق محمد وآل محمد لما آمنتني قال الله عز وجل : « لا تخف منك أنت الأعلى » يا يهودي ! إن موسى لو أدركني ثم لم يؤمن بي وبنبوتي ، ما نفعه إيمانه شيئاً ولا نفعه النبوة ، يا يهودي ! ومن ذريتي المهدي إذا خرج نزل عيسى بن مريم (ع) لنصرته فيقدمه ويصلي خلفه .



قبيحة<sup>(١)</sup> وكما « يخشى الرسول ﷺ على أمته أن تزكي نفسها »<sup>(٢)</sup> « ولا يُزكى على الله أحد »<sup>(٣)</sup> إلا « من يزكيه الله ، أو يعرف زكاته عند الله ، فيما يرضاه الله .

« أفرأيت الذي تولى . وأعطى قليلاً واكدي . أعنده علم الغيب فهو يرى . أم لم ينهأ بما في صحف موسى . وإبراهيم الذي وفى . الا أثر وازرة وزر اخري . وأن ليس للانسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يُجزاه الجزاء الأوفى . وان إلى ربك المنتهى » .

توحي هذه الآيات أن هذا الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدي ، هو الذي ألقى وزره على وازرة أخرى ، كأنها تتحملها عنه ، فلذلك « تولى » عما يتوجب عليه فعله أو تركه « وأعطى قليلاً » : فيما أعطى ، قبل أن يتولى ، إذ كان ينفق كفارة لسيئاته رجاء أن تعفى ، وبعد ما تولى ، أعطى لمن يزعمه أنه يزر وزره بعد هذا « وأكدي » : قطع ما كان ينفقه من ذي قبل .

فالآيات الست الأخيرة تشديدات بهذا المتولى المكدي ، وبكل من حذى حذوه ، من الذين لا يعملون صالحات ، ثم يأملون الثواب من أعمال غيرهم ، أو من ادعائاتهم أنهم يتحملون أوزارهم : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون .

(١) في معاني الاخبار لاصدوق بإسناده إلى جميل بن دراج قال سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل « فلا تركوا أنفسكم هو اعلم بمن اتقى » قال : قول الناس : صليت البارحة وصمت أمس ونحو هذا ، ثم قال : ان قوماً كانوا يصبحون فيقولون : صلينا البارحة وصمتنا أمس فقال علي (ع) لكنني اثم الليل والنهار ولو اجدد بينهما شيئاً لنتمته .

وفي احتجاج الطبرسي عن علي (ع) ولولا ما نهى الله عن من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمنعها آذان السامعين .

(٢) حم ٤ : ١٧١

(٣) خ ادب ٥٤

وليجملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليُسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون « ( ٢٩ : ١٣ ) » ليجملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم « ( ١٦ : ٢٥ ) » .

يُروى أن المتولي المكدي هنا « هو عثمان بن عفان كان يتصدق وينفق فقال له أخوه من الرضاة عبد الله بن سعد بن أبي سرح : ما هذا الذي تصنع ؟ يوشك أن لا يبقى لك شيء ، فقال عثمان : إن لي ذنباً وإني أطلب ما أصنع رضى الله وأرجو عفوه ، فقال له عبد الله أعطني ناقتك برحلتها وأنا أتحمل عنك ذنبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن النفقة فنزلت الآيات « (١) » .  
وكما يروى ذلك في غيره أيضاً وعلتها من أشخاص عدة تنزيل الآيات تنديداً بهم وأمثالهم أياً كانوا .

فهنا الآيات تندد بمن يزعم هكذا ، أولاً : أن لاسناد له من علم الغيب ، وحمل أوزار الآخرين لو صح ، فهو من غيب الله « أعنده علم الغيب فهو يرى » ، والغيب الوحي خاص برسل الله ، وهؤلاء الماكيد هم رسل الشيطان وأولياؤه . وأخيراً هنالك إثباتات من كتاب الوحي : « أن لا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للانسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يُجْزاه الجزاء الأوفى » .

ففي كتاب موسى ( سفر التثنية ٢٤ : ١٦ ) : « لا يُقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل » كما وفي فرع من فروعهم : ( حزقيال ١٨ : ٥ - ٢٢ ) : « النفس التي تخطيء هي تموت » - والذي سلك في فرائضي وحفظ أحكامي ليعمل بالحق فهو بارٌّ حياةً يحيا ٩ - وإن ولد ابناً رأى جميع خطايا أبيه ... ولم يفعل مثلها ١٤ - وسلك في فرائضي فإنه لا يموت

(١) كما حدده الزخشي في الكشاف ، ورواه ابن عباس والسدي والكلبي وجماعة من المفسرين .

بإثم أبيه-١٧ وأما أبوه فهو ذا يموت بإثمه ١٨ وأنتم تقولون... لماذا لا يحمل الابن من اثم الأب ١٩ - وأما الابن فقد فعل حقاً وعدلاً حفظ جميع فرائضي وعمل بها فحياتاً يحيا ٢٠ - النفس التي تخطيء هي تموت ٢١ - الابن لا يحمل من اثم الأب والأب لا يحمل من اثم الابن ٢٢ - برّ البار يكون عليه وشر الشرير عليه يكون ٢٣ - .

ولأنها حقيقة جارفة أو هام الضالين ، تحملها فيما تحمل ، هذه الآيات التوراتية وآيات عدة قرآنية <sup>(١)</sup> تجاوباً مع نداء الفطرة العادلة ، منددة بما اختلقته الكنائس : « ان المسيح اقتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا » و « ان بني آدم كلهم عصات في ذواتهم إذ عصى آدم ربه فغوى ، فلا بد من فاد يفدي بنفسه ليخلصهم من وذر العصيان وفساد المسيح الفادي إذ لُعن بصلبه لأجلنا » ! <sup>(٢)</sup>

ومن أشمل الآيات الناكرة لها ، المنددة بها آية الإسراء : « من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى » ( ١٧ : ١٥ ) : أن الهداية والضلالة لا تتعديان بنتائجها إلى غير الساعي لهما ولو كان ذا قربى : « ولا تزر وازرة وزر اخرى وان تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » ( ١٨ : ٣٥ ) بل الضالون المدعون هكذا حمل : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم » ( ١٦ : ٢٥ ) ودون ان ينقص من أوزار المضللين شيء .

فهذه بالنسبة للأوزار من أي كانت ولأي ، كما وأن مساعي الخير لا تتعدى أصحابها : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ضابطة عامة لا تستثنى ، شاملة لكل المساعي في الدنيا ولها وللآخرة ، طالما المؤمن لا يراها في الأولى إلا قليلاً ،

(١) كما في السور ٦ : ١٦٤ و ١٧ : ١٥ و ١٨ : ٣٥ و ٣٩ : ٧ .

(٢) راجع (عقائدنا) ص ١٦٠ - ٢١٩ .

ولكنه : « وأن سعيه سوف يرى » في البرزخ والقيامة ، رؤية تبهجه وتبشره « ثم يحزاه الجزاء الأوفى » : فسعيه يوم الدنيا هو جزاءه يوم الآخرة ، إذ تظهر حقيقته بعدل الله وفضله .

فهنا في الحياة الدنيا يرى بعض الجزاء لما سعى ، ثم في الوسطى : البرزخ ، يرى وفيماً من الجزاء ، وثم في الآخرة يرى جزاءه الأوفى ، وهو ظهور ما سعى بكامل حقيقته كما وعد الله الساعين الصالحين ، وأوعد الساعين الطالحين : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينه وبينها أمداً بعيداً » ( ٣ : ٣٠ ) .

#### « حوار حول آيتي الوزر والسعي » :

آية الوزر تنفي ان تزر نفس وازرة وزر نفس وازرة اخرى ، ولا تنفي ذلك من نفس غير وازرة كالمعصومين الطاهرين عن الأوزار ، فلا تنفي إذاً أن تزر نفس المسيح ( ع ) أوزار أمته . أو سواء من المعصومين عن سواهم من الواشرين .

الجواب : أن الازرة هنا ليست هي الحاملة لوزرها ، بل هي المتحملة ادعاء لوزر وازرة اخرى حاملة لها ، و « لا تزر » تضرب هدفين بسهم واحد : أنها لا تحمل ما تحملته ، يوم الحساب - ولو استطاع - « وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء » إنهم لكاذبون ، ( ٢٩ : ١٢ ) إذ هي مثقلة بأوزارها نفسها ، فكيف تحمل أوزار غيرها ، وهي ترجو ان تحمل أوزارها لتخفف هي عنها ، وهي نفس كافرة أو فاسقة لا تستقيم على وعد ما يوم الدنيا ، فكيف بالآخرة ! . وانها لا يؤذن لها أن تتحمل وزر غيرها ولو صدقت ، طالما تتحمل من أوزار من أضلتها دون أن ينقص عن المضلل شيء .

ثم إذا لا يؤذن لنفس خاطئة إن تزر وزر أخرى ، رغم استحقاقها العذاب فكيف بأنفس معصومة طاهرة مستحقة لكل تكريم ، أن يؤذن لها لتحمل

أوزار غيرها فتعذب هي عنها ، وترحم صاحبة الوزر ، إن هي إلا قسمة ضيزى وفرية على السيد المسيح : أن تحمل بصلبه جميع لعنات الناموس ، وازرة معصومة طاهرة ، تحمل أوزار أنفس عاصية قدرة افسلام لك ايها المظلوم المهتوك ممن يذود عنك تلك الوصمات ، واللعن على المفترين عليك .

وما شفاعة الشافعين الطاهرين لبعض العاصين حملاً لأوزارهم ، إنما هي غض عنها كأن لم تكن شيئاً .

وهكذا نرى في آيات الجزء - كلمة حتم لا تستثنى - : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى » ( ٦ : ١٦٤ ) « ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى » ( ١٧ : ١٥ ) إنما الخطيئة على أصحابها ، دون أن تتخطاها إلى غيرها ، مؤمنة أو فاسقة ، حكم عادل عاقل لا يتخلف فيها ولا استثناء عنها .

وحول آية السعي ، كيف يكون للميت عائدة وفائدة عما يسعاه الحي ، وما هو بساع لنفسه ، ولا ينفعه لو سعى بعد ما قضى نحبه ؟ وكذلك حي عن حي أو شفعاء عن لم يشفعون فيشفعون ؟

الجواب : أن العائد إلى الميت ليس الا قليلاً وفي إطارات خاصة ، وما عوده إلى الميت إلا عوداً إلى الساعي ، فإنه يسعى للميت ، فلو لم يعد من سعيه شيء إلى الميت لم يفده سعيه في بغيته ، فكما أن الإنسان ما يسعاه لنفسه ، كذلك له ما يسعاه لغيره ، فما يبغيه لغيره يعتبر بغية له لنفسه ، كسائر القربات المهداة إلى المؤمنين أحياء وأمواتاً ، سواء أكانت باجور أم قريبة دون مقابيل ، على أن ذلك ليس فوضى كما يبغيه الساعي ، وإنما فيما يؤهل له ومن يؤهل ، فهذان سعيان ينتجان عائدة للمهدي إليه وكما ياذن الله ، وفي الغائبة من واجبات جزئية قصوراً أو تقصيراً أم ماذا (١) .

(١) اصول المكياني بإسناده عن اسحاق بن عمار عن ابي ابراهيم (ع) قال : سأله عن الرجل ينجح فيجعل حجته وعمرته أو بعض طوافه لبعض اهله وهو عنه غائب في بلد آخر ، قال : قلت

واما شفاعة الشفعاء ، فهي ايضاً من سمي المشفع لهم بفضل الله ، من توبة ، واجتناب لكبائر المنهيات ، ومن رجاحة للحسنات ، ومن أهلية للشفاعات ، فكل ذلك مما سعه المشفع له ، وهو من سمي الشافع ايضاً لأهليته لها ، كما وان غيرهما - غير - الأهلين للشفاعة لا يشفعون او يشفع لهم .

ومن هؤلاء من سن سنة حسنة او سيئة فان له مثل أجر او وزر من عمل بها الى يوم القيامة ولا ينقص اولئك من اجورهم او اوزارهم شيء ، كما في مستفيض الاحاديث ، فان ذلك كله من سعيه الصالح او الطالح ولو انقطع عمله ، فان له سعياً في أعمالهم ، فله او عليه ما سعه كما سعى .

ولقد سبقت آية الإلحاق : «الحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء» وان الإلحاق فيها من مساعي الطرفين ، اتباع المحققين بهم ، بإيمان ، وإيمان الأصول المتبوعين الراجين ذلك الإلحاق ، كما فصلناه مسبقاً .

#### جولة اخرى في آيتي الوزر والسعي

« افرايت » رؤية البصيرة والتبصرة والإدكار « الذي تولى » عن منهج الإيمان ، والتعرض لمواضع الغفران « وأعطى قليلاً » : كما وكيفاً ، قدرأ وزمناً « وأكدي » : بلغ كدي العطاء وانقطاعه ، فترك القليل ايضاً وضئى به « أعنده علم الغيب » وحيأ كما عند الموحى اليهم « فهو يرى » الغيب : سماعاً له بأذن القلب ، ومنه ما ادعى ؟ ! والغيب لله ، ثم من يوحى إليه كما يشاء ، وهذا المكدي المتولي من

⇒

فينتقص ذلك من اجر ، قال : هي له ولصاحبه وله اجر سوى ذلك بما وصل ، قلت : وهو ميت هل يدخل ذلك عليه ؟ قال : نعم ، حتى يكون مسخوطاً عليه فيغفر له او يكون مضيقاً عليه قلت : فيعلم وهو في مكانه انه عمل ذلك لحقه ؟ قال : نعم ، قلت : وان كان ناصباً ينفعه ذلك ؟ قال : نعم يخفف عنه .

اقول : واما بالنسبة للمشركين فلا نفع ولا تخفيف حيث النهي عن الاستغفار لهم ، وفي نيابة العبادات روايات كثيرة .

رسل الشيطان يوحى إليه ما يشاء « ام » اذ ليس عنده الغيب ، فهل « لم ينبأ بما في صحف موسى و ابراهيم الذي وفى » : فان دين الله في أصوله قديم ، موصولة أوائله بأواخره ، يصدق بعضه بعضاً عبر الرسائل ، دون ان يفصل بعضه عن بعض فواصل الزمان والمكان ، ومنه كاصول لكتابات الوحي المفصل « صحف ابراهيم وموسى » فالانجيل ليس إلا فرعاً لها ، إضافة الى تحرفه عن هذا الأصل كالكثير من الأصول ، وصحف نوح غير متواجدة ، ولو كانت فهي بدائية إجمالية دون تفاصيل ، ثم القرآن وهو الصحيفة الأصلية المهيمنة على سائر صحف الوحي يكرر هذا الأصل مرات : « أن لا تزر » نفس « وازرة وزر » نفس « أخرى » لا تخفيفاً عنها تثقيلاً لنفسها ، ولا لنفس أخرى ، ولا تخفيفاً دون أي تثقيل « وإن ليس للانسان » كما ليس لسواه من الساعين « إلا ما سعى » لا أقل منه إلا ما أحبطه وأفسده ، لا - إلا قدره او زيادة بفضل الله ومنه ، فليس له في شريعة الله دنياً ، وفي جزاءه عقبي « إلا ما سعى » فلا يحق استئثار مساعي الناس واستغلالها لمن لم يسع او لم يشارك الساعي ، اللهم إلا قدر سعيه فكريباً او عملياً ام ماذا ؟ وبقسطاس الحق والعدل .

ومها يكن من ظلم وانتقاص في المساعي دنياً ، ففي الاخرى : « وأن سعيه سوف يرى » يراه الساعي وسواه في البرزخ والقيامة رؤية تناسبه ويناسبها ، لمسا او ذوقاً او سماعاً او إبصاراً ام ماذا ؟ وكما سعى ! يراه ويحزاه كجزاء موقت في البرزخ « ثم » في القيامة الكبرى « يحزاه » : سعيه « الجزاء الأوفى » فانه هو السعي الظاهر بحقيقته في الأخرى .

والأوفى هنا توحى بان السعي هنا في الصالحات ، فغيرها بين مكفرة ، او ناقصة عنها ، او قدرها وهو الوفي ، والأوفى تشير الى زيادة أقلها عشر أمثالها : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » فالأوفى في هكذا اطلاق يعنى أوفى من سعيه ومن كل جزاء يتصور كضابطة عامة في جزاء الحسنات ، بخلاف السيئات

التي يجزاها صاحبها - فيما يجزى - الجزاء الوفي او دونه ، فان الأوفى فيها ظلم ، بخلافه في الحسنات فانه فضل .

و « ثم » عليها اشارة الى التراخي بين الجزاء في الأخرى ، عن البرزخ والاولى ، طالما رؤية السعى كذلك من جزاءه .

« وان الى ربك المنتهى » وكما أن منه المبتدئ ، فهو المنتهى في المهات والملمات ، واليه الرجعى في كل القضايا ، لا يملك معه أحد شيئاً إلا باذنه . كما « وان الى ربك المنتهى » في التفكير والإكتناه ، فكل شيء يجوز فيه التفكير علمك تعرفه بكنهه ، او قدر ما تحاول ، إلا الله ، فلا تنفعك عميقات التفكير في ذاته وصفاته <sup>(١)</sup> إلا حيرة وضلالة وبهوة ، وكما يروى عن الرسول ﷺ : « تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فانكم لن تقدروه » <sup>(٢)</sup> « ... فتهلكوا » <sup>(٣)</sup> .

« وانه هو أضحك وإبكى » : في مآثور علوم ربي  
ان هذا النبأ وما قبله وبعده - وهي إحدى عشر نبأ - كلها مما نبىء بها في صحف ابراهيم وموسى ، ذات صلة قريبة ام بعيدة بدحض الوهم المسبق معن يزكي نفسه ويلقي وزره على غيره ، ويتولى عما يتوجب عليه .  
فالإضحاك والإبكاء هما - مبدئياً - من الله ، فقد خلق ما منه يضحك او

(١) التوحيد للصدوق غن زرارة قال قلت لابي جعفر (ع) : ان الناس قبلنا قد اكنروا في الصنعة فما تقول ؟ فقال : مكروه ، اما تسمع الله عز وجل يقول : « وان الى ربك المنتهى » ،  
(٢) الدر المنثور ٦ : ١٣٠ اخرجه ابو الشيخ عن ابن عباس قال : مر النبي (ص) على قوم يتفكرون في الله فقال : ...  
(٣) « اخرجه ابو الشيخ عن ابي ذر قال قال رسول الله (ص) تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا » اقول : وفيه احاديث كثيرة .



يبكي وحالة الضحك وحالة البكاء ، مهما كان للإنسان صنع فيهما ، فانهما وإن كانا من سائر الأفعال الاختيارية ، لا ينقطعان عن إرادة الله ، الذي هو إليه المنتهى ، وأما غير الاختياري منهما فالأمر فيهما واضح .

فالله أنشأ للإنسان دواعي الضحك والبكاء في تركيبات نفسية وعضوية ، وظروف خارجية أو داخلية بضحك منها أو يبكي ، فهما من أسرار التكوين البشري ، كالألوف من أضرابهما .

« وأنه هو أمات وأحيى » : فإنه خلق الموت والحياة كسائر الخلق ، مهما كان للإنسان حيلة أو محاولة للموت ، فلن تكون للحياة ! : « خلق الموت والحياة لنبلوكم أيكم أحسن عملاً » وأنى للإنسان أن ينشئهما ، وهو حتى الآن حائر في حقيقتيهما وبواعثهما وأسرارهما ، ترى بعد أنه خالق لهما ولا يدري ما هما ؟ ومن أين ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟ ! .

« وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى »

عدم ذكر الخنثى التي لا هي ذكر ولا أنثى أو يجمعهما ، إنه يدلنا هنا في مقام استعراض الخلق ، أن الصنفين هما الحاضران لا ثالث لهما ، ولا برزخ بينهما ، وكما في سائر الآيات المستعرضة لهما ، وموقع الزوجين هنا وفي غيرها ، دون أزواج ثلاث ، يؤكد ذلك الحصر ، فالخنثى هي في الواقع إما ذكر أو أنثى وقد تظهر حقيقتها بعملية الجراحة .

ثم النطفة إذا تمنى : تقدر بالقدرة الإلهية ، ضمن تقدير المني :

« ألم يك نطفة من مني يعني » ( ٣٧:٧٥ ) فالمني هو التقدير ، وهو هنا تقدير المني في ذاته وصفاته وأفعاله وانفعالاته ، ومنها إنبثاقه إلى قعر الرحم ، ثم تقدير نطفة من المني لكي يبدء منها الجنين دون زملاءها ، فغير المقدّر من مني أو نطفة لا يصبح جنيناً ، وبها لهذه الخلقة الميكروسكوبية السابجة هي وملايين أمثالها في نقطة واحدة من مني يعني ، يا لها من أعجوبة في ملايين من عجائب التكوين ، أين

كانت كامنة بما تملكها من ميزات ؟ وابن خصائص الذكورة او الأنوثة ، والوراثة  
ام ماذا ؟ (١) .

« وان عليه النشأة الأخرى » :

النشأة الأخرى هي الإحياء مرة أخرى في الأخرى ، وكما أحياء في الأولى ..  
« ثم انشأناه خلقاً آخر » وهي النشأة الأولى ، فتلك النشأة كهذه ، ليست إلا  
عليه تعالى لا سواه ، فالإيابة عليه الحساب ، وهو المالك يوم الدين لا سواه .  
فتلكم النشأة عليه واقعاً وفرضاً ، واقعاً لانه الخالق المنشئ للمنشآت ، لا  
خالق سواه ، وفرضاً بما وعد « انا نحن نحيي الموتى » وبما فرض وكتب هو على  
نفسه من الرحمة عدلاً وفضلاً لا سواه : « كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم  
القيامة لا ريب فيه » ( ١٢ : ٦ ) « ثم الله ينشئ النشأة الأخرى » ( ٢٩ : ٢٠ )  
كما وعليها من النشأة الأولى دليل على إمكانيتها وفرضها « ولقد علمتم  
النشأة الأولى فلو لا تذكرون » ( ٥٦ : ٦٢ ) . تذكر أواقعها ، لاعلماً بحقيقتها :  
« على أن تبدل امثالكم ونشأكم فيما لا تعلمون » ( ٥٦ : ٦١ ) فان الإنشاء ولاسيا  
في الأخرى ، هو من ملكوت علم الله .

وترى إذا انحصرت النشأة - وهي مرة منها - في الآخرة والأولى ، فإن اذ النشأة  
الوسطى : الحياة البرزخية ؟

اقول : إنها استمرارية للحياة الدنيا ، فليس الموت إلا انفصال  
الروح ببدنها البرزخي عن هذا البدن ، دون أن تنشأ هناك روح او يخلق  
بدن ، ثم في الأخرى يخلق البدن مرة أخرى وتنشئ فيه الروح نفخاً ، بعد أن أصبح  
البدن رفاتاً ، واصبحت الروح في القيامة الأولى في صعقة كالموت ، إلا من شاء الله :  
« ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض الا من شاء الله ثم  
نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون » ( ٣٩ : ٦٨ )

(١) راجع ص ٣٦٤ من الفرقان الجزء الثلاثين .

### « وانه هو اغنى واقنى »

والإقناء هو الإرضاء بالقنية الكفاف ، فهو الذي أغنى الأغنياء وأقنى الأقناء غنى المال والحال ، حالاً في الاولى او مآلاً في الأخرى ، كذلك وقناهما فيهما او أحدهما ، مهما كان للإنسان محاولة فيهما ، فهما لا تحصلان إلا بإرادة الله فكم من غني لا يحاول إلا قليلاً وكم من فقير هو في محاولة دائبة إلا قليلاً ، ولكي نعلم ان: ازمة الأمور كل بيده والكل مستمدة من مدده ، ولا يعني ذلك ابطال المساعي ، وإنما بطلان استقلال الساعي .

ولا تعني الآية انه تعالى أغنى كل فقير ، او اقناهما « وإنما الغنى الذي استغنى بالله ، بمال او منال او حال ، أو هو والفقير الذي رضي بما آتاه الله ، من قليل او كثير ، فقير الراضي منهما عما أوتي ، أو الغني بمكاسب السوء ، لم يغنه الله رغم غناه ، ولم يقنه لانه ما قنى .

أو يقال : إن الغنى كلها من الله ، وان كانت من غير حل ، اذ لم يمنع عن واقعها ، مهما لم يرض بها ، فلو أراد الله تعالى تكويناً لتحقيق ما أرادته تشريعاً لافقر من ينبغي الغنى من غير حله .

وكما أن القنى كلها من الله ، سواء الحقيقية منها كما في المخلصين من عباد الله او النسبية كما في كثير من الناس فقراء او أغنياء ، إذ يقننوا بما أوتوا ، رغم آمالهم ومحاولاتهم في الاستزادة ، وان حالة القنى : الرضا بما عندنا ، من مال او حال او منال ، انها لمن أعظم النعم ، كما وان فقدان القنى ، سخطاً خالصاً ويأساً بائساً لارجاء فيه ولا أمل ، انه من اكبر النقم ، اللهم اغننا بفنائك وأقننا بفنائك ، في الحال والمال بحق محمد وآل محمد .

### « وانه هو رب الشعري »

تري لماذا اختصت الربوبية هنا بالشعري؟ لأنها نجم أثقل من شمسنا بعشرين مرة ، ونورها خمسون ضعف نور الشمس ، وهي أبعد عنا بمليون ضعف !

وهناك أنجم أثقل وأضوء وابعدها عنا ببلابين الأضعاف ! .  
الجواب : ان الآية لا توحى باختصاص ، وإنما لأن الشعرى كانت معروفة منذ القرون الأولى دون غيرها ، وانها كانت معبودة لأقوام ، كخزاعة وحمر ، وكانت تُرصد كنجم ذي شأن ، وان السورة بدأت بالنجم إذا هوى ، لذلك يقول هنا « وانه هو رب الشعرى » تنديداً بمن يعبدونها ويرصدها ، انتهاءً للجولة بما ابتدء فيها ، رغم اختلافها ، ان ذلك نجم الرسالة والقرآن ، وهذا نجم عبدت من دون الله ، فالنجم الأول رسول من الله ليزيف مكانه الثاني ، تشبيهاً للربوبية المطلقة الإلهية ، والشعرى هذه هي اليانية المضيئة المعبودة ، لا الشامية .

« وانه اهلك عاداً الأولى . وثمود فما ابقى . وقوم نوح من قبل انهم كانوا اظلم واظفى . والموتفكة أهوى . ففشاها ما غشى . فبأي آلاء ربك تتبارى » .

جولة في مصارع أربعة من الغابرين ، لتكون ذكرى للحاضرين ومن يتلوهم ، فيكفوا عن مظالمهم ، فكل غابر ذكرى لكل حاضر تبشيراً وإنذاراً .  
فعاد الأولى هم قوم هود (ع) وثمرود هم قوم صالح ، فما أبقى منهم باقية : « فهل ترى لهم من باقية » ( ٦٩ : ٨ ) اللهم إلا المؤمنة : « ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » ( ٤١ : ١٨ ) . « وقوم نوح من قبل » عاد وثمرود « لإنهم » قوم نوح « كانوا أظلم وأظفى » من عاد وثمرود ومن سواهم منذ وجد الإنسان إلى زمن نزول القرآن . إذ لا يعرف تاريخ الرسالات قوماً يدعوهم نبيهم الف سنة إلا خمسين عاماً وهم بعد صامدون في كفرهم ، عامدون في ظلمهم ، إلا قليلاً نجاهم الله مع نوح (ع) بما نجي .

« والمؤتفكة أهوى » : الأقوام الفاعلة الإفك : الصارفة الحق عن وجهه ،  
 الجاعلة إياه في هوات جارفة لكي يخيّل إلى الجهال أنه باطل ، الرافعة اعلام  
 الباطل بمظاهرها الحق تمويهاً أنه الحق ، فهم - إذاً - سائر الأقوام المكذبة بآيات  
 الله ، التي أهواها الله يوم الدنيا ، إذ أسقطها في مهاوي ومساقط بمختلف العذاب ،  
 فلا تختص إذاً بقوم لوط ، المؤتفكة المنقلبة قراهم ، لأنها مفعولة الإفك  
 « المؤتفكة » وذلك فاعلته « المؤتفكة » فأولاهم الذين انتفكوا أو قلبوا الحق  
 باطلاً ، أيّاً كانوا من كفار التاريخ من الذين أهواهم الله بعذابه يوم الدنيا قبل  
 الآخرة : « وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات » ( ٧٠ : ٩ ) « وجاء فرعون  
 ومن قبله والمؤتفكات بالخطئة » ( ٩ : ٦٩ ) فان القرى المؤتفكة ليست بخطئة ! .  
 وعلّ المؤتفكة الفاعلة هنا تشمل المنفعة أيضاً ، من ديار الأفاكين الطاغين :  
 ولأنه انفعال يجب كونه فعلاً ، بما أن الأفك هو القلب والصرف ، إن من الأفاكين  
 باطلاً ، أو من الله حقاً جزاء لهم وفاقاً ، إذ أفك وقلب ديارهم فانتفكت ،  
 وأهواها الله تعالى فانجرفت ، كما في ديار قوم لوط وعاد وثمود واضراهم من  
 السابقين واللاحقين ، مثل البصرة على حدّ تعبير أمير المؤمنين (ع) : « يا أهل  
 البصرة يا أهل المؤتفكة .. » (١) .

(١) .. يا جند المرأه واتباع البهيمة ، دعا فاجبتم وعقر فانزمتهم ، فانكم زعاق واديانكم  
 رقاق ، وفيكم النفاق ، لعنتم على لسان سبعين نبياً ، ان رسول الله (ص) اخبرني ان جبرئيل  
 اخبره انه طوى له الأرض فرأى البصرة اقرب الارضين من الماء ، وابعداها من السماء ، وفيها  
 تسعة اعشار الشر والداء العضال ، المقيم فيها بذنوب ، والخارج منها برحمة . وقد انتفكت باهلها  
 مرتين وعلى الله الثالثة وتبام الثالثة في الرجعة ( نهج البلاغة ) .

وفي الكافي عن علي بن ابراهيم باسناده الى ابي عبد الله (ع) في « والمؤتفكة أهوى » قال : هم  
 اهل البصرة ، وهم المؤتفكة ، والمؤتفكات انتهم وسلهم بالبينات ، قال : اولئك قوم لوط انتفكت  
 عليهم اي انقلبت عليهم ، اقول وهذا من تفسير المصداق .

« فغشاها ما غشى » : « غشى » الله اياها « ما غشى » من عذاب الهاوية ، فكما غشوا هم الحق فاهدوه ، كذلك الله غشاهم بما غشوا جزاءً وفاقاً ، وذلك من آلاء الله للمؤمنين على الكافرين :

« فبأي آلاء ربك تتمازي » ؟ فان كلاً من هذه الأنبياء المذكورة هنا ، وفي صحف ابراهيم وموسى ، إنها من آلاء ربك : نِعَم الربوبية البالغة الشاملة ، فمن ذا الذي يتمازي فيها تشككاً وارتياباً .

والخطاب في « تتمازي » عله لكل من يصح خطابه ، تنديداً بمن يتمارى منهم ، وتسديداً لمن لا يتمارى ، او أنه خطاب للنبي ﷺ بـ « اياك أعني واسمعي يا جارة » أو استفهام تقرير له إذ يقر بآلاء الله كلها ، ولكي يقرر لمن سواء ، فانه نذير لمن مضى :

« هذا نذير من النذر الأولى » : هناك طوال تاريخ الرسالات نذُر ، من الأولى والوسطى والأخرى ، كتباً ورسلاً ، وتحرى هذا النذير هل هو القرآن ، او نبي القرآن ، او هما على البديل ؟ مع العلم أن النذر غير الأولى أولى من الأولى فيمن عليهم دارت الوحى ، اولي العزم من الأنبياء .

علّ الأولى هنا لا يعنى الأولى زمنياً ، وانما الاولى مكانة ، فكما أن محمداً هو أول العابدين : « قل إن كان للرحمان ولد فانا أول العابدين » ( ٤٣ : ٨١ ) كذلك هو من أولى النذر وأولاهم : أولي العزم الخمسة الذين هم مدار الرسالات كلها ، كما القرآن النذير « لإحدى الكبر . نذيراً للبشير » ( ٧٤ : ٣٦ ) .

فـ « هذا النبي الكريم ، وبقرآنه العظيم » نذير من النذر الأولى ، وهم الأولى تبشيراً وإنذاراً : الخمسة العظماء ، إنه منهم في أصالة الإنذار ، والرسالة الأصلية العالمية ، والشريعة المستقلة ، فليس بدعاً من الرسل : « قل ما كنت بدعاً من الرسل » ( ٤٦ : ٩ ) اذ نبىء كما نبئوا ، وأرسل كما أرسلوا ، ودعى إلى الله والصالحات كما دعوا ، اللهم إلا أن فيه وفي قرآنه المبين ، وتبيناته المتين ، فيها

زيادات خالدة، وميزات بارزات، تستحکم فيها عرى النبوات وقواعد البشارات والندارات، كأنه البشير النذير لا سواه: « وقل اني أنا النذير المبين » (٨٩:١٥) « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (١: ٢٥) .

وقد تعني الأولى فيما تعني هنا كل من سوى محمد ﷺ من الرسل، فهو رسول آخر الزمن وهم لأول الزمن الممتد من أول النبيين الى المسيح (ع) فـ«هذا» محمد ﷺ « نذير من النذر الأولى » من حيث أصل النذارة لا درجة الرسالة والنذارة، فليس بدعاً من الرسل والنذر .

وقد تعني الأولى - النذارة - في النذر الأول<sup>(١)</sup>، إذ أخذ الله فيه ميثاق عباده على الايمان به<sup>(٢)</sup> وإذ أخذ الميثاق من أنبيائه « ليؤمنن به ولتنصرنه .. » فمحمد في الميثاق الأول كان من النذر، دون أن يكون بدعاً من الرسل، وفي الميثاق الثاني كان نذيراً ورسولاً للرسل<sup>(٣)</sup> .

فهو أولى النذر وأولاهم زمناً - أم ماذا - في النذر، ومكانة طوال الزمن، فهو رسول الزمن، وفي آخر الزمن، تمتد رسالته ونذارته إلى أن :

« ازفت الأزفة . ليس لها من دون الله كاشفة » :

- « وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الخناجر كاظمين » (٤٠ : ١٨) .

(١) في تفسير القمي بإسناده الى ابي عبد الله (ع) في الآية قال : ان الله تبارك وتعالى لما ذرأ الخلق في النذر الاول اقامهم صفوفاً قدامه ، وبعث الله محمداً (ص) حيث دعاهم ، فأمن به قوم وانكروه قوم ، فقال الله عز وجل : « هذا نذير من النذر الاولى » يعني به محمداً (ص) حيث دعاهم الى الله عز وجل في النذر الاول ، وروى ذيله في بصائر الدرجات عنه (ع) .

(٢) متجد تفصيل البحث حول النذر في آية النذر العام « واذا أخذ ربك على نبي آدم مسن ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى ... » .

(٣) كما تدل عليه الآية : « واذا اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : اقررتم واخذتم على ذلكم اصري قالوا اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين » .

وبما أن الأزف هو الدنو القريب ، فالقيامة الكبرى الموصوفة بالآزفة قريبة إلينا لوقت ضيق ، قريباً نسبياً للخلائق منذ نزول القرآن ، فليكن الزمن ماضياً أكثره الكثير ، وباقياً أقله القليل ، وكما برزت أشراط من الساعة ، ومنها البعثة المحمدية ﷺ كما ومنها انشقاق القمر في زمنه ، ومعجزة له : « اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » ( ٥٤ : ٢ ) .

وفي أزف الآزفة إحياء إلى قرب لها مضاعف ، فإنها : قرب القريبة ، كانت قريبة فزادها الله قرباً ، أو أن وصفها بـ « الآزفة » إحياء بأنها « آتية لا ريب فيها » - وكل آت قريب - وعلتها معنيان وهو جمع قريب .

ثم وهذا القرب لا يعني سنة أو عشر أو ألفاً وآلاف ، لكي يستغرب : كيف أزفت قبل أربعة عشر قرناً ولماً !! ، وإنما قرب نسبي قياساً إلى مجموعة الزمن ، منذ خلق العالم إلى قيام القيامة ، أو منذ خلق الإنسان أياً كان ، أو هذا الانسان ، فحين نزول القرآن أزفت الآزفة قريباً ، واقتربت كاسحة جارفة مكشوفة :

« ليس لها من دون الله كاشفة » نفس كاشفة<sup>(١)</sup> ، على انوثة التاء ، ومبالغ في الكشف على مبالغتها كالعلامة ، لا كاشفة كشف الظهور والجلاء ، ف :  
« لا يجليها لوقتها إلا هو » ( ١٨٧ : ٧ ) ولا كشف الغطاء عما قدمت أيدينا :  
« لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد »  
( ٥٠ : ٢٢ ) ولا كشف البلاء : « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون »  
( ٤٤ : ١٢ ) .

فكشف الجلاء والغطاء والبلاء ليست هناك إلا الله ، فيكشف السوء هناك

(١) ويموز إطلاق النفس على الله : « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » وابن نفس من نفس ، ولا يقصد منها هنا إلا الذات .



كما هنا عن يشاء : « أمن يحيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء » (٢٧ : ٦٢) ويدعه على من يشاء وهم لا يظلمون .

« اقمن هذا الحديث تعجبون . وتضحكون ولا تبكون . وأنتم سامدون . »  
توحي آية العُجاب أن هناك من كان يعجب من حديث الوحي ، ويضحك منه هازئاً ، فهل إن أنباء قارعة العذاب ، وما ينتظر الناس من حساب ، إنها يُضحك منها وتثير العجاب ؟ بدل البكاء والإضطراب ، فهم تعجبون ؟ وعلى م تضحكون <sup>(١)</sup> « وأنتم سامدون » : لاهون رافعون رؤوسكم كالبعير السامد ، فيم تتكبرون ، ومم تفتخرون ؟ وما أنتم إلا فقراء صاغرون :  
« فاسجدوا لله واعبدوا » .

من آيات السجدة الواجبة <sup>(٢)</sup> ، وقد خوطب فيها من خوطب : المشركون الضاحكون السامدون ، وتقول الروايات إنهم كذلك سجدوا كما المسلمون <sup>(٣)</sup> ، علّها طاعة لله في تلك اللحظة الحاسمة طوعاً ، أو كرهاً إذ لم يتألكوا أنفسهم ، سجدوا تحت وطأة المطارق الهائلة الواقعة على قلوبهم ، من أنباء الواقعة الطامة ، فلم يملكوا مقاومة وقع القرآن ، مهبا قاوموا واقعة الوحي ، فلم تجاوب مساجدهم قلوبهم المقسوبة ، فسجدوا وهم كارهون ناكرون !. وليس هذا

(١) تقول روايات هنا : لما نزلت الآية ما ضحك النبي (ص) بعد ذلك إلا أن يتبسم حتى ذهب من الدنيا ، وحل مختلفيها قد يستندون أيضاً الى الآية : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً » ولكنها الآيتان موجهتان الى المشركين بما لهم من اعمال مبكية ، دون الرسول الطاهر الأمين ، فما عليه اذا ضحك مستبشراً رحمت الله دنياً وعقبى ، ومن صفات المؤمن : بشره في وجهه وحزنه في قلبه .

(٢) راجع ج ٢ من الجزء الثلاثين ص ٣٦٩ - ٣٧٠ ، والآيات الباقية الواجبة في السجدة هي آيات الملق وفصلت والسجدة .

(٣) الدر المنثور ٦ : ١٣٢ - أخرج البخاري والترمذي وابن مردويه عن ابن عباس قال : سجد النبي (ص) في النجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس .

فريداً في نوعه ، فسكن له من نظير ، من أثر القرآني على من لا يصدقوه وهو له  
نكير ، كما اقشعرت جلود الوحيد الوليد وقامت كل شعرة على جسده إذ سمع  
آيات بينات يتلوها الرسول البشير النذير ، ثم وما ملك نفسه إلا أن يعترف في  
حقه أنه يوشى بجنب ما ادعاه من باطل « إنه سحر » وما الأثر والبقاء إلا من  
مميزات المعجزات فإن السحر يفنى فلا يؤثر .

وآية السجدة هذه علّتها أكد الأربعة الآمرة بها ، ولأنها تلتئبها بعبادة الله  
عامة بعد الأمر بأبرزها خاصة : السجدة .



مركز تحقيق كتاب توير علوم إسلامي



( سورة القمر - مكية - وآياتها خمس وخمسون )

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ  
القَمَرُ - ١ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ - ٢ .  
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ - ٣ . وَلَقَدْ  
جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ - ٤ . حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ  
فَمَا تُغْنِ النُّذُرَ - ٥ . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يُومَ يَذْعُ الدِّاعِ إِلَى  
شَيْءٍ نَكْرٍ - ٦ . خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ  
كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ - ٧ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدِّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ  
هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ - ٨ .

\*\*\*

« اقتربت الساعة وانشق القمر » .

بما أن الإقتراب هو زيادة القرب ، والساعة - حين ما تطلق - هي القيامة  
الكبرى ، إذا فاقتراب الساعة هو زيادة قربها كما تعنيه : « أزفت الآزفة »  
ولا صلة بين انشقاق القمر واقتراب الساعة ، إلا كونه من أشرط وعلائم قربها ،  
كما وأن فرية السحر هنا : « ويقولوا سحر مستمر » لا تناسب إلا كونه

الانشقاق آية لنبي الساعة محمد ﷺ إذا فهو آية في وحدتها تعني آيتين ، آية لاقترب الساعة وآية لنبي الساعة ، وقد توحى هذه الآية أنهم طلبوا منه ﷺ آية تثبت لهم دعواه : أنه نبي الساعة ، فانشق القمر بإشارة منه ثم التحق ، كخارقة عظيمة إلهية ، يحملها هذا المطلع الباهر المنير ، نسبة إلى الرسول البشير النذير ، آية ماضية قرب الساعة ، متهمة بالسحر .

إذا فليست هي اشتقاق القمر من الأرض ، تدليلاً على نظرية أخيرة متأخرة ، فإنها لو صحت هناك علمياً لم تصح هنا قرآنياً ، فالانشقاق هو تقطع الشيء في نفسه ، والاشتقاق هو انفصال شيء عن آخر ، فأين اشتقاق من انشقاق ؟ .

ثم الإشتقاق لو كان ، فهو من آيات القدرة الإلهية المطلقة منذ الخلق فلا تحمل فرية السحر ! ، والانشقاق هذا من آيات النبوة الحتمية وأشراط الساعة وقد اتهم بالسحر فأين آية من آية ، إضافة إلى عدم ثبوت فرضية الولادة : «الانشقاق» وقد تنافى آيات الخلق كما ندرسها في طياتها .

كما وليست هي من حوادث الساعة ، فإن هذه ماضية : « وانشق القمر » وتلك مستقبلية « تنشق القمر » وأن حوادث القيامة لا تنسب إلى سحر ، أبعد القيامة ؟ والمؤمن والكافر يؤمنون بها سواء ! - وإن لم ينفع الكافر إيمانه - أم قبل القيامة ؟ والإخبار عن المستقبل لا ينسب إلى السحر ، السُّلَم إلا الكذب ، وإنما هو عمل حاضر يخرق العادة : ف : اقتربت ساعة القيامة وانشق القمر آية للساعة وآية لنبي الساعة ، مها ينسبونها إلى السحر ، رغم ان السحر لا يستمر وكما لا يؤثر .

فآية انشقاق القمر هنا آيتان ، وكل لازم بعض ، قلنتيان في التدليل على أن رسالة محمد ﷺ هي خاتمة الرسالات ، لا تتلوها إلا الساعة كما قال : « أنا والساعة كهاتين » : السبابة والوسطى ، و « أنا نبي الساعة » : إن زمن رسالته هو منذ نبىء حتى الساعة ، وقد استجاب الله تعالى في هذه الآية عن اقتراح

المشركين<sup>(١)</sup> لحكمة تثبت الحاشية ، لا اتباعاً لاهوائهم ، اللهم إلاّ فيما تلتقي الحكمة الإلهية بتحقيق آية ، مع اقتراح الناكرين . إذاً فتحقيق هذه الآية المقترحة لا يتنافى والآيات التي تنافىها : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاّ أن كذب بها الأولون وآتيناهم الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلاّ تخويفاً » ( ١٧ : ٥٩ ) : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ... قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولاً » ( ١٧ : ٩٣ ) ، فإنها لا تنفي إلاّ الآيات المقترحة التي لا تدفع فلا تثبت شيئاً ، دون شق القمر الذي هو آية ختم الرسالة ، وأنه نبي الساعة .

وكما لا يتنافى كفاية القرآن آية خالدة تفوق الآيات كلها في التدليل على حق الرسالة ، ولأنه الآية الواقعية العينية على أنها خاتمة الرسالات - لا أصلها فقط - تجاوباً مع الآيات القرآنية الدالة عليها : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ( ٣٣ : ٤٠ ) .

ذلك ، إضافة إلى آيات عينية أخرى كالمعراج وأضرابه ، كآيات عابرة ضغرى ، تؤيده عليه السلام في آيته الكبرى « القرآن » لمن غرب عقله وأصبح كالحیوان لا يصد إلاّ المحسوس ، ولا ينحو إلاّ منحى المموس ، فقد جمعت له عليه السلام إلى آيته الخالدة الكبرى ، آيات تشابه آي النبيين ، مؤيدات لآيته - لا أصيالات - في التدليل على رسالته .

وأخيراً لا تلمح آية الإنشقاق بكونها مقترحة ، بل انها أصيلة مقصودة ، قد

(١) الدر المنثور ٦ : ١٣٣ - اخرج ابو نعيم في الحلية من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس في الآية قال : « اجتمع المشركون على عهد رسول الله (ص) منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاصي بن وائل والعاصي بن هشام والاسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب وزمرة بن الاسود والنضر بن الحارث فقالوا للنبي (ص) ان كنت صادقاً فشق لنا القمر ... » .

كانت لها ساعة مقررة هي اقتراب الساعة ، والتدليل على خاتمة نبي الساعة ،  
 مهما صادفها اقتراح المشركين ، والآيات النافية لتحقيق الآيات المقترحة تعني نفي  
 لعبة الإقتراح ، وتؤصل أصول الحكمة في تحقيق الآيات المعجزات ، ومن أبرزها  
 في صنوف الآيات المحسوسات آية انشقاق القمر .

وهذه الآية لاقترب الساعة ، آية اقترابها واقعياً ، لأن انشقاق القمر من  
 بوادر انسحاقه يوم الساعة ، وعقلياً ، لأنه يدل على إمكانية خراب العالم ، فقد  
 اقتربت الساعة عقلياً وواقعياً حين انشق القمر ، وما حديث امتناع الخرق  
 والإلتيام إلا خرافة اللثام ، تكذبه فيما تكذب خرق المعراج وانشقاق القمر ،  
 وكما العلم يسفّه أحلام السابقين المانعين عن خرق الأفلاك والقيامها ، ويثبت خرقه  
 للقواعد العلمية ، متجاوزاً آيات الخرق والإلتيام ؟

« وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » .

لا صلة لهذه الآية بالمسبقة إلا أن تكون شق القمر آية للرسالة ، تنهاجم  
 عليها فرية السحر وأضرابها ، فقد رأوا آية الانشقاق بأم أعينهم فأعرضوا عن  
 حجتها إلى إبطالها بمقالة كافرة جاهلة تعودوها في آيات الرسالات كلها : « سحر  
 مستمر » : مستمر طيلة الدعوة المحمدية ، ومستمر عبر سائر الرسالات الإلهية ،  
 مستمر زمناً ، مستمر قوة وشدة ، يملك قوة زمنية وذاتية ، فإن السحر كيفما  
 كان لا يؤثر في الساء ! .

هذا ! وكما قال وليدهم الوحيد عن آية القرآن « إنه سحر يؤثر » فهم يقولون  
 هنا وهناك : « سحر مستمر » وتُرى إذا كان سحراً فكيف يؤثر وكيف  
 يستمر ؟ . ومن ميزات السحر أن يندثر ولا يستمر ، ولا سيما إذا أُتي به في مقام  
 الإعجاز فإن الله سيبطله : « ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح  
 عمل المفسدين » ( ١٠ : ٨١ ) فلا يملك هكذا سحر إلا إزدواجية البطلان :  
 ذاتياً وبإذن الله ! .

« وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر » .

كذبوا بآية الإنشقاق وسواها ، واتبعوا في نكيرهم المتواصل أهواءهم ، إذ ساءحوا عن عقولهم وضمائرهم ، ولكنهم معها كذبوا لا يستطيعون إحياء الحق عن مقره ، وإزالته عن مستقره ، فإن للحق دولة وللباطل جولة « وكل أمر » من الله « مستقر » فيما أقره الله ، دون تزعزع واضطراب ، وليس على أهوائهم الهاوية ، ومحاولاتهم الخاوية ، فالحق لا تتجاذبه الأهواء ، وثاكروه إلى هواء وهباء .

وقد يشمل « كل أمر » كل أمر من الأمور : أشياء وأفعالا ، ومن الأوامر ، ومن حق أو باطل ، فكل أمر من هذه الثلاث يستقر في مستقره ، فيتبين حقه من باطله ، إن في يوم الدنيا أو في يوم الدين ، فالأمور والأوامر الإلهية تستقر في مستقرات الحق بما تملك من حق ومن براهين الحق ، ثم الأوامر والامور غير الإلهية المتحللة عن الوحي والعقل ، إنها تستقر في مستقرات الباطل وثغراتها وسقراتها دنيا وعقبى ، فالحق يبقى حقاً كما بدء « حسنت مستقراً ومقاماً » ( ٢٥ : ٧٦ ) .

والباطل يزول زاهقاً كما بدء : « إنها ساءت مستقراً ومقاماً » ( ٢٥ : ٦٦ ) .  
« ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر » ( ٥٤ : ٣٨ ) .

ومن الامور المستقرة هنا أمر التصديق والتكذيب بالآيات الإلهية - كسائر الأفعال والأقوال - فإعراضهم ، وقولهم : « سحر مستمر » وتكذيبهم واتباعهم أهواءهم ، كل ذلك أمر مستقر ، وكما الحق يستقر ، « ولتجزى كل نفس بما تسعى » : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينه وبينها أمداً بعيداً » ( ٣ : ٣٠ ) .

ثم إن آية الإنشقاق مما تناقلته الألسن الصادقة ، والأحاديث المتواترة<sup>(١)</sup> ما يحيل تأويل الآية إلى غير ظاهرها ، وكما تحيل الآية ذاتها كل تأويل لا يجاوبها ، فكل تأويل عليل ما لم يجاوبه حق الدليل .

ومما يريب الناس هنا ، أن الانشقاق هذا - كآية سماوية باهرة - لو كانت واقعة ، لرآها الناس جميعاً ، في مشارق الأرض ومغاربها ، وتناقله المنجمون الراصدون ، والباحثون عن الأوضاع السماوية ، والمؤرخون ، كما تناقلته الرواة المسلمون ، فإنها حادثة كونه عظيمة ، فكيف انحصرت برواة المسلمين ؟!

(١) قد روى حديث الانشقاق جماعة كثيرة من الصحابة كعلي (ع) وانس وابن مسعود وابن عباس وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وغيرهم ، ممن حضر الانشقاق أو لم يحضره أخرجه عنهم أرباب الجوامع والمسانيد والحفاظ ، فمن أخرجه : البخاري ومسلم وابن مردويه وأبو نعيم البيهقي في الدلائل وابن جرير والطبراني عن ابن عباس وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل من طريق مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير عن أبي معمر عنه وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير والحاكم وأبو نعيم والبيهقي عن جبير بن مطعم وعبد الرزاق وأحمد وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والبخاري ومسلم عن انس وأخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحاكم والبيهقي وأبو نعيم من طريق مجاهد عن ابن عمر وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي عبد الرحمن السلمي وابن المنذر عن حذيفة بن اليان ( الدر المنثور ٦ : ١٣٢ - ١٣٤ ) .

وفي تفسير روح البيان ج ٩ : ٢٦٣ - قال الطيبي استند أبو اسحاق الزجاج عشرين حديثاً إلا واحداً في تفسيره إلى رسول الله (ص) في انشقاق القمر ، وفي شرح الشريف للمواقف : هذا متواتر رواه جمع كثير من الصحابة .

هذا وقد روى أكثر من هذا بكثير محدثو الشيعة عن أئمة أهل البيت (ع) مثل ، في أمالي الشيخ بإسناده عن عبيد الله بن علي عن الرضا (ع) عن علي (ع) قال : انشق القمر بمكة فلقنتين فقال رسول الله (ص) اشهدوا .



وغير مقبول ولا معقول أن غير المسلمين كافة ، أجمعوا على تجاهلها ، ألكيلا تثبت معجزة إسلامياً ! فلم يكن لهم خبر مسبق عن هذه المعجزة ، لكي يلحقها التجاهل والنكران ! وإنما ظهرت لأهل الأرض كسائر المظاهر السماوية ، اللهم إلا لمن طالبوا بها الرسول كآية من آيات الرسالة ، وهم قلة قليلة ممن كانوا بمكة . هذا - إلا - أن زمن الإنشقاق - كما يروى - لم يكن إلا يسيراً ، لا يراه الكثير ، إلا قليل<sup>(١)</sup> ممن يفحص عن أحوال الكواكب ، في الآفاق التي توافق أفق مكة المكرمة<sup>(٢)</sup> ضرورة اختلاف مطالع القمر باختلاف الآفاق ، والإعتناء بأمر الإرساد لم يكن بمثابة اليوم ، وبلاد الغرب المعنوية بهذه الشؤون نائية عن مكة المكرمة ، وقد كان القمر - حين انشق - بدرأ ، طالعاً بعد غروب الشمس - ليلة البدر - والتشم بعد قليل ، ما يقرب طلوعه - فيما يطلع - بسائر الآفاق بعد إلتئامه ، اللهم إلا بعضاً منها في غير المغرب ، فالذي رآه منهم قد يخطئ ، بصره ، إذ يراه خلاف السنة الدائبة الكونية ، أو يقول : لعل فصلاً ناعماً من السحاب الأسود فصل بين القمر ، أو أنه كُشف في نصفه<sup>(٣)</sup> على أن هؤلاء أيضاً هم القلة القليلة ، فضلاً عن الذي لم يره ، فإن هكذا رؤية نجومية تتطلب أوضاعاً وأوقات خاصة ، لم يكن منها الوقت الذي انشق فيه

(١) الدر المنثور ٦: ١٢٣ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد النبي (ص) فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة ، فقالوا : انتظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فسألوه فقالوا : نعم قد رأيناه ، فأنزل الله «اقتربت الساعة وانشق القمر» .

(٢) ويؤيده ، أخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : كسف القمر على عهد رسول الله (ص) فقالوا : سحر القمر - أقول تعبير الكسوف عن الإنشقاق مما يقرب احتمال الكسوف عن واقع الانشقاق ، فلعل الذي رآه من غير المنتظرين ظن أنه كسف فلما نقله لأن الكسوف مها كان هو أمر متكرر غير غريب .

القمر ، إضافة إلى أن من رآه - إن رآه - من غير المسلمين والمشركون المنتظرين ، لم يكن بحسبانه أنه حادثة هامة ، فالنجدي يراه من غير سبب حسب تقديره ، فلا يحسب له حساباً حتى ينقله ، وغيره لا يعرف له موقعاً ، فالفريقان يتجاوبان في عدم الدافع لنقله ، أو إذا نقله ناقل لا يصبح متواتراً تاريخياً ، أم ماذا ؟ مما يحول دون ما يحيل آية انشقاق القمر وكفى ! .

والقول إن انشقاقه يُبطل سيره وتجاذبه ، فتتصدم النجوم وقته ، وتختل الكائنات قدره ، إنه ليس إلاّ " تقولاً بعيداً عن العلم والإيمان ، ترى إن محرك القمر قبل انشقاقه ، يعنى عن تحريكه بعده " ، أو أن خالق الجاذبية الذاتية والخارجية فيه يعجز عن إدامتها حالة الانشقاق ، ولذلك التهم ، فعم - إذا - الإنصدام ، ولماذا الإختلال ، اللهم إلاّ اختلال أدمغة الشاكن المرتابين .

كما أن الروايات التي تجعله شقين داخلين في كمي رسول الله ﷺ ، أو على جبلين من جبال مكة ، هي خرافات جارفة ، لا تقصر عن المسبقة من تشكيكات ، فنحن كمسلمين لسنا بمصدقين إلاّ " تصريحاً الوحي : « وانشق القمر » أو ما يشرحه ملائماً له ، وأما نزول الشقين على جبلين ، أو في كمين ، أم ماذا ؟ فهي من زيادات الطائشين المتطاولين ، ولأن في سقوط القمر على الأرض قضاءً عليها ، وعلى الكون أجمع ، مهما تحمل العلم سرعة النزول ، وتصغير حجم القمر مع بقاء ثقله ، ولكي يدخل شقاه في كمي الرسول ﷺ ! (١) .

وقد يكون انشقاق القمر آية للساعة ونبي الساعة ، مما بشر به في البعض من كتابات الوحي ، وكما نراه في « نبوءت هيلد » (٢) : في النص الأنقلوسي :

(١) وذلك بإزالة الفواصل بين أجزاء وجزئيات وذرات وأجزاءها في القمر ، فيصبح قدر ليمونة متوسطة الحجم ، إلا أن هذه التكاليف العلمية مهما صحت ، فإنها لا تصحح الخراب الناتج عن سقوط القمر ! .

(٢) لقد شرحنا هذه النبوة المبشورة عن النبي « لئمان حطوفاه » في « رسول الاسلام في الكتب السماوية » وهي تحمل بشارات عدة بحق الرسول محمد (ص) .

« صيهرء شاها وسِباه وعَرِقَ رِها وِها شاطا وِ شامعا : » انتظر القمر وانشق وأطاع محمداً ثم التشم ، وقد يعني الانتظار النظرة التكوينية له مطاوعة لإشارة الرسول ﷺ بإذن الله .

ويا لانشقاق القمر من آية باهرة تختلف عن آيات النبيين أجمعين ، في صنوف معجزاتهم الحسية ، كما اختلفت معجزته المعنوية الخالدة : القرآن ، عن سائر كتابات الوحي ، وبينه وبينها بون السماء والأرض ، كما بين آية الإنشقاق للسموية عن آياتهم وكلها أرضية ! .

« ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجرٌ حكمةٌ بالغةٌ فما تغنِ النذر » :  
لقد جاء هؤلاء الناكرين من الأنبياء : الأخبار ذات الفوائد العظيمة ، ما فيه مزدجر : الإزدجار الإتعاض ، أو : محل الإزدجار ، أنباء تحمل كل إنذار وتبشير ، أنباء التكوين والتشريع ، أنباء آمن مضى ويأتي بمن خالف شريعة الله أو طبقها ، أنباء تلائم الفطرة والعقول فتصدقانها ، من الآخرة والأولى ، هذه التي فيها مزدجر ، لمن كان له عقل وبصر ، ففي بلاغ الأنبياء ، وفي ترتيبها « حكمة بالغة » : فإنها تبتدىء بالمبتدء وتنتهي الى المعاد ، كل حسب ما تتطلبه ظروف الدعوة ، وتتقبله العقول ، وكما هنا وفي كافة مجالات الدعوة .  
فإنها كلها حكمة ، وكلها بالغة .

ورغم أن هذه الأنبياء كلها « حكمة بالغة » : تبلغ العقول والقلوب « فما تغنِ النذر » العقول المدخولة والقلوب المقلوبة ، فلا تنفتح لرؤية الآيات البيّنات ، فالإدكار والازدجار لزامه بلوغ الجانبين ، لكي يتولد منها ، بلوغ الحكمة وهي حاصلة ، وبلوغ المبلغ إليهم ، فرغم حصوله مبدئياً بما خلق الله ودبر « فطرة الله التي فطر الناس عليها » ، إنهم ارتجعوا به الى أسفل سافلين ، إذا « فما تغنِ النذر » هؤلاء ، رغم كونها « حكمة بالغة » « فقلت الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » ( ٦ : ١٤٩ ) .

هذا ، وكما ليس في النذر إغناء ، حتى فيما يستجيب المنذرون ، فإنما هو توفيق الله ، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، لولاه لم تكف النذر ولم يستجب المنذرون : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » (٥٦: ٢٨) .

فعلى الله الحجة البالغة ، وعلى رسول الله قول بليغ بآيات بليغة ، فإذا لم تنفع هذه وتلك ، إذاً فالإعراض :

« فتول عنهم يوم يدع الداع الى شيء نكر » .

تول عنهم في ذلك اليوم العسير ، لا يوم الدنيا إلا عند الإياس القاطع عن خيرهم : « فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » ( ٤ : ٦٣ ) .  
إعراضاً تولياً عن أذاهم ومقابلتهم بالمثل ، وتولياً إياهم في عظمتهم وقولك في أنفسهم قولاً بليغاً ، فإذا يشتت عنهم فاتركهم في طغيانهم يعمهون « فتول عنهم يوم يدع الداع الى شيء نكر » .

أو « تول عنهم » الى « يوم » ، فيما عليك بعد إعراضهم بلاغ بعد الذي عانيت في بلاغك ، وعلته أقرب من توليه يوم يدع الداع ، فإنه حاصل يومه دون أمر أو محاولة ، اللهم إلا تولياً عن شفاعتهم ، فإذا لم يسمعوا الى الدعوة يوم الدنيا ، لم تنفعهم الشفاعة يوم الدين .

أو « تول عنهم » دنياً وعقبى ، إذ انقطعت الصلة بينك وبينهم : صلة الدعوة الواجبة هنا إذ أعرضوا ، وصلة الشفاعة هناك إذ لا تنفعهم ، والجمع هذا أجمل لأنه أشمل ، وفصل « يوم يدع » عن « تول » لا يحتمل ، فإنه غير فصيح ولا صحيح .

ثم ترى من هو الداع يومه وما هو الشيء النكرو؟ .. الداعي هنا لعلة الله ، أو ومن يدعو بإذنه ، داع متبّع في دعواه : « يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمان فلا تسمع إلا همساً » ( ٢٠ : ١٠٨ ) « مهطعين

إلى الداع يقول الكافر هذا يوم عسر . « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً » ( ١٧ : ٥٢ ) فهو الرحمان المستجاب بحمده ، المتبّع من غير عوج في دعوته ، الذي تخشع له الأصوات إذ يهطمعون إليه : تصويباً لأعناقهم : « مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » ( ١٤ : ٤٣ ) .

وبما أن الدعوة هنا وهناك للكافرين ، فهي تجمع دعوة البعث ، المكروهة المنكورة لديهم : « يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا » « فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير » ( ٢٢ : ٤٤ ) .

إلى دعوة الحساب فالعذاب النكر ، « فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً » ( ٦٥ : ١٨ ) « ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً » ( ١٨ : ٨٧ ) مثلث النكر لمن عاش حياته النكر ، نكر بنكر ، وأين فكر من نكر ؟ نكر ظالم ممن أنكر الحق ، ونكر عادل عليه من الحق .

ثم النكر هو الأمر الصعب الدهاء الذي لا يعرف فينكر ، فالشيء النكر الذي يدعوهم الله إليه ، هو الحياة الحساب العقاب ، التي عاشوا نكرانها حياتهم تكذيباً لها ، فهم في قيامة الإحياء ينكرونها نكراً وكُرهاً لواقعها الذي لم يكونوا يتوقعونها ، ونكراً وجهلاً بقدرها وكيفيتها ، إذ أنهم مدعوون إلى مثلثي النكر من الآخرة والاولى .

« خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافر هذا يوم عسر »

فهم يدعون إلى شيء نكر فيضطرون للإجابة سراعاً ، حالكونهم « خشعاً أبصارهم » خشوع الذل : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا

---

(١) رغم ما فسر به وقيل : « فنقول عنهم » واذكروا إذ « يخرجون من الأجداث .. يوم يدع الداع » لكي تنذروهم به ... وهذا عجيب في نوعه !

يوعدون » ( ٧٠ : ٤٤ ) ( فاذا هي شاخصة ابصار الذين كفروا » ( ٢١ : ٩٧ )  
خشوعاً وشخوصاً للأبصار وللقلوب سواء : « يخافون يوماً تنقلب فيه القلوب  
والأبصار » ( ٢٤ : ٣٧ ) .

وحال أنهم « يخرجون من الأجداث » : القبور ، المحافظ التي حوتهم وحفظهم  
من تراب الأرض او ماءها او هواءها ، جُمعاً فيها او هباء ، فهم يخرجون منها  
بدعوة الرحمن ، ضعفاء هزلاء ، حائرين مائرين « كأنهم جراد منتشر » :  
« يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون » ( ٧٠ : ٤٤ )  
ينتشرون في عرصات المحشر كالفراش المبثوث « يوم يكون الناس كالفراش  
المبثوث » .

وحال كونهم « مهطعين الى الداع » مصوبين أعناقهم إليه : « ولا تحسبن الله  
غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي  
رءوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء » ( ٤٣ : ١٤ ) .

فالهطوع على الشيء : هو الشخوص بالبصر في ذل وخشوع مع تصويب العنق ،  
وإلى الشئ : هو الإقبال اليه مسرعاً خائفاً كذلك ، والكفار مهطعون الى الداع  
بالمعنيين إلا النظر الى الله ، اللهم إلا نظر الشخوص من بهت واحتيار ، الى الهول  
الواقع والمنتظر .

( يقول الكافر ) الخاشع ( هذا يوم عسر ) عسر خالص دون يسر خلاف ما  
كننا نزعم ، ولم نكن نحسب له حساباً (١) ( يوم عسير . على الكافرين غير يسير )  
( ٧٥ : ١٠ ) مها كان للمؤمنين يسيراً فيما هو عسير ، إذ يزول عسره للمؤمن ،  
ويزداد للكافر .

(١) في روضة الكافي بإسناده الى ثوير بن ابي فاختة قال : سمعت علي بن الحسين (ع) يحدث  
في مسجد رسول الله (ص) فقال : حدثني ابي انه سمع أباه علي بن ابي طالب (ع) يحدث الناس

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ  
وَأَزْدُ جَرٍّ — ٩ . فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ — ١٠ .  
فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ — ١١ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ  
عُيُونًا فَأَلْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ — ١٢ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى  
ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسُرٍ — ١٣ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ  
كُفِرًا — ١٤ . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ — ١٥ .  
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ — ١٦ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ  
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ — ١٧ . كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ  
عَذَابِي وَنُذْرٍ — ١٨ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي  
يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ — ١٩ . تَزْرِعُ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ  
نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ — ٢٠ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ — ٢١ .

قال : اذا كان يوم القيامة بعث الله تبارك وتعالى من حفرة عزلا بهما جرذاً مردأ في صعيد  
واحد يسوقهم النور وتجمعهم الظلمة حتى يقفوا على عقبة الحشر فيركب بعضهم بعضاً ويزدحمون  
دونها فيمتمعون من الضي فتشتد أنفاسهم ويكثر عرقهم وتضيق بهم أمورهم ويشتد ضجيجهم  
وترفع أصواتهم وهو اول هول من أهوال القيامة — الى قوله — فيأمر ( الله ) ملكاً من الملائكة  
فينادي فيهم يا معشر الخلائق انصتوا واسمعوا منادي الجبار ، قال : فيسمع آخرهم كما يسمع  
أولهم ، قال : فتتكسر أصواتهم عند ذلك وتخشع أبصارهم وتضطرب فرائصهم وتفرع قلوبهم  
ويرفعون رؤوسهم الى ناحية الصوت مهطعين الى الداع ، قال : فعند ذلك يقول الكافر : هذا  
يوم عسر .

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ - ٢٢ . كَذَّبَتْ  
 ثَمُودُ بِالنُّذُرِ - ٢٣ . فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا  
 لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ - ٢٤ . أَهْلَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا  
 بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ - ٢٥ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنْ الْكَذَّابُ  
 الْأَشِرُّ - ٢٦ . إِنَّا أُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَأَرْقَبِيهِمْ وَأَصْطَبِرُ - ٢٧ .  
 وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ - ٢٨ .  
 فَنادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ - ٢٩ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي  
 وَنُذُرٍ - ٣٠ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا  
 كَهَشِيمٍ الْمُخْتَظِرِ - ٣١ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ  
 مِنْ مُدَكِّرٍ - ٣٢ . كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ - ٣٣ .  
 إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ - ٣٤ .  
 نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ - ٣٥ . وَلَقَدْ  
 أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ - ٣٦ . وَلَقَدْ رَاودُوهُ  
 عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرٍ - ٣٧ . وَلَقَدْ  
 صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِيرٌ - ٣٨ . فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرٍ - ٣٩ .  
 وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ - ٤٠ .



وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ — ٤١ . كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا  
كُلَّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ — ٤٢ . أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ  
أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ — ٤٣ . أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ  
جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ — ٤٤ . سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ — ٤٥ .  
بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ — ٤٦ . إِنَّ  
الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَشُعْرٍ — ٤٧ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ  
عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ — ٤٨ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ  
خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ — ٤٩ . وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ  
بِالْبَصَرِ — ٥٠ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ — ٥١ .  
وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ — ٥٢ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ  
مُسْتَطَرٌ — ٥٣ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ — ٥٤ . فِي  
مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ — ٥٥ .

\*\*\*

عرض سريع عريض للأمم الكافرة الغابرة ، بما فعلوا وافتعلوا وجاءت الرسالات  
الالهية ، وما لاقوه او ذاقوه من كوارث ، من قوم نوح وصالح وهود و آل فرعون ،  
الخمس الكارثة ، الواحمة جبين الإنسانية ، الماردة عن مثلها ، الشاردة عن صراطها ،  
يستعرضهم الله تعالى هنا ، تسلية لحاطر الرسول الأقدس محمد ﷺ ولكسي

لايستصعب ما يلقاه من كفره قومه ، وليصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل ، وأولى له أن يصطبر .

يبتدء في هذا العرض بقوم نوح ، لأنهم ( كانوا أظلم وأطغى ) وينتهي إلى قوم فرعون ، ثم يجمعهم وأضرابهم في ضلال وسعر : ( إن المجرمين في ضلال وسعر ) .

« كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر » (١) .

( كذبت قبلهم ) : قبل هؤلاء المكذبين بك ( قوم نوح ) : بالمرسلين ( كذبت قوم نوح المرسلين ) ( ٣٦ : ١٠٥ ) ( فكذبوا عبدنا ) الواصب في العبودية ، الصامد في الدعوة ، تكذيباً بعد ما كذبوا المرسلين قبله ، ومتفرعاً عليه اذ اعتادوا تكذيب الرسالات الالهية : ( فكذبوا ) ولكن من ؟ ( عبدنا ) كأنه العبد لاسواه في مجموع المكلفين ، فلم يقل ( عبداً من عبادنا ) وانما ( عبدنا ) فقد كان تكذيبه تكذيباً لله ، واضحاً وضع النهار ، كذبوه الف سنة إلا خمسين عاماً ، ( وقالوا مجنون ) فيما فعلوا وقالوا ، قوله الفعل والقول ، ولكنها تختص هنا بالذكر تدليلاً على جمعها مجامع التكذيب قولياً وعملياً ، فانها أشر وأخطر ما تواجه به الرسالات من الدعايات المضادة الجارفة ، إذ تسقط المرسلين عن عيون البسطاء ، ودون ان تحمل حجة او شاهداً .

( وازدجر ) : عليها من قولتهم : ان الجن زجرته : صاحت به عن جموع العقلاء وطرده ، او وبلغ به الجنون الى حد زجرته مجنونه ايضاً عن جموعهم ، فاصبح أجن من سائر المجانين ، وكأنهم عقلاء يجنبه ، اذ يعمل ويقول ما لا يعمل ولا يقوله المجانين ايضاً ، فقد بلغ من الجنون قمته ، ومن الزجرة ذروته ! .

او ان ( ازدجر ) استعراض لأهم مخلفات فرية الجنون : أنه إثر هذه الفرية — وبعد ما كررت وركزت وأخذت مأخذها من نوح طوال الدعوة — انه ( ازدجر )

(١) راجع سورة نوح في ج ٢٩ ص ١٤٥ ستجد تفاصيل من دعوته وتكذيب قومه .

بما زجره قومه ، أن صاحوا عليه وطردهوه ، وكأنه ارتكب جريمة نكراء ، .. زجره فازدجر ، بدل ان يزدجروا - هم - ( ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ) ! .

وعلمهمامعاً معنيان إذ تتحملها الصيغة (وازدجر) ازدجاراً فعلياً من قبل قومه ، بعد ازدجاره قولياً : ان الجن زجرته بالمعنيين المسبقين ، فاصبح مغلوباً في ثالوث الإزدجار فطلب من ربه الانتصار :

« فدعا ربه اني مغلوب فانتصر »

فليس من الهيئت أن يتهم رسول كنوح (ع) بهذه التهمة الوقحة ، وهو من الكرامة عند الله لدرجة كأنه عبده لا سواء « عبدنا » بين عامة المكلفين زمنه . فينزله قومه الى درك الجنون وأجنه ، فيطردونه عن دعوته ، ويقصرون لسانه عن تبليغ رسالته ، فيصبح مغلوباً على أمره وكأنه لا يحمل رسالة .. فحق له إذاً أن يدعو ربه « أني مغلوب فانتصر » ! ، وبعد دعائه لهم الطويل الطويل ، وحججه عليهم ، اللذين تحملها سورة نوح وهو (ع) .

فهمة الرسالة لا تنتهي إلا بعد بلاغها الأسماع إن نفعت ، وبلوغها القلوب كما أريد منها : او بعد إياس الرسول عن تأثيرها في المرسل اليهم : « فلم يزدحم دعائي إلا فراراً » فقد انتهى الأمران لنوح ، بلاغاً في المؤمنين القلة « وما آمن معه إلا قليل » وفراراً في الباقين الكثرة ، إذاً فهو مغلوب في مهمته ، وعليه ان ينتصر من ربه « فدعا ربه أني مغلوب فانتصر » :

يا رب انتصر : افتقم نصرة لرسالتك ، لرسولك ، لشريعتك ، لحقك ، فالأمر أمرك ، والعبد عبدك ، والرسول رسولك ، ثم ولا رجاء في هؤلاء ، ولماذا ؟ لأنهم كذبوه رغم طول الدعوة ، والمصابرة المثابرة على أذاهم ، صامداً لاستهزاءهم ، يرصد فيهم بريق الأمل ، ويشيم منهم بارق الايمان ، ولكنهم ما زادوا على الايام إلا عتوا ونفورا ، ففزع الى الله شاكياً ملتجياً ، مستعيناً مستهدياً ، في هؤلاء الذين

عجزت حيلته فيهم ، فتجاوب الوحيان ، من نوح : « انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » ( ٧١ : ٧٧ ) وقوله تعالى : ( انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ) ( ١١ : ٣٦ ) فدعا ربه اني مغلوب فانتصر ) :

وما أن تم دعاء الانتصار ، ارجاعاً لأمر المرسل إليهم إلى المرسل العزيز القهار إذا بأمر الجبار الى الكون ان يعجل بالانتصار ، اشارة عاجلة الى عجلته ان تعجل وتخرق عاداتها فتغرق هؤلاء الكفار :

« ففتحننا ابواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على امر قد قدر »

ترى إن في السماء ابواباً أغلقت على مياهها ؟ اقول : نعم وكما لها أبواب لغير الماء ، مهما اختلفت ابواب عن ابواب ، اختلاف ما خلفها من رحمة او عذاب ، فلكل باب حسبه ، ولكل فتح حسبه ، وعمل من ابواب ماء السماء أبواب الجاذبية ، والضغط الجوية ، والظروف الحرارية : أن سهل سبل بخارها وامطارها حتى لا يحبسها حابس ، ولا يكبسها كابس ، إزالة للعوائق عن مجاري مياهها فاصبحت كحبيس فتح عنه بابه ، او معقول اطلق عنه عقاله .

« ففتحننا » يجمعية الصفات القهارة « ابواب السماء » سماء الماء « بماء منهمر » : غزير متوال جارف غير مجازف ، فانهمر بما همرناه وصبيناه ، ماء ليس من نصيب الأرض رحمة لها ، وانما إصابة ودماراً عليها وغرقاً لأهلها إلا الصالحين : ( وأنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ) .

هذه مياه السماء المنهمرة ، ثم تجاوباً بها - بأمر هامرها وآمرها في ذلك الطوفان - مياه الأرض المخزنة فيها ، اضافة الى عيونها الظاهرة :

« وفجرنا الارض » كل الأرض « عيوناً » ويا لها من عيون ! حيث استجابات

كلها دون استعصاء .<sup>(١)</sup> فاستحالت في هذه التفجيرة كلها عيوناً : فاصبحت عيوناً بتمامها ( فالتقى الماء ) : اختلط ماء السماء المنهر ، بماء الأرض المنفجر ، التقيا فوق الأرض ( على امر قد قدر ) : التقاء عال ، مسيطر على المفرقين ( على أمر ) من الله ( قد قدر ) على قدره دون فوضى ، وانما بحسبان ، دون زيادة ولا نقصان ، تقدير إلهي محسوب ومقصود ، وليس بسبب اجتماع الكواكب السبعة حول برج مائي ، حسب السنة المعتادة ، فصادف غرقهم ، وانما قدر إلهي أن يلتقي الماء آن ، وقد خلف طوفاناً عم الأرض وطم<sup>٢</sup> ، فعنده تم أمر الله ( وقيل بعداً للقوم الظالمين ) ( ١١ : ٤٤ )

فلو كان ذلك الالتقاء فوضى<sup>٣</sup> لما أبقي أحداً ، ولا نجرفت الأرض الى الهو الكامل ، ولكنه « على أمر قد قدر » ومنه نجا نوح بجنب غرق الكافرين : « وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ،

تري ما الذي ينجي نوحاً والمؤمنين معه من هذه الورطة الغامرة ؟ هذه التي أغرقت الأرض بجبالها وما عليها وحتى أعلى الجبال ، التي علتها عصم من أمر الله ! : « قال سأوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » ( ١١ : ٤٣ ) فهل المنجي من هذه المهلكة هي سفينة مما تصنعها أيدي إنسانها ، ثم يصبح وهو الربان ؟ كلا ! إنها سفينة مصنوعة بيد رسول الله وبأعين الله ووحيه : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » ( ١١ : ٣٧ ) ثم وربانها هو رب العالمين « تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر » : أعين القدرة والرعاية الإلهية « وهي تجري بهم في موج كالجبال » ( ١١ : ٤٢ ) وإلا فما قيمة « ذات ألواح

(١) رغم ما تروى من روايات في استعصاء ماء المر والكبريت والملح - انها كانت حلوة فاستعصت فجعلها الله مالحة او مرة ام ماذا ؟ فهذه الروايات خلاف الواقع من وجود هذه المياه قبل الطوفان ، وخلاف عموم القدرة الالهية النافذة في كل شيء وخلاف الآيات الدالات على خضوع كل شيء له ، فتأول او تطرح - راجع نور الثقلين ٥ : ١٧٨

ودسر « : حاملة ذات أخشاب كبيرة وأوتاد تربطها ! اللهم إلاّ بأعين الله ، فهي إذاً تحمل رسول الله ومن معه من المؤمنين بالله : « تجري بأعيننا جزاء لمن كان كُفراً » : طوال الف سنة إلاّ خمسين عاماً ، فقد كفروا به طوال الدعوة ، وستروها عنها وما يحق له ، فكفّرهم الله في الغمرات ، كفراً بكفر وستراً بستر ، وسوف يحزون يوم القيامة جزاءهم الأوفى بما كانوا يكفرون . فقد تتحمل « جزاء لمن كان كُفراً » أنت تعني - إضافة إلى هذا الحمل والجري العظيم - إلتقاء الماء على أمر قد قدر من غرق الكافرين ، ففي غرقهم له جزاء كما في حمله ونجاته له جزاء ، فليس غرقهم جزاءً عليهم بكامله ، اللهم إلاّ نذراً ، وإلاّ له جزاء هنا .

ومن ثم نرى لهذا الجزاء ذي زاويتين بقاء كآية للمؤمنين والكافرين :

« ولقد تركناها آية فهل من مدكر فكيف كان عذابي ونذر » :

« إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » ( ٦٩ : ١٢ ) ( فنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ) ( ٢٩ : ١٥ ) « وآية لهم إنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون »

وآية من هذه الآية ، لوحة من هذه السفينة تحمل بشارة محمدية ، برزت قبل ربع قرن في وادي قاف السوفيت<sup>(١)</sup> آارات ، المسماة في القرآن بالجودي ، بشارة بأسماء الخمسة الطاهرة : محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع) . فلقد ترك الله هذه السفينة الآية ، وما على لوحها من آية ، تركها آية العالمين ، وتذكرة للمدكرين : « فكيف كانت عذابي » على الكافرين « ونذر » ي؟ إنه كان عذاباً بعد الإنذار والاستكبار ، وبعد الإياس عن اثر الإنذار !

(١) الجزء ٢٩ ص ٩٠ - ٩٤ - ففيه شرح وصورة فوتوغرافية عن اللوحة . التي وجدت في بعض قلاع جبل آارات وهو الجودي كما يصرح به في القرآن « واستوت على الجودي » .

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »

يسرناه عبر القصص والأمثال ، وعبر الحجج البالغة والبراهين الدامغة ، عبر صنوف العبر ، وعبر كل ما تتقلبه الفطر والعقول والفكر .  
هذا وكما نرى القرآن يسر التناول والإدراك ، ولحد الإعجاز كما في سائر جوانبه اللفظية والمعنوية ، وما عُسِر اكتناه معانيه ، واقتضاء مغازيه إلا لأن فيه مجامع العلوم الربانية ، الممكن نزولها إلى الخليقة مدى القرون والأجيال ، رغم يسره في تعبيره ونضده في عييره ، فمهما كان التعبير يسراً لم يكن إلا تيسيراً لأدراك المعاني الغامضة ، والأضواء الرامضة ، دون أن يجعلها سطحية سوقية ساذجة .

انه تيسير للذكر ، لمن بإمكانه الذكر ، لمن لم يغرب عقله ، ولم يعزب ضميره وان كان لُداً : ( فإنما يسرناه بلسانك لتبشّر به المتقين وتذّكر به قوماً لداً ) ( ١٩ : ٩٨ ) « ... لعلمهم يتذكرون » ( ٤٤ : ٨٨ ) فإنه يأخذ بمسامع الأذان ، ومن ثم بأزمة القلوب حيث يتلوهُ الرسول ﷺ في الأنفس : ( وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ) ( ٤ : ٦٣ ) : يبلغ أعماق القلب ( لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ) .

فلا سبيل لمن له مراس بلغة القرآن أن يعتذر بغموضه في أعماقه ورموزه ، ان لم يتذكره ، فكل من يفهم هذه اللغة يتذكر من القرآن قدر مجهوده ، ولا اقل تذكر العظة ، وإن لم يبلغ مبالغ الأغوار في علومه وحقوقه ، طالما السبيل اليها مسلوكة لمن يواصل السير بمجهوده ، فإنه معلم لمن يتعلم ، وواعظ لمن يتعظ ، وقاصد لمن يقصده ، وحصد لمن يحصده ، وراصد لمن يرصده ، وفيه ما يتطلبه أي طالب إلا الباطل .

( كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ) ؟

انهم عاد الأولى وهم قوم هود (ع) كذبوه شر تكذيب ، رغم ما أنذرهم

الله بخير نذر ، فلاقوا مستاً من عذابهم ( فكيف كان عذابي ونذر ) ي ؟ :  
 « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم  
 أعجاز نخل منقعر »<sup>(١)</sup> :

( أرسلنا عليهم ) لا - إليهم ، بما يوحى بإرسالها عذاباً لا رحمة ، ومن  
 تصريح العذاب ( صرصراً ) : وهي البالغة في الصر والقر : برد قارص لا قبل  
 له ، فقد كانت غالبية عالية على هؤلاء العتاة : ( وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر  
 عاتية ) ( ٦٩ : ٧ ) وكما عنت على خزانها .

سخر الله عليهم هذه الصرصر العاتية ( في يوم نحس مستمر ) : يوم عذاب  
 نحس ، فليس اليوم نحساً إلا بما فيه<sup>(٢)</sup> نحس مستمر إستمراراً زمنياً جعله أياماً :  
 ( فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات ) ( ٦٩ : ١٦ ) وهي : « سبع  
 ليال وثمانية أيام حسوماً » ( ٦٩ : ٧ ) أيام نحسات حاسمات أزال كافة آثار  
 النحس والطغيان ، فقد أصبحوا تحت رحمة هذه الصرصر العاتية كالنخل الخاوية  
 الأعجاز ، المنعقدة المصرومة ، المقتلعة عن قعرها ( فهل ترى لهم من باقية ) ؟  
 . ( ٦٩ : ٨ )

(١) راجع ص ٣٠٩ ج ٣٠ وص ٨٦ ج ٢٩ ، وقد ذكرت عاد في أربع وعشرين موضعاً من  
 القرآن تنديداً بهم وتذكيراً لمن بعدهم .

(٢) فنحس هنا صفة لمضاف اليه محذوف ، كعذاب او مثله : يوم عذاب نحس - وليس  
 صفة ليوم فانه مضاف وليس موصوفاً .

وهذا هو الواقع الملموس ان لا خير فيه ولا نحس الا بما يجري فيه من خير او شر ، فطبيعة  
 الزمان المقدارية متشابهة الاجزاء ، والزمان بوجه عام لزام ، وبوجه خاص لنا محسوس ملموس ،  
 يظهر من طلوع الشمس وغروبها فمن اين النعوسة او الخيرية ، اللهم الا مما يحدث فيه . فلا  
 عبرة بالأحاديث الواردة ان يوم الاربعاء ام ماذا يوم نحس .



وقد يوحى هذا التشبيه أنهم كانوا جساماً أقوياء كالنخل ، إلا أن عذاب الله أقوى فلا يعرف قوة لهؤلاء الهزلاء الضعفاء .

ثم وهذه الصرصر كان لها حرّها إضافة إلى قرّها ، نموذجاً من النار الزمهرير في الجحيم : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » ( ١٣ : ٤١ ) ازدواجية عذاب الحرّ والقرّ من هذه الريح العقيم الصرصر : « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » ( ٥١ : ٤١ ) وعليها كانت في أولها صرّاً ، ثم أصبحت حرّاً ، أم هما المستمران طول الأيام الثمانية ! .

« فكيف كان عذابي ونذر » ؟ والجواب هو واقع المشهد لصرعى الزمجرة ، ومن ثم نقله في هذا الذكر الحكيم يسراً للمذكّرين :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .. تتكرر هذه الذكرى في هذه المصارع أربع مرات ، ولكي يتذكر من أراد أن يذكر وأراد نشوراً . « كذبت ثمود بالنذر . فقالوا : أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفسى ضلال وسعر . » ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر » .

وثمود هم قوم صالح ، كذبوا بالنذر قبل صالح ومعه وإياه ، وهو يختص بالذكر من بينهم لأنه أعظمهم وآيته الناقة من أعظم الآيات ، فظلمهم بها من أقبح الظلم : ( كذبت ثمود بطغواها . إذ أنبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فمعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها ) (١) .

انهم كذبوا بالنذر قولياً وعملياً ، فما أبقوا فيما طغوا شيئاً إلاّ فعلوه ( فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ) مثلث التأنيب ذريعة للتكذيب : ( أبشراً ) وكيف

(١) راجع ج ٣ ص ٣٣٥ من الفرقان .

يبعث الله بشراً : ( إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ) ( ٦ : ٩١ ) ( بشراً منا ) فلو كان بشراً من غيرنا لا مثلنا ، فعلته كان أهلاً للإتباع : ( قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا مما يعبد آباءنا ) ( ١٤ : ١٠ ) ( بشراً منا واحداً ) : واحداً عن الأنصار ، وعن العشيرة والمال ، وعن طاقات بشرية وسواها قد تؤهل للإتباع : ( وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ) ( ٤٣ : ٣١ ) .

فهمؤلاء الأوغاد المناكيد يتذرعون بثالوثهم المنحوس هذا ، إلى تكذيب بشر رسول ، وتترى ماذا يمنع عن كون بشر رسولاً إلى بشر ؟ وفيه الحجة ، وبه قطع الأعذار وإكمال المهجة ، فحق ولو بعث ملكاً لجعل بشراً لهذه الغاية واضرابها ( ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ) ( ٦ : ٩ ) .

وترى بعد أن في إتباع الرسول البشر ضلال وسعر كما تقولوا : « أنا إذا لفى ضلال وسعر » : ضلال في أرواحنا ، وسعر : نيران متسعة عاتياً في حياتنا كلها ، ولماذا نتبعه فنسجر لأنفسنا حياة جهنمية ضالة ؟ ! .

وإذا كان هنا ضلال وسعر ، فهل في تكذيب الرسل هداية وجنة ، ويا لها من معاكسة ضالة جهنمية يتذرعون بها إلى تكذيبهم رسل الله ! . ويا لهؤلاء المكذبين من قدسية احتياطية يتحرزون لها عن إتباع رسل الله ، احترازاً عن ضلال وسعر ، هما من مخلفات تكذيب رسل الله ! .

ثم نراهم يضيفون إلى ثالوثهم رابعاً يدعمون به صرح الطغيان ، ظلمات بعضها فوق بعض ، وشبهات مكررة تحيك في صدور المكذبين طوال تاريخ الرسالات :

« أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب اشر » ؟ :

كانهم هنا أغمضوا النظر عن ثالوثهم المسبق : فليكن بشراً منا واحداً !

فلماذا يكون هو هذا الواحد ؟ فليكن كل واحد منا رسولاً لنفسه ، أو إلى غيره أيضاً : ( بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشورة ) ( ٧٣ : ٥٢ ) أم إذا لا يبعث إلاّ واحد ، فكيف يلقي عليه الذكر من بيننا ، وهو لا يملك عدة ولا عدة ، ونحن العدة ولنا العدة ؟ : ( وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ) ( ٤٣ : ٣٢ ) ؟ وهم يريدون أن يقسموا المعاش الروحية في الحياة العليا ! وأين حياة من حياة ، ورزق من رزق ؟ ! .

ومن هذه الشبهات الواهية يتخطون تركهم لاتباع الرسل إلى تكذيبهم الأشر : ( بل هو كذاب أشر ) ! : مبالغ في الكذب والبطر : الفرح والفخر والمرح ، فالفرح المذموم شديده البطر وأشدّه الأشر ، فقد وجه إلى هذا النبي العظيم أشد التهم ، ولكي يسقطوه عن أعين الناس ، ويتذرعوا به إلى التخلف الشرعي عنه ! ولكن : ( سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ) : فإن الغد سوف يكشف عن من هو الكذاب الأشر كشف الواقع ، طالما هو المكشوف اليوم عند من لم يغرب عقله ، ومن الغد :

( إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم ان الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ) .  
والناقة هذه آية إلهية أرسلت فتنة لهم : حجة واختباراً ، وكما اقترحوها <sup>(١)</sup>

(١) روضة الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع) . في حديث حول الآية : فبعث الله اليهم صالحاً فدعاهم فلم يجيبوه وعتوا عليه عتواً وقالوا : لن نؤمن لك حتى تخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء وكانت الصخرة يعظمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويجمعون عندها فقالوا له : ان كنت كما تزعم نبياً رسولاً فادع لنا إلهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء فاخرجها الله كما طلبوا منه الحديث .

فتبين لهم منها مَنْ هو الكذاب الأشر ، قبل أن يعلموا يوم القيامة ، فالفسد هنا يشملها ، ولا سيما أن في غد الأولى حجة حاضرة حاذرة ، وليس في الأخرى إلا تخويفاً قد لا يخوفهم لأنهم ناكروه وكما في « انا مرسلوا الناقة .. » إحياء ظاهر ان لإرسالها رابطاً باهراً بالكشف عن الكذاب الأشر .

« انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر » : - ولقد حمل صالح هذه الرسالة الآية :

« قال ... قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم » ( ٧ : ٧٣ ) « وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها » ( ١٧ : ٥٩ ) « فارتقبهم » فيما يفعلون ويفتعلون رقابة الرسالة فتبشيراً وإنذاراً « واصطبر » على أذاهم ، ولكي يعلموا من الكذاب الأشر .

« ونبينهم ان الماء قسمة بينهم » : - « هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » ( ٢٦ : ١٥٥ ) فقد كانت آية في ولادتها دون والدين وعن الجبل ، وفي شربها الماء قدر شرب القوم ، آية حجة وابتلاء .

« ... قسمة بينهم كل شرب محتضر » : قسمة إلهية بينهم وبين الناقسة ، كل يشرب : نصيب الشرب محتضر : حاضر دون انتقاص ، قسمة عادلة حاضرة .

فهل انتبهوا بهذه الآية وخرجوا عن غيهم ؟ كلا ! إنهم ارتكبوا جريمة نكراء ، لقد فتكوا بالآية المعجزة وقتلواها :

« فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر » : وذلك رغم ما حذروا عن مسها بسوء : « هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم .. فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ، صالح إئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » ( ٧ : ٧٣ و ٧٧ ) .

عقروا الناقة بما « نادوا صاحبهم » لعقرها ، وساعدوه وهو « أشقى الأولين  
أحيمر ثود ، رجل عارم عزيز في رهطه » (١) « فتعاطى » : تناول منهم ما به  
يعقر « فعقر » الناقة ، والتناول هنا يشمل كل التناولات المشجعة للعقر : من  
خر تجننه ، ومن مال وسيف ومن مكاسب معنوية عندهم ، والعقر هو إصابة  
الأصل والعقر ، فهي بالنسبة للناقة استئصالها ونحرها .

« كان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون »  
( ٤٨ : ٢٧ ) فتصالحوا في افساد عظيم على أحيمرهم فنادوه فتعاطى فعقر ، فتمت  
الفتنة ووقعت المصيبة .

« فكيف كان عذابي وفنر . إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم  
المحتظر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

وإنها لصيحة خلفت رجفة مدمرة جاثمة هاشمة تحقيقاً لوعده سابق مطلق  
وآخر لاحق غير مكذوب : « فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك  
وعدهم غير مكذوب ، فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا  
ومن خزي يومئذ .. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين .  
كان لم يغنوا فيها .. » ( ٦٨ : ١١ ) .

ويا لها من صيحة مرجفة جاثمة هاشمة : جشمتهم في ديارهم : لاطئين بها ،  
لازقين عليها كأن لم يغنوا فيها ، وهشمتهم : كاسرة لهم كالنبات الرخو « هشياً  
تذروه الرياح » « فكانوا كهشيم المحتظر » ويا له من تنظير عديم النظير ، إذ  
شبههم بهشيم : الحشيش الذي يخرج من الحظائر بتفتت ، هذا الذي يحتمضه  
المحتظر : صاحب الحظيرة ، للبيع أكلا للحيوان أو احراقاً للتدفئة والطبخ .

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٥٧ عن النبي (ص) قال لعلي (ع) من أشقى الأولين ؟ قال : عاقر  
الناقة - فمن أشقى الآخرين ؟ قال : قلت : لا أعلم يا رسول الله (ص) ! قال : الذي يضربك  
على هذه وأشار إلى نافوخه .

فهم هشيم لكونهم يابسين كالخشيش كمن ماتوا قبل زمن بعيد ، وهشيم حيث انضمت أجزاءهم بعضها ببعض كحطب الحاطب الموضوع بعضها فوق بعض كالخظيرة . وهشيم محتضر لوقود المحتظر ، ولقد كانوا هشيماً صك هذا الثالث من وقعة الصيحة المرجفة . احتضروا كوقود النار : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » ( ٢١ : ٩٨ ) والله تعالى هو المحتظر لهذا الهشيم من حظيرة الكون الواسع .

ويا لها من مصارع لكفار التاريخ ، فهنا هشيم المحتظر ، وهناك أصحاب الفيل كمصف ما كول ، وهناك سائر المعذبين « فكيف كان عذابى ونذرى ؟ . » كذبت قبلهم قوم لوط بالنذر ، إذ أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر .

.. ومن جرّاء تكذيبهم - وأشدّه وأنكره - بلوط عليه السلام يرسل الله عليهم حاصباً : ريحاً سماوية تحمل حجارة : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد » ( ١١ : ٨٣ ) .

« إلا آل لوط » . . . « إنا لمنجّوهم أجمعين . إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين » ( ١٥ : ٦٠ ) . « نجيناهم بسحر » : « فأمر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد » ( ٦٥ ) « إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم » ( ٨١ ) .

فهذا القطع من الليل هو من سحره ، حيث العيون نائمة ، وعيون أهل الله ساهرة ، وهذه النجاة من نعم الله : « نعمة » من عندنا كذلك لنجزي من شكر : أحياناً في الدنيا وتاماً في الأخرى .

وفيا إذا سألنا : فماذا ذنب الأطفال ، غير مكلفين في أي دين ، إذ لم يستثنوا مع آل لوط الناجين ؟

فالجواب : إن هلاكهم مع آبائهم الكافرين ليس لهم عذاباً ، وإنما مزيد

ابتلاء لأبائهم إذ يرونهم هلكى كأمثالهم ، ثم هم 'يحزون جزاء القاصرين غير المقصرين ولا يظلمون نقيراً ، وكما يرون آباءهم المقصرين معذبين فيجبر بلاءهم ، وما الله بظلام للعبيد !

ومما يوحى بهذا التحليل الآيات المحتجة عليهم ، المنددة بهم ، المحذرة إياهم عن العذاب ، والقصر خارجون عنها كلها :

« ولقد أنذرهم بعطشتنا فتأروا بالنذر » :

علتها مثلت البطشة : من طمس أعينهم ، إذ راودوا لوطاً عن ضيفه ، ومن إرسال الحاصب عليهم بحجارة من سجيل ، ثم البطشة الكبرى في الأخرى « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » ( ١٦ : ٤٤ ) .

فالبطشة المنذر بها تشملها كلها ، وكما أنذر : « وقضينا إليه ذلك الأمر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » ( ١٥ : ٦٦ ) كما وأنذر - مثل سائر المنذرين - البطشة الكبرى ، ولكنهم « فتأروا بالنذر » : ترددوا في أمرهم ، تداولوا للعرية فيما بينهم ليجسموها كأنها الحق ، متحاجين على النذر ، مهددين إياهم ، مستهزئين بهم ، لا غين معهم ، وإلى كل صنوف الممارات .

« ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر » .

المرادة هي التفاعل والتعامل في الرود والتردد في طلب الشيء برفق أو أي ضرب من ضروب المحاولات ، ولقد كانت مراودتهم إياه عن ضيفه - إذ حسبوهم غلماناً صباحاً . فهاج سعارهم - كانت شرسة نحسة للغاية : « وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تحزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد . قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد . قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك .. » ( ١١ : ٨١ ) ف « لن يصلوا إليك » إيحاء لطيف انهم على جموعهم المحتشدة

وإصرارهم لن يصلوا إلى بغيتهم ، إذ إن هؤلاء ملائكة الله ، وإن الله يطمس أعين القوم دونهم : « فطمسنا أعينهم » .. وهل إنه طمس بذهاب أعينهم إلى العمى <sup>(١)</sup> كما هو ظاهر الطمس ، وليس الستر أو السد حتى يكون مؤقتاً ، وكما قد توحي له « فذوقوا عذابي ونذر » فليس الحجاب المؤقت عن الرؤية عذاباً في هذا الحساب ! ثم وهذا من ذوق العذاب فما هو ذوق النذر ؟ .

إنه ذوق لتنذارات النذر بالعذاب المنذر به ، وتحقيق وعدهم ، وتكريمهم فيه رغم مهانة المنذرين ، وقد أنذرهم لوط هذه البطشة الطامسة الخاصة :  
« ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر » .

فطالما الطمس وذهاب الأعين آني لا يستقر عذابه ، مها استقرار حرمانهم عن الرؤية ، ولكنهم بطمسهم عن الحياة بالحاصب استقروا في العذاب دون فتور ، لاتصاله بعذابي البرزخ والقيامة .

« فذوقوا عذابي ونذر » . ولقد يسمونا القرآن للذكر فهل من مدكر :  
نذير فوق نذير ، وتذكير فوق تذكير ، وعذاب فوق عذاب بما قدموا من نكير !

« ولقد جاء آل فرعون النذر » . كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » .

ومن أكبر النذر موسى عليه السلام آية إلهية عظمى يحمل آيات معجزات ، وآل فرعون كذبوا بهذه الآيات كلها ، لا بكل الآيات الإلهية طوال الرسالات ، فإن منها ما حصلت زمن موسى ونذر معه ، أو قبله وبعده ، ومنها ما اختصت

(١) الكافي عن أبي عبد الله (ع) في حديث قصته لوط .. فكابروه - يعني لوطا - حتى دخلوا البيت فصاح به جبرئيل فقال يا لوط دعهم فلما دخلوا أهوى جبرئيل بأصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قول الله عز وجل « فطمسنا أعينهم » .

وفي علل الشرايع عن أحدهما (ع) فأشار إليهم جبرئيل بيده فرجعوا عمياناً يلتمسون الجدار بأيديهم يعمدون الله عز وجل : لأن أصبحنا لا نستبقي أحداً من آل لوط .



بخاتمة الرسائل وهي أكبرها وأخدها ، ومنها ، فـ « كلها » هنا تعني كل الآيات التي أرسل بها نذرهم .

« فأخذناهم » : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم » ( ٤٠: ٥١ )  
 « أخذ عزيز مقتدر » فالأخذ عزيز مقتدر ، والمأخوذ عزيز مقتدر ! فـ « أخذ » هنا تتحمل كونها مفعولاً لأجله للأخذ والمأخوذ كليهما ، ولكن أين عزيز مقتدر من عزيز مقتدر ! وقد يلقي هذا الأخذ ظلال الشدة والعنف على عذابه ، تعريضاً بعزة فرعون واقتداره المزعومين ، فبحسب ظلمه وبغيه على عزه وقدرته ، كان أخذه قوياً .

فأولئك من أحق حماق التاريخ طغياناً وكفراً ، ذاقوا وبال أمرهم على عزتهم وقوتهم ، فما يأمنكم أن يأتيكم عذاب كما أتاهم :  
 « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر » ؟

تتري من هم المخاطبون بـ « كم » الأولى والثالثة ؟ هل هم الكفار المهددون بالعذاب ؟ فكيف يضاف الشيء إلى نفسه : « كفاركم » والصحيح - إذأ - أنتم ! أم هم جموع المنذرين ، الكافرين منهم المقصرين ، والناكرين القاصرين الذين مصيرهم الإيمان أو اللاتكذيب واللاإيمان ؟ قد يكون ذلك ، فـ « كفاركم » هم المكذبون الذين سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، و « كم » أعم منهم وكذلك « كم » الثالثة هم جموع المنذرين ، هؤلاء وهؤلاء ، ففي توجيه الخطاب إلى العموم ، المبتدء بالقاصرين غير المعاندين ، تشريف لهم مع الإنذار ، يشاركه ويجاوبه الخطاب الثالث « لكم » : « أكفاركم » أنتم غير المسلمين « خير من أولئكم أم لكم » جميعاً مكذبين وغير مكذبين « براءة في الزبر » ؟ :

ولإنها نهاية المطاف في إسقاط كل شبهة عن وحي السماء ، وسد كل ثغرة وكل مطمع في الهرب عنه .

وتتري هل في الكافر خير حتى يفضل به على سواء من الكافرين ؟ « أكفاركم

خير .. علّ الخير هنا خفة الكفر - «أنتم أقل كفراً منهم لكي تأمنوا عذابهم ؟ كلا - فأنتم سواء ، أو ولو كنتم خيراً فالكفر دركات ، لا ينجو أي درك لحفته عما يستحقه ، أو علّ الخير هو المزعوم من عزة وقدرة ومال وبنين ، يُستمد بها لدفع المضر (أكفاركم خير) : أملك مما كانوا يملكون من خير عاجل واه ؟ كلا ! فإنهم كانوا خيراً ، فلم يك ينفعهم خيرهم عما أصابهم من شر وعذاب : « كالذين من قبلهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتع بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون » (٩ : ٦٩) .

اولا خيرية هنا وهناك - بل : « أم لكم براءة في الزبر » :  
فما هي هذه الزبر : الكتب ؟ هل هي سماوية ؟ فإن هي ! وإذا كانت هي فتلك إذا قسمة ضيزى : ظالمة جاهلة وتمييز خاطيء ، فالزبر منه براء ، اللهم إلا ما كتبه ايدي الدس والتعريف ، فالوحي منه براء .. وإذا كانت غير سماوية فلا حجة فيها ! والعقل منه براء ، كما يقول علوم رباني  
وإذا لا خيرية لهم ولا براءة لكم - كما العقل يدل والواقع يشهد - فهل تسندون في باطلكم إلى جمعكم ؟ :

« أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر »  
« نحن جميع » : جمع متكاثف متكاثف كأننا واحد ، حيث الفعيل يبالغ في مادته ، فالجمع المبالغ في الجمعية هو المتكاثف الرصين كبنيان مرصوص واحد ، ولذلك يخبر عنهم ثانياً بـ « منتصر » رغم جمعية « نحن » فقد تحولت إلى واحد فهو منتصر : خبر بعد خبر عن « نحن » .

وهكذا جمع هو القوة الحاسمة الصارمة وينتج الانتصار والغلبة على المناوئين ، وإذا كانوا جميعاً هكذا كما يدعون فلا انتصار لهم إلا على اضراهم الكافرين غير الجميع ، وأما على المؤمنين الجميع فلا ، فجمع أولئك هو يبور ، لأنه جمع على الباطل البائر ، وجمع هؤلاء لا يبور ، لأنه على الحق غير البائر ، « وأما الزبد

فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، ( ١٣ : ١٧ ) وان مكث الباطل زمناً ، فـ :

« سيهزم الجمع ويولون الدبر » : وبما ان الهزم هو غمز الشيء اليابس حتى ينحطم كهزم الشن ، فهو ايجاء الى يبسهم في جمعهم اذ لا بلازق عريق ، ولا تلاصق عميق ، فهم - اذاً - على جمعهم يكسرون وجاء الجمع المتلازق المتلاصق من المؤمنين .

وتصديقاً لهذه الملحمة القرآنية ، الحاملة نبأ الغيب ، لقد هُزِمَت - بعدها بزمان - جموع من المشركين في حروبهم مع المسلمين أولاها حرب بدر ، هذه البادرة المعجزة التي بيضت وجوه المسلمين - اذ غلبوا وهم ٣٦٣ شخصاً - على المشركين وهم عشرة آلاف .

تنزل هذه الآية بمكة المكرمة اذ لا عُدّة لهم ولا عُدّة فلا جرأة على حربهم ، ثم تتحقق ببشارتها بالمدينة يوم بدر ، وكان يرددها الرسول ﷺ مبتهمجاً ان حقق الله له وعده <sup>(١)</sup> ونصر عبده اذ هزم جمعهم اجمع فولوا الدبر ، ووحدة الدبر كوحدة الجمع إشارة الى وحدتهم في جمعهم .  
ومها كانت هذه الهزيمة - بما قبلها وبعدها من هزائم عظيمة فهي هزيمة يحنب الساعة :

« بل الساعة موعدهم والساعة ادهى وامر »

إنها ادهى : وابلى لا خلاص عنها ، وامر من كل ما مر : من هزيمة وصاعقة وصرصر وطوفان وحاصب وأخذ عزيز مقتدر ، فانها يوم البطشة الكبرى التي لا قبيل لها ولا قبيل فيما مر ، فانها ادهى وامر .

فالمرارة وإن كانت لا يوصف بها إلا المذوقات والمتطعمات ، ولكن الساعة لما كانت مكرومة عند مستحقي العقاب ، ومكرومة بعقابها ، حسن وصفها بما

(١) الدر المنثور ٦ : ١٣٦ - ١٣٧ - أخرجه جماعة عنه (ص) انه كان يشب في الدرع يوم بدر ويقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر .. » فلما انتصر قال : هزم الجمع وولوا الدبر - وانزل الله : وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى .

يوصف به الشيء المكروه المذاق ، ومن عادة من يلاقي مكروهه أن يتهيج وجهه ، بما يدل على نفور جأشه وشدة استيحاشه ، فكذلك المجرمون اذا شاهدوا أما رأت العذاب ونوازل العقاب ، ظهر في وجوههم المنكر ، ما يستدل به على فظاعة حالهم ، فكانوا كلائك المضغة المقررة ، وذائق الكأس الصبرة في فرط التقطيب - ف « الساعه ادمى وامر » .

« ان المجرمين في ضلال وسمر ، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر »

.. انهم في ضلال مستمر وسمر متسمر يوم الدنيا ويوم الدين ، عكس ما كانوا يقولون « أبشراً منا واحداً نتبعه انا اذا لقي ضلال وسمر » فهذه القولة الضالة المتسمرة هي من ضلالهم ، الذي هو عذاب للعقول - لو كانت - وللنفوس ، ومن جرائها وورائها سمر الحياة الجهنمية البائسة ، وفي آخر المطاف : « يوم يسحبون في النار على وجوههم » كما يسحب الحجر المستنفرة ، وليعرفوا ويدوقوا واقع ضلال وسمر « ذوقوا مس سقر » ؟ فبقدر ما اجرموا يدوقون مس سقر ، وبقدر ما قدروا الهدى ضلالاً وسعراً ، سوف يكونون في ضلال وسمر - ف :

« انا كل شيء خلقناه بقدر » :

خلق بقدر ، وتقدير بقدر تكوين بقدر وتشريع بقدر ، ثواب بقدر وعقاب بقدر <sup>(١)</sup> في كل شيء : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » ( ١ : ٢٥ ) « وكل شيء عنده بمقدار » ( ١٣ : ٨ ) فخزائن كل شيء عنده كخلق كل شيء منه : « وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » ( ١٥ : ٢١ ) ان كان امراً من الامور

(١) في كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن الحسن بن علي (ع) عن علي (ع) انه سئل عن قول الله عز وجل « ان كل شيء خلقناه بقدر » فقال : يقول عز وجل : انا كل شيء خلقناه لاهل النار بقدر اعمالهم ، اقول : وهذا من التفسير بالمصداق المذكور قبل الآية .

او الاوامر : « وكان امر الله قدراً مقدوراً » ( ٣٣ : ٣٨ ) حق ولو كان ماء من السماء : « وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكنناه في الارض وانا على ذهاب به لقادرون » ( ٢٣ : ١٨ ) ف « انا كل شيء خلقناه بقدر » :

قدر في كل شيء بحساب الله في خلقه وأمره دون قوضى ولا جهالة ، قدر لا يقدر عليه إلا الله ، مهما قدره خلق من الله بما أقدره الله علماً وعرفاناً ، وكما في تقدم العلوم البشرية ظهور قدر من قدر الله حسب القدرة البشرية ، يزيدنا علماً وإيقاناً ان الكون بمجملته صنع يد قديرة عليمه واحدة : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » ؟ .

ثم وقدر الشيء هو الحد الذي لا يتجاوزه أو ينقصه ، من هندسة الكون ، ومن القضاء والقدر ، اللذين لا يتنافيان واختيار الانسان فيما يثاب به أو يعاقب عليه ، فلقد قدر الله للانسان فيما قدر ، أن يكون شيء من أفعاله باختياره ، كما قدر له أن يكون شيء آخر من أفعاله دون اختياره ، والاختيارية من أفعال الانسان وإن كانت - في وجه - من أفعال الله أيضاً ، ولكنه لا يسيره اليها دون اختياره - ف « لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين » لا هو مفوض في أفعاله بمعزل عن الإرادة الإلهية ، ولا هو مجبور فيها بمعزل عن اختياره نفسه ، وإنما له اختيار في هذه الأفعال قليلاً أو كثيراً ، ما يجعله مختاراً ، ولو يجرى من مشات الأجزاء ، أو مقدمة من مشات المقدمات ، فالاختيار بين درجات ودركات ، والتفويض والإجبار كل على سواء دون درجات أو درجات ، ويعرف هؤلاء الذين يعرفون بما لا يعرفون ، ان فعل الله ليس فوضى عشوائية عمياء ، وإنما يقدر وحكمة ، وبعلم ومصلحة ترجع لصالح الخلق والخلق فقط ، فليس الله هو المستفيد ، وإنما هو المفيد في كل فعل وبكل قدر : قدر يحدد حقيقته وصفته ، زمانه ومكانه ، ومن ثم رباط بسائر الكون وتأثيره فيه وتأثره به ، ولواردنا تفصيل القدر حسب ما وصل إليه علم البشر وهو نقطة من البحر ، لكلفنا موسوعة

شاشة واسعة وإليك نموذجاً من عين لك واحدة : إن لها سبع طبقات وثلاث رطوبات ، فواحدة من السبع هي الشبكة ، وهي لا تزيد في سمكها على ورقة ، وفيها وحدها ثلاثة ملايين غروط وثلاثون مليون اسطوانة ، وبهذه كلها يكون النظر فلتنظر بهذه العين والبصر الى الكون الواسع لتعرف القدر وكما تقدر .

« وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » : فما هو أمر الله هنا وما هو لمح البصر ؟ هل هو أمر التشريع ؟ وليس واحداً بل هو أوامر في تشاريع : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر .. » ( ٤٥ : ١٨ ) ثم ولا صلة له بلمح البصر ! أم هو أمر التكوين والتقدير ؟ فكذلك الأمر ! : « تنزل الملائكة والروح فيها بأذن ربهم من كل أمر » من الأمور والأوامر « بل الله الأمر جميعاً » ( ١٣ : ٣١ ) وليس الواحد جميعاً ! أو هو أمر الساعة : « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » ( ١٦ : ٧٧ ) ؟ قد يكون ، كما وتجاوبه « واحدة » إذ ليست صفة لأمر ، وإنما لموصوف ك : إرادة - أو كلمة تعنيها : إنها أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، ( ٣٦ : ٨٢ ) فهي كلمة كن - التكوينية .

أو أن « أمرنا » هنا تشمل الإرادات الإلهية كلها على سبيل البدل وهو أجمع : وما أمرنا في التكوين والتقدير إلا " واحدة كلمح بالبصر ، واحدة حقيقية غير مركبة من معدات مقدمات ، ولا في حالة التكوين ، ودون حاجة إلى زمان أو مكان أو أعوان ولا أمر آخر أيتاً كان ، وإنها كلمة « كن » وليست لفظية ، وإنها تكوينية يعبر عنها بها تقريباً لأذهاننا .

كما وأن لمح البصر لا يعني زمناً قدره ، وإن كان قصيراً ، وإنها يلمح بأقصر القصر كما كان يعرفه البشر ، وكما تدل عليه « أو هو أقرب » : بل هو أقرب ، قريباً لا يعرفه البشر ، لأنه مجرد عن الزمان ، قاله هو خالق الزمان والمكان ، فكيف يحتاج في أمره الى مكان أو زمان ، وإنها لمح البصر أو أقرب منه لمح إلى

سرعة النفاذ لأمره فيما يريد دون تربص ولا تريث .  
فبواحدة من هذه الوحدات تكون الساعة ، كما تكون كل كائنة من  
الكائنات صغيرة أو كبيرة . بل لا صغيرة في أمر الله ولا كبيرة ، ولا قليلة ولا  
كثيرة ، وإنما واحدة كلّمح بالبصر أو هو أقرب ! .

« ولقد اهلكنا أشياعكم فهل من مدكر » :

الأشياء هم الأتباع في العقيدة والعمل ، أو الأحزاب فيها بتجريدتها عن  
التبعية كما هنا ، فكيف بإمكان الغابر اتباع الحاضر ولما يأت ، اللهم إلا مشاكلة  
في السيرة ، ومن ثم فقد يكون الأشياع والمشييع بهم على سواء ، أو أقوى منهم-  
في خير : « وان من شيعته لإبراهيم » ( ٣٧ : ٨٣ ) فإنه أعظم من نوح ، أو في  
شر كما هنا ، فإن قوم نوح كانوا اظلم وأظلمى وقد حشروا بسائر الطفافة في  
« أشياعكم » وكما علته في « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم  
من قبل » ( ٣٤ : ٥٤ ) فلا يشترط في الأشياع التبعية في السيرة ، ولا لحقوق  
الزمن أو حضوره .

ثم ولا يعنى هلاكهم إستهلاك أقوالهم وأفعالهم لكسي يخلصوا من عذاب  
الساعة التي هي أدهى وأمر ، فانها مزبرة مستطرة :

« وكل شيء يفعلوه في الزبر . وكل صغير وكبير مستطر »

كل فعل لهم يحتاجه أو جارحة ، بلسان أو سائر الأعضاء العاملة ، كل ذلك  
ثابتة مسجلة في الزبر : زبر الجوارح نفسها ، وزبر الأرض بفضائها ، وزبر الكرام  
الكاتبين ، في مسجلات صوتية وصورية وكما يصلح أن تكون شاهدة عليهم بما  
عملوا دون أن يقدرُوا على نكران .

لا فحسب الكبيرة من الأفعال ، فكل صغير وكبير مستطر بما سطره الله  
إستنساخاً عما عملتم « .. إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » ( ٤٥ : ٢٩ ) .

فهاتان الآيتان من آيات انعكاس الأعمال المنتشرة في سور القرآن بعشرات ، فصلناها في طياتها فراجع <sup>(١)</sup> .

« إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر »

انهم في جنات حسية ونهر ، وأخرى روحية وهي أكبر : « ورضوان من الله أكبر » .. ولقد عرفنا « جنات » : أشجار وبنائات تجنهم عن الشمس وما يؤذي ، فما هي ( نهر ) ؟ هل إنها نهر الماء ؟ وفي الجنات أنهار كما في سائر الآيات لا ( نهر ) : ( جنات تجري من تحتها الأنهار ) <sup>(٢)</sup> ! وانهم ليسوا هناك في نهر ، وإنما على نهر أو أنهار ، ينتضرون بها ويستقون منها ويفوضون فيها !

علّ ( نهر ) هنا - هي السعة من فيض الله الفائض على أهل الجنة ، وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ : ( النهر الفضاء والسعة وليس بنهر جار ) <sup>(٣)</sup> كما وتجابوه اللغة <sup>(٤)</sup> فهم - إذا - في جنات ، وفي سعة من كافة الحاجيات المتطلبات ومنها أنهاراً ، فهي أيضاً من نهر ، إذ لا حياة فائضة بلا أنهار ، فما الطفله - دون تكلف - أن يراد به ( نهر ) ما يشمل الأنهار وفي مثلث التجاوب كتاباً وسنة ولغة !

- (١) منها سورة الزلزال والقارعة في ج ٣٠ وسوف نوافيكم بالباقي في سائر الآيات .
- (٢) قد جاءت « الأنهار » مع الجنات في ٤٧ موضعاً من القرآن ، ولم يأت « نهر » الجنات القيامة إلا هنا ، ولما في الدنيا إلا مرقين « وفجرنا خلاهما نهراً » ( ١٨ : ٣٣ ) « أن الله مبتليكم بنهر » ( ٢ : ٢٤٩ ) يعني بها نهر واحد ، وليس نهر الجنات الآخوية واحداً إلا في آيتنا هذه ، فهل أن هذه اليتيمة قبال ٤٧ الأنهار - تعني الأنهار رغم وحدة الصيغة ؟
- (٣) الدر المنثور ٦ : ١٣٩ - أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) :
- (٤) في لسان العرب : النهر والنهر واحد الأنهار والجمع أنهار ونهر ونهور والنهر كل كثير الجري وانهرت الدم أسلته ، ونهر في قوله تعالى : إن المتقين في جنات ونهر قد يجوز أن يعني به السعة والضياء ، وفي غريب القرآن : والنهر السعة تشبيهاً بنهر الماء ، وفي الشعر : ملكت بها فانهرت فتقمها يرى قائم من دونها ما وراءها



ثم ترى ما هو مقعد صدق ومن هو ملك مقتدر ؟ .. إنه قعود صدق ، وقاعدة صدق ، مكان صدق ومكانة صدق ، و ( مقعد ) توحى بالدوام واللبث ، ومن لطيف ما فيها ان ( ق ع د ) بكل تقاليبها تدل على الدوام والبقاء <sup>(١)</sup> ، دون ( مجلس ) ثم ولا تعني القعود قبال القيام والحراك ، وإنما المقام والمسكن المريح .

ثم إذا كان ( ملك مقتدر ) هو الله وهو الله ، فالمقعد هو المكانة الصادقة الدائبة ، ف ( عند ) لا تعني قرب المكان إذ ليس له مكان ، وإنما المكانة والزلفى ، وكما للأخصيين من الصالحين : ( لهم دار السلام عند ربهم ) ( ٦ : ١٢٧ ) ( إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته .. ) ( ٧ : ٢٠٦ ) .

وإذا كان الملك هو أقرب عباد الله محمد ﷺ - كما عليه يراد ضمن المراد - فالمقعد هو المكان <sup>(٢)</sup> ولا غرو في الجمع بين الملك الإلهي والبشري إذ تتحملها ( ملك مقتدر ) وان كان ابن ملك من ملك ! وفي هذا الجمع الجميل فالتقوى في مقعد صدق : مكاناً ومكانة ، عند ملك مقتدر - ف ( التقوى جماع كل عبادة صالحة ، وبه وصل من وصل إلى الدرجات العلى ، وبه عاش من عاش بالحياة الطيبة والانس الدائم ) <sup>(٣)</sup> فليعيش أطيب الحياة وأدومها عند ملك مقتدر .

(١) ف : قعد - قدع بمعنى ، و : عقد وعقد بمعنى المكث ، ودقع ودعق كذلك - فومقعد صدق « توحى بكل تقاليبها بدوام المكوث ! »

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٣٩ - اخرج أبو نعيم عن جابر قال : بينما رسول الله (ص) يوماً في مسجد المدينة فذكر بعض أصحابه الجنة فقال النبي (ص) يا أبا دجاجة أما علمت ان من أحبنا وابتلى بمحبتنا أسكنه الله تعالى معنا ثم تلا : في مقعد صدق عند ملك مقتدر .

أقول هذا الحديث ذو وجهين ، فقد يعني به « معنا » نفس « مقعد صدق » لأنه الصادق الاول في هذا المقعد - وقد يعني « ملك مقتدر » .

(٣) مصباح الشريعة عن الامام الصادق (ع) في تفسير المتقين في هذه الآية .

ولكى نعرف أن التقوى تقوى أن توصل بالإنسان إلى حفرة القرب ، حيث يعاشر المتقي ( الذين عند ربك ) فعنده مقامه وهو انهم وكما عاشوه مدى الحياة ، تاركين الرغبات دون حبه وتقواه ، معرضين عن طغواه إلى تقواه .

أجل - وأن أفضل المتقين من إذا طالبه الخلق في الدنيا ولها لم يجدوه ، ولو طالبه مالك في النار لم يجده ، ولو طالبه رضوان في الجنة ملتئماً بها لم يجده ، وإنما يجده الله عنده ويجد الله عنده : ( إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر ) فكونهم في جنات ونهر لا يلهمهم عن كونهم عند مليك مقتدر .



\*\*\*

## الفهرست

| الموضوع                                                                | الصفحة    |
|------------------------------------------------------------------------|-----------|
| « سورة الأحقاف » :                                                     |           |
| حول الحواميم السبع - كتاب أو أثارة من علم - غفلة الأصنام               |           |
| يوم الدنيا ، وكفرها بعبادتها يوم الدين .                               | ٧ - ١٤    |
| كيف الله شهيد بين الرسول وبين الناس ؟ - مدى علم الرسول -               |           |
| شاهد من بني إسرائيل .                                                  | ١٥ - ٢٠   |
| كتاب موسى إماماً ورحمة ؟ - الإستقامة في : ربنا الله - الإحسان          |           |
| بالوالدين - بلوغ الأشد .                                               | ٢٣ - ٣٥   |
| هم درجات مما عملوا - ما هي الأحقاف ؟ - كيف صرفت الجن الى               |           |
| الرسول ﷺ ؟ - أولوا العزم من الرسل ؟ .                                  | ٤٣ - ٧٣   |
| « سورة محمد » : ضربت الرقاب ثم شد الوثاق - كيف يُنصر                   |           |
| الله ؟ - القرى الأشد من مكة .                                          | ٨١ - ١٠٠  |
| أشراط الساعة - كيف يستغفر الرسول لذنبه ؟ وما هو ذنبه ؟                 |           |
| وما هو المتقلب والمثوى ؟ .                                             | ١٠٨ - ١١٦ |
| إفساد الولاة - كيف يُتدبر في القرآن ؟ - آية برزخية - كيف               |           |
| يُعرف المنافقون ؟ «حتى نعلم المجاهدين» هو من علم - لا - علم !          | ١١٩ - ١٣٠ |
| مخالفة الرسول تبطل الأعمال كمخالفة الله ! « أنتم الأعلون ولن           |           |
| يتركم أعمالكم » ؟ قوم غير الأعراب يُستبدلون بهم وليسوا أمثالهم !       | ١٣٢ - ١٤٠ |
| « سورة الفتح » :                                                       |           |
| ما هو الفتح المبين ؟ وما هو ذنب الرسول المغفور به ؟ دعائم الفتح الأربع | ١٤٢ - ١٥٨ |
| ما هي السكينة وعلى من تنزل ؟ تكفير السيئات .                           | ١٥٨ - ١٦٦ |
| شاهد ومبشر ونذير - ما هو التعزير والتوقيير ؟                           | ١٦٦ - ١٦٨ |

| الموضوع                                                                                                                                                   | الصفحة  |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---------|
| كيان المبايعة تحت الشجرة - ما هي يد الله فوق أيديهم ؟                                                                                                     | ١٦٨-١٧٢ |
| المخلصون من الأعراب - ظن السوء - يريدون أن يبدلوا كلام الله ؟                                                                                             | ١٧٤-١٨٢ |
| قوم أولي بأس شديد - الحرج المنفي عن الأعمى والأعرج والمريض                                                                                                | ١٨٢-١٨٧ |
| مبايعة تحت الشجرة ، فالسكينة ، ففتح قريب ؟ - مغنم مقدورة وغير مقدورة .                                                                                    | ١٨٩-١٩٤ |
| الكفار - دوماً - يولتوكم الأدبار كسنة إلهية ثابتة - كف أيديكم عنهم ببطن مكة بعد الظفر وهم الذين كفروا وصدوكم .. !                                         |         |
| « ولو تزيّلوا لعذبنا .. »                                                                                                                                 | ١٩٤-٢٠١ |
| حمية الجاهلية - سكينه الإيمان - رؤيا الدخول في المسجد الحرام والفتح القريب - إظهار الرسول على الدين كله - محمد والذين معه في تصريحات توراثية وإنجيلية .   | ٢٠١-٢١٧ |
| « سورة الحجرات » - تحقيق كتاب توير علوم إسلامي                                                                                                            |         |
| التقديم بين يدي الله ورسوله ؟ - رفع الأصوات فوق صوت النبي - وجوب التبشّر عن خبر الفاسق - وجوب الإصلاح بين المسلمين المقتتلين - الاخوة الايمانية بحدودها . | ٢٢٠-٢٤٠ |
| لا يسخر قوم من قوم .. - ولا تلمزوا أنفسكم - ولا تنابزوا بالألقاب - إجتنبوا كثيراً من الظن - ولا تجسسوا - ولا يغتب بعضكم بعضاً .                           | ٢٤٣-٢٥٣ |
| خلقنا من ذكر وأنثى ، أم ذكر وأنثى ؟ - الشعوب والقبائل المتعارفة - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - إسلام الأعراب ولما يؤمنوا                                   | ٢٥٤-٢٦١ |
| « سورة ق » :                                                                                                                                              |         |
| ما هي « ق » ؟ كيف تنقص الأرض منهم وما هو « كتاب حفيظ » ؟ -                                                                                                |         |

| الموضوع                                                                                                                                                                                                                                                               | الصفحة  |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|---------|
| أمر مريج - بناء السماء وما لها من فروج ! - مدّ الأرض وإلقاء<br>الرواسي فيها - الماء المبارك النازل من السماء ... كذلك الخروج !                                                                                                                                        | ٢٧٥-٢٦٦ |
| أقوام ثمان من أنحس المكذبين - « بل هم في لبس من خلق جديد » !                                                                                                                                                                                                          | ٢٧٩-٢٧٦ |
| « نحن أقرب إليه من حبل الوريد » - المتلقيان هما رقيب عتيد ،<br>لا : رقيب وعتيد - سائق وشهيد - فبصرك اليوم حديد !                                                                                                                                                      | ٢٨٨-٢٧٩ |
| حُبك السماء - قول مختلف يؤفك عنه من أفك - آيات الأرض والأنفس                                                                                                                                                                                                          | ٣٢٣-٣٠٨ |
| حديث ضيف ابراهيم - حجارة من طين مسومة - ريح عاد العقيم<br>توسعة السماء - فرش الأرض - اعنق الأدلة على وجود الله : ومن كل<br>شيء خلقتنا زوجين .. وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون                                                                                       | ٣٤٥-٣٣٥ |
| «سورة الطور» والطور... والبيت المعمور... والبحر المسجور                                                                                                                                                                                                               | ٣٥٥-٣٥٢ |
| كيف تلحق ذرية المؤمنين بهم وقيم ؟<br>« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون .. » : من أقوى الأدلة<br>على وجود الله - « أم لهم سلم يستمعون فيه » فيه إشارة صريحة<br>الى سلايم الاذاعة .                                                                                  | ٣٦٧-٣٥٩ |
| «سورة النجم» : ما هو النجم إذا هوى ؟ من هو شديد القوى ؟<br>ما هو الأفق الأعلى ؟ وما هو الدنو والتدلي ؟ وما هو ما أوحى ؟<br>ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى<br>أسئلة مطروحة حول الرحلة المعراجية ومركبتها العجيبة -<br>القرآن وتسخير الفضاء<br>كلام في العلم والظن | ٣٨٠-٣٧٦ |
| كباتر الاثم والفواحش واللهم - فلا تزكوا أنفسكم ..<br>ألا تزوروا وزر أخرى ، وان ليس للانسان إلا ما سعى -<br>حوار حول آيتي الوزر والسعي ، جولة أخرى فيهما .                                                                                                             | ٤٠٥-٣٨٨ |
|                                                                                                                                                                                                                                                                       | ٤١٣-٤٠٦ |
|                                                                                                                                                                                                                                                                       | ٤٣١-٤١٤ |
|                                                                                                                                                                                                                                                                       | ٤٣٦-٤٣٢ |
|                                                                                                                                                                                                                                                                       | ٤٤٩-٤٤٠ |
|                                                                                                                                                                                                                                                                       | ٤٥٧-٤٥٠ |

| الموضوع                                                                  | الصفحة  |
|--------------------------------------------------------------------------|---------|
| وانه هو أغنى وأقنى ، وانه هو رب الشعري ، ازفت الآزفة<br>« سورة القمر » : | ٤٦٠-٤٦٤ |
| كيف اقتربت الساعة بانشقاق القمر ؟ انشقاق القمر آيتان                     | ٤٦٨-٤٧٦ |
| ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر .. معجزة سفينة نوح                        | ٤٨٥-٤٨٩ |
| ناقة صالح .. سيهزم الجمع ويولون الدبر                                    | ٤٩٢-٥٠٠ |
| انا كل شيء خلقناه بقدر . وما امرنا إلا واحدة كلمح بالبصر                 | ٥٠١-٥٠٤ |



مركز تحقيق كتابي علوم اسلامی

## فهرس الخطأ والصواب

| الصفحة | السطر | الخطأ            | الصواب          |
|--------|-------|------------------|-----------------|
| ٢٠     | ١٠    | كنت              | كنتم            |
| ١١     | ٢     | لهم من           | لهم نبياً من    |
| ٣٧     | ٤     | اوزعني           | اوزعني          |
| ٧٢     | ١٠    | من يوم لقاء الله | من انبياء الله  |
| ٧٥     | ١     | انبياء الله      | يوم لقاء الله   |
| ٧٨     | ٩     | فليصبر           | فليصبر          |
| ٩٢     | ١٥    | فتحه             | فتحه الله       |
| ١٥٢    | ١     | البنين           | النبين          |
| ١٥٩    | ١٥    | فانزل الله - »   | فانزل الله - ثم |
| ٢١٠    | ٤     | بيناً            | مبيناً          |
| ٢١٦    | ٨     | على الدين        | على الدين كله   |
| ٢٢٢    | ٢٠    | ليس              | ما ليس          |
| ٢٢٣    | ١٣    | متعال            | مقال            |
| ٢٢٤    | ٢١    | حيياً            | حيياً           |
| ٢٥١    | ٤     | تخلق             | تخلق            |
| ٢٥٢    | ١٦    | المستهزئين       | المستهزئين      |
| ٢٧٤    | ٢١    | ربك              | ربك كدحاً       |
| ٢٨٨    | ١٩    | كشف على          | كشف من          |
| ٢٨٨    | ٢٣    | فمقيد            | فمقيد           |
| ٣٠٩    | ١٤    | الذي             | الذي (٢)        |
| ٣١٠    | ١١    | يقول عن          | يصدق            |
| ٣٥٨    | ٢١    | قد عمله          | قدر عمله        |
| ٣٦٣    | ١٨    | يستحقونها        | لا يستحقونها    |
| ٣٦٤    | ٧     | بيضوا            | قرروا           |
| ٣٦٦    | ١٥    | واستغاله         | واستغلاله       |
| ٣٧٦    | ١٩    | من لا شيء        | لا من شيء       |
| ٣٧٨    | ١٦    | قسمنا            | قسمنا بينهم     |
| ٣٧٩    | ٢١    | وعليهم           | وليهم           |

# AL FORQAN

FI

TAFSEER AL-KORA'AN

BY

Dr. MOHAMMAD AL-SADEQI

PUBLISHED BY

*Al Islami Library*

BEIRUT - LEBANON  
P.O. BOX 7120